سردم العربي

فصلية تعنى بالتواصل الثقافي الكردي- العربي
تصدر عن دار سردم للطباعة والنشر
السنة الأولى- العدد الأول- صيف 2003

المراسلات:
تلفاكس: 00447043129839
ايميل: info@www.sardam.net
موقع دار سردم على الأنترنيت: www.sardam.net

ثمن النسخة: (2) دولار اميريكي او مايعادلها

دراسات ومقالات

بحوث تأريخية

شعر

قصة

نقد

دار سردم للطباعة والنشر



www.sardam.net

نحو التواصل الثقافي الكردي - العربي في زمن ما بعد الأنفال

(1)

في التاسع من نيسان الماضي, سقط صنم صدام حسين في بغداد.. و لم يكن ذلك الحدث عابراً أو عادياً, بل كان بمثابة زلزال هزّ المشهد السياسي و الإعلامي في المنطقة و العالم اجمع, و دفع بالعديد من المراقبين الى التنبؤ بحدوث تغييرات لاحقة, ستكون جذرية و دراماتيكية, و العراق يكون مركزها بطبيعة الحال. و قد علّمَنا درس التاريخ, و خصوصاً في جانبه الظاهراتي, ان ما يحدث على الأرض سيؤثر في ما يتجلى في العقل, بقدر ما يتأثر به. على هذا, رأينا ان تكون العلاقة بين ما نعيشه على أرض الواقع و ما نتصوره في عقولنا, علاقة جدلية؛ و الا فإن هوة ستظهر بين بنية الواقع المتجسدة في المكان و بنية الخطاب المتجسدة في الزمان أو التاريخ, و ان ردم تلك الهوة سيكون على حساب إحدى البنيتين, و النتيجة ستكون كارثية كما حدث في الماضي. اذن, لانغالي لو قلنا بأن فهم ما حدث في التاسع من نيسان الماضي, أهم من الحدث نفسه. و أن قراءة أبعاد سقوط صنم صدام في ساحة الفردوس, تتطلب استنطاق الحدث تاريخياً و فكرياً و حضارياً و تحويل اهميته المادية و الكمية الى منظومة من القيم المعنوية و النوعية, مما يستدعي البحث عن أطياف اصنام اخرى سقطت بسقوط صنم صدام, و لربما لم تسقط بعد. نقول (أطياف أصنام) لأنها ليست أصناماً مادية أو سياسية واضحة المعالم, بل اصنام ثقافية و رمزية و آيديولوجية اتخذت طابعاً هيولانياً, نفذت الى العقول ومازالت, و مهدت الأرضية لإقامة ذلك الصنم في ساحة الفردوس. و ان معاينة تلك الأصنام الثقافية, و تحديد بناها و هياكلها الرمزية, و نقدها, و تفكيك خطاباتها.. اصعب بكثير من

معاينة صنم الدكتاتور الذي مثل و بشكل واضح امام مرأى العراقيين لأكثر من ثلاثة عقود. لأن تلك الأصنام الطيفية تمركزت في العقول, و السطور, و الثقافات قبل العقود الثلاثة الأخيرة, بعقود و ربما بقرون. و أن تشخيصها, من الناحية الثقافية و الفكرية, يتطلب مشواراً طويلاً و شاقاً, و المضيَ بخطى حثيثة و مسؤولة تكون في مستوى هذه المرحلة الهامة, بكل تداعياتها و خطورتها.

(2)

إن ما حدث في ذلك اليوم, يوسع آفاق الإمكانات و الفرص بقدر ما يؤذن بإشكالات و تحديات تستدعي التحضير لها بجدية و روية؛ لأن ما حدث لم يوجد شرخاً في الجانب المادي و السياسي المباشر للقضية العراقية, بقدر ما اوجد شرخاً في منظومة المعاني و الرموز التي طالما اغرقت الثقافة العراقية و العربية بشكل عام في جعجعة من الخطابات التوهيمية القائمة على خلط الأوراق, و لفت الإنتباه نحو اعداء وهميين, و سيناريوهات قام بإعدادها ساردو نظرية المؤامرة. من هنا لا عجب ان رأينا العديد من الرموز الثقافية العربية و هي تقف في مواجهة الحدث العراقي, سلبياً, رغم ميولها و اتجاهاتها المتعارضة, من اصحاب الخطابات التقليدية الى اصحاب الخطابات الحداثوية, و من دعاة المشاريع الأصولية الى دعاة المشاريع العلمانية, و من منظري الآيديولوجيات القومية الى منظري الايديولوجيات الاشتراكية. و رأينا كيف شُنت, و لاتزال, الحملات ضد مشاريع التغيير في العراق و ضد طموحات الحالمين بعراق خال من الدكتاتورية و ثقافتها, تارةً باسم حماية الهوية الدينية و تارةً باسم حماية الهوية القومية, طوراً باسم الأصالة و الماضي و طوراً باسم الحرية و المستقبل. لكن جميع هذه الخطابات المختلفة من حيث اللفظ و المؤتلفة من حيث المعنى, اظهرت مدى مرضية هذه الثقافة الموغلة في الازدواجية الأخلاقية و الشيزوفرينيا الفكرية, و التي تعاني منذ عقود و قرون اثر مرض عقلي/ اخلاقي عضال, سماه اللغويون بإشكالية اللفظ و المعنى, و سماه فلاسفة اليونان قبل الفي سنة بالسفسطة, و صوره احد الفلاسفة الأخلاقيين في القرن العشرين بالحالة التي يحدث فيها انشطار بين المظهر و الجوهر, و وصفها مفكر معاصر بمعضلة الحجب اللغوي, أي تلك الحالة التي تقوم فيها اللغة بحجب الحقائق بدل ان تقوم بإضاءتها.

(3)

في مقابل هذا الخطاب الذي ينتج اللفظ الفارغ من المعنى, هناك خطاب ينتج الصمت المشحون بالمعنى.. و يدخل كلاهما في تحالف قائم على الإظهار و الإخفاء: اظهار ما هو ظاهر بالفعل, و إخفاء ما

يحتاج الى الاظهار و الإضاءة؛ و لعل تناول القضية الكردية, في الساحتين الفكرية و الإعلامية العربيتين, و كيفية التعاطي مع أبعادها الخطيرة على الأصعدة السياسية و الفكرية و الإنسانية البحتة, خير دليل على مدى فاشية ذلك التحالف بين الملفوظ و المسكوت عنه في الثقافة و الفكر العربيين؛ فعدى الجعجعة المنطوقة التي انتجتها ماكنة اللفظ في الثقافة العربية لتشويه القضية الكردية, و حتى الإنسان الكردي, و تصويره في صورة الباغي او الخائن او الخنجر المزروع في الخاصرة, و غيرها من الألفاظ التي تزخر بها ثقافة اللفظ و الجرس؛ رأينا كيف دخلت ماكنة انتاج الصمت في تحالف مع ماكنة انتاج اللفظ, و كيف قامت الاولى بالتستر على ما تحجبه الثانية؟! فإذا كانت مأساة حلبجة, و استخدام الاسلحة الكيمياوية ضد ساكنيها المدنيين, قد جرى تناولها من قبل ماكنة اللفظ بالتشويه المتعمد من خلال اظهار الضحية في صورة الجلاد, و الجلاد في صورة الضحية. فإن فاجعة الأنفال التي راح ضحيتها مئة و اثنان و ثمانون الف مواطن كردي عزل, تم قتلهم جماعياً و دفنهم في مقابر صحراوية, قد قابلته ماكنة الحجب بصمتٍ رهيب, لعله كان اكثر خطورة من الجعجعة اللفظية التي حاولت تشويه فاجعة حلبجة!.. لكننا, و مع ذلك, لا نكون منصفين لو لم نعترف بأن الثقافة الكردية ذاتها, مصابة هي الأخرى بذات الداء, و أن الخطاب الكردي ايضاً جزء من الخطاب الشرقي العاجز عن معاينة الإختلاف و بناء الجسور الثقافية بين اصحاب الرؤى المغايرة. و لا نكون منصفين ايضاً لو لم نعترف بعمق و إنسانية الجانب المضيء من الثقافة العربية, التي تمثلها اقلام تقوم بتفكيك و نقد الواقع الثقافي العربي بشكل تدفع بالثقافة الكردية ايضاً الى مراجعة ذاتها و تشخيص نقاط الضعف في خطابها, بشكل يخدم الثقافتين و الخطابين معاً نحو بناء مستقبل شفاف يسمي الأشياء بأسمائها.

(4)

إن ما كان يحز في النفوس هو التستر على جرائم نظام صدام من قبل الغالبية العظمى من متابعي الشأن العراقي و لزوم الصمت إزاءها. بل الأنكى من ذلك هو تورط بعض المثقفين و الكتاب و الفنانين و انجرافهم مع سياسات النظام اللاإنسانية؛ و الدفاع عنها علانية؛ بعيداً عن الالتزام الأخلاقي بالرسالة التي من المفروض ان يحملها كل خطاب ثقافي و إبداعي معه.

و لكن بعد انقشاع الغيوم و افول الأصنام؛ يمكننا القول إننا امام زمن جديد و حقبة جديدة, زمن على كل مثقف و كاتب أن يساهم في بنائه من جديد؛ منطلقاً من قيم الإخاء و التسامح و حب الحياة و الإنسانية, و كل القيم النبيلة التي شوهها النظام البعثي في نفوس العراقيين, بغية إرساء

اسس سليمة لثقافة سليمة, غير قمعية, غير مشوهة, ثقافة من اجل الحياة لا الحروب, ثقافة من اجل الانسان لا الايديولوجيات, ثقافة تحرر إنسان وادي الرافدين من كوابيس النظام البطريركي, لكي يحتضن الحياة من جديد بروح حرة غير مستعبدة.

و في هذا الزمن, زمن ما بعد صدام, و زمن ما بعد الأنفال, و ما أحوجنا نحن الكرد و العرب الى استئناف الحوار من جديد, بهدف التواصل و التفاهم و مد الجسور بين ثقافتينا منطلقين من إيماننا بالحوار و الانفتاح الثقافي و الحضاري.

(5)

إننا و إذ ندعو الى حوار صادق بين المثقفين الكرد و العرب و أصحاب الرؤى المختلفة في زمن ما بعد الأصنام الايديولوجية و الثقافية, نؤمن بأن الحوار بين العرب و الكرد و مثقفيهم بشكل خاص, لا يمكن ان يتم دون الإعتراف المسبق بحق الإختلاف كحق طبيعي يولد بولادة الإنسان. و ان الإتفاق بين العرب و الكرد و شراكتهم في بناء العراق المنشود لا يلغي حقيقة الاختلاف بين القوميتين, لأن الإتفاق الحقيقي يولد من الاختلاف. و ان المعنى الحرفي للفيدرالية التي اختارها الشعب الكردستاني, من خلال برلمانه الشرعي المنتخب, صيغةً للتعايش بين شعب كردستان و الشعب العربي في العراق.. هو (الاتحاد). و هناك فرق بين مفهومي الوحدة و الاتحاد, مفهوم الوحدة الذي رفعه الوحدويون العرب قائم على التوحيد, فصيغة التوحيد المشتقة من فعل (وحَد) يحتاج الى فاعل و مفعول, أي جهة عالية و جهة دانية, و هذا ما نرفضه. أما في صيغة الاتحاد المشتقة من فعل (إتحَد) فالجميع فاعلون, و العلاقة بين الفاعلين هي علاقة الطرف مع الطرف و ليس علاقة الطرف مع المركز او علاقة العالي مع الداني. لذلك نؤمن بضرورة التعامل مع الشعب الكردي باعتباره طرفاً و شريكاً في العراق, و ان الشراكة لاتتم الا بإقرار جميع الحقوق للطرف المقابل, بما فيها حق نقض الشراكة إذا تراجع أحد الأطراف من التزاماته التي تقوم عليها الشراكة. و أن تجربة الشعبين الكردي و العربي في صيغ علاقاتهم مع البعض خلال العقود الماضية في العراق اثبتت أن الوحدة الاجبارية و الإلحاقية لا تؤدي الا الى مزيد من الانقسام و الانشطار؛ اما الإتحاد الاختياري فهو الصيغة المثلى للتعايش, و ان هذا الاتحاد الإختياري لا يتم الا بعد ارجاع الحقوق لأصحابها, و ازالة جميع الآثار التي خلفها نظام صدام حسين في كردستان من تعريب و تبعيث و تشويه للواقع الجغرافي و الديموغرافي و ترحيل للعوائل الكردية و خصوصاً في مناطق كركوك و خانقين و بعض مناطق الموصل و تعويض جميع

المتضررين الأحياء و ذوي المتضررين الأموات الذين راحوا ضحايا لتلك الممارسات الشوفينية التي تخل بقيم الشراكة و التعايش السلمي بين القوميات. ان الشعب الكردي الذي ذاق الأمرّين على يد البعثيين الشوفينيين طوال تاريخه المعاصر, و ارتكبت بحقه جرائم بشعة كقصف ابنائه بالأسلحة الكيمياوية و ابادة عشرات الآلاف منهم في حملات الأنفال للتطهير العرقي, و الذي تمكن بفضل انتفاضته المباركة في عام 1991 و الحماية الدولية بعد هجرته المليونية الى المناطق الحدودية من تحرير جانب كبير من ارض كردستان و تشكيل برلمانه و حكومته الاقليمية و التمتع باستقلالية تامة عن بقية مناطق العراق, لم يزل يختار التعايش مع الشعب العربي في العراق رغم حقه المشروع في الاستقلال و بناء دولته كبقية شعوب المعمورة.. ذلك ايماناً منه بأن الشعب العربي لم يكن مسؤولاً عن تلك الجرائم بقدر ما كان النظام الفاشي مسؤولاً عنها. عليه فإن على الشعب العربي ايضاً, و مثقفيهم على وجه الخصوص, الإقرار بجميع الحقوق القومية للشعب الكردي, سبيلاً نحو التعايش الحقيقي الذي ننشده. هذا ما ننتظره من المثقفين العرب, خاصة ان هناك اسماء في الثقافة العربية سطعت في جبهة الدفاع عن الشعب الكردي و الدفاع عن الخصوصية اينما وجدت, من امثال: محمد مهدي الجواهري, عبد الوهاب البياتي, سعدي يوسف, غسان سلامة, هادي العلوي, كنعان مكية, كاظم السماوي, معين بسيسو, علي حرب, شوقي بزيع و نصر حامد ابو زيد.. و غيرهم ممن انصفوا بحق قضية شعب كردستان و قضية الإنسان و الحياة بشكل عام بعيداً عن النعرات الشوفينية و القومية الضيقة و بعيداً عن توهيمات نظرية المؤامرة التي راح الشعب الكردي ضحيتها قبل الآخرين.

(6)

من هنا, و لهذه الأسباب مجتمعة, جاءت ضرورة بناء هذا الجسر, لا للتواصل الفيزيائي بين المختلفين من البشر, بل للتواصل الذهني بين الأفكار و الرموز و العقول التي تشكل البناء التحتي لواقعنا المعاش, المرير. لأن نواة المشاكل و التراجعات الخطيرة التي يعاني منها العرب و الكرد في علاقاتهم, و حتى العرب و العرب أو الكرد و الكرد فيما بينهم, و التي تصب بشكل عام في مشكلة علاقة الإنسان بالإنسان, تكمن في مدى خطورة تصورنا لما حدث و يحدث قبل ان تكمن في الحدث ذاته, و لعل ما نفكر فيه اخطر مما نعيشه.. لذلك فإن معاينة الأفكار, و تشخيص بناها, و تفكيك خطاباتها, و نقدها بعيداً عن الانحياز الايديولوجي أو العرقي أو الديني أو الطائفي.. هي وحدها كفيلة بظهور ذلك الجسر الثقافي, الذي تأمل هذه المجلة ان تقوم ببنائه بمشاركة الجميع دون استثناء

و قد رأينا ان نختار لغة الثقافة العربية, لما تحويها من عناصر التواصل الحضاري و الفكري, و تنوع اصطلاحي, و التي قام بإثراء بنائها شعوب المنطقة من العرب و الكرد و الفرس و الترك و الأمازيغ و غيرهم منذ مئات السنين.. وسيلة, و مادة خامة لبناء ذلك الجسر في عراق ما بعد سقوط الصنم, و خصوصاً في بغداد التي كانت عاصمة للتواصل الحضاري بين الشعوب المختلفة قبل ان تسقط على يد المغول سنة 1258م. اذن فإن سقوط صنم الدكتاتور في التاسع من نيسان الماضي, كان بداية لتجاوز مرحلة سقوط بغداد الذي دام لأكثر من ثمانية قرون, و لا نغالي اذا قلنا بأن ما سقط في عصر ذلك اليوم لم يكن تمثال صدام حسين بقدر ماكان تمثال هولاكو, لأن كليهما حوّل بغداد من التواصل بين الشعوب, او الشعوبية كما يحلو لبعض الشوفينيين تسميتها.. الى بغداد التقوقع و الانعزال القومي و الطائفي. و بسقوط ذلك الصنم استعادت بغداد مجدها لتبدأ مرحلة جديدة من التواصل بين الشعوب و الثقافات و الأديان و المذاهب التي لم تجد ارضية مناسبة من قبل للحوار و التواصل. لذلك فإن اول ما ترمي اليه هذه المجلة هو توثيق أواصر ذلك الحوار, الذي يتطلب اول ما يتطلب الغاء العنف في حياتنا, سواء أكان عنفاً سياسياً أو اجتماعيا أو ثقافياً, عرقياً أو طائفياً أو دينياً.. و إلغاء الاستعلاء الثقافي الذي قد طغى على ساحتنا الفكرية, من خلال دمقرطة الخطاب الثقافي قبل دمقرطة الخطاب السياسي, و كذلك من خلال دمج الثقافة الناطقة بالعربية بالثقافة الانسانية بشكل عام بعيداً عن التقوقع و توهيمات حراس الهويات, سواء أكان من الجانب العربي أو من الجانب الكردي.. و هذا ما تأمله و تنشده هيئة تحرير مجلة (سردم العربي), لتكون اللسان العربي لحال الثقافة الكردية بقدر ما تأمل ان تستنطق الضمير العربي الحي, ليفصح هو الآخر ثقافياً و فكرياً و إبداعياً, و في هذا المنبر و غيرها من المنابر, عما نتفق عليه و ما نختلف عليه ايضاً.

هيئة تحرير

(سردم العربي)

دراسات ومقالات

جزء من مقال :

إحدى زوايا تاريخ الصحافة الكردية

• د. كمال مظهر أحمد

➢ ترجمة: صدرالدين عارف

إن لبدايات ظهور الصحافة عند كل شعب تأريخاً خاصاً , وهذا التاريخ مرتبط باسباب مختلفة ويحتاج الى توضيح جوانب كثيرة من الحياة السياسية والاجتماعية. إن اسباباً خارجية كثيرة كانت ذات اثر كبير في ظهور الصحافة الكردية بالاضافة الى الشروط الخاصة التي كان الشعب الكردي يعيش فيها, واحد هذه الاسباب هو ظهور الصحافة لدى الشعوب المجاورة للكرد, و دورها في الحياة الثقافية والسياسية لهذه الشعوب .

لم يكن قد مرّ وقت طويل على إختراع مكائن الطباعة حتى سارع الاوروبيون الى سبك الحروف العربية. ولكن وصول هذه الاحرف ومطابعها الى الشعوب الاسلامية يتطلب وقتا طويلا. صحيح ان المطبوعات والمطابع الحديثة كانت قد وصلت الى الدولة العثمانية منذ نهاية القرن الخامس عشر , لكن هذه المطابع أو المطبوعات لم تكن تطبع باللغة التركية أو العربية. إن اول جهاز للطباعة أتى به اليهود الهاربون من اسبانيا بسبب جور حكامهم, والذين لجأوا الى الدولة العثمانية. كان ذلك في عام 1494 وقد اقيمت فى مدينة استنبول واستمرت في العمل نحو عشرين عاما فقط, ثم اقيمت المطابع في مدن أخرى من الأمبراطورية العثمانية. ثم تلاهم الأرمن في ميدان الطباعة، حيث أسسوا عام 1565 أول مطبعة أرمنية في مدينة أستنبول, وفي عام 1773 تأسست في مدينة اجمادزين, قرب يريڤان, في داخل أرمينيا ذاتها أول مطبعة مستقلة , وكانت تستعمل الاحرف الأرمنية, ولم يمض وقت طويل حتى نزل الى الاسواق بعض من الكتب

العلمية والدينية المطبوعة. ثم أسس اليونانيون في بداية القرن السابع عشر مطابعهم المستقلة في مدينة استنبول.

لقد تأخرت الطباعة بلغات الشعوب الاسلامية التي كانت تعيش ضمن الدولة العثمانية كثيرا بسبب تخلف تلك الشعوب وكذلك بسبب السياسة العمياء التي كان السلاطين يتبعونها. ويقال ان السلطان بايزيد الثاني أصدرعام 1483 أمرا يمنع بموجبه الطباعة وفرض حكم الاعدام على من يخالف ذلك الأمر, وقد أعاد السلطان ياوز فرض ذلك الفرمان (الأمر) عام 1515. ورغم وجود شك في صحة هذه الأوامر إلا أن الثابت أن القونين لم تكن تسمح لمطابع الاقليات الدينية بأن تطبع أي شيء باللغتين التركية والعربية . وقد اغلقت هذه المطابع واحدة تلو اخرى , من تلقاء انفسها بعد ازدياد الحس القومي لدى الأرمن واليونانيين.

وقد تجاوز الأمر ذلك الحد حينما اعتبر بعض السلاطين طبع الكتب, وبالاخص الكتب الدينية, كفراً. وتذكر بعض المصادر التركية كيف ان السلطان محمد الرابع (1648-1687) أمر بالقاء المصاحف المطبوعة التي جلبها أحد الأوروبيين في البحر. كما أمر بالقاء الاحرف العربية التي اهديت اليه من مدينة فينيسيا (البندقية) في البحر أيضاً.

لقد أدرك مثقفو الدولة العثمانية في وقت مبكر أهمية المطابع وقد حاول عدد منهم استيرادها الى البلاد في بداية القرن السابع عشر , لكن تنفيذ هذا الأمر لم يكن هيناً للاسباب التي ذكرتها. وكان على الحكام أن يذوقوا مرارة ا الهزيمة على أيدي الاوروبيين لكي يدركوا أن سبب انتصار هؤلاء هو تفوقهم الثقافي, وهذا ما دفعهم الى فتح الابواب رويدا رويدا أمام الانجازات العلمية "للكفار الغربيين" , وقد مهّد ذلك الطريق للشعوب المسلمة لكي تقوم بتأسيس المطابع الحديثة, ففي الخامس من شهر تموز عام 1727 أصدر السلطان محمد الثالث أمراً سمح بموجبه لشخص يدعى مصطفى متفرق بأن يقوم بتأسيس مطبعة شرط أن يمتنع كليا عن طبع القرآن والتفسير والاحاديث النبوية والمواضيع الدينية الاخرى, والغريب في الامر ان الخطاطين وقفوا في هذه المرحلة في موقف مضاد للطباعة , ولاظهار استنكارهم وضعوا أدواتهم في توابيت طافوا بها في أرجاء المدينة, ورغم هذه المعوقات فإن الانشطة الطباعية خطت خطوات واسعة نحو التقدم في الدولة العثمانية, وكانت تلك بداية جيدة لظهور الصحافة في هذا البلد.

لقد ظهرت الصحافة, شأنها شأن الكتب المطبوعة, على ايدي الاقليات الدينية وقد اسس الارمن صحافتهم القومية داخل الدولة العثمانية في وقت مبكر , لكن أول صحيفة ظهرت عام 1825 في مدينة أزمير العثمانية وكانت تنشر باللغة الفرنسية , وظهرت أول جريدة باللغة التركية عام 1832 باسم (تقويمي وقايع), وكانت هذه بداية مهمة في تاريخ صحافة الشعوب التي كانت تعيش داخل الدولة العثمانية. بعد أربعين عاماً وصل عدد الصحف التي كانت تصدرها هذه الشعوب الى 47

صحيفة , منها 13 صحيفة باللغة التركية وأما البقية فكانت باللغات العربية واليونانية والبلغارية والفرنسية وغيرها. وكانت الصحف التركية (ترجمان احوال) و (تصوير افكار) وغيرها متداولة بين القراء الكرد . أما في ايران فقد وصلت الصحافة عام 1851 الى مرحلة مهمة وكان لها دور مهم في الحياة اليومية للمجتمع.

كانت أهمية الصحافة في الحياة السياسية والثقافية تزداد يوما بعد يوم , وكانت الصحافة سلاحاً مؤثرا بأيدي مناوئي الدولتين العثمانية والقاجارية, فأسس"العثمانيون الجدد" ومن بعدهم حركة "تركيا الفتاة" عدداً من الجرائد والمجلات داخل الدولة العثمانية وفي خارجها , وقد أصدر الثوار الايرانيون في بداية الثورة الدستورية (1905-1911) مايقارب 150جريدة و مجلة مختلفة من بينها صحف تطبع مابين(5)آلاف الى (10)آلاف نسخة, وكانت اهمية الصحافة تزداد يوما بعد يوم عند العرب والارمن.

إن هذه الجهود قد اثرت بلاشك في الحياة الثقافية والسياسية للشعب الكردي وشكلت حافزا قويا لمثقفيهم بالتفكير في انشاء صحافة خاصة بهم. وقد كتب عبدالرحمن رحيمي الحكاري, أحد رواد الصحافة الكردية حول هذا الموضوع مايأتي: " إننا نشهد إعجابا متزايداً بأساليب نضالهم (يقصد الارمن-ك.م) فهم يصدرون في كل يوم صحيفة, وينشرون مجموعة مقالات وكتابا في كل يوم."

لقد تأخر العمل الصحفي الكردي, مع ذلك , كثيراً بالمقارنة مع الشعوب المجاورة وكانت حالة التخلف وضعف الطبقة المثقفة السبب الرئيسي لذلك. لقد كان بوسع السياسيين الكرد اصدار صحفهم دون اية عوائق, أسوة بالآذريين, ولكن, يبدو أن احداً منهم لم يفكر في القيام بهذا الامر الضروري , رغم اشتراك الآلاف من ابناء الشعب الكردي في هذه الثورة العظيمة.

كانت الحركة الصحافية بحاجة الى وجود اعداد كبيرة من المتعلمين والى تطور ونمو طبقة مثقفة كاحدى ضرورات الحياة الثقافية بحيث تشكل حالة تتعارض مع عدم وجود صحافة قومية .ولكن هذا التغيير كان اكثر بطئاً بالمقارنة مع الشعوب المجاورة. ولكن هذا الأمر أصبح اكثر إلحاحاً مع الولوج الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر , حيث أصبح الاهتمام بالتعليم احد شعارات الحركة الكردية وهنا تجدر بنا الاشارة الى ان المدارس الدينية كانت تتمتع بمكانة بارزة في كردستان, ولقد تخرج من هذه المدارس علماء و مثقفون بارزون يتمتعون بالحس القومي وكان لهم دور بارز في تطوير الحياة الثقافية للشعب الكردي, كان من بينهم (حاجي قادر الكوئي) و (ملاى گەورە- الملا الكبير) اللذان اهتما كثيرا بالادب القومي الى جانب أداء واجبهم الديني.

كذلك فإن اتباع الاساليب الحديثة في التعليم كان قد بدأ في كردستان منذ النصف الثاني من القرن التسع عشر, فقد كان هناك 30 تلميذاً في

مدينة عقرة و 40 تلميذا في زاخو و45 تلميذا في عمادية ونفس العدد من التلاميذ من رواندوز. كما كان في دهوك 50 تلميذا وفي كويسنجق 125 تلميذا وعدد من التلاميذ في السليمانية يدرسون في المدارس الحكومية, وقد تأسست في المناطق الكردية في بداية القرن الماضي مدارس الرشدية (وهي مدارس متوسطة) وكان بعضها مدارس عسكرية. فقد أفتتحت في السليمانية عام 1893 مدرسة الرشدية العسكرية, وبعد بضع سنوات ارسل عدد من خريجيها الى بغداد وأستنبول لإكمال الدراسة , وقبل سقوط الدولة العثمانية كان يبلغ عدد طلاب هذه المدرسة 110 طلاب بالاضافة الى 70 طالبا كانوا يدرسون في المتوسطة الاهلية (مولكي).

وكان التعلم في المدن الكبيرة كدياربكر أكثر تقدما كما كانت العلاقات الثقافية اكثر رسوخاً وكان لاخبار التطورات التي تحدث في اوروبا الغربية وتصل اخبارها من العاصمة عن طريق االعلاقات الثقافية تأثير كبير في الطبقة المثقفة الحديثة النشوء في تلك المدن . كما كان هناك تجمع للمتعلمين الكرد في مدينة استنبول يعملون كموظفين هناك أو طلاب علم في المراكز العلمية والعسكرية ومنهم من سافر الى أوروبا للدراسة او للعمل في السلك الدبلوماسي .هذه الاحداث وضع الكرد في مسارات جديدة . لذا فليس مستغربا ان يقوم شخص مثل مصطفى باشا يامولكي , الذي عاش فترة طويلة في استنبول و وصل الى اعلى المراتب العسكرية, ان يهتم, بعد عودته الى موطنه في ظروف بالغة الحساسية, بالعمل الصحافي. كذلك هو الحال بالنسبة الى أبناء بدرخان باشا و جميل باشا الذين اعتبروا العمل الصحفي جزءاً أساسياً من واجبهم النضالي اليومي.

هذه الامور , بالاضافة الى اشتداد النضال القومي وازدياد ضغوط السلطات العثمانية والقاجارية, ورسوخ الصحافة كإدارة فعالة بأيدي الشعوب المجاورة للكرد, مهدت الطريق لظهور الصحافة الكردية. لكن السلطة الدموية للسلطان عبدالحميد الثاني, واسباباً اخرى سنذكرها لاحقا, منعت أن تكون ولادة الصحافة الكردية على أراضيها, لذا اختار الكرد مدينة القاهرة لاصدار أول صحيفة كردية في التاريخ.

كان السلطان عبالحميد, الذي إدعى في بداية حكمه أنه مدافع عن الدستور, رجلا غدّارا ومخادعا وكاذبا حارب منذ اليوم الاول من جلوسه على العرش كل ماله صلة بالحرية والديمقراطية. كانت "فلسفته" في الحكم تعتمد على تعيين وزرائه و كبار موظفيه من بين أشباه الاميين, وكان يقول: "إنني ادرك بأني محاط بحفنة من كبار اللصوص, لكنني أفضل الاحتفاظ بهم لأنهم الاكثر اخلاصاً لي."

كان عبدالحميد قد نشر الموالين له في أرجاء استنبول والمدن الكبرى. وتقول الروايات انه كان يتوجب على كل موظف تركي أن يكون مطيعا لقصر يلدز, وكان الأخ يكتب التقارير عن أخيه مقابل مكافآت مخزية. وفي هذا الصدد يقول أحد

المنتمين الى حركة تركيا الفتاة: "لم يكن قد بقي للناس في تركيا (في عهد عبدالحميد-ك.م) سوى طريق واحد وهدف واحد وهو جمع المال و صرفها على السفاهات. ولكن من أجل الوصول الى ذلك الهدف كان عليك أن تكون رجل القصر المخلص, دون الاهتمام بأبيك وأمك أو إخوتك واصدقائك أو ضميرك, كان عليك كبت افكارك و حسك الوطني والانساني) لذا كان من الطبيعي أن تمر الحركة الصحافية بظروف قاسية في ظل حكم السلطان عبدالحميد والذي دام 33 عاماً. واذكر هنا أمثلة ذات دلالات: كان القانون الذي صدر عام 1857 يحتوي على شروط قاسية, ولكن رغم ذلك فإن السلطان لم يرض عنه وأجرى عليه خمسة تعديلات (ابتداء من عام 1857 و حتى عام 1900) بحيث جعل تلك القوانين مدعاة للضحك. فكانت القوانين تمنع, مثلا الصحفيين من ذكر أسماء مثل: مدحت باشا والدستور والديناميت والقنابل والثورة والاشتراكية والحقوق والحريات والاضراب والمساواة والنضال. وتمنع ذكر حوادث القتل أو إقالة الموظفين . ولم يكن بوسع الصحفيين القيام بأية مناورات أو التحامل لأن السلطان كان يراقب المطبوعات بنفسه في مدينة استنبول, ويقوم كبار موظفيه المخلصين بالرقابة في المدن الاخرى, وقد اغلقت جريدة "صباح" لعدة سنوات بسبب أخطاء مطبعية بسيطة أعطت طابعاً تهكمياً لخبر كان قد نشرته. وقد اصيب الصحفيون بالحيرة عام 1894 حول كيفية التعامل مع نشر خبر مقتل (س.كارنو) رئيس جمهورية فرنسا, فقد كان ممنوعاً عليهم نشر خبر مقتل رئيس احدى الدول. ومن جهة اخرى لم يكونوا يملكون الجرأة على ذكر ان وفاته كان طبيعيا بسبب عمره لأنه كان في نفس عمر السلطان. وهكذا لم تستطع صحيفة واحدة أن تنشر خبر وفاته باكثر من سطر واحد. باختصار كان الحقد اللامقدس الذي كان السلطان عبدالحميد يشعر به نحو الصحافة الحرة قد وصل الى درجة كان يتمنى, بعد خلعه من السلطة (عام 1909) أن يتمكن من العودة الى قصر يلدز ليوم واحد فقط لكي "يستطيع أن يلقي بكل الصحفيين الى التنور".

لم يكن متوقعا , بلا شك, أن تسمح للصحافة الكردية ان تصدر في ظل نظام كهذا لأن احداً لم يكن ليجرؤ على طلب اصدار صحيفة ناطقة باللغة الكردية , ولم يكن هناك امل في أن يلبى طلبه حتى لو طلب ذلك.

وهناك سبب آخر بجانب الاسباب التي ذكرناها. فقد كان نظام السلطان عبدالحميد يعارض بشدة الصحوة القومية للشعوب التي كانت تعيش داخل الدولة العثمانية وقد قمع بشدة الحركات التحررية الكردية وحركات الشعوب الاخرى. كان السلطان عبدالحميد يريد ان يستغل مسلحي العشائر الكردية و يجعلها أداةً في يده لقمع خصومه, وكان هذا هو الدافع وراء تشكيل قوة "فرسان الحميدية". كان السلطان القصير النظر لايتحمل وجود شيء يعارض رغباته الهوجاء.

وهكذا , كان على المثقف الكردي, شأنه في ذلك شأن مثقفي الاقوام الاخرى التي كانت تعيش داخل الدولة العثمانية, أن يفكر في اصدار صحافته في مكان آخر, وكانت مدينة القاهرة ملائمة جداً لتحقيق ذلك الهدف , فعلاقة مصر بالحضارة الأوروبية كانت حميمة من الدول الشرقية الاخرى. وتعود بدايات الصحافة في هذا البلد الى فترة تواجد نابليون وجيشه هناك, أي الى القرن التاسع عشر. ولم تكن قد بقيت من السلطة العثمانية بعد احتلال الانكليز لمصر (عام 1882) سوى اسمها. ورغم ذلك فقد كان العثمانيون يريدون استغلال الظروف السياسية الدولية والتغييرات التي حدثت في مصر من أجل إعادة سلطتهم المفقودة هناك . وكانت هذه بذرة الصراعات الخفية بين الاتراك والانكليز, والتي استمرت حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

وكان للصحافة دور غريب ومؤثر في تأجيج الصراع, فقد كان السلطان عبدالحميد يبذل جهودا كبيرة لاستمالة الصحافة المصرية لتأييده وكان يبذل أموالا كثيرة ويثير المشاعر الدينية ويشجع مؤيدي الدولة العثمانية لاصدار الصحف في مدينة القاهرة.

ولم تذهب جهود السلطان هباءً في هذا المجال , وقد كتب مؤرخ عربي حول ذلك مايأتي:

"ورغم ان تركيا كانت ضعيفة إلا أنها كانت تسعى لاثارة مشاعر الناس ضد المحتلين (الانكليز- ك.م) لانها لم تكن تريد أن تفقد مصر نهائياً. وكان توجد في مصر اعداد كبيرة من الموالين لتركيا بسبب مشاعرهم الدينيةو لذا فقد كانت هناك صحف موالية للدولة العثمانية, كما كانت هناك صحف تأسست بتشجيع من استنبول كصحف "البرهان"و "القاهرة"و "الاهرام" "القديمة".

ولم يقف المسؤولون الانكليز مكتوفي الايدي أمام هذا الامر, لانهم كانوا حريصين على البقاء وطرد العثمانيين بشكل نهائي من مصر, وكانوا مستعدين لاتباع اي طريق يلائم تحقيق ذلك الهدف, وكانوا اكثر نجاحاً في هذا الميدان لان سلطتهم كانت الاقوى, فقامت صحف مثل "الوطن"و "مرآة الشرق"و "النيل"و"المقطم" وغيرها مجملها ضد السلطة العثمانية وبإظهارعيوبها, ونتيجة لذلك ظهرت صراعات شديدة بين الصحف الموالية للانكليز والصحف الموالية لاستنبول.

وعلاوة على ذلك, فقد فتح الانكليز الابواب على مصاريعها امام المعارضين للسلطان عبدالحميد, واصبحت مدينة القاهرة أحد المراكز المهمة لنضال حركة "تركيا الفتاة" وهي من اكبر الحركات المعادية للسلطان عبدالحميد واكثرهم قوة , وأحد الامور الذي اهتمت به هذه الحركة في هذا المجال اصدار الصحف بلغات عديدة , وهكذا اصبحت مدينة القاهرة مركزا مهما لنضال هؤلاء الاتراك واصبحت الصحافة وجها بارزاً من اوجه نشاطهم. ويجدر بالذكر هنا أن الجريدة المسماة "اجتهاد" كان يصدرها الدكتور عبدالله جودت الكردي الذي كان أحد مؤسسي حركة "تركياالفتاة".

كما سمح الانكليز لمعارضي السلطان الآخرين ان يجعلوا من مصر مركزا لنضالهم, فقد نشط الوطنيون الارمن, أسوة بالاتراك , في التحرك بحماس وكانوا يصدرون صحيفة خاصة بهم من مدينة القاهرة.

وهكذا نرى ان مصر كانت مكانا ملائما جداً لولادة أول صحيفة كردية واكثرها قربا للشعب الكردي, وهكذا كان, ففي يوم الخميس المصادف للثلاثين من (ذي القعدة) عام 1315 الهجرية- التاسع من نيسان عام 1314 حسب التقويم الرومي, الموافق لـ(22) من نيسان عام 1898 الميلادية أصدر مقداد مدحت بگ البدرخاني أول صحيفة كردية في مدينة القاهرة وقد طبعت في مطبعة "الهلال".

في ظل هذه المصاعب ولدت الصحافة الكردية وقد تطلبت ولادتها سنوات عديدة من الجهد مقارنة بصحافة الشعوب الاخرى. ويجدر بنا ذكر الرسالة التي بعثها مثقف كردي الى صاحب امتياز جريدة "كردستان" ويعاتبه بحزن, قائلاً : (لقد تأخرت كثيرة في اصدار جريدتك, وكان الاحرى أن تصدرها قبل 20 عاماً , أي في سبعينيات القرن التاسع عشر.)

كانت لمقداد مدحت وأخيه عبدالرحمن ,كما سنذكر لاحقا, صلات وثيقة بحركة تركيا الفتاة وهذه الصلات ساعدت في اصدار جريدة كردستان. ان هذه العلاقة الوثيقة دفعت ببعض المؤرخين الى اعتبار جريدة كردستان نفسها إحدى الصحف الناطقة باسم حركة تركيا الفتاة , لكن الحقيقة أن جريدة "كردستان" كانت صحيفة الوطنيين الكرد ولكن معاداتها لنظام عبالحميد كانت تجمعها في نوأح عديدة في خندق واحد مع الحركة المذكورة.

يهتم الكرد والمستشرقون بتاريخ أول جريدة كردية واثرها في الحياة الثقافية في كردستان , فقد كتب مينورسكى قبل اكثر من 60 عاما عن اصدار جريدة كردستان وبعدها بعامين (أي عام 1917), أعاد كردليفسكى نفس الحدث الى الاذهان وكتب مايلي: "في عام 1898 صدرت في مدينة القاهرة صحيفة "كردستان" وبدأ توزيعها بعد ذلك في مدينة جنيف. هذه الجريدة أصدرها كردى هو مدحت ابن بدرخان المشهور وقد منعت توزيعها في تركيا ". كما ذكرها مستكردون أخرون وثمنوا دورها الايجابى , وكتب الدكتور بلج شيركو حول كردستان ما يأتي: لقد قرر الثقفون الكرد اصدار هذه الصحيفة لتكون لسان حالهم . كما يعتبر الدكتور شاكر خصباك صدور صحيفة "كردستان" بداية تغيير وانطلاقة جديدة في حياة الشعب الكردي.

إن نظرة سريعة في اعداد صحيفة "كردستان" تؤكد حقيقة أن الصحافة الكردية منذ ولادتها في ظل التعسف العثماني قد اختارت لنفسها الطريق الصحيح للنضال باختيارها اسلوب تبادل الآراء منذ العدد الأول , وقد جعلت "كردستان" التوعية والحث على تعلم الصناعات المختلفة شعاراً لها. ولانها كانت مخلصة وبعيدة النظر, فقد كانت تقدر عاليا

قيمـة الثقافـة وتـدعو الشـباب الى الـتعلم اسـوة بالشعوب المجاورة, وكانت غالبا ماتلجأ الى اقتباس الاحاديث النبوية لحث جماهير الشعب على التعلم , وتذكر كيف أن التعلم هو أساس تقدم الشعوب وان اليابان انتصر على الصين ومصر على السودان بفضل علومها, وكانت الصحيفة تخاطب العقول وتسعى الى دمج المشاعر الدينية بحب الوطن لكي تثير بذلك الشباب الكردي, كام كانت تدعو الى "الاتفاق" معتمدة على الاقوال المأثورة للشاعر الكردي الكبير أحمدي خاني. اننا عند ذكر صحيفة "كردستان" ينبغي لنا ذكر موقفين مجيدين لها : أولهما موقفها من الارض والثاني موقفها بالنسبة لتلك المؤسسة العسكرية الرجعية التي أسسها السلطان عبدالحميد من مسلحي العشائر باسم "فرسان الحميدية".

لقد شن الحكام العنصريون العثمانيون حملة شرسة ضد الأرض في تسعينيات القرن التاسع عشر وكانوا يريدون أن تكون العشائر الكردية المسلحة أدوات بايديهم من أجل تنفيذ هذه المهمة القذرة ولم تكن فضح هذه السياسة مهمة سهلة إذ أن الكثيرين تلطخت أياديهم بدماء الارمن وكانت بقية الناس تراقب وتريد الاحتفاض بمصالحها, فانبرت صحيفة كردستان باخلاص لدعوة الشعب الكردي الى تفهم النوايا الحقيقية للسلطان عبدالحميد وان لايكون الكرد سببا في ابادة الشعب الأرمني الجار القديم لهم ,لأن الشعبين قد اكتويا كلاهما بنار السلطان عبدالحميد وزمرته. كانت الصحيفة تدعو الى الاقتداء بالشيخ عبيدالله نهري ويذكرهم كيف ان المسؤولين في استنبول لم يستطيعوا دفعه الى الجهاد ضد الكفار. كانت الجريدة حرصاً منها على مصلحة الشعب الكردي تلجأ أحيانا الى استعمال لغة قاسية لحث الشعب على بذل المزيد من الجهد والامتناع عن تلك الافعال القاسية.

كان موقف عبدالرحمن بدرخان من مذابح الارمن صحيحاً, وقد وصل بهذا الرجل المتمتع ببعد نظر كبير الى التبرؤ من ابنه عثمان لانه اشترك في مذابح الارمن. كما كان ادراك جريدة كردستان لدور تنظيم "فرسان الحميدية" والنوايا المبطنة من وراء تأسيسها معتبرين تأسيسها فاتحة خير للشعب الكردي , خاطبتهم صحيفة كردستان قائلة: "إن الغرض من تأسيس فرسان الحميدية هو الهاء الشعب الكردي وبذر الشقاق بين الشعبين الكردي والأرمني لكي لايتحدا لمقارعة ظلم السلطان. ولايمكن توقع غير الشر من تنظيم كهذا. "عن هذا الموقف البعيد النظر الذي وقفته جريدة "كردستان" يستحق الثناء , وقد حثت الجريدة المناضلين العرب أيضاً على أن يقفوا بوجه إنشاء قوة مماثلة لفرسان الحميدية في صفوف العشائر العربية المسلحة. ان جوانب أخرى كثيرة لجريدة كردستان تلفت النظر, كانت الجريدة تدعو الى إثارة مشاعر الشعب الكردي بصورة ديمقراطية, وقد خصصت الجريدة صفحات مطولة للآدب والتاريخ الكردي وكانت تزين صفحاتها بأبيات ذات مغزى من ملحمة "مم و زين" للشاعر احمدي خاني .

لهذه الاسباب , ولاسباب أخرى , كان يتحتم على جريدة "كردستان" ان تعيش في المنفى. وصحيح ان منظمات أخرى للشعوب العثمانية كانت هي الاخرى توجد في المنفى , لكن احداً منها لم تكن مضطرة الى البقاء كل هذه الفترة في المنفى كجريدة كردستان. لقد صدر منها خمسة اعداد في مدينة القاهرة , وصدر من العدد السادس الى العدد التاسع عشر في مدينة جنيف, ثم عادت الى القاهرة لتصدر الاعداد من العشرين الى الثالث والعشرين, وصدر العدد الرابع والعشرون في لندن, كما صدر العدد الخامس والعشرون الى العدد التاسع والعشرين في مدينة فوكستون في شمال أنكلترا , وصدر العددان الثلاثون والحادي والثلاثون في جنيف مرة أخرى. ان جولة جريدة كردستان هذه استغرقت 45 شهرا و 22 يوما , وفى كل هذا الوقت صدر منها 31 عدداً بدلا من 96, وقد اعتذرت الجريدة من قرائها عدة مرات لانها لم تستطع إصدارها في وقت منتظم.

وقد شكلت الجريدة عقدة لدى السلطان عبدالحميد وزمرته وتظهر محتويات اعداد الجريدة التي صدرت في القاهرة كيف ان رجالات السلطة كانوا يتحاشون بمقداد بدرخان ويظهرون له العداء وكيف ان الامر قد بلغ حداً ان يطلبوا من السلطات المصرية تسليمهم مقداد بدرخان "كمجرم" ولعل هذا هو السبب في اضطرار البدرخانيين الى نقل جريدة كردستان الى اوروبا.

كان احد اسباب حقد السلطان عبدالحميد على عبدالرحمن بدرخان هو علاقته الوثيقة بجمعية تركيا الفتاة, وهذه العلاقة تبدو جلية في المقالات التي كانت تنشرها جريدة "كردستان" وكان عبدالرحمن بدرخان احد المشاركين في المؤتمر الاول لهذه الجمعية عام 1902 والذي عقد في باريس , وكان عبدالرحمن بدرخان ينشر أيضاً مقالات في صحيفة "عثمانلي" الناطقة بلسان الجمعية. وعلاوة على ذلك , فإن اعداد جريدة "كردستان" التي نشرت في اوروبا طبعت في مطابع جمعية تركيا الفتاة ويظهر اسم المطبعة علنا على تلك الاعداد. والظاهر أن تلك الاسباب كانت كافية لمنع دخول صحيفة كردستان الى الداخل.

ولكن يستحيل اخماد صوت المناضل الحقيقي , وطبقا لهذه القاعدة فإن صحيفة "كردستان" استطاعت ان تؤدي دورها بنجاح تام , وحسب ماكان ينشر في الجانب الايمن من اسم الجريدة فإن صاحب إمتياز الجريدة كان يرسل عند ارسال كل عدد (2000) نسخة منها لكي توزع على الناس مجاناً, ولايستبعد أن يكون البدرخانيون قد لجأوا الى المناضلين الأرمن والاتراك من اجل نجاح هذه المهمة , وكانت عملية ارسال الجرائد المناهضة للسلطات الى داخل الوطن أمراً شائعاً في تلك الايام, ولكن اصحاب تلك الجرائد يعتمدون مختلف الحيل لتنفيذ مهمتهم تلك . كانوا احياناً يصنعون جرائدهم داخل مطبوعات تحمل صور السلطان أو تحوي مقالات تمتدحه , وكان الصحفيون العرب يعتمدون نفس الحيل لخداع العثمانيين أو الانكليز أو رجالات الخديوي, وقد لجأ أحدهم الى تغيير اسم صحيفته

عشر مـرات لكـي يخفـي أمـره وتستطيع صحيفته من الدخول الى الوطن.

لاشـك أن البـدرخانيون قـد اسـتطاعوا إيصـال صـحيفة "كردسـتان" الى رؤساء العشائر والمثقفين بالوسائل المكنـة ويبـدو مـن اعـدادها انها كانـت تصل الى المناطق الكردية واجزاء اخـرى مـن الدولـة العثمانيـة. وتشـكلت علاقـة وثيقـة بـين الجريـدة والمثقفين الكرد, ويشير مقداد مـدحت بـدرخان في العدد الثاني من "كردستان" الى رسائل وصلته مـن " بعض الامراء والاغوات الاكراد" يطلبون منه نشر أبحاث حول "الوضع الحالي للادب الكـردي". وينشـر في العدد الثالث رسالة أحد كرد الشام يـذكر كيفيـة وصـول جريـدة "كردسـتان" الـيهم وكيـف أنهـم قبلوها فرحـاً , وفي خاتمة الرسالة يـذكرون مقداد مـدحت وآبـاءه بـالخير. ويثني القارئ (سيد طه بوطي" من منطقة (أدنـه) في العدد الخـامس علـى الجريـدة ويطلـب ارسال المزيـد مـن اعـداد الجريـدة لانها لم تكشف غليلهم ولان عـدد سكان المدينـة مـن الكرد في ازدياد وان 10 آلاف الى 15 ألفاً مـن الكـرد يقصـدون المدينـة كـل عـام واغلـب هـؤلاء يفضـلون البقاء فيها . ونشرت في الاعداد التالية رسائل وردت الى "كردسـتان" مـن اهـالي مـدن ماردين وديـاربكر والموصل واماكن أخرى. ونشـرت في الصـفحة الرابعـة من العدد 63 قائمة بـالنقود الـتي ارسـلها المشـتركون في الصحيفة من مدن دياربكر والسليمانية وأدنه.

ويبـدو ان صـحيفة "كردسـتان" قـد اكتسـبت شهرة في الخارج أيضاً, ويـذكر عبـدالرحمن بـدرخان في العـدد الثالـث عشـر مايـأتي: "لقـد اشـترك في جريـدتنا منـذ صـدورها أجانـب مثـل الالمـان والنمسـاويين والانكليـز" ويضـيف ان مـن بـين المشتركين شخصا المانيا اسمه (مارتن هارتمان) يجيـد اغلب لغات الشرق, وانـه يريـد تعلـم اللغـة الكرديـة بالتعـاون معـه ولايسـتبعد ان تكـون الاعـداد (26) المحفوظـة في مكتبـة مـاربورك الالمانيـة هـي نفـس الاعـداد الـتي كانـت قـد ارسـلت الى العـالم المعـروف هارتمان.

ويصـعب الآن الحصـول علـى اعـداد الجريـدة فبالاضافة الى الاعداد الستة والعشرين المحفوظة في مكتبـة مـاربورك الرسميـة, والـتي نشـرها الـدكتور كمال فؤاد بجهاز الاوفسيت و (18) عـدداً , صدرت عـام 1899, وهـي محفوظـة في المكتبـة الوطنيـة في انقرة , وعـدد واحـد محفوظ في مكتبـة الاستشـراق السـوفياتية في لينينكـراد, يوجـد في مكتبـة المجمـع العلمي الكردي العـدد الخامس والصـفحتان الثالثـة والرابعة من العدد الثالث, والاول مطبـوع علـى ورق أخضر رقيـق والثـاني علـى ورق أصـغر , ولايسـتبعد وجود اعداد اخرى من الصحيفة في اماكن اخرى.

لقـد بـذل رجـال السـلطان جهـوداً كـبيرة مـع البـدرخانيين لاقنـاعهم بـالكف عـن اصدار صـحيفة كردسـتان , وقـد ذكرنـا سـابقا ان السـلطان كـان مسـتعدا لفعـل أي شـيء مـن أجـل كسـب معارضـي الخارج الى جانبـه, وقـد نجـح في مسعاه الى حـد مـا , واستطاع كسب ود بعض القيـاديين وبعـض الصحف

ومنها جريدة "مشورت" التي كانت جمعية تركيا الفتاة تصدرها في الخارج.

عبدالرحمن بدرخان بالتوقف عن أصدار جريدته , ولايستبعد أن يكون توقف الجريدة نتيجة لذلك , لكننا يجب ان نذكر بعض الوقائع للتاريخ , فالعدد الاخير صدر في نيسان عام 1902 وليس عام 1904. وكان عبدالرحمن بدرخان في ذلك الوقت في مقدمة معارضي السلطان وكان قد رجع تواً الى جنيف بعد حضور المؤتمر الأول لمنظمة تركيا الفتاة , ولايستدل من صحيفته إنه انحرف ولو قيد أنملة عن مسار الحركة الكردية, لذا لايستبعد ان يكون سبب توقف صحيفة كردستان اسباباً مالية أو بسبب ضغوط ازلام النظام, أو لاسباب سياسية اخرى.

لم نستطع التأكد لحد الآن من كيفية توقف صدور صحيفة كردستان , ويذكر رامروز ان مندوبي السلطان استطاعوا عام 1904 من اقناع

هذه , باختصار هي قصة ولادة أول صحيفة كردية والمشاق التي صادفتها اثناء صدورها, ولا اعتقد ان أحداً من الصحفيين المنصفين لا يعتبر هذه بداية مضيئة ذات عبر, ويبدو جلياً من هذه البداية ان تطور الصحافة الكردية يعتمد كثيراً على مقدار الحريات الديمقراطية التي تمنحها الحكومات التي يعيش في ظلها الشعب الكردي, وهذا أيضاً هو السبب في أن أية صحيفة كردية أخرى لم تصدر في تركيا حتى اندلاع الثورة في تركيا عام 1908.

*مؤرخ وباحث كردي يقيم في بغداد.

الاسلام السياسي و الهوية القومية للكرد

- د. رفيق صابر[*]

➢ ترجمه من الكردية: رؤوف بێگەرد

-1-

الدين كنظام فكري و روحي و ميتولوجي, و كعقيدة و تصور للحياة و الوجود و العالم, عنصر مهم للثقافة و الهوية القومية. ففي المجتمعات ذات الأديان والمشاكل المتعددة, يكسب الدين وزنه السياسي المهم, و يمكن ان يكون سببا للمعرفة بالذات و مميزا بين الـ(انا) و (الآخر). أي ان اهميته تماثل اهمية اللغة و وحدة الأرض و التاريخ المشترك, او شكلا للتعبير عن الهوية.

للإنسان, و في الوقت نفسه. مجموعة من الهويات: الهوية القومية, الدينية, الإجتماعية, الجنس (المرأة و الرجل) و الحزب. و ان (انا) بعلاقته مع (الآخر) يعبر عن شكل هويته. على سبيل المثال (انا) الكرد كردي في مقابل دولة العراق العربية. و (أنا) العرب عربي مقابل (الآخر) التركي او الفارسي, و لكنني مسلم مقابل الآخر المسيحي او اليهودي, و بالعكس ايضاً, و في كثير من الأحيان تعبر هوية الـ(أنا) عن نفسها بالعلاقة مع المناخ السياسى او بالمقارنة مع (الآخر).

ان الهوية القومية اسمى اشكال الهويات. لأنها تحتوي على تثمين الذات و تقديره. و لكن لهذه الهوية تركيباً معقداً و في تغيير دائم. ففي حين تكون الحروب الأهلية سببا في تعكير الموازنة و التجانس القومي و في تضعيف الهوية القومية, تكون الحروب الخارجية مع المحتل و الوقوف بوجه التهديد الثقافي أو الديني, سببا في تقوية هذه الهوية. عندما تواجه الأمة, أو اقلية قومية تهديدا دينياً, او تتعرض الى الهجوم من قبل اكثرية دينية اخرى. يصبح الدين و العوامل الدينية مركزاً للثقل السياسي بدلاً من اللغة و الثقافة و التاريخ المشترك, و يلعب دوراً رئيساً في المعرفة بالذات و النضال من

أجل الحرية. بعبارة اخرى, ان الدين كجزء من الثقافة و الرؤية و العلامة المميزة يضع خطا فاصلاً بين الـ (انا) و (الآخر) او هو تعبير عن المظاهر البارزة للهوية القومية, لذا يعتبر عنصراً مهماً لايديولوجية الحركة القومية في تلك البلاد, اوان الحركة تصبغ بصيغة دينية عميقة.

نستطيع ان نأتي بأمثلة تأريخية و حتى في الفترة المعاصرة, على ان العامل الديني كان سبباً رئيساً في تمتين الخلاف و اشتداد المعضلات بين المستعمرين و الشعوب المحتلة (مثلا الصراع بين العثمانيين و شعوب بلقان, المستعمر الفرنسي و شعوب مصر و الجزائر. اسرائيل و فلسطين, بوسنا و يوغسلافيا, بريطانيا و ايرلندا.. الخ) حيث كان الدين في هذه المجتمعات عاملا مؤثراً في النضال الوطني, و احتوى مضمونا تحررياً في تلك الفترة التاريخية.

-2-

هل هناك ثقافة او هوية قومية لم تتلون بشكل كلي او جزئي, بطابع ديني خاص؟ او بعبارة اخرى هل نستطيع ان نتحدث عن حقل ثقافي او هوية قومية بدون ان لا نعتبر الدين, كإيمان و عقيدة, و كنضال فكري و روحي و ميتولوجي و تصور للحياة بنظر الإعتبار؟

الإنسان, بغض النظر عن انتماءاته القومية و الثقافية. اكتسب مجموعة من العادات و التقاليد و القيم و المبادئ التي كان مصدرها الأساسي هو الدين, و بمرور مئات السنين اصبح جزءاً مهما من الثقافة و الرؤية و شخصية المجتمع. لذا, لا يقدر هذا الإنسان ان يستغني عن دينه او عن نظام ثقافته بنفس السهولة التي يستطيع ان يستغني عن ايديولوجيته او حزبه او نظام حكمه. ان نظرة الإنسان الى الخير و الشر, الحق و الباطل, الحقوق و الواجبات, الروح الإنسانية و مساعدة المعدمين, تأسيس عائلة, تربية الأطفال, العيد و دفنى الموتى.. الخ, تتجذر من هذا النظام الثقافي الذي اثر فيه الدين تأثيراً كبيراً. ان المبادئ و العادات و القوانين التي تنظم حياة الأفراد و الجماعات, تنامت في ظروف تاريخية, لذا فإن الدين, بمقدار ما هو ايمان و عقيدة, و بمقدار ما هو علاقة روحية بين الإنسان و ربه هو ثقافة ايضاً او حقل ثقافي و شكل للحياة. فالإنسان, مؤمنا كان او ملحدا, يعيش في احضان ثقافة مجتمعه, و ينتج يوميا جزءاً من مبادئه و تقاليده, و يشعر بالإختلاف تجاه الآخر المنتمي الى دين و ثقافة اخرى, او يعتبر الآخر, بسبب هذا النظام الثقافي, مختلفاً عنه.

ان الأكثرية الساحقة من مواطني كردستان مسلمون, لذا فإن الثقافة الكردية و في شتى اوجهها تأثرت بالدين الإسلامي من ناحية الحياة الإجتماعية. و من المبادئ و القيم الاجتماعية و الأخلاقية لأكثرية السكان. و لأن المراكز الدينية, و على طول مئات السنين كانت المنبع الوحيد للعلم و لإنتاج المعرفة في كردستان, فمن البديهي ان تكون غالبية النتاجات الأدبية و الأنظمة المعرفية الكردية منبثقة من هذه الروافد الدينية و من الشعوب الإسلامية بتأثير من الفكر و الفلسفة الإسلامية. لهذه العوامل و اسباب

اخرى, فإن الدين الإسلامي, كعقيدة و ايمان و حقل ثقافي و عادات و تقاليد, قد تعمق في الحياة الخاصة و الإجتماعية و في ضمير اكثرية شعب كردستان. و ان تقدير الإسلام هو تقدير لحق حرية الدين و العقيدة, و احترام لمجموعة من القيم الثقافية ذات علاقة عميقة بالدين الإسلامي.

و لكن الدين لم يتخذ مكاناً مهما في الفكر القومي الكردي كعنصر سياسي و ايديولوجي. و بالمقارنة مع الجوانب الأخرى للهوية القومية لم يمنح لهذا الدين ثقلاً سياسياً ملحوظاً. ان النضال السياسي الديني, او النضال من اجل الدفاع عن الهوية الدينية الكردية, لم يكن في يوم من الأيام عاملاً للتمييز و مناهضاً للمحتلين و اساساً لأيديولوجية سياسية للحركة التحررية في كردستان. ان هذه الخصوصية لها علاقة بمضمون السؤال الكردي و طبيعة و اهداف محتلي كردستان. ان محتلي ارض كردستان لا يدينون بدين آخر, بل كانوا مسلمين و لايزالون, لذا لم يشكلوا خطراً على الدين و العقيدة الكردية, و لم يحاربوا الدين الكردي, بل كانت هذه الدول تحارب اللغة و الخصوصية الثقافية الكردية و تريد الغلبة للغتها و ثقافتها على الكرد و اجبار هذا الشعب على القبول بالواقع المفروض عليهم.

لم يضطهد الكردي بسبب دينه, و العامل الديني لم يحافظ على هويته القومية. ان جميع عناصر الثقافة الكردية تعرضت للهجوم و القمع ماعدا العنصر الديني, و نقصد الدين الاسلامي, و اذا كان الانسان الكردي قد تمتع بحرية واحدة فقط فهي حرية الدين و اسلاميته. لذا فإن الدين الإسلامي, والى حد بعيد, هو عامل الانسجام و الاقتراب من المحتلين و ليس الانقطاع او الاختلاف معهم. و لكن اللغة و العناصر القومية الأخرى للثقافة الكردية قد تعرضت و في جميع المراحل الى القمع و الإبادة. ان الهوية الكردية. من وجهة نظر الآخر, قد اقتصرت في اللغة و الخصوصيات القومية و الثقافية و ليست في الدين. ان محاولة تمزيق الهوية و الشخصية الكرديتين قد بدأت بمنع و ابادة اللغة و الثقافة القومية الى ان وصلت الى الإبادة الفيزيكية. في هذا الصراع. و بخلاف دول كثيرة اخرى, لم يلعب الدين دوراً مهما كعامل سياسي او كجزء من الهوية القومية. ان العامل الديني في بعض العهود, و لا سيما في عهد الإمبراطورية العثمانية, كان سببا لاضعاف الحس القومي و الشخصية القومية الكردية. ان (انا) المسلم مقابل (الآخر) المسلم قد قل من الاختلاف بين (انا) الكردي و (هو) العربي او التركي او الفارسي, او مسح هذا الإختلاف بكامله. و في كثير من الاحيان قام محتلو كردستان بتكفير الكرد باسم الدين. او ساقوهم الى (حرب الكفار) مع اليونانيين و الجورجيين و شعوب اخرى في البلقان. في الحقيقة, (اذا نسي الكردي لغته, كان قد انصهر في بوتقة القوميات الأخرى الحاكمة في كردستان او اصبح جزءاً منها منذ زمن بعيد). و لكن نسيان اللغة العربية و فرض اللغة الفرنسية على ملايين من الجزائريين لم يؤد الى صهرهم في القومية الفرنسية, لأن الجزائريين كانوا متدينين بدين

آخـر, و هـذا جـزء مـن الخـلاف بـين الـدين كسـمة للهوية, و الدين كعقيدة و شكل للحياة.

كان الإسلام دائماً جزءاً مـن الهويـة و مـن الحيـاة الفكرية و السياسية للتنـوير العربـي و لأيـديولوجيا القومية العربية, لأنه:

اولاً: الإسـلام كـدين يشـكل الوحـدة الروحيـة للعـــرب و لحضـــارتهم و ثقـــافتهم و تـــاريخهم و لغـــتهم. و ان تـــاريخ الدولـــة المركزيـــة للعـــرب و الإمبراطوريـة العربيـة و التـاريخ العربـي و اللغـة الموحدة للعرب (لغـة القـرآن) مربـوط بالإسـلام و ينبثق منـه. و ان انتشار الإسـلام و خروجـه مـن حدود الجزيـرة العربية كان علـى ايـدي العـرب. و من هناك (بمساعدة شعوب اخرى طبعاً) توسع الى اقصى العالم, و يعتبر هذا الانتشار و التوسع قـوة روحيـة و مفخـرة قوميـة عظيمـة للعـرب, لأنـه عـاش مـع الأفـراد و الجماعـات السياسـية العربيـة على امتداد هذا التاريخ الطويل.

ثانيـاً: كـان الإسـلام بـديلاً. او درعـاً روحيـاً و ثقافياً و فكرياً للعرب دائما. بدءاً بوجه الموج الديني المسـيحي و الفكـر التنـويري و الإلحـاد الأوربـي, و انتهـاءً بوجـه المـد (او كمـا يسـميه العـرب بـالغزو) الثقافي و الحضاري للمستعمر الغربي.

كان الإسلام في دول المغـرب العربـي و مصـر عنـدما كانـت هـذه الـدول تحـت سـيطرة الـدول الأوروبيـة, عنصراً مهما و محركاً للهوية و للفكر القومي.

نحـن لا نريـد الإسترسـال في هـذا البحـث او ايـراد امثلة كثيرة حول الدور المهـم و الفاعـل للـدين بالنسـبة للأتـراك, و كـذلك للفـرس (المـذهب الشـيعي) و الفكـر القومي للفرس و هوية بعض الشعوب الإيرانية. و لكـن, و بعكـس مـا اوردنـاه مـن مزايـا الإسـلام و فاعليتـه الإيجابيـة بالنسـبة الى هـذه الشـعوب, لم يـتمكن الـدين الإســلامي في كردســتان ان يتحــول الى نظــام فكــري يفرض نفسه على التفكير القـومي للشـعب الكـردي. لأن الإسلام عنـد الكـرد لم يكـن جـزءاً اساسـياً مـن اللغـة و الفكـر السياسـي و ممارسـة السـلطة و تاريخـه السياسـي كما هو عند العرب. و لم يواجه بصورة مباشـرة خطـر مهاجمته من دين آخر, لهذا انحصر في حـدود الإيمـان و الثقافــة و لم يتحــول الى ثقــل سياســي. و في تـــاريخ الحركة الكردية التحررية, اى ما يقـارب مـن مئـة سـنة (الى انتفاضة 1991) ما كان للأسلام السياسـي موضـع قدم في كردستان, و لم يظهر كحركة و لا كحـزب ديـني - اسـلامي سياسـي, و انـني علـى يقـين, لـولا عوامـل خارجيـة لمـا كـان يولـد بصـورة طبيعيـة و حتـى الآن حـزب سياسي اسـلامي في كردسـتان. و اذا اخـذنا بنظـر الإعتبار أن الأرضية كانت صالحة لظهور هـذه الأحـزاب بعـد الإنتفاضـة, و لكـن حتـى عنـد تأسيسـها كانـت لهـا مضـامين و اتجاهـات اخـرى تحمـل في طياتهـا المصـالح الوطنية و تعبر عـن همـوم الشـعب و اهدافـه, بـدلا مـن اهتمامها بمصالح النزعات الإسـلامية الشـمولية تتعامـل مع الأحزاب او القوى او الدول الاسلامية المعينة.

-3-

الإسلام كدين و عقيدة, و كجزء مهم من الثقافـة و الهوية, ليس الإسلام السياسي كفكـر و حركـة سياسـية, الذي يدعو عن طريق توليـه السـلطة بتطبيـق مبادئـه

و قوانينه في المجتمع, انهما ظاهرتان مختلفتان و لا يجوز الخلط بينهما, لأن الإسلام السياسي و قبل كل شيء, ظاهرة سياسية. و هذه الظاهرة مهما اخذت شرعيتها من الدين الإسلامي تبقى الإسلام اسير ايدولوجية سياسية لحركة او لحزب ليس الا, يتعامل في مناخ إجتماعي و سياسي معين, يواجه المشاكل اليومية في المجتمع و كيفية معالجتها. و ان المصالح السياسية, الإجتماعية القومية, الشخصية و الطائفية, و العلاقات الداخلية و الخارجية, و عوامل اخرى هي التي تحدد مسار الحركة السياسية الإسلامية.

اذا كانت للإسلام السياسي, في أي مكان من العالم, اهداف مشتركة تستند الى بعض المبادئ الأصولية الإسلامية (Fundamentalism) من القرآن و احاديث الرسول, و بصورة عامة ذات طبيعة رجعية متعصبة و غير ديمقراطية. لكنه يختلف في اوجه كثيرة, ان جزءاً من هذا الإختلاف له علاقة بمدى اصالة هذه الحركات, هل هي جاءت استجابة للمتطلبات التي تفرضها المرحلة, ام هي مقلدة فقط و نشأت على ايدي الأجانب؟

اما الجزء الآخر لهذا الإختلاف فيأتي عن طريق كيفية قراءة النصوص الدينية و تفهمها.

عندما يتحول الإسلام كدين ينظم العلاقة بين الإنسان و ربه الى ايديولوجيا الدولة دخل في مشاكل المجتمع و ازمة السلطة. و ان فهم النصوص الدينية تجاوز حدود القراءة الفكرية و الدينية و النظرية البحتة الى الخضوع للإجتهاد الشخصي و لمصلحة العشيرة و المصلحة القومية و قضايا السلطة. ان تأريخ الإسلام السياسي قبل كل شيء هو تأريخ حافل بالمشاكل و الصراع على السلطة, حيث بدأ بعد وفاة الرسول الى انتهاء الخلافة العربية الإسلامية. ان تقلبات السلطة ادت الى خلق الخلافات و اشعال الحروب الدموية بين المسلمين. لم تخل الديانات الأخرى ايضا من نفس المشاكل. فظهرت مذاهب و مناهج سياسية مختلفة و مغايرة عن أخرى. لذا فإن التاريخ ليس عبارة عن الحروب الدموية بين الديانات فقط, بل في نفس الوقت هو حرب المذاهب التي تفرعت من هذه الأديان. لأن المذاهب كالديانات السماوية التي تعتبر نفسها فقط اصدق و اشرف الديانات. يعد نفسه ايضا مثالها, ومن تجاوزها فهو مرتد عن اصول الدين. و طبيعي ان ينتج ممثلوه السياسيين نفس العقلية.

اضافة الى ما تقدم فإن الإسلام السياسي ليس ظاهرة سياسية حسب, بل في نفس الوقت ظاهرة مذهبية ايضاً. لأنها مهما حاولت ان تطبع نفسها بالطابع الديني كله, لكنها تنتهج مذهبا اسلاميا فقط (شيعيا او سنياً) و اكثر من هذا, و في اطار هذين المذهبين تحدد نهجا خاصا بها (على سبيل المثال في مناخ الإسلام السياسي السني هناك الشافعي, الحنفي, الوهابي, و المالكي..) و بهذا المعنى فكل حركة اسلامية سياسية مهما حاولت تمثل الدين الإسلامي, او حتى ان تسترشده بحق, لا تستطيع ان تكون اكثر من ممثل سياسي لمنهج واحد فقط لمذهبي السني او الشيعي. لذا لا يحق لها ان تتحدث باسم الاسلام كله. او تحسب نفسها المثل الوحيد

للدين و لتبليغ الرسالة الإسلامية. لأن هذا الدين و كالديانات الأخرى تطفح بالمذاهب و الطرائق و الحركات الدينية المختلفة و المتصارعة ايضا.

و في الحقيقة فان اية قوة اسلامية سياسية تريد فرض مبادئها و قوانينها المذهبية عنوة على مجتمع متعدد الديانات و المذاهب ككردستان, و هذا ليس فقط تجنياً على حرية الإنسان بصورة عامة, بل تعدٍ الى انتهاك و تضييق حرية الديانات و المذاهب الأخرى لمواطني كردستان. و يمكن ان يؤدي هذا الموقف الى التقويض الروحي و الجسدي كما حدث في مدينة حلبجة[1] لذا فإن انتقاد الإسلام السياسي كحركة و ايديولوجيا سياسية لا يعتبر انتقادا للدين الإسلامي, لأنهما مسألتان مختلفتان تماما. ان انتقاد الإسلام السياسي له علاقة بظاهرة سياسية, ايديولوجية و اجتماعية ظهرت في زمان و مكان معينين, تطرأ عليه التغييرات شأنه شأن كل الظواهر السياسية و الإجتماعية الأخرى, و يمكن ان ينتفي تبرير استمراريته, و لكن الإسلام السياسي بصورة عامة, و الإسلام السياسي في كوردستان بصورة خاصة يخلط المسألتين بصورة عجيبة, و لم يأت هذا من عدم الدراية, بل من ورائه قصة سياسية عند اكثريتهم. او تريد هذه القوى خلق تصور عند المجتمع بأنها تمثل نخبة مختارة مدافعة عن الإسلام و المجتمع الإسلامي, و انها اصحاب الحقيقة و المرجعية الإسلامية.

كيف يتسنى لحزب سياسي ان يعتبر نفسه ممثلا و مدافعاً وحيداً للإسلام, و مرجعاً وحيداً لهذا الدين بينما تشكل نسبة الإسلام تسعين بالمئة في هذا المجتمع.

-4-

تحاول اية حركة سياسية او فكرية عند ظهورها, ان تبين مشروعيتها و اسباب ديمومتها في تاريخ هذا المجتمع. ان دراسة التاريخ و اعادة قراءته في ضوء الايديولوجيا, ليست ظاهرة جديدة, فكل حركة سياسية مستندة الى ايديولوجيا معينة, تحاول الاّ تكتفي فقط بالحاضر, بل تتعدى الى الماضي لمصلحة حاضرها و مستقبلها. و على هذا الأساس فإن التأريخ من الوجهة الايديولوجية, ليس ظاهرة موضوعية او اسبابا و حقائق وجدت او وقعت في مراحل باشكال مختلفة. بل هو الموضوع المستحدث تحت ضغوط الايديولوجيا من اجل مستلزمات الحاضر.

من هذين المنظورين الايديولوجى و السياسي يحاول بعض من الأحزاب الإسلامية و كتابها قراءة تاريخ الكرد الحديث و الحركة القومية الكردية مع اعطاء صبغة اسلامية لهذه الحركة, انهم ينعتون الحركات الكردية, من ثورة الشيخ عبيد الله النهري و ثورة الجمعية القومية - خويبون, في شمال كردستان سنة 1925, الى ثورة ايلول 1961 بالثورة الإسلامة القومية.

ان هذه القراءة للحركة القومية الكردية و انتفاضاتها, ليست فقط غير صحيحة و لا تتواءم مع المضمون السياسي و الايديولوجي و اسباب ظهور و اهداف تلك الحركات, بل هي حكم ايديولوجى يريد

ان يصور الواقع و التاريخ كما تتطلبه مصلحته الايديولوجية, و كذلك محاولة لمنح ثقل سياسي للجانب الديني للحركة الكردية على حساب الجانب القومي و الإجتماعي.

من المعلوم ان قيادة الحركات الكردية كانت تحت امرة شخصيات دينية مهمة (شيوخ الطريقة القادرية و النقشبندية) و يؤيدهم الاف من المريدين و الدراويش و المرشدين و المتعاطفين معهم. و كانوا في الوقت نفسه رؤساء للعشيرة و الطوائف و شخصيات اجتماعية مهمة. يمكن ان يكون اساس نفوذهم و تأثيرهم الاجتماعي قد جاء من اخذهم زمام السلطة الإجتماعية - العشائرية و الدينية في وقت واحد.

لا أدري ان كان الإسلام السياسي في كردستان يعتبر هاتين الطريقتين, و تراثهما ملكاً له و للإسلام ام لا. و لكن اذا كان قائد اية حركة ينفرد في تحديد هويتها و طبيعتها و اسباب ظهورها و اهدافها السياسة, اذا و بحسب هذا المنطق, تكون جمهورية كوردستان الديمقراطية في مهاباد "ثورة اسلامية" او هجينة من "الاسلام و القومية" لأن القاضي محمد كان شخصية دينية سنية معروفة, اضافة الى هذا, فكل علماء الدين في شرق كوردستان, شاركوا في الحركة القومية الكردية اكثر من الأجزاء الاخرى لكوردستان. جدير بالملاحظة ان القسم الأكبر من مؤسسي حزب (ژ.ك) و الحزب الديمقراطي كان من علماء الدين و الدارسين من التكايا و المراكز الدينية في كوردستان, و ليس من خريجي جامعة طهران او اوربا. و لكن بالإضافة الى ايمانهم بالإسلام, و تربيتهم الدينية و معرفتهم الإسلامية, كانوا من مؤسسي اول منظمة قومية و ليست اسلامية في كوردستان الشرقية.

في حين ان علماء الدين و خريجي المدارس الدينية, قد تظلموا كثيرا كإنسان و كعالم, لأنهم, بسبب مذهبهم السني, لم يتبوءوا من النظام الديني - الحكومي مكانة في ايران. و لكن الظلم هذا, و بالمقارنة مع الاضطهاد القومي قطرة من البحر.

لا ارى ضرورة البحث عن هذه الاحكام الجائرة هنا, لأن القارئ الكردي على علم بأن هذه الحركات و الإنتفاضات لم تكن بصدد تشكيل دولة اسلامية في كوردستان. و ان الإختلاف بين ايديولوجيا و النهج السياسي لهؤلاء القادة, و بين الإسلام السياسي الموجود الآن في كوردستان, هو بإمتداد طول المسافة بين السويد و كوردستان. و لكنني اورد كمثال فقط, شيئا عن اول "ثورة اسلامية قومية".

رحب الشيخ عبيد الله النهري بحرارة و ايمان سنة 1878عند نشوب الحرب بين الإمبراطورية العثمانية و روسيا, بفتوى خليفة المسلمين, و اعلن الجهاد ضد روسيا الكفار. لم يشترك الشيخ النهري بالأموال و المبالغ فقط, بل اشترك بجيش مسلح و ساند الـ(جهاد). و بعد ذلك بسنتين فقط اتهم الشيخ الخليفة بـ"الإنحراف عن الشريعة و الإسلام" و جمع من شرق كوردستان الواقع تحت سيطرة الإيرانيين و القسم المحتل تحت سلطة العثمانيين

جيشاً كبيراً لإجبار الخليفة لانتهاج الدين الاسلامي. اذا كانت القضية دينية فقط, فلماذا تراجع الشيخ النهري عن موقفه الجهادي و يضعف ايمانه و معتقده بخليفة المسلمين و في مدة سنتين فقط؟ و ما هو التغيير الديني الذي طرأ على جوهر الدين في الدولة العثمانية و على معتقدات الخليفة؟ و هل اراد الشيخ النهري ان يشكل في كردستان سلطة اسلامية بديلة لسطة الخليفة العثمانية و ايران؟ او شكلا آخر من الشريعة الإسلامية مختلفاً عن شريعة العثمانيين و الإيرانيين في كوردستان؟ و عند افتراضهما ما هو مضمون هذه الشريعة التي يجب ان تعتمد على المراجع الأساسية للإسلام (القرآن و احاديث النبي) و تنهل شرعيتها من هذه الأسس؟

اذا علينا ان نبحث عن اسباب اخرى غير السبب الديني, فقسم منها لها جذور تاريخية ذات علاقة بالإضطهاد المتراكم لكلتا الإمبراطورتيين. و القسم الآخر نتيجة للضغط الشديد, الإقتصادي و العسكري, الذي تبنته في تلك الآونة امبراطورية ايران و من ثم الإمبراطوريتين العثمانية في مناطق السادة النهرية. و من نتائجه ان بلغ الإضطهاد الإجتماعي و القومي و نهب الشعب الكردي ذروته على ايدي هاتين الدولتين.

و في نفس الوقت كان تهديداً مباشراً للسلطة و النفوذ الديني و الطائفي و الاقتصادي للسادة النهرية. هذه الأسباب لن تقلل من شرعية الثورة, و من تضحية القائد و المشتركين فيها و لا من مضمونها القومي ايضا.

هذه الثورة و الثورات الأخرى, كانت قبل كل شيء نتيجة المارسات الخاطئة للسلطات الأجنبية, و كذلك نتيجة الخلاف بين دولة محتلة و شعب مغلوب على امره, و قد ادى الى ازدياد الظلم السياسي. الإجتماعي, الإقتصادي و القومي على الشعب الكردي.

تتمتع القوى الإسلامية السياسية جميعاً بمجموعة اهداف مشتركة, لكنها تختلف في مجالات اخرى, و لكن الإختلاف هذا لن يلغي البنية المشتركة لايديولوجيتها و طبيعة عنفها و تعصبها و اهدافها المشتركة. و بالأحرى فإن اختلافاتها و حتى صراعات فصائلها, لن تقف بوجه سياستها المشتركة و ايديولوجيتها.

اذا كانت القوى الإسلامية في كوردستان نسخة مستنسخة من القوى الإسلامية العربية (و في مقدمتها الإخوان المسلمون) في افكارها و اسلوب عملها, او ان كانت افغانية, تبقى تحتفظ بهذه الخصوصية, و سوف نتناولها بصورة موجزة.

اولاً: ان الإسلام السياسي في كوردستان, بمنهجه الفكري و تطبيقاته السياسية التي يمارسها حتى الآن, تهديد للحرية و للهوية القومية الكردية. لأن الأحزاب الاسلامية تبني ثقلها السياسي فقط على الجانب الإسلامي للهوية الكردية. يحاول تغيير المحتوى العرقي - الثقافي بمحتوى اسلامي سياسي. و بهذا المعنى كونك مسلماً يلغي اختلاف اللغة و الثقافة و السايكولوجية بين (انا) الكردى و (الآخر) العربي و الفارسي و التركي المسلم, و بما ان الكرد لا

يملكون كياناً سياسياً يدافع عن هويتهم عند تهديدهم بهذا السلاح, فإن انتصار الإسلاميين في محاولاتهم تلك يمكن ان يؤدي الى انصهار الكرد في الأمم الإسلامية الحاكمة.

ان الهوية القومية للكرد قد تجسدت من خلال عمل نضالي طويل من مخاض الأنفال و القصف الكيمياوي. لم يرد الكرد على اضطهاد البعث بالإنتفاضة فقط, بل رسم خطأً داكناً بين الـ(انا) الكردي و (الآخر) الذي هو الدولة العربية العراقية. و من هذا الطريق منح الكرد معنى جديدا و ثقلا سياسيا نادرا لهويتهم القومية, لكن الهوية القومية ليست ثابتة. فبعد الحرب الاهلية و قعت هذه القومية, تحت التهديد و التقطيع. و لم يبق لها الوزن السياسي الذي تمتعت به ايام الإنتفاضة, تحولت الهوية القومية مقابل الدولة العراقية الى "هوية" (البارتي) مقابل (يكيتي)[2] او بالعكس.

في هذا المناخ, مناخ الإنجراح و تمزق الهوية القومية ليس فقط اتيح للإسلام السياسي الفرصة لنموه و توسعه بل ظهر كمهدد للهوية القومية ايضاً, لقد منح الدين ثقلا سياسيا كبيرا بينما للهوية الكوردية مضمونا اسلاميا سياسيا, و في حقيقة الأمر انها تجزئة جديدة للكرد و امحاء لاساس الهوية القومية, او انصهار في القومية الحاكمة.

ثانياً: هذه القوى لا تمثل هذا المذهب او ذاك فقط, بل تعتمد على ايديولوجية متعصبة لا تقبل الحوار و لا تتحمل العيش مع الأديان و المذاهب و الأفكار السياسية الأخرى. اقصد بالتعصب انهم في ممارسة العمل السياسي و في اسلوب الحياة و ادارة المجتمع ينهلون شرعيتهم من رسالة سماوية, بعبارة اخرى يعتبرون انفسهم نخبة سياسية منتخبة ينفذون الرسالة السماوية على الأرض بدلا من الله و رسوله. او انهم يمثلون الاله و ادوات رسالته, لإنجاز هذه الرسالة يمنحون الشرعية لكل اسلوب او منهج يتبعونه و من حقهم الالهي ان يحددوا مصير المجتمع و الانسان و شكل حياتهم الخاصة و الإجتماعية.

ان هذه الطروحات قديمة قدم الديانات السماوية. فكل من هذه الأديان كانت رسالة سماوية عند ظهورها و انزلت لشعب (منتخب) عند الله كما يدعون حتى يهدي الإنسانية و يتعهد بمصيرها. هذا الطرح , الذي يحتوي على تعصب اسلامي سياسي, قد انعكس بشكل آخر في ايديولوجيا بعض الأحزاب القومية العربية (مثل حزب البعث). و بديهي بأن هذا طرح خطير عندما يتصور شعب او قوة او جماعة نفسه على هذه الشاكلة. و لا ننسى بأن هذه الطروحات تزرع بذرة الفاشية و العنف و اراقة الدماء.

ثالثاً: ان الخصوصية البارزة لأكثرية القوى الاسلامية في كوردستان هي انها لم تكن ثمرة طبيعية للمجتمع الكوردستاني, بل ظهرت اما تحت تأثير ايديولوجيا سياسية للنزعة الاسلامية الشمولية, و الموجة السياسية الاسلامية, او بمساعدة الأجانب, لأن هذه القوى مهما بلغ تشابهها بالأحزاب و الحركات الاسلامية في الدول الأخرى في برنامجها السياسي و طبيعتها المتعصبة و ممارستها للعنف. تبقى اسيرة غير مستقلة في قراراتها السياسية, لذا

ليست لـديها قـراءة كرديـة لواقـع كوردسـتان. و لم تشغل مشكلة شعب كردستان الجنوبيـة مـع الدولـة العراقية حيزا اساسياً في اهدافها الرئيسة.

اذا قارنا الإسلام السياسي في كردستان مع بعض القوى الإسلامية العربية (مثلا حزب الله في لبنـان و منظمة الحماس في فلسطين) يمكننا ان نتعرف كثيرا على الخصوصية و الجوهر السياسي للقوى الإسلامية في جنوب كوردستان.

ان حزب الله و الحماس ينتهجان افكارا و بـرامج اسـلامية سياسـية واضـحة, لكنهمـا ينتميـان الى مذهبين مختلفين في الاسلام. و هما قبـل كـل شـيء قوتـان قوميتـان وطنيتـان, أي تناضـلان مـن اجـل حرية الشعب و الـبلاد حتـى قبـل النضـال مـن اجـل الإسلام[3] و تعتبران مصلحة الشعب و الـبلاد فـوق ايـة اعتبـارات اخـرى, و تنظـران الى حريـة الـدين و الرسـالة الدينيـة في حريـة بلادهمـا, كمـا تحترمـان طبيعـة التعدديـة الدينيـة و المذهبيـة لمجتمعهمـا, و تحافظان على القانون و دستور الدولة. ان النضـال و الشهادة عند هذه القوى الإسلامية في سبيل الـدين و الوطن هما عملية واحدة. يقول حسن فضل الله بهذا الصـدد: ان التحـام المسـألة الدينيـة و الوطنيـة هـو عماد خطاب المقاومة الإسـلامية في لبنـان, و في هـذه المقاومة تكون الشهادة باسم الدين, مع انها شـهادة في سبيل الوطن.

ان منظمـــة الحمـــاس الفلســـطينية تنظـــر الى القضية الفلسطينية و الإسـرائيلية بـنفس المنظـور. لـذا فـإن الحمـاس, لم تغـير مسـار حربهـا مـع الدولـة الاسرائيلية الى المواجهة مع حكومة عرفات من اجل السلطة او تطبيق احكام الشريعة. مهما تكـن الأفكـار و المـنهج السياسـي للحمـاس, الا انهـا و في الوقـت الحاضـر, اعطـت اولويـة اهـدافها لمصـلحة فلسـطين و حريتــه, و لــيس لتطبيــق الشــريعة او النزعــة الإسلامية الشمولية او لمصلحة دولة اجنبية.

-6-

القوى الإسـلامية في كوردسـتان بنهجها السياسـي بعد الإنتفاضة, و ضعت شـرعية العمـل و ديمومتها تحت الأسئلة, ان لم تكن قد خسرتها. انـني لا اقصـد بشرعية العمل ذلك القرار السياسي الذي يصدر مـن سـلطة سياسـية لحـزب معـين. و لـو انهـا تعـبر عـن الهيبة و السياسة الداخلية لهذه السلطة. بـل اقصـد بهـذه الشـرعية مجموعـة مـن الأهـداف السياسـية, الاجتماعية, القومية التي هي مـن وراء تأسـيس ايـة منظمة سياسية. بمعنى آخـر, كـل حركـة و منظمـة سياسية, سواء كانت اسلامية او قوميـة او شـيوعية او ليبراليـــة.. الخ و تـــأتي شـــرعيتها في الأهـــداف و الرســالة السياســية و نهجهــا و اعمالهــا الى أي مــدى تعمل هذه القوة السياسية لخير و سعادة الجماهير و من اجل تقدم المجتمع و حريـة الانسان؟ الى أي حـد يرفع عن كاهل المواطن الاضطهاد و الظلم؟ في المنـاخ الحـالي لجنـوب كوردسـتان, مـن الأهميـة بكـثير ان تعمـل القـوى السياسـية مـن اجـل اصـلاح المشـكلة القائمـة منـذ ثمـانين سـنة بـين الدولـة العراقيـة و شعب كوردسـتان الجنـوبي لصالح كوردسـتان, و هـل قامـت هـذه القـوة بمـا يمليـه عليهـا ذلـك المنـاخ

السياسي؟ انها مسألة اساسية تقع قبل المصلحة الحزبية, الايديولوجية, الدينية و الطائفية. كيف تحاول ان توحد الشعب الكردي بوجه الدولة العراقية مع كل الاختلافات الدينية و المذهبية, الايديولوجية و الحزبية و الطائفية في اهدافها؟ ان هذه الشروط و المطاليب تشمل الأحزاب و القوى الكوردستانية قاطبة.

ان مشكلة الكورد في الوقت الحاضر ليست في تطبيق الشريعة الاسلامية او اختيار السلطة البروليتارية او النظام الليبرالي. بل تنبع هذه المشاكل من عودة سلطة دولة الأنفال[4].

ان كوردستان قبل ان تصبح ساحة حرب و صراعات بين الأحزاب و الايديولوجيا و الطبقات و المذاهب يجب ان تكون كوردستان بمعنى تتمتع بالحرية و الفضاء الجغرافي و الكيان الدستوري المعترف به و المستقل او الفدرالي. ان حل هذه القضية يعادل ما هو لصالح الكرد و تقدم المجتمع الكردي, النضال السياسي الديني و الاجتماعي و الطبقي ايضا. بهذا المنظور, اذا لم تتحول القوى الاسلامية في كوردستان الى عامل مهم في حل هذه القضية لصالح الشعب الكوردي, عليها ان لا تقع في اخطاء ايجاد العراقيل الجديدة و خلق النزعات العدائية بين الأطراف الكردية.

انني على يقين بأن الدين و السياسة مسألتان مختلفتان, و ليس في مقدور اية قوة او جماعة ان تضمن مبادئ حرية الانسان و المجتمع المدني و التقدم بدون فصل سلطة الدين من سلطة الدولة, و من اراد الاشتراك في عملية تقدم المجتمع و تثبيت مبادئ الحرية و العدالة عن طريق الايديولوجيا و المنظمات السياسية الدينية, عليه ان يكون حرة كالعلمانيين, و لا يحق له ان يستعمل الحرية ضد الحرية نفسها, ان الحرية لأي فرد او لمجتمع ككل عليها ان تكون من اجل الأفراد و من اجل الكل, و ليس في فرض لون واحد و شكل واحد للحياة او لفرض سلطة حزبية معينة او مذهب او ايديولوجيا سياسية واحدة.

هل يستطيع الاسلام السياسي في كوردستان, الذي يمثل مذاهب و مناهج دينية مختلفة, و في مجتمع متعدد الديانات و المذاهب, و الايديولوجيا و المنظمات السياسية, ان يحافظ على مبادئ الحرية و يحترمها؟ هل يستطيع ان يقتنع بالطرح الديني - السياسي الذي يؤمن بأن النضال الديني في بلد محتل. يبدأ من النضال في سبيل حرية هذا البلد؟

الهوامش

1-حلبجة مدينة كوردية في كوردستان الجنوبية و متاخمة للحدود الايرانية. تقع شرقي محافظة السليمانية, مشهورة بجبالها الطبيعي و شعرائها الكبار. قصفتها القوات العسكرية العراقية بالطائرات في 16 مارس سنة 1988 بالسلاح الكيمياوي و راح ضحيتها خمسة الآف شهيد من المدنيين الأبرياء بالأضافة الى آلاف المشوهين و المشردين و المصابين بانواع الأمراض النفسية و الجينية. و اصبحت مأساة المدينة صورة دامغة امام المجتمع الدولي للجرائم البشعة التي ارتكبها هذا النظام الدموي. -المترجم-

2-(البارتي) P.D.K (الحزب الديمقراطي الكردستاني) و (يەكێتی) P.U.K (الإتحاد الوطني

الكردستاني) حزبان كورديان في كوردستان الجنوبية. تقاتلا بعد الإنتفاضة من 1994-1997 و قسما الادارة الكوردية الموحدة الى ادارتين منفصلتين تسمى الادارة التي يحكمها الاتحاد الوطني الكوردستاني بإدارة "السليمانية" و الادارة التي يحكمها الحزب الديمقراطي الكوردستاني بإدارة "اربيل". و قد اتفقا بعد الضغط الجماهيري و بروز علامات الخطر من لدن الدول المجاورة و اعداء الشعب الكردي لتفتيت التجربة و ازاحتها, لتوحيد البرلمان الكوردي المنتخب مرة اخرى و الاتفاق حول مجموعة من المهام و المستجدات الخطيرة و المشتركة و لاسيما التعاون مع دول الحلفاء لإسقاط النظام البعثي العراقي و رئيسه الدكتاتور صدام حسين عام 2003. -المترجم-

3-ليست للحركات و القوى الاسلامية السياسية في جميع البلاد الموجودة فيها خصوصيات قومية او محلية. انها تخضع لفكر شمولي يتجاوزحدود بلادها الى الأمم و الشعوب الأخرى لذا فإن الحماس و حزب الله لن تستثنيا من هذه القاعدة. انهما تحاربان الدولة الإسرائيلة لتبنيها الدين اليهودي فقط. و لأنها غاصبة اراضي اسلامية شعبا ومسلما. و لا ننسى بأن العلاقة و التلاحم الكبير بين الاسلام كدين و العرب كقومية ليس بنفس العلاقة بين الشعوب الاسلامية غير العربية مع هذا الدين. -المترجم-

4-"الأنفال" ما عدا التسمية الدينية التى وردت في سورة من سور القرآن اصبحت مصطلحاً عسكرياً لعمليات الابادة و القصف بالسلاح الكيمياوي لأكثر من 180 الف مدني كردي شيوخاً و اطفالاً و شبانا. دمرت حكومة البعث العراقي سنة 1988 قراهم و ساقتهم الى الصحراء الغربية و منطقة عرعر و دفنتهم في قبور جماعية و هم احياء من مناطق مختلفة من الصحراء و قرب مدينة كركوك و مناطق اخرى. وقد اسمت السلطة العملية باسم -الانفال- السيئة الصيت نسبة الى تلك السورة القرآنية التي تقول (و يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول فاتقوا الله و اصلحوا ذات بينكم ان كنتم مؤمنين) و كان ابن عم صدام حسين المدعو (علي حسن المجيد) على رأس العملية القمعية و اشتهر بعدها بـ (علي الكيمياوي) نسبة الى استعمال السلاح الكيمياوي في مدينة حلبجة و القرى و القصبات الاخرى في كوردستان و في تلك الفترة بالذات بدأت العمليات في 23 شباط 1988 و انتهت في ايلول 1988 و بثماني مراحل. اشترك فيها آلاف من افراد الجيش العراقي من رجال المشاة و الدروع و المدفعية و طيران الجيش و الهندسة و قيادة الفيلق الأول و الخامس و قيادة قوات جحفل الدفاع الوطني و قوات القعقاع و البدر و المعتصم و الحرس الجمهوري و قوات الأمن و الجيش الشعبي و مرتزقة الكرد. —المترجم-

*د. رفيق صابر شاعر وكاتب كردي

*المصدر: الثقافة والقومية، دار سردم للطباعة والنشر، السليمانية، 2003.

عرّاب من تكريت

فصل من كتاب "صدام حسين و الأزمة في الخليج "

- تأليف جوديث ميللر و لوري مايلروي

➢ ترجمة: آزاد برزنجي

نشرت الكاتبتان – جوديث ميللر نائبة رئيس تحرير جريدة نيويورك تايمز– و لوري مايلروي الخبيرة في مركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة هارفرد كتابهما الذي يحمل عنوان "صدام حسين والأزمة في الخليج عام 1990 عن مؤسسة Random House اثناء احتلال صدام دولة الكويت و قد سلطت الكاتبتان الضوء على شخصية صدام ونظام حزب البعث الذي قاد العراق ذا التاريخ العريق و الثروة الهائلة الى الخراب و المجاعة و التفكك.

في عام 1979 اصبح صدام رئيساً للجمهورية, و رافقت مجيئه الى الحكم اعمال عنف و سفك دماء و ادخال الرعب و الخوف في نفوس الناس. كان يعد الدقائق و الثواني طوال احد عشر عاماً لكي يرى هذا اليوم, و ضحى في سبيل تحقيق هدفه هذا بالغالي و النفيس, لذا لم يكن سهلاً عليه الا يستهل حكمه باستعراض لقوته وطيلة احد عشر عاماً كان تحت وصاية ابن خالته الاكبر منه, احمد حسن البكر الذي كان يتولى منصب رئاسة الجمهورية و الامين العام للحزب, لكنه لم يكن وفياً حتى لولي نعمته, و كان يحيك الدسائس ضده في الخفاء, عندما كان نائباً لبكر بذل جهوداً كثيرة لتشكيل منظمة سرية موالية له و كان موفقاً في محاولته تلك. و لكن بالرغم من اعمال القمع التي كان يمارسها رجاله ضد المناوئين للنظام, و لاسيما ضد الشيعة, كانت المعارضة تقوم بنشاطاتها بشكل بارز للعيان, بحيث يبلغ توتر الاوضاع احياناً درجة من الشدة, يؤدي الى اثارة اعصاب صدام. كان للثورة الاسلامية في ايران بقيادة اية الله الخميني اثر كبير على الشيعة في العراق, حيث جددت فيهم روح النضال ضد النظام.

و بدأ صدام يلقي اللوم على المؤسسات الامنية و اعضاء الحزب لتعاملهم المرن تجاه الشيعة, طالبهم باستخدام الشدة تجاههم, و البكر لم يكن مع سياسة العنف و الشدة. اما صدام فقد اصر على وجهة نظره هذه. و كانت معاداته للشيعة تزداد يوماً بعد يوم. و الشيعة كانوا بدورهم يلتحقون بالجناح المعادي لصدام في الحزب, و يتعاونون سراً مع ضباط موالين لهم في الجيش. في هذه الاثناء, كان حزب البعث ممسكاً بزمام الحكم في كل من العراق و سورياو و كان البلدان ينويان الاندماج معاً ليشكلا قطراً عربياً موحداً. و كان صدام في بادئ الامر متلهفاً لهذا المشروع. و بدأ زعماء كلا القطرين يخطوان الخطوات العملية للوصول الى تلك الوحدة المنشودة. و كان رئيس النظام السوري حافظ الاسد تربطه روابط حميمة بأحمد حسن البكر, و تجمعهما وجهات نظر عديدة مشتركة, و يدافع الواحد عن الثاني دفاعاً شديداً في المؤتمرات الدولية و كان صدام يشجعهما على ذلك, و الهدف من وراء تشجيعه هذا, هو ابعاد (انور السادات) من المسرح السياسي في العالم العربي. حيث كان انزعاجه كبيراً من توقيع مصر اتفاقية السلام بمفرده مع اسرائيل, و كان يروم خلق اوضاع تدفع بالدول العربية الى مقاطعة مصر. في شهر تشرين الثاني لعام 1978 و في اثناء انعقاد مؤتمر لرؤساء الدول العربية في بغداد, ندد صدام بالكويت و قال بأنه سيشن ضدها عمليات عسكرية ان لم تقم بقطع علاقاتها بمصر. و اتخذ حافظ الاسد الموقف نفسه محذراً الملك فهد: "سأجعل الحرب تدخل غرفة نومك".

اخيراً نجح صدام و الاسد في تهديداتهما, و توصلت الدول المشاركة في المؤتمر الى اتفاقية قطعت بموجبها جميع الدول العربية علاقاتها بمصر. و قبل تحقيق الوحدة الفعلية بين سوريا و العراق بمدة وجيزة, تأكد صدام ان هذه الوحدة لن تكون في صالحه شخصياً, و تقلل من شأنه, و تخلق عقبات امام طريقه الى كرسي الرئاسة, لانه طبقاً للاتفاقية المذكورة, كان من المقرر ان يصبح احمد حسن البكر رئيساً لتلك الجمهورية المتحدة, و يشغل الاسد منزلة نائب الرئيس, و كان من شأن هذه الاتفاقية ان تجعل من صدام الذي يعتبر الرجل الثاني في العراق, الرجل الثالث في الجمهورية المقبلة, و هذا ما لا يقبل به, لذا بدأ يخلق العراقيل و المعوقات امام هذا المشروع, محاولاً ازاحة البكر من كرسي الرئاسة و احتلال موقعه. و لتحقيق غايته هذه قام و بالتعاون مع بعض افراد العائلة (بضمنهم خير الله و عدنان) بمؤامرة كبيرة اجبر بموجبها البكر على التخلي عن الرئاسة, و ذلك بتقديمه الاستقالة من منصبه, فاعلن استقالته بصورة رسمية في 16 تموز عام 1979, مبرراً اياها بتردي اوضاعه الصحية و ضعف قدراته الجسمانية. و كان البكر قد سبق ان بعث برسالة الى نظيره السوري حافظ الاسد, قبل الاعلان عن استقالته, مطالباً فيها الاسراع في تنفيذ مشروعهما توحيد القطرين, و قد ورد في الرسالة:

"هناك مؤامرة كبيرة تحاك ضد الوحدة المنشودة لقطرينا, هذه الفسيلة التي لم تعط ثمارها بعد".

باستقالة البكر, اصبح طريق الرئاسة امام صدام مفتوحاً و تم اخياره فعلاً رئيساً للجمهورية في 20 تموز, و فور تسلمه منصب رئاسة الجمهورية و القائد العام للقوات المسلحة و الامين العام للحزب و اسرع في الاجهاز على كل المعارضين له, بشكل لم يسبق له مثيل.

في 22 تموز الذي صادف اول ايام حكمه, و جه صدام دعوة الى اعضاء الحزب القياديين للمشاركة في اجتماع طارئ, و قد تمكنا من الحصول على الشريط الصوتي لهذا الاجتماع, كما افادنا شخصان كانا ضمن الحضور في حصولنا على معلومات وافية عن هذا الاجتماع, و قد تحدثنا معهما باسهاب. استأنف (محيي عبدالحسين المشهدي) امين سر مجلس قيادة الثورة الحديث في الاجتماع, و بدأ يقرأ بصوت مرتجف وثيقة اعتراف كانت قد اعطيت له سابقاً يعترف فيها بذنوبه خاتماً اياها بطلب العفو و المغفرة من صدام. و كان المذكور متهماً بتورطه في مؤامرة لم تمر عليها الا ايام قلائل, و من ثم اعقبه صدام بخطاب القاه بصوت جهوري, ركز فيه على ان النظام لن يغفر عن المتورطين في المؤامرة التي كشف النقاب عنها قبل فترة قصيرة, و لابد من انزال القصاص بالمتواطئين مع العدو و القضاء على المتآمرين, و اضاف قائلاً:

(ان نظامنا على قدر كبير من اليقظة, و لن يسمح للخونة بتحقيق مآربهم الخسيسة و القذرة. ان اهدافنا كبيرة و مقدسة. ما الذي يدفع شخصاً كمحيي عبد الحسين الذي يعتبر نفسه من الشيعة الى التورط سراً مع اسد في محاولة للقضاء على النظام؟ نحن يقظون تماماً, و نراقب الخونة و اعمالهم, و سوف اقرأ الآن قائمة باسماء مجموعة من الاشخاص, الكثير منهم موجودون حالياً في هذه القاعة. و كل من يسمع اسمه: عليه ان ينهض فوراً, و ان يردد شعار الحزب, و من ثم يغادر القاعة. ان هؤلاء الاشخاص لا يستحقون شرف العضوية في الحزب, و لابد من انزال العقاب بهم.) و من ثم بدأ صدام بقراءة الاسماء الموجودة في القائمة, و الذين لم يأت ذكر اسمائهم تنفسوا الصعداء.

بعد الانتهاء من قراءة الاسماء, علت اصوات الحضور الباقين في القاعة مرددين: يعيش صدام, يعيش صدام. من ثم استأنف صدام الحديث مجدداً, لكنه و بتأثير من مشاعره المتوترة لم يتمكن من الاستمرار في حديثه, و فاضت عيناه بالدموع, فأثرت هذه الحالة في الحضور, و نشج معظمهم ببكاء مرير, و بعد لحظات من الصمت و الهدوء, اخرج صدام منديلاً من جيبه, و مسح به دموعه, و استمر في كلامه متحدثاً عن الآمال و الاهداف القومية للعرب و في نهاية حديثه طلب من الحضور القيام و ابداء ارائهم و اعتراضاتهم, و لكن من كان يتجاسر ان يقوم و يعترض على اقوال طاغية كصدام, في النهاية قام ابن عمه علي حسن المجيد و بدأ بكلام مدح و تبجيل, و طلب من صدام عدم التقصير حيال خونة النظام و معاقبتهم اشد عقاب. و الذين قاموا بعده نسجوا على نفس المنوال, و اخذوا يتملقون و يتزلفون اليه, و انتهى الاجتماع بشعارات تنادي بحياة صدام.

بعد مرور ايام قلائل على هذا الاجتماع, قام صدام باستعراض آخر لقوته, و استدعى اعضاء الحزب جميعاً للحضور في مراسيم عقاب خونة الوطن و الحزب على حد تعبيره, و في اليوم ذاك امر باعدام الكثير من اعضاء الحزب شنقاً حتى الموت, و كان معظمهم من الشيعة, منهم (محمد محجوب) عضو مجلس قيادة الثورة, (محمد عايش) رئيس اتحاد نقابات العمال, و (بدن فاضل) نائب رئيس اتحاد نقابات العمال, و (غانم عبد الجليل) عضو مجلس قيادة الثورة واحد مرافقيه المدعو (طالب الشوولة) و هو اردني الاصل, و (وليد محمود سيرت) احد كبار الضباط و المعارضين لصدام و (عدنان الحمداني) نائب رئيس الوزراء الذي كان خارج العراق و القي عليه القبض فور عودته و بات في صفوف المشنوقين.

هناك من يعتقد بأن صداماً قد نفذ احكام الموت بحق ما لا يقل عن 500 شخص في اليوم الاول بالضبط من تسلمه السلطة, و نجح منذ الوهلة الاولى في ادخال الرعب الى نفوس مناوئيه.

في عام 1971 ادلى صدام بتصريح لاحد الصحفيين حيث جاء فيه: (لقد خلت تلك الايام التي كان يتجمع فيها افراد لكي يقلبون نظام الحكم و يتسلمون زمام السلطة بدلاً عنهم, ان حزبنا حزب مقتدر, و لن يسمح من الآن فصاعداً بالعمليات الخيانية الهدامة).

في الفترة الزمنية الواقعة بين عامي 1920 و 1979 كان عدد المحاولات الانقلابية الناجحة منها و الفاشلة في العراق هو 13 محاولة, و كان صدام قد عقد العزم على ان يكون انقلاب حزب البعث هو الانقلاب الاخير و النهائي.

يقول سمير الخليل (أي كنعان مكية - م) مؤلف كتاب (جمهورية الخوف) كاشفاً النقاب عن اسرار ما وراء الكواليس و الممارسات القمعية لمؤسسات صدام, يقول في كتابه المذكور:

(الجميع مخبرون في نظام صدام, و الجميع على ارتباط بالمؤسسات الامنية بشكل او بآخر. و معظم اعضاء الحزب هم كتاب تقارير سرية اصلاً).

و يقول احد السياسيين المقيمين سابقاً في العراق, معرباً عن وجهة نظره حول الموضوع: (في نظام صدام, يتولى 3 ملايين من كتاب التقارير السرية شؤون 11 مليون مواطن).

ربما يبدو هذا الرقم مبالغاً فيه عند الوهلة الاولى, و لكن مجرد القاء نظرة عامة على المنظمات الامنية المتعددة و التابعة لوزارة الداخلية يثبت لنا صحة هذا القول. ان وزارة الداخلية في العراق هي اكبر الوزارات (من جملة 25 وزارة) و اوسعها ملاكاً.

و قد ورد في المقارنة التي قام بها مؤلف كتاب "جمهورية الخوف" ان عدد رجال الامن و كتاب التقارير المنتشرين في ارجاء البلاد, حيث يمتهن اغلبهم اعمالاً اخرى, يفوق عدد رجال الامن في نظام شاه ايران سابقاً, قياساً الى عدد السكان في البلدين, حيث يبلغ عدد منتسبي مؤسسات الامن في العراق ضعف عدد منتسبي الامن في نظام شاه.

في عام 1984 بلغ عدد الاعضاء الرسميين لحزب البعث 25 الف عضو, كما بلغ عدد مؤيدي الحزب مليوناً و نصف مليون شخص.

و كانت العضوية في الحزب شرطاً لتبوؤ بعض المراكز المهمة. و كان المتبوؤن لهذه المراكز يترددون و بشكل منتظم على جلسات الحزب و اجتماعاته, و البعض منهم يكتب تقارير تجسسية للحصول على امتيازات اكبر. و بافتراض ان لكل عضو من اعضاء الحزب تأثيراً في اربعة آخرين من افراد اسرته لكسبهم الى جانب الحزب, نرى ان عدد الموالين للحزب يقترب من نصف عدد سكان القطر. و اذا القينا نظرة على العاملين في القطاع العام التابع للدولة. نراهم ملزمين بتنفيذ اوامر حزب البعث, هذا عدا افراد الشرطة, و الجيش, و منتسبي الامن و الجيش الشعبي, و هكذا نصل الى نتيجة مفادها ان (50٪) من القوة العاملة في القطر على اتصال وثيق بالحزب بشكل او بآخر, و ملزمة باطاعتها له و بتنفيذ اوامره. و ان هذا لعدد هائل لمجتمع يشكل فيه سكان المدن 65٪ من العدد الاجمالي للسكان. في اوائل القرن التاسع عشر, كتب ماركوس دي كوستين في دفتر مذكراته اثر عودته من روسيا:

(ان قيصر روسيا يمارس القوة و الجور ضد شعبه, و يفرض عليهم افكاره, لكن المثير للعجب هو صمت الشعب الروسي ازاء هذا الظلم و الجور؟ اني لمستغرب امام هذا الصمت. اليس اتخاذ الصمت ازاء الظلم هو نفسه ضرب من الظلم؟

ان الناس المظلومين و الصامتين الذين يستسلمون لجميع انواع الذل و الاهانات و ينصاعون الى جميع القرارات و الاحكام غير القانونية, يحفرون قبورهم بايديهم. لا ريب ان قيصر رجل طاغية و دكتاتور, لكن المسألة تكمن في انه ليس المسؤول الوحيد عن الظلم و القمع الموجودين, بل يشاركهم الشعب في تقوية اركان هذا النظام القمعي).

ان هذا الرأي قد لا يكون صائباً تماماً, لكنه يحمل الكثير من الحقيقة في نفس الوقت, و يقول احد علماء الاجتماع بهذا الصدد:

(المشكلة هي ان الناس يقبلون التعسف بسهولة, و قبولهم هذا يزيد من ترسيخ دعائم الدكتاتوريات, فلو كانت ممارسة السلطة تنحصر على الطغمة الحاكمة, لكان القضاء عليها سهلاً. لكن المشكلة هي ان الناس كلهم يتآزرون معاً في دعم النظام و تقويته, فلولا تعاون الشعب مع تلك المجموعة التي تسمي نفسها بالسلطة, و لولا المتجسسون و الجلادون, لما كان باستطاعة هؤلاء التحكم في شؤون الناس و اضطهادهم. في كل نظام دكتاتوري, ليس الدكتاتور وحده سبب الظلم و الاستبداد الموجودين, بل كذلك الناس الذين يقدمون الدعم و العون للسلطة و يتعاونون فيما بينهم بشكل او آخر لتقوية مؤسساته).

في عام 1978 كان اكثر من (150) الف شخص يعملون بصورة مباشرة او غير مباشرة في وزارة الداخلية, و هذا عدد كبير قياساً الى سكان العراق, و يشكل (23٪) من المجموع الكلي للسكان.

في حينها ارسلت المانيا (الشرقية) التي اشتهرت مؤسساتها البوليسية بعنف لا مثيل له, عدداً من الخبراء في سلك الامن الى العراق بهدف تدريب العراقيين في ذلك المجال و تعليمهم. لذا نرى ان

العاملين في جهاز الامن في العراق و بتقليد من شرطة المانيا (الشرقية) يتنصتون عبر الاسلاك على مكالمات الناس الهاتفية, و يفتحون رسائل الناس قبل ايصالها اليهم, و ينصبون اجهزة الانصات السرية في بيوت كبار الساسة و الشخصيات المعروفة. فهل الصدام وحده يقوم بهذه الاعمال؟ بالطبع لا, بل القائمون بهذه الاعمال هم الناس بعينهم, و هكذا يعدون حقيقة ضمن الزمرة الحاكمة.

هنا و لكي يكون القارئ الكريم على اطلاع اكبر, نتحدث و لو بايجاز عن منظمات الامن المختلفة في العراق, كل على حدة:

1-دائرة المخابرات العامة:

التنظيمات التابعة للمخابرات العامة كانت مرتبطة سابقاً بمنظمة الحزب السرية (جهاز حنين) ارتباطا وثيقاً, المنظمة التي اسسها صدام عام 1980 و المهمة الرئيسة لهذه التنظيمات هي التحقيق في الشؤون الامنية داخل القطر و خارجه. و في الفترة ما بين 1974 و 1983 كان الاخ غير الشقيق لصدام "برزان ابراهيم التكريتي" يتولى رئاسة هذه المنظمة, و من ثم انيطت هذه المسؤولية بـ"فاضل البراك" ابن خالة صدام.

2-دائرة الامن الداخلي

و مهمتها الحفاظ على شؤون الامن داخل القطر, و نادراً ما تتدخل في الشؤون الامنية الخارجية, و لحين تاليف هذا الكتاب, يتولى اخو صدام الاصغر "وطبان" رئاستها.

3-دائرة الاستخبارات العسكرية

و مهمة تنظيماتها مراقبة تحركات العسكريين, و امور اخرى كالتحقيق في المشتبه بهم, و كذلك مراقبة افراد عوائل العسكريين داخل و خارج القطر. و قد شكلت هذه المنظمة و بالتعاون مع دائرة المخابرات العامة. شبكة ارهابية على الصعيد الدولي, تنحصر مهامها في اغتيال المعارضين للنظام خارج العراق, و اختطاف و احتجاز الشخصيات, محققة بذلك ماكان يرمي اليه صدام حينما قال ذات مرة:

(ان ايدينا تطال على اعدائنا اينما كانوا).

قام افراد هذه المنظمة باغتيال الكثيرين من مناوئي النظام في عدة بلدان منها لبنان, و سوريا, و مصر, و السودان, و بريطانيا و امريكا, و ادانت المحكمة البريطانية ذات مرة العاملين في الملحق العسكري العراقي الذين كانوا على صلة بهذه المنظمة, لتورطهم في حادث اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن المدعو (شلومو اركوف).

4-دائرة الامن الخاص:

و مهمتها الرئيسة السيطرة على ايداعات البنوك الخارجية و تمويل المشاريع التي تهدف الى احباط مؤامرات المعارضين للنظام خارج العراق, و يتولى الاشراف على هذه المنظمة صهر صدام (حسين كامل المجيد).

5-دائرة امن الحزب:

و تتكون من شبكة مخابراتية كبيرة مهمتها ضبط اعضاء الحزب في جميع انحاء البلاد.

هذه المنظمات التي اوردناها هي غيض من فيض. فهناك بالاضافة الى هذه المنظمات, تنظيمات

اخرى كبيرة, كالشرطة, و حرس الحدود, و دائرة التحقيق في شؤون الاجانب.. الخ.

و قد نشرت لجنة الدفاع عن حقوق الانسان - قسم الشرق الاوسط تقارير تقشعر لها الابدان حول اضطهاد و انتهاك حقوق الانسان في العراق.

جاء في احد هذه التقارير المنشورة عام 1990 ما يأتي:

(ان حزب البعث في العراق قام بتحويل الشعب الى مخبرين سريين, ان الحزب يطالب اعضاءه بمراقبة تصرفات لجيران المشكوكة فيها, بل حتى مراقبة افراد عوائلهم, و تقديم التقارير السرية عن كل الامور المثيرة للشك و الريبة.

ان العاملين في حقل التعليم مبلغون بانتمائهم الى الحزب و مراقبة سلوك الطلاب و اولياء امورهم و زملائهم في العمل و القيام بتقديم المعلومات الكافية عنهم, و هكذا, فالاستاذة يتجسسون على اولياء امور طلابهم, و يكتبون عنهم التقارير الى الحزب ان دعت الحاجة الى ذلك, و قد و صل العار الى حد, يخشى الولدان التحدث بحرية في حضور ابنائهما, و يكتمان منهم افكارهما. و من يتخلف عن كتابة التقارير, يعرض نفسه للتوبيخ و التنبيه).

ذات يوم, كانت افراد عائلة ما ملتفين حول بعضهم, يتكلمون عما طاب لهم من المواضيع, وبدأ واحد منهم بتوجيه انتقادات لاذعة الى صدام و ممارساته اللاإنسانية. و هو مطمئن من انه لاوجود لمخبر بينهم. و في اليوم التالي داهم رجال مسلحون الدار و قاموا باعتقال الرجل المذكور, كما أخذوا معهم صاحب الدار و اوقعوه تحت تعذيب شديد, مؤكدين على ان عدم اعطاء المعلومات عن المخربين يخضع لعقاب شديدو اما توجيه الاهانات و الشتائم الى شخص السيد الرئيس (صدام حسين) فخطيئة لا تغتفر, و تكون عقوبته في بعض الاحيان الاعدام, و طبقاً لاحد التقارير الواردة الينا, تعد العقوبة الجماعية في العراق من الامور العادية جدا, ففي المناطق الكردية دأب النظام على انزال العقوبة الجماعية بحق الكرد متهما اياهم بتوجيه الاهانات الى النظام, او مداهمة ثكنات الجيش, فويل للمتهم الهارب من يد النظام, اذ يستخدم رجال النظام جميع الاساليب الوحشية بحق زوجته و اطفاله الصغار بتعريضهم للتعذيب او الاعتداء عليهم بغية انتزاع المعلومات منهم, او اجبار الهارب على العودة لتسليم نفسه الى سلطات النظام.

و هكذا فالاعتداء على زوجات المعارضين للنظام و بناتهم شيء شائع بين رجال امن حزب البعث, و كذلك يعد ابعاد الاشخاص عن ذويهم و تغييبهم اسلوباً آخر من اساليب امن صدام, فكثيرون هم الذين خرجوا من دورهم صباحاً و لم يرجعوا اليها ابداً, دون ان يعلم احد عنهم شيئاً, و احياناً يختطفون شخصاً ما, و بعد ان يقتلوه تحت التعذيب, يكتبون في بطاقة وفاته, انه مات في حادث سيارة او حريق.. الخ و يعيدون جثة المقتول الى اسرته في تابوت مختوم بالشمع الاحمر, و الهدف من ختم التابوت بالشمع الاحمر هو عدم رؤية آثار التعذيب على الجثة من قبل ذويه, كما تتم مراسيم دفن الجثة تحت

مراقبة رجال الامن و الانكى من ذلك كله, ان النظام يطالب اهل الضحية بالمبالغ التي انفقها عليه في السجن, و تحت التعذيب, و ثمن الرصاصات التي اطلقت عليه. ان الكرد الذين يتبعون مذهب السنة و يشكلون (20٪) من سكان العراق و يطالبون بالانفصال عنه, ذاقوا اكثر من غيرهم المرارة على نظام صدام, ابان الحرب العالمية الاولى, قطعت الدول المنتصرة عهدا بتشكيل حكومة مستقلة لكرد العراق و تركيا و ايران, لكنها لم تف بوعدها, و لم يتحقق حلم الكرد بتشكيل تلك الحكومة الكردية المستقلة رغم نضالهم الطويل و المرير, لكنهم لم ينسوا حلمهم هذا, و مازالوا يناضلون من اجل تحقيقه. ان نضال الكرد ضد النظام العراقي له تأريخ طويل و ليس وليد اليوم او الأمس و لم ينحصر نضالهم ضد نظام صدام, بل لقد حاربوا كل الانظمة السابقة التي لم تعترف بحقوقهم كشعب, و لكن نظام صدام كان اكثر الانظمة وحشية و ارهابا ضد الكرد.

انه (أي صدام) استخدم و للمرة الاولى الاسلحة الكيمياوية ضدهم و اقام فيهم المجازر الجماعية و دمر قراهم و بيوتهم, و لعله اول رئيس دولة في التاريخ يستخدم الاسلحة الكيميائية ضد شعبه.

ان صداماً لا يقيم وزنا لحقوق الانسان و لايأبه بالقضايا الانسانية, و ان مايهمه هو الوصول الى هدفه مستخدما في ذلك جميع الوسائل اللاانسانية. و هناك وثيقة تثبت انه و في احدى المرات التي استعمل فيها صدام الغازات الكيمياوية ضد الكرد. لاذت مجموعة من النساء و الاطفال بالمغادرة تحسباً لتأثير الغاز عليهم و لكن عند وصول رجال صدام الى المنطقة, و تأكدهم من وجود النساء و الاطفال هناك, بدأوا باشعال النار في المغارة و هكذا مات الجميع داخلها حرقاً, و هم يصرخون طالبين النجدة.

في آذار عام 1974 قامت قوات صدام بتدمير منطقتين كرديتين, يبلغ سكان احداهما (20) الفاً و الاخرى (25) الفاً, و طبقاً لتقرير مراسل (تايمز). فقد تشرد في نفس العام ما لا يقل عن (300) الف كردي, و لجأ بعضهم الى ايران, و عندما رأى الثوار الكرد عدم جدوى نضالهم المسلح, القوا اسلحتهم, لكن قوات صدام, و خلافاً لكل المعايير الدولية بدأت بقصف الكرد العزل, و لم تشفق حتى على النساء و الاطفال.

قدم الكثير من الهاربين من النظام العراقي شكاواهم الى منظمة العفو الدولية و منظمات اخرى مماثلة لها, و بحوزتهم ادلة تثبت وحشية نظام صدام, مطالبين بوضع حد لاعمال نظام صدام الدموي و ندد الكثير من رؤساء الدول الغربية بصدام لاستخدامه الاسلحة الكيمياوية, لكنه لم يول اهتماماً بهذه التنديدات, بل تمادى و غالى في اعماله الارهابية و القمعية متلذذاً بها.

يقول الفيلسوف اليوناني الكبير "افلاطون" في معرض حديثه عن الاعمال الاجرامية للطغاة:

(ان الطاغية منهمك دائماً في اشعال نار حروب جديدة. انه بهذه الوسيلة فقط يستطيع احياء شعور الناس بالحاجة الى قائد مثله).

و يقول نظيره الآخر الفيلسوف "ارسطو" حول نفس الموضوع (ان سبب اشعال الحروب من قبل القادة, هو جعل الناس يشعرون بالحاجة الى زعماء).

و للحيلولة دون حدوث حركات تمردية داخل الجيش, لا يسمح صدام لضباطه بتجاوز حدودهم. و لهذا تراه يقوم شخصياً بالاشراف على شؤون الجيش بشكل مباشر, و كذلك لا يسمح بالترقيات الا لذويه الاقربين. و حول هذا الموضوع, اجرى مراسل مجلة "شتيرن" مقابلة طريفة مع صدام, نورد منها هنا قسماً للقراء الكرام:

مراسل مجلة "شتيرن": يقال بانكم غير راضين عن قواتكم المسلحة, و هل صحيح ما يقال عن اعتقال و محاكمة اكثر من (300) ضابط, كانوا تحت المراقبة سابقاً؟

صدام: لا.. لا.. ليس الامر كما يقال. ان ما حدث هو اصدار الحكم بحق اثنين من آمري الكتائب و آخر من الهندسة الآلية. و هذا ليس بعدد هائل, و يحدث مثله في اغلب جيوش العالم.

المراسل: هل من الممكن ايضاح اسباب محاكمتهم؟

صدام: انهم تهاونوا في مسؤوليتهم اثناء معركة خرمشهر, كانوا مقصرين في اداء واجباتهم.

كل هذه الحروب و سفك الدماء خلقت حالة من الاستياء الدائم لدى العسكريين, و لم تبق وسيلة اخرى امام صدام غير استخدام القوة و العنف داخل الجيش. فقد وصل الامر الى اعتقال الكثير من الضباط الكبار الذين ابدوا شجاعة فائقة اثناء حربه مع ايران, و من اكثرهم شهرة (ماهر عبد الرشيد) الذي اوصلته جسارته و تضحياته الى صفوف المقربين من صدام, مما ادى هذا الى زواج ابنته من ابن صدام. و لكنه (أي ماهر) تعرض بدوره الى الطرد من منصبه و عزله من ممارسة واجباته.

لماذا يلجأ صدام الى كل هذا العنف و الارهاب؟ لأن العنف و الارهاب نابعان من سجيته. يفسر (روبرت كوكيست) الذي الف كتاباً بعنوان "الرعب الكبير" ضد ستالين, حيث يميط اللثام عن اعماله الارهابية و سياساته التخويفية ضد المعتقلين و السجناء, يفسر نزعته الاجرامية وميله الى العنف قائلاً:

(لن يمارس الانسان الطغيان للحفاظ على اهداف الثورة, بل يثور من اجل ممارسة الطغيان. و الهدف من ايذاء الناس و تعذيبهم هو الاحساس باللذة التي يشعر بها المعذب, ان هدف التعذيب هو التعذيب نفسه و الاحساس باللذة الناشئ عنه, ان الهدف من وراء ممارسة القمع و الارهاب هو هذه الممارسة نفسها و اللذة الناشئة عنها).

يقول (الكساندر فيالات) في معرض حديثه عن آكلي لحوم البشر:

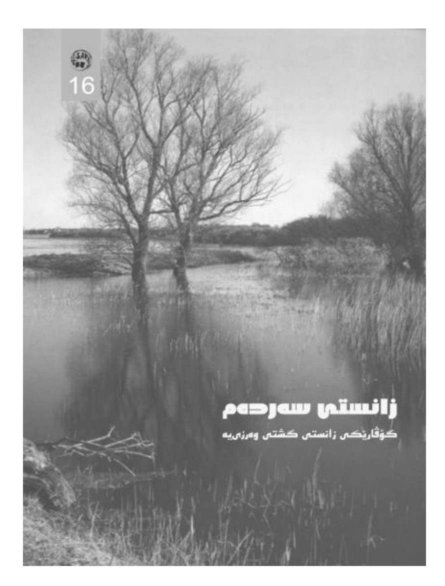
(لقد انقرض آكلو لحوم البشر على ارضنا هذه, لقد اكلهم آكلو لحوم البشر الاصلاحيين).

*عن الترجمة الفارسية لكتاب
Saddam Hussain and the Crisis in the Gulf
الصادر عام 1993 في طهران.

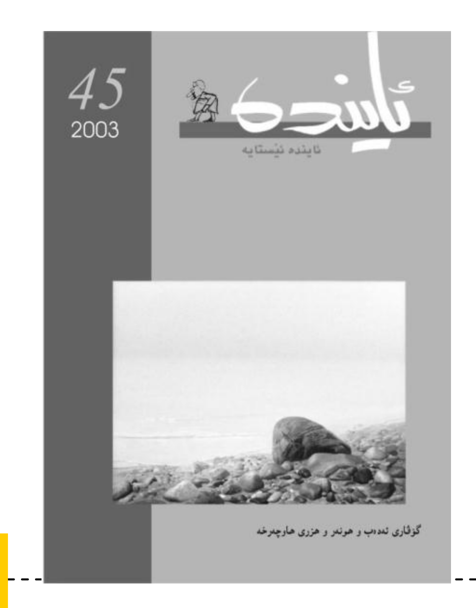
من المجلات والدوريات التي تصدرها دار سردم للطباعة والنشر



مجلة (سردم) تعنى بالترجمة والثقافة الأجنبية



مجلة (زانستی سردم) تعنى بالعلوم العامة



مجلة (آينده) تعنى بالنتاجات الابداعية للكتاب والأدباء الكرد



(روڤار) دورية تعنى بالشخصيات المبدعة



بحوث تأريخية

- الملامح السياسية لتأريخ الكرد الحديث والمعاصر — صباح آرام
- مؤتمر لوزان: مؤتمر تقسيم كردستان — د. فؤاد حمه خورشيد
  جزا طالب

الملامح السياسية لتأريخ الكورد الحديث و المعاصر

صباح آرام*

لقد تعرض تأريخ الشعب الكوردي في العصر الحديث الى جهد مستميت من التشويه و التغييب و الإلغاء. و قد كتب نتف و فصول هذا التأريخ من قبل غير الكورد في الغالب و هم في الغالبية من الترك و الفرس و لاحقاً في النصف الاول من القرن العشرين كانوا من العرب. لقد استهدفت الجهود تلك تجسيد حالة التبعية لفعاليات التأريخ الكوردي و تمثيلها لمظهر المؤتمر بأوامر الترك او الفرس و القاء مسؤولية تردي الحالة السياسية الكوردية على الكورد انفسهم و تبرئة الآخرين من الفعاليات السلطوية للأمم المجاورة من محاولات التغييب و الإلغاء التي مارسوها لمسح الخريطة (الجيو - السياسية) الكوردية بالكامل.

ان التأريخ الكوردي الحديث, و الذي يبدأ مطلع القرن السادس عشر و تحديداً مع بروز فصول معركة چالديران الشهيرة عام 1514, قد دون وفقاً لاعتبارات سلطوية سياسية و اخرى قومية عنصرية, و قد وصلت فصول هذه الرواية المشوهة لتأريخنا الحديث الى الأجيال اللاحقة و فعلت فعلها في تجسيد حالة الإحباط و تحويلها الى حالة مستديمة يرافقها نجاح الجهد التغييبي و الإلغائي في وعي حتى النخبة المثقفة الكوردية و التي تجتر سلبيات هذا التأريخ المسنح و تكرر دروسه التي استنتجها المغيبون و فرضوها فرضاً حتى غدا الكثيرون يؤمنون بـ(لا جدوى التاريخ الكوردي) لأنه حصيلة صراعات قبلية و تناحر داخلي, وقد وقع الكثير من المؤرخين الكورد في مصيدة هذا التفسير الأحادي لفعاليات التأريخ الكوردي, و تعمقوا في مطب الحديث عن جوانب (التقصير الذاتي) الكوردي و كأنه العامل الاول و الأخير في ما وصل

اليه الكورد في التأريخ المعاصر, و هنا بدأت اشكالية التأريخ الكوردي الحديث بين الدونية في التفسير و التفسير التأملي. و بدأت معها سلسلة الدراسات عن الحركات الكوردية و خاصة في القرنين الماضيين (19-20) ترافقها نغمة الأهمال و التقصير و حتى التخوين في تضخيم غير مقصود طبعاً للقصور الذاتي و اهمال اكثر ايلاماً للعوامل الأخرى الفاعلة في اتجاهات هذا التأريخ.

و نتيجة لذلك انتهج حتى افاضل المؤرخين الكورد نهجاً استقرائياً و اصدروا تعميمات قاسية لاتمثل في افضل الحالات الا جانباً صغيراً من الحقيقة. يقول الامير شرفخان البدليسي في كتابه الشهير (شرفنامه) "هذا و قد جبل الأكراد على التنافر و الشقاق, فلا يتناصرون و لا يتطاوعون و لا تربطهم رابطة الوحدة و الإتفاق", و قد استقى "شرفخان" هذا الحكم العمومي القاطع و كما يقول هو: "كما حقق ذلك الجناب الفاضل "مولانا سعد الدين" معلم السلطان مراد خان في كتابه التأريخي المؤلف باللغة التركية, في الوقائع العثمانية, حيث تحدث عنهم بقوله: الاكراد ذوو آراء استبدادية يرفع كل منهم لواء التفرد, و قد احتموا بقلل الجبال, رغبة فيما جبلوا عليه من حب الحرية و الأنفة و الاستقلال, و انهم لا يجتمعون على امر واحد غير كلمة التوحيد..."[1].

و لنطلع على ما يقوله المؤرخ الفاضل "محمد امين زكي" في هذا الإتجاه ايضاً "تذكر ضمن العوامل التي ادت الى اخفاق تلك الحركات و الثورات, ما كان بين الامارات الكردية من التنابذ و الشقاق, و ما بين افراد الامارة الواحدة من الغيرة و الحسد" و يقول ايضاً: ".. نجد ان السبب في ذلك كله يرجع الى عوامل داخلية اكثر منها الى اسباب و مؤثرات خارجية..."[2].

إن ظروف الإحباط المعاصرة قد لعبت دورها في ترسيخ هذه القناعات الخاطئة و التي تحولت و بشكل لافت للنظر الى قواعد و اسس تحكم و جهات نظر المعاصرين الى التاريخ الكوردي القريب و الذي لعبت مفرداته المتجسدة في الهزائم المتلاحقة التي نالت من سلسلة الثورات الكوردية عبر القرنين الماضيين دوراً اضافياً في ترسيخ هذه القناعات, ان الايحاء بأن الفعل التأريخي الكوردي نابع من المؤثرات الكوردية الذاتية يشير الى الإتجاه الانعزالي في التفسير, كأن الكورد قد عاشوا في كوكب آخر منقطع تماماً, في تجاهل مطلق لمؤثرات الموقع الجغرافي و الطبيعة الطوبوغرافية لأرض كوردستان "... إن العوامل المؤثرة في تأريخ امة من الأمم ليست قومية الطابع لكنها اوسع مدى من الحدود القومية..."[3], هذا ما حاول العلامة "ارنولد توينبي" ان يتوصل اليه. و هذا ما تؤكده حقائق التاريخ, ان الثورة الفرنسية ليست نتيجة سلبيات الارستقراطية في تلك البلاد فقط, كما ان ضجر الفرنسيين من استمرارية الحروب الناثوليونية ليس العامل الوحيد في هزيمة نابليون في واترلو 1815, و ليست هزيمة فرنسا في معركة سيدان عام

1870 و اسر امبراطورها "نابليون الثالث" نتيجة "خيانة دريفوس", في كل هذه المنعطفات التاريخية الحاسمة في تأريخ فرنسا المعاصر, تظافرت عوامل دولية و اقليمية و داخلية معاً, و تشابكت مؤثراتها لتفرز تلك الوقائع المدونة على صفحات تاريخ ذلك البلد, كما ان انتصار الامريكان في حرب الاستقلال عام 1775 ليس نتاج العامل الداخلي فقط, حيث لعب تقاطع المصالح الاستعمارية الكولونيالية دوره في تدعيم التصميم الامريكي و انتصاره لاحقاً. و في القرن التاسع عشر لعب تقاطع المصالح الفرنسية – النمساوية دوراً فاعلاً و داعماً للعوامل الذاتية الايطالية و الألمانية في جهودهما لتحقيق الكيانات القومية, و في مصاف التأكيد على عدم امكانية ارتقاء الفعل التاريخي الذاتي الى اطلاقية التأثير في مجريات الحدث, يبرز دور تقاطع مصالح دول الجوار و الأبعد من الجوار, و من المفارقات ان تقاطع المصالح الدولية الذي ساعد الامريكان على الاستقلال و الطليان على الوحدة و الالمان على الاتحاد, نقول من المفارقات ان هذا التقاطع لعب دوراً سلبياً في الحالة الكوردية, حيث ساهم في تكريس حالة التجزئة و تغييب الكيان الكوردي و هذا ما سنشير اليه في حينه. و من الملامح الانفعالية التي التصقت بجسد الفعل التاريخي الكوردي و خلقت عناصر وهمية في كينونة هذا الفعل, "الاتجاه التخويني", يقول العلامة "محمد امين زكي" "وصفوة القول ان خيانة (عز الدين شير – يزدان شير) هذه, ادت في النهاية الى انكسار جيش الامير بدرخان امام جيش (عثمان باشا)"[(4)].

ان هذا الاتجاه المقلق ينسحب في تعميمية حادة على جميع الفعاليات التاريخية الكوردية و الأمثلة كثيرة: فالخيانة العائلية اسقطت امارة (بابان) العتيدة, و الخيانة ذاتها وضعت نهاية لأمارة سوران الفتية, و تستمر سلسلة "الاتجاه التخويني" حتى نهاية ثورات الشيخ محمود.

و معاصراً للثورات الكوردية في مطلع القرن العشرين حدثت ثورات وطنية في ليبيا و مصر و الجزائر و المغرب, ففي مصر و في نهاية القرن التاسع عشر قاد (احمد عرابي) ثورة ضد التدخل الانكليزي و لم ينجح و مع ذلك لم يتهم في تاريخ مصر الحديث بالخيانة. و في مطلع القرن الماضي و في مصر ايضاً قاد (سعد زغلول) حركة شعبية و لم يلق النجاح المنشود و معاصراً له قاد الخطابي ثورة المغاربة و فشل و قاد (عمر المختار) ثورة شعب لبيبا و لم ينجح و قبلهما كان الامير عبد القادر الجزائري قاد ثورة شعبه في الفترة بين 1832 – 1847 و لم ينجح و مع ذلك تحول كل هؤلاء الى رموز وطنية في تاريخ شعوبهم و نالوا ما يستحقونه من اجلال و تقدير, اما في السرد التاريخي لعوامل هزيمة هؤلاء القادة فقد تم التركيز على سطوة المستعمرين و عدم تكافؤ القوى, اما في سلسلة الثورات الكوردية و التي حصلت في ظروف مماثلة للثورات العربية فقد تم توظيف "الخيانة الوطنية" كوصفة جاهزة, اجل الإنشقاق الداخلي و التنابذ و خيانة رؤوساء العشائر و انحيازهم الى الفعاليات السلطوية التركية و الايرانية و لاحقاً العراقية هو

العامل الاكبر في فشل سلسلة الثورات الكوردية و بالتالي هو السبب في عدم قيام الدولة الكوردية المنشودة! ان تسويق "التخوين" في عمق الفعل التاريخي يتوغل احياناً الى اعماق هذا التاريخ و ماذا فعل (صلاح الدين الايوبي) للكورد؟! لماذا يا ترى لم يؤسس دولة كوردية في مصر و الشام؟ و (الملا ادريس البدليسي) لو لم يتعهد للسلطان سليم الأول لولاء امراء الكورد له, لما حصل للكورد ما حصل!

و ما اسهل بعدئذ تصنيف هؤلاء في صنف "الخونة"! بينما تشير المعطيات التاريخية الى تطور النزعة القومية و التي انطلقت من اوربا, تشير الى تطور تلك النزعة و الوصول الى الذروة عام (1848) و الذي يسمى في تاريخ اوربا بعام الثورات القومية, و تشير المعطيات التاريخية ايضاً الى نمو هذه النزعة في الشرق بعد قرن كامل من الذي حصل في اوربا أي في اربعينيات القرن العشرين بلغت الحركة القومية في الشرق درجة من الرقي, فظهرت الحركة الوطنية العربية و تأسست الجمهورية الكوردية الاولى في "مهاباد". اذن المعطيات التاريخية تسير في غير اتجاه بعض التعميمات الخاطئة. و ليس "الإتجاه التخويني" هو الاشكالية الوحيدة في مسار التدوين التاريخي الكوردي و هناك اشكالية اخرى تمثلت في "التوجه الإلغائي" و هو ما قام به اعداء الكورد من الذين ازعجهم النهوض القومي الكوردي المعاصر فبرمجوا عملية واسعة و منظمة للتشكيك في (الوجود الكوردي) اصلاً, فقد اعلن رجب بيكر, الامين العام لحزب الشعب الجمهوري, في محاضرة له القاها في الجامعة سنة 1931: و اننا نقبل بين ظهرانينا المواطنين الذين يعيشون بيننا و ينتمون الى الأمة التركية سياسياً و اجتماعياً, اولئك الذين لقنوا الافكار و العواطف الكوردية.." و لا يتردد هذا السياسي التركي في الاعلان صراحة "ان العلم الحديث ينفي ان تكون امة قوامها بضع مئات من الالوف بل حتى المليون, قادرة على البقاء كأمة مستقلة."[5], و لكن خلفاء هذا السياسي لايتوانون لحظة فيما بعد في سعيهم لانشاء دولة لبضعة آلاف من الترك في جزء من (قبرص) !. ان التوجه الإلغائي بلغ بالبعض مثل الدكتور (صكبان) الى الاعلان صراحة "و الحق يقال, لماذا الخوف من الصهر؟! لقد اثبتت التجارب ان صهر الضعفاء من جانب الأقوياء انما يحسن اوضاعهم, ان هذا وحده يكفي مؤنه اللجوء الى القوة"[6]. و لا ندري من اين جاء (بيكر) و (صكبان) بالعلم الحديث و التجارب المزعومة دليلاً على تلك الشفافية العنصرية. ان "التوجه الإلغائي" لم يتوقف عند حد الخطاب اللفظي و قد تحول الى فعل مجسم في عمليات الترحيل القسرية بل بلغت النزعة التدميرية ضد الكورد اوجها في العشرينيات و الثلاثينيات من القرن الماضي في ظل الحكم الكمالي, حيث دمرت مناطق باكملها بعد كل ثورة و انتفاضة كوردية "فبعد انتفاضة عام 1930 في تركيا تشير احصائيات غير كاملة الى تدمير ما يقارب 165 قرية و 6816 بيت"[7]. و قبل ذلك "تم تدمير 430 قرية عام 1927 من

قبل الفرقة 41 التركية تحت قيادة (مصطفى بگ)"[8] " و في برقية الى الممثل السياسي البريطاني مؤرخة في 10 و 11 تموز 1919 ذكر الضابط البريطاني الميجر ئى. دبليو. س نوئيل ما ياتي: ان المحاولات الجارية لتريك الاكراد هي النقطة الاساسية التي ابني عليها اعتقادي بعدم امكانية سد شقة الخلاف بين الاتراك و الاكراد. ليس هناك كلام الآن عن الحكم الذاتي للاكراد داخل تركيا, و قد اصدرت الحكومة التركية اوامر تقضي ببعثرة اللاجئين الاكراد في البلاد لكي لا يتجاوزوا ابداً خمسة بالمئة من السكان في اية منطقة"[9], و في ايران يبلغ "التوجه الإلغائي" اوجه ايام (رضا خان) (ففي عام 1925 اصبح رضا خان حاكما و دكتاتوراً على البلاد, فطبق سياسة شديدة في التحكم لجميع الاقليات و صهرهم, بما في ذلك الاكراد)[10]. ان توظيف الإلغاء كفعل مؤثر لإخراج الكورد من الساحة في الجانب العربي اتخذ مساراً شفافاً, فالكورد هم اخوة في الدين بل هم اصلاً من السادة من آل البيت و قد بلغ الحس الالغائي ببعضهم حد البحث عن اصول العشائر الكوردية الكثيرة و المعروفة و تنسيبها بشكل او آخر الى القومية العربية فها هو احدهم لا يتورع عن وضع كتاب تحت عنوان "بيوتات و قبائل شمال العراق" و بنية حسنة جداً لا يتوانى عن تنسيب جل القبائل الكوردية المعروفة الى اصول عربية حتى يكاد المرء يفهم بأن كوردستان كانت خالية من السكان عندما داهمها الفتح الاسلامي و استوطنت فيها قبائل عربية تحولت بقدرة قادر الى قبائل كوردية, و رغم بلادة هذا التوجه الإلغائي احياناً, الا انه شكل محوراً مبرمجاً في ممارسات الفعاليات السلطوية الاقليمية المسيطرة على كوردستان. و يجدر ذكره ان الإلغائية جاءت متزامنة مع بدايات النهوض الكوردي المعاصر و قد لعب غياب الكيان الكوردي السياسي دوراً متميزاً في تفعيل هذا التوجه. حيث كانت مراكز السلطة و في زوايا المثلث المحيط بالكورد هي بؤر استقطاب للشرائح النفعية من المجتمع الكوردي و التي وجدت مصالحها متفقة مع توجهات المراكز السلطوية تلك و لم تجد حرجاً في الإنتساب الى الاصول العرقية للطبقات الحاكمة, كما ان الإلغائية التي استهدفت "تغييب" الكورد بالكامل كانت ممارسة سياسية بحتة افتعلتها الفعاليات السلطوية الحاكمة و هي لا تمت بصلة الى نشاطات الشعوب المجاورة للكورد.

اما الاشكالية الأخرى و التي تتعلق بغياب (الكيان الكوردي السياسي) فقد انعكس هذا الغياب سلباً على فعل "التدوين التاريخي" الموضوعي و الذي تحول هو الآخر أي "التدوين" الى اشكالية سنتطرق لها لاحقاً. ان الانعكاس السلبي لغياب الكيان قد يمثل في البداية في حالة الإحباط و من ثم افرازات تداعيات هذا الإحباط, ان التشاؤمية السائدة عند الكثرة من المؤرخين الكورد تعود في جذورها الى هذا الغياب. انه وطيلة خمسة قرون أي منذ بداية القرن السادس عشر و حتى الآن لم يستطع الكورد تحقيق الكيان الكوردي الشمولي و قد

نسبت الغالبية من المؤرخين الكورد عدم القدرة هذه الى عامل التشتت الداخلي, اما الجهة الأخرى و التي تتعلق بهذا (الغياب) فقد ظهرت بوضوح في عدم قيام جهة مسؤولة بالتزام الفعل التاريخي الكوردي و لا التزام عملية التدوين التاريخي, و هذا يعني عدم وجود مؤسسة ذات امكانيات مادية و معنوية تساند الباحث الكوردي خصيصاً في عملية البحث و التدوين, و كانت النتيجة ان دون معظم هذا التاريخ اما بجهود فردية غير مدعومة و اما من قبل مؤسسات رسمية غير كوردية الزمت المدون الكوردي بمجموعة من التحفظات و هذا ما ظهر بوضوح في مؤلفات الغالبية من هذه القلة من المؤرخين الكورد. و ادى هذا الى توهين التوفيق الكوردي و اضطرار المؤرخ الكوردي الى الركون في احدى زوايا المثلث المحيط بالكورد و بالتالي مسايرة مراكز الاستقطاب في بعض املاءاتها و توسعت نتيجة لذلك مساحة الطروحات السلبية عن الفعل التاريخي الكوردي و عن حجمه ايضاً. و كان الطرح التغليطي الاكثر رواجاً في هذا المجال هو القاء التبعية في هذا الغياب على التنظيم القبلي للمجتمع الكوردي. ومن ثم تحميل الجانب الاقتصادي من هذا التنظيم و هو الجانب الإقطاعي الجزء الاكبر من (غياب الكيان). يقول "شاميليوف" "و الواقع اذا اردنا ان نفهم التاريخ الكوردي في اطار واقعي لابد لنا من ان ندرس الاقطاع الكوردي في اطار واقعي, فإن هذا النظام الاجتماعي (!)" يؤلف بجميع انواع تشكيلاته البسيطة و المعقدة, الخلفية الأساسية للجانب الاكبر من التاريخ الكوردي المعروف, و لا تزال آثار هذا النظام محتفظة بمواقع قوية في الفكر الكوردي"[11] و الحقيقة ان "النظام الاقطاعي" المستند الى ملكية "الارض" هو نظام اقتصادي اولاً و من ثم هو من المردودات اللاحقة لتطور مؤسسة القبيلة. لقد تأسس الاقطاع على اساس (حيازة الارض) أي على مبدأ (لا أرض بلا سيد), وقد برز هذا النظام في اوروبا في القرن الثامن للميلاد[12]. و يعود الجذر التأريخي لهذا النظام الى شارل مارتل الذي حاول ان يتوسع في نظام الخيالة ليجعل جيشه قوة فعالة في ميدان الحرب, و عندئذ استكشف ان تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج اليه الفارس من حصان و درع و سلاح, فضلاً عن ان هذا النوع من الفرسان يجب ان يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشؤون الحرب و القتال. و لما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة في القرن الثامن بحيث لا تفي بكل هذه المطالب. فإن شارل مارتل لجأ الى حل يتفق و تقاليد ذلك العصر فسجل اسماء المحاربين و جعلهم يقسمون له يمين الولاء ثم اعطى كلا منهم اقطاعاً يكفي لسد مطالب معيشته"[13]. و في حين تأخر ظهور النظام الاقطاعي في كوردستان الى قرون لاحقة فإن الدكتور كمال مظهر يثير الشكوك حول فاعلية هذا النظام في التأثير في الفعل التاريخي الكوردي "و بالرغم من تشديده – أي شاميليوف – على ذكر مظاهر الاستغلال فيها – أي العشيرة

– فإنـه لم يعـط الجـواب عـن سـؤال اجتمـاعي – سياسي مهم هو: هل و متـى و كيـف و ايـن تحـول الاستغلال الاقطاعي الى العامل الاساسي و الحاسـم في خلـق تناقضـات في ظـروف كوردسـتان الخاصـة خلف الاطار العام للتحرك السياسي داخل المجتمـع او في جزء او اجزاء منه, لا ينكـر ان تحديـد هـذه الامـــور بشـــكل موضـــوعي يحتـــاج الى دراســـات عميقة"[14].

ان تحول النظام الاقطاعي مـن نظام حيازي و اقتصادي الى نظام اجتماعي و سياسى استغرق بعـداً زمنياً في كوردستان و قد تبلورت ملامحه خصيصـاً بعـد الضـعف الـذي دب في جسـد الكيانـات الكورديـة الصـغيرة الـتي اسـتفادت ممـاتبقى مـن اتفاقيـة (السلطان سليم - البدليسي) و من الصـراع المتواصل بين ايران و العثمـانيين, اذن "الاقطـاع" هـو نتيجـة "غياب الكيان" و ليس سببه كما يـروج لـه الـبعض. امـا القبيلـة و الـتي هـي كمؤسسـة اجتماعيـة اقـدم تكويناً من الامارات السياسية و من النظام الاقطاعي فإنهـا في مراحلـها الاولى "حيــث العلاقـات القبليـة المبكرة, حيث تمتع روابط الدم و القرابة و العلاقات الأبوية بقوة فائقة داخل العشيرة الواحـدة"[15]. ان "سلطة الاب" التي تستند الى صلة الـرحم و القربـى كانـت الاسـاس الاجتمـاعي لمؤسسـة القبيلـة و الـتي كانت تمثل الملمح البارز للمجتمـع الكوردي. "و هنـا نلاحظ ان المجتمع القبلـي ابعـد دائمـاً عـن ان يكـون ديموقراطياً, لا لانه يقوم على اساس احـترام سـلطة رئيس القبيلة او العشيرة احتراماً مطلقاً فحسب, بـل لأن الفـرد ذا العصـبية القويـة فيـه يسـود دائمـاً و يتغلب على ضعاف العصبية"[16].

و طبقـاً لهـذا المفهـوم فـإن (القبيلـة) كمؤسسـة اجتماعيـة حافظـت علـى الطـابع القـومي للمجتمـع الكـوردي قبـل ظهـور الامـارات السياسـية و تشـير المعطيات التاريخية انه و في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و عندما تعرضت الامارات الكورديـة الى الضربات المتلاحقة من قبل الاتراك و الفـرس رجـع الكـوردي و في سـبيل "حفـظ الانتمـاء" الى احضـان القبيلـــة و الـــتي وجـــدت الانظمـــة الاوتوقراطيـــة المحيطة بكوردستان في بقائها شر لابد منه.

"كـان الرؤسـاء النـبلاء – رؤسـاء العشـيرة – لا يضطهدون ابناء عشيرتهم فقط بـل يتجاوزون على السـكان المـدنيين ايضـاً, الـذين و لقلـة امكانيـاتهم يلجأون الى رؤساء العشائر المتنفذين لحمـايتهم مـن هجمات القبائل الرحل, لذا كان علـى الفلاحـين دفـع الضرائب الى رئـيس العشـيرة.. و كانـت هـذه العلاقـة بين رئيس العشيرة و افرادها المدنيين موضع قبـول السلطة. كـان اصحاب السلطة في ايـران و مـن أجـل جلب و جذب العشـائر الكورديـة الى صـفهم يمنحـون رؤساء العشـائر حقوقـاً واسـعة"[17]. و بعـد فقـدان الكيان السياسي للامـارات صـار كيـان (القبيلـة) هـو البديل للحفاظ على ما تبقى من الانتماء الكوردي, و قـد توافقـت مصـالح ممثلـي السـلطات المركزيـة مـع مصالح رؤساء القبائل, كـل لـه دوافعـه, فبينمـا تجـد الدولة المركزية في هذا التشـتيت تتويجـاً لجهودهـا في السيطرة على المجتمع الكوردي, يجـد رؤسـاء القبائـل

في الاحتفاظ بكيان القبيلة الوسيلة الوحيدة للتشبث بما تبقى لهم من مساحة العمل و حماية الذات. ان هذا ليس تبريراً لتصرفات بعض رؤساء القبائل الانانية و خاصة في بعض المراحل الحساسة من تطورات الفعل التاريخي الكوردي في القرن التاسع عشر و العشرين, ذلك لأن هذا البعض اصلاً لم يكن على تماس مع الحس القومي الشمولي, و الذي جاء متأخراً في كوردستان و لعوامل عديدة, و التشبث الذي ابدوه في هذا المجال هو تشبث لاداعي للذود عن حياض (البيت) الذي غدا صغيراً بعد زوال "الامارات". و قد خدم هذا "التشبث اللاواعي" بقايا البيت الكوردي المتمثل في (مؤسسة القبيلة) في مطلع القرن العشرين التطلعات القومية الكوردية و التي بدأت تتجه نحو الشمولية و هذا ما يمكن ملاحظته في العدد الكبير من زعماء و رؤساء القبائل الذين ساهموا في رفد الحركة القومية الفتية بالدم اللازم. يقول "كريس كوجيرا" في هذا العهد, في اوائل ايام القرن العشرين و بعد نصف قرن من الثورات المتفرقة ظهرت طبقة متوسطة في كوردستان, كانت في الحقيقة مؤلفة من البورجوازية الكبيرة و بقايا امراء الكورد المخلوعين"[18] و من هؤلاء على سبيل المثال و ليس الحصر "مدحت بگ بدرخان و عبد الرحمن بگ بدرخان و امين عالي بدرخان و الشيخ عبد القادر بن الشيخ عبد الله...الخ".

اضافة الى ما تقدم فإن المؤسسة القبلية الكوردية ظلت عصية على السلطات المركزية, يقول "كارستن نيبور" "ان قبائل هذه المنطقة الجبلية – كوردستان – لم يعترفوا بأي حاكم تركي فقد ظلت خاضعة لرؤسائها و الذين هم فقط حكامها الفعليين.."[19].

ان القراءة الدقيقة لنصوص "الفعل التاريخي الكوردي" تجعل التلقينية الكلاسيكية عن سلبية المؤثرات التي خلقها "الاقطاع" و "القبيلة" موضع شك. و هنا ايضاً نصل الى الحقيقة القائلة: ان لا حقائق مطلقة تجسد المرجعية في "التدوين التاريخي" الكوردي, يقول العالم الألماني "ايگشتيد" – و هو المختص في دراسات الشعوب – "ان الحقيقة العلمية و المهمة الثابتة عن الكورد حتى اليوم ظلت محصورة بين عدد قليل من المختصين, و ان اكثر هذه الحقائق و المعلومات لم تصل القارئ العادي.."[20]. و ليس هذا فقط, حيث ان الحقائق التي وصلت عن التاريخ الكوردي الحديث ظلت اسيرة اختناقات الاشكاليات العديدة التي لازمت جسد هذا التاريخ (المغيب) بل احيانا "المسخ" و الذي نجح الفاعلون من ذوي النوايا السيئة في الغالب في ترسيخ بعض التعميمات الخاطئة و التي سرت الينا كحقائق ثابتة. و "لئن كان التاريخ حواراً بين الماضي و الحاضر فهو ايضاً حوار بين المؤرخ و القارئ, و بذلك تصبح الحوادث ذات قيمة عندما يستنطقها المؤرخ على قدر مسؤوليتها و مدى تأثيرها في وضع الانسان و توجيه مصيره"[21].

ان هذا الحوار الذي يشير اليه (بليخانوف) ليس حواراً من جانب واحد, بعبارة اخرى ليس المؤرخ

هو الطرف الوحيد فيه, ان الاستنطاق الحق للماضي يتطلب التمحيص و الموضوعية التامة. و لكن في حالة "التدوين التاريخي الكوردي" ثم توظيف هذا الاستنطاق لترجيح نزعات معينة تصب في قناة عدم اهلية الكورد, فالكوردي قاطع طريق شجاع, و كأن عملية قطع الطرق كانت مقتصرة على الكورد في القرون الماضية, حيث لا تتجاوز قدرة السلطات الحاكمة حدود المدن, كانت الشعوب المجاورة للكورد و حتى الوقت الحاضر تنتهج السلوكية ذاتها في حالات غياب السلطة و تدهور الحالة الاقتصادية و خراب الريف و سنوات القحط و المجاعة التي زخر بها سجل تأريخ الشرق, ان التواصل السلوكي بين الماضي و الحاضر ممكن ان يتخذ طابع الاستدامة اذا تم استحضار الظروف المماثلة أي الاستشهاد بالمقولة الشائعة "ان التاريخ يعيد نفسه". "و لأن الحاضر لا يلغي الماضي, فالماضي بعد من ابعاده و انما يتجاوزه جدلياً باسقاط ما رث منه و استبقاء ما يعين على مواصلة الطريق"[22]. اذن الهدف من الاستنطاق هو الوصول الى الحقائق الموضوعية و التي تجسد تماثل السلوكيات الانسانية في الظروف المتشابهة من جهة, و من جهة اخرى يهدف هذا الاستنطاق الى انصاف رموز الفعل التاريخي من القادة و الزعماء و الى الاقتناع" بأن دور الفرد البارز و تمكنه من صنع الاحداث لا يتم في فراغ او عزلة و انما يتم من خلال الواقع التاريخي في تداخل جدلي متصل بالظروف الموضوعية و بالناس الذين يصنعون التاريخ"[23].

و رغم ان جمهرة المؤرخين ترد بداية الحضارة الى عوامل جيولوجية كما يعزوها بعضهم الى البيئة الجغرافية, و هذا ما لا يقره -توينبي- الذي يرى الحضارة حصيلة تفاعل بين الجنس و البيئة[24].

و هنا يبرز جانب آخر من اشكالية التاريخ الكوردي و هو الجانب المتعلق بالموقع الجغرافي الكوردي, ان مردود الفعل التاريخي الكوردي لا يقتصر على (الانسان الكوردي) بل يتسع ليشمل "البيئة الجغرافية".

ان الموقع الجغرافي الكوردي المتمثل بطوبوغرافيته الجبلية من جهة و كونه موقعاً داخلياً من جهة اخرى هو نتيجة ظروف تاريخية عريقة في القدم. ففي العصور القديمة استطاعت الدول التي ظهرت في كوردستان ان تغطي السهول الواقعة الى غربي و شرقي جبال زاگروس بفعالياتها السلطوية, و ان آثار (دور كوريكالزو) في (عقرقوف) بالقرب من بغداد تدل على وقوع مناطق واسعة من سهول وسط العراق تحت سيطرة (الكاشيين) الكورد, لكن الضعف الذي آلت اليه الدول الكوردستانية في نهاية العصور القديمة ادى الى انتزاع اكثر المناطق السهلية الخصبة من يد الكورد او الاقوام الكوردستانية و تدريجاً و تحت ضغط الشعوب السهلية المجاورة تمسك الكورد بقمم الجبال و سطوحها و استطاع بذلك الخلاص من عمليات الابادة و التهجير و هكذا تحدد الوطن الكوردستاني بالمناطق الجبلية المتميزة و ابتعد بذلك عن سواحل البحار و التي هي اكثر وسائل اتصال الشعوب و

خاصة في العصور الحديثة فاعلية و تأثيراً. و يظهر الانعكاس السلبي لهذا الموقع الداخلي بصورة خاصة في نهاية القرن التاسع عشر عندما مد الاستعمار الحديث المتمثل في (بريطانيا و فرنسا اولاً و المانيا و ايطاليا و روسيا لاحقاً) بانظاره الى الشرق فوجد البريطانيون و الفرنسيون و الايطاليون على سواحل هذا الشرق الأسطوري امماً مثل الفرس و الترك و العرب فتعاملوا مع هؤلاء بحكم ذلك الموقع المطل على الساحل و هم لم يدركوا اصلاً شيئاً عن الكورد الا لاحقاً عندما توغلوا الى الداخل من هذا الشرق الذي ارادوه سوقا عامرة لبضائعهم الفائضة بعد ثورتهم الصناعية العارمة و الفتية.

"ان الطبيعة الجبلية لكوردستان تركت اثرها بوضوح في نوع التطور الذي اصابه الكورد, ان السلاسل الجبلية التي تقطع السهول و الوديان منعت الكورد من ان يصبحوا اصحاب حياة اقتصادية متماسكة.."[25]. و في التصنيف الجغرافي فان المناطق الجبلية لا تساعد على العمران لقلة المناطق المنبسطة و لصعوبة المواصلات كما ان داخلية الموقع الجغرافي الكوردستاني جعل الاتصال الحضاري بين الكورد و الشعوب الأخرى ضعيفاً, و خاصة مع الشعوب الاوربية التي جاءت الى الشرق بحثاً عن السوق و السلع الأولية.

"و الموقع الجغرافي لأي اقليم يمكن التعبير عنه بطرق عدة تختلف باختلاف اتجاهات الباحثين. و لعل اشملها هو ان يقال" انه مكان على سطح الارض بين ما يكتنفه من ظاهرات طبيعية و من ظاهرات أخرى بشرية و "تنبغي ملاحظة اننا نعيش في عالم غير ثابت, متغير دائماً و بصورة مستمرة. من المعروف ان العالم في تاريخه الطويل قد مر بتغييرات كبرى طبيعية غيرت من اشكال مسطحة و من العلاقات المكانية بين اجزائه و بين البعض الآخر. كما مر ايضاً بتغييرات كبرى بشرية.. الا ان درجة هذا التغيير تختلف بين الظاهرات الطبيعية من المقومات و بين الظاهرات البشرية منها. فهي في الاولى بطيئة في الغالب و لا تلمسها الاجيال المعاصرة. و لهذا تأخذ من الناحية النظرية صفة الثبات, اما الظاهرات البشرية فإنها سريعة التغيير"[26].

اذن العامل الجغرافي و الذي هو اكثر ثباتاً من العامل البشري المتغير بسرعة, هو من المؤثرات القوية في التغيير الذي يلمس جسد العامل البشري. ان داخلية الموقع الجغرافية لكوردستان افرزت النتائج الآتية:

1-جعل هذا الموقع الداخلي لكوردستان الاتصال بالشعوب الأخرى امراً عسيراً لذا نادراً ما نجد, باستثناء اشارات قليلة عن اتصال الكورد بالشعوب البعيدة, غير الشعوب المجاورة, و قد انعكس هذا الانعزال سلباً و خاصة في القرنين الماضيين على ملامح التاريخ الكوردي الحديث و في حين امتلك الانگليز و الفرنسيون و الالمان معلومات غزيرة عن العرب و الفرس و الترك فإن ما عرفوه عن الكورد لا يمثل جزءاً ضئيلاً, ان الجهل بالخصائص السوسيولوجية و الانثروبولوجية للكورد جعل هؤلاء لاحقاً يوظفون جهودهم في مجال توافق

المصالح للتعامل مع العرب و الفرس و الأتراك في حين بقي الكورد بعيداً عن اهتماماتهم.

2-اضافة الى داخلية الموقع الجغرافية و انغلاقه فإن الطوبوغرافية الجبلية الوعرة جعلت الاتصال بين افراد المجتمع الكوردي صعباً و قد نتج عن هذه الطوبوغرافية الوعرة تكتل المجتمع الكوردي الى كتل صغرى تجسدت لاحقاً في مؤسسة القبيلة كما نتج عنها التباين في اللهجات رغم صغر مساحة كوردستان نسبياً, و هنا يمكن و من خلال استيعاب العلاقة السببية بين الطوبوغرافية الوعرة بكوردستان و بين تشبث مؤسسة القبيلة بكيانها ان ندرك لماذا ظلت الصبغة القبلية بارزة للعيان حتى في عهد الامارات الكوردية الاكثر شمولية, كما نجد تميز هذه الصيغة القبلية بعد زوال الامارات, و قد الحنا في صفحات سابقة على صعوبة سيطرة الحكومات المركزية في زوايا المثلث المحيط بكوردستان في مطلع القرن العشرين و لكن تلك الحكومات كانت تود بقاء (المؤسسة القبلية) لأنها لا تمثل تهديداً جاداً لتلك الحكومات, باستثناء حالات نادرة, من جهة و من جهة اخرى فإنها أي المؤسسة القبلية تكرس التشتت الاجتماعي الكوردي و تضعف التماسك القومي الشمولي. و مع ذلك فإن التشبث اللاواعي بحماية الذات و الذي تجسد في فعل و رد فعل المؤسسات القبلية في جهودها لعبت العوامل الدولية و الاقليمية و الذاتية فعلها المؤثر في تمزيق اوصاله نتيجة التقاطع الحاد في مصالح امم اكبر عدداً و اقوى عدة و في تفاعل معقد الملامح بين الموقع الجغرافي و هذه العوامل تكرس الواقع الحالي لكوردستان و ظل شعب من اكبر شعوب الشرق الاوسط محروماً من كيانه الخاص.

ان اصول البحث العلمي تقضي بعدم الاحتماء بالاستقرائية المجردة لاصدار التعميمات عن مجريات الفعل التاريخي الكوردي. (صحيح ان الأسلوب العلمي يعتمد اساساً على الاستقراء الذي يختلف عن الاستنباط و القياس المنطقي فيبدأ بالجزئيات ليصل الى القوانين و لا يعني هذا اغفال القياس العلمي و لكن حين يصل الى القوانين يستعمل الاستنباط و القياس في تطبيقها على الجزئيات للتأكد من صحتها..)[27].

ان الاغراق في الاستقرائية المجردة عمق اشكالية التاريخ الكوردي الحديث, حيث التصقت (الدونية) بجسد الاستقرائية هذه و امتدت هذه (الدونية) بآثارها السلبية و خاصة في الجانب التربوي بين طرفي التأريخ الكوردي, أي بين الفعل التأريخي و التدوين التأريخي, لتخلق حالة احباط و تداعيات تحولت الى ارث ثقيل يقلل من مساحة الحركة للمؤرخ المعاصر.

"ثمة وسائل مختلفة لمعاينة و عرض موضوعات الفكر – و منها التأريخ – و الظواهر الحياتية البشرية و منها:

الاولى – تحقيق الوقائع و تسجيلها.

الثانية – استخلاص قوانين عامة عن طريق دراسة مقارنة للوقائع المحققة.

-بصفة عامة:

اولاً – ان تحقيق الوقائع و تسجيلها هو الاسلوب الفني للتأريخ.

ثانياً – ان الظواهر في مجال هذا الاسلوب هي الظواهر الاجتماعية للحضارات."[28].

و هذا ما نسعى الى استقرائه في مجال الفعل التاريخي الكوردي بغية الوصول الى تدوين تاريخي اكثر انصافاً. و ان "كانت الاخلاق هي التي جعلت وجود بلد ما ممكناً" كما يقول "مكسيم ا.رميروستر[29]. فإن اللااخلاقية الاستعمارية ستظل العامل الاكثر حجماً في تكريس اشكالية الواقع الكوردي المعاصر مع عدم تبرئة جميع العوامل الأخرى شرط عدم تحميل أي منها تبعية الاشكالية هذه على انفراد, و من هنا ننطلق الى قراءة سياسية معاصرة لما وصل الينا من التاريخ الكوردي الحديث.

الهوامش

1-شرفخان البدليسي, شرفنامه, ط بغداد ت: ملا جميل روژبياني ص.26

2-زكي, محمد امين, تأريخ الكورد و كوردستان, ج1 ط بغداد 1961 ت: محمد علي عوني ص 245.

3-شبل, فؤاد محمد, منهاج توينبي التاريخي, القاهرة ص 13.

4-زكي. ن. م السابق ج1 ص 238.

5-قاسملو, د. عبدالرحمن, كوردستان و الاكراد, بيروت ص 76-77.

6و7-قاسملو ن.م السابق ص 70.

8-شيركو, د بلج, كێشەی كورد, ط 1990 ص 86.

9- سعد الله, صلاح, المسألة الكوردية في تركيا, بغداد 1991 ص 7.

10-قاسملو, ن. م. السابق ص.99

11-شاميلوف, حول مسألة الاقطاع, ت.د. كمال مظهر احمد, ط بغداد ص6.

12-عاشور, د. سعيد عبد الفتاح, اوربا العصور الوسطى ج2, القاهرة 1963 ص45.

13-عاشور, ن.م السابق ج2 ص 45.

14-شاميليوف, ن.م السابق ص 15.

15-شاميليوف, ن.م السابق ص 45.

16-عاشور ن.م السابق ص 44.

17-جليلي. د. جليل "رابەریتی كورد 1880" ق: كاوس قفطان ص 23.

18-كوجيرا, كريس, بزاڤی نەتەوەیی كورد, و. لە فارسییەوە, حمه كريم عارف. (مخطوط و ماثل للطبع) ص5.

19-ديشفر, د. غوينتر, (كورد گەلی لە خشتەبراوی غەدر لێ كراو) ت:حمه كريم عارف, ط اربيل ص 45.

20-ديشفر, ن.م السابق ص 42.

21- بليخانوف, دور الفرد في التاريخ, ت: احسان سركيس, مشق ص 13.

22-بليخانوف, ن.م السابق ص 54.

23-بليخانوف, ن.م السابق ص 47.
24-بليخانوف, ن.م السابق ص 24.
25-جليلي, ن.م السابق ص 17.
26-شريف, د. ابراهيم, الموقع الجغرافي للعراق, ج1 ص و,د, ط بغداد.
27-السماك, د. محمد زاهر و د. قيس النهادي و صفاء الصفاوي (اصول البحث العلمي) ط, جامعة صلاح الدين, 1986 ص11.
28-شبل, ن.م السابق, ص 21.
29-رميروستر, مكسيم, "رؤساء الولايات المتحدة" ص7.

*كاتب و صحفي و خبير في وزارة التربية – اربيل

مؤتمر لوزان
مؤتمر تقسيم كوردستان
"دراسة جيوبولتيكية"

د. فؤاد حمه خورشيد *   جزا توفيق طالب **

المقدمة:

و اجهت الدولة العثمانية هزيمة منكرة في الحرب العالمية الأولى كادت تؤدي ليس الى سلخ معظم الأراضي غير التركية الخاضعة للدولة العثمانية حسب, بل الى تمزيق خارطة تركيا في الاناضول ذاتها, و اخضاعها لقوات الحلفاء و مناطق نفوذهم. أن محاولة لرسم ذلك الواقع تمت في مؤتمر السلام بباريس الذي بدأ اعماله في 18 كانون الأول عام 1919, و استعداداته في مؤتمر سان ريمو الذي حدد مناطق نفوذ و انتداب كل من بريطانيا و فرنسا في الفترة من 19-26 نيسان في عام 1920, و هو المؤتمر الذي تمت فيه الموافقة على بنود معاهدة سيفر في 10 آب من العام ذاته[1]. و قد رافقت هذه الإجراءات التي كانت تتخذ في قاعات مؤتمر السلام تعرض الاناضول الى هجوم عسكري يوناني في مايس عام 1919 بمباركة من دول الحلفاء و خاصة بريطانيا, الأمر الذي اثار غضب القوميين الأتراك بقيادة مصطفى كمال اتاتورك.

في مثل تلك الظروف ظهرت و تبلورت قوة اتاتورك في الأطراف الشمالية الشرقية من كوردستان تركيا الحالية بعد ان خدع بسياسته الميكافيلية العشائر الكوردية في تلك المناطق للانضمام الى قواته, فضمن بذلك وحدة الجبهة الداخلية التي يقودها. ثم استطاع بعد ان عقدت معاهدة الكسندربول مع روسيا السوفيتيه في 3 كانون الثاني عام 1920

من اخماد حركة الأرمن. ثم نجح بعد ذلك التأريخ في توقيع معاهدة مع ايطاليا في 13 آذار من عام 1921, ثم وقع معاهدة ثانية مع روسيا السوفيتيه في 16 آذار عام 1921, تعهدت فيها الحكومة السوفيتيه لتركيا بأنها لا تعترف بأية اتفاقية دولية تتعلق بمستقبل تركيا و حدودها و لا توافق عليها تركيا اولا[2]. كما قدم السوفيت بموجب هاتين المعاهدتين مساعدات لوجستية و ذخيرة و اسلحة لجيش اتاتورك في الفترة من 1919-1922 ما قيمته مئة مليون روبل ذهبا[3].

و تمكن اتاتورك ايضا من توقيع معاهدة تفاهم مع فرنسا ايضا في 30 مايس عام 1920 "اتفاقية انقرة"[4], و معاهدة فرانكلين – بيلون في 20 تشرين الثاني عام 1921 و بذلك بقيت بريطانيا لوحدها تواجه قواته و معارضته, لأن فرنسا و ايطاليا تخلتا بالكامل عن كل التزاماتهما تجاه معاهدة سيفر في وقت مبكر.

بعد ان ضمن اتاتورك مساعدة السوفيت له عسكريا و دبلوماسيا و حياد ايطاليا و فرنسا تفرغ لطرد اليونانيين من غرب الاناضول, فدحرهم بمساعدة القوات الكوردية العاملة تحت لوائه في معركة نهر سقاريا (24 آب – 16 ايلول عام 1922) و طارد فلولهم حتى منطقة المضايق, و اوشكت قواته هناك على الاشتباك بالقوات البريطانية. الا ان الطرفين التركي و البريطاني توصلا بدلا من ذلك الى عقد هدنة (مودانيا) في 11 تشرين الثاني من عام 1922[5], و مهدت هذه الهدنة الطريق بين بريطانيا و تركيا لتسوية المشاكل المتعلقة بينهما بالطرق السلمية بما في ذلك مشكلة (ولاية الموصل) و كانت تلك هي الخطوة الأولى باتجاه عقد معاهدة لوزان بعد ان ابدى كل الحلفاء استعدادهم لإبرام معاهدة جديدة مع تركيا و التخلي بالكامل عن معاهدة سيڤر.

الجيوبولتيك و مؤتمر لوزان:

بعد ان ابدى الحلفاء استعدادهم لإبدال معاهدة سيڤر بمعاهدة اخرى جديدة مع تركيا, اتفقت كل الاطراف على التنكر للحقوق القومية للشعبين الكوردي و الارمني و عدم ذكرها في المعاهدة الجديدة, كما منصوص عليها في معاهدة سيڤر, و اقتصر الحديث في هذه المعاهدة, بقدر تعلق الموضوع بكوردستان, بمستقبل ولاية الموصل فقط. و كان هدف الحلفاء في ذلك هو ارضاء تركيا و ضمان مصالحهم في الاجزاء الأخرى من اراضي الامبراطورية العثمانية التي خضعت لاحتلالهم.

لقد رافقت الفترة الطويلة التي امضاها مؤتمر السلام (من 1919/1/18 و لغاية 1920/8/10), حدوث تطورات سياسية و عسكرية عديدة فوق الخارطة السياسية في الاقليم الجيوبولتيكي المحيط بكوردستان. فقد ادى ظهور روسيا السوفيتية الى تغيير جذري في موازين القوى الدولية في المنطقة. و هذا التغيير جعل كمال اتاتورك يستند الى القوة السوفيتية في محاربة قوة الحلفاء. كما ان انتصار

اتاتورك على خصومه داخل الاناضول (الارمن و اليونان) جعله يمثل السلطة التركية الحقيقية في البر الاناضولي بدلا من السلطان محمد السادس القابع في اسطنبول بحماية القوات البريطانية, يضاف الى ذلك انقسام الرأي العام الكوردي من قضيته المصيرية. فقد ايدت معظم القبائل الكوردية في كوردستان تركيا مصطفى كمال و حاربت الى جانبه لاعتقادها بأنه القوة الأقدر على طرد الأرمن و منع مطالبتهم بالولايات الكوردية. اما كرد اسطنبول و على رأسهم الشيخ عبدالقادر بن الشيخ عبيدالله فكانوا يعتقدون بأن العمل مع السلطان و الحلفاء لضمان حكم ذاتي كوردي في تركيا هو اسلم طريقة لنيل الحقوق القومية الكوردية. في حين كان السياسيون الكورد امثال الجنرال شريف باشا, و البدرخانيون يسعون لضمان تلك الحقوق عن طريق مؤتمر السلام بباريس بالتشاور مع الحلفاء.

يضاف الى كل ما تقدم انقسام الحلفاء في الموقف من كل بنود سيڤر بما في ذلك البنود الخاصة بكوردستان. فإيطاليا و فرنسا اعتبرتا المعاهدة بشكل عام تجسيدا للمصالح البريطانية[6], و ان خلق دولة كوردستان خطوة تخدم المصالح البريطانية فقط, لذا قررتا التخلي عن هذه الفكرة في اية معاهدة جديدة مع تركيا. كما ان بريطانيا اقتنعت بعدم جدوى خلق (دولة كوردستان) بعد ان نجحت البلاشفة في السيطرة على جورجيا و آذربيجان و ارمينيا. لقناعتها ان دولة كوردستان قد تتحول هي الأخرى الى دولة بلشفية تخدم المصالح السوفيتية[7] لذلك قررت هي الأخرى التخلي عن هذه الفكرة.

من كل ذلك يتضح ان تغيير الأقاليم الجيوبولتيكية المحيطة بكوردستان و تغيير موازين القوى بشكل سريع, بعد الهدنة, قاد الحلفاء في النتيجة الى تبديل مواقفهم في الحركة القومية الكوردية لصالح الحركة القومية التركية التي سارعت في استخدام اساليبها الطورانية في القضاء على المشاعر القومية الكوردية و مظاهرها بعد معاهدة لوزان مباشرة دون ان يبدي الحلفاء اية معارضة على ذلك النهج التركي.

المؤتمر و تجاهل القضية الكوردية:

سبقت عقد مؤتمر لوزان مراسلات و تبادل مذكرات بين وزير الخارجية البريطاني اللورد كيرزن, و وزير خارجية تركيا عصمت باشا اينونو, تضمنت وجهات نظر كل طرف حول ادعاءاته و مطالبته بولاية الموصل, و عندما فشلت تلك المراسلات و المذكرات في التوصل الى حل و اتفاق حول عائدية تلك الولاية, فإن موضوع الولاية نوقش في اجتماعين (جلستين) من اجتماعات ذلك المؤتمر.

وجهت الدعوة لجميع الاطراف بحضور المؤتمر بتأريخ 27 تشرين الأول في عام 1922[8]. كما دعيت الحكومتان التركيتان لإرسال ممثلهما الى ذلك المؤتمر (حكومة اتاتورك في انقرة و حكومة السلطان في اسطنبول) و ادى ذلك الى دخول قوات

اتاتورك الى اسطنبول و طرد السلطان ونفيه الى مالطة في الأول من تشرين الثاني في ذلك العام, و بذلك اصبح الوفد الذي يمثل حكومة اتاتورك هو الممثل الوحيد للحكومة التركية في ذلك المؤتمر.

بدأت جلسات المؤتمر اعمالها في 20 تشرين الثاني من عام 1922, و انتهت بعد عقد 39 جلسة في 31 كانون الثاني من عام 1923. و دشن حقل الافتتاح رئيس الفدرالية السويسرية م. هاب (M. Haab) و ممثلي كل من بريطانيا و فرنسا و ايطاليا و الولايات المتحدة الامريكية و اليابان و اليونان و رومانيا و مملكة الصرب و الكروات و تركيا. و خصصت جلستان فقط لمناقشة قضية ولاية الموصل بين الدولتين هما الجلسة الـ21 و الجلسة الـ22 اللتان عقدتا في يوم 23 كانون الثاني 1923 عقدت الجلسة الأولى في الساعة الحادية عشرة صباحا و انتهت في الساعة الثانية و عشر دقائق بعد الظهر. و عقدت الثانية في الساعة السادسة مساءً و انتهت في الساعة السابعة و عشرين دقيقة, أي أن الجلستين استغرقتا اربع ساعات و نصف فقط[9].

و فيما يأتي ملخص بكل ما ورد من طرح و ادعاءات حول عائدية ولاية الموصل من قبل الوفدين التركي و البريطاني, و هو نموذج قل مثيله, لطرفين يدعيان احقية بإقليم جغرافي لا يمثل جزءا من وطن أي طرف منهما, و يسعيان لتقسيم شعب ليست لهما اية صلة به, و من دون ان يسمح لذلك الشعب, و هو الشعب الكوردي, في ابداء أي رأي حول مصير و مستقبل بلاده التي يتساوم عليها الطرفان الاجنبيان. (انظر خريطة رقم 1).

و عليه سنتناول في القسم الاول طرح الادعاءات التركية و من ثم, أي في القسم الثاني نتناول ادعاءات الطرف البريطاني:

اولا: ادعاءات الوفد التركي:

اشار عصمت اينونو, رئيس الوفد التركي, الى ان تركيا لايمكنها التخلي عن ولاية الموصل لأية دولة اخرى لأسباب اثنولوجية و سياسية و تأريخية و جغرافية و اقتصادية و عسكرية, و ملخص هذه الاسباب ما يأتي:

1-**الأسباب الاثنوغرافية**(10):

يبلغ مجموع سكان ولاية الموصل – 503000 نسمة, اضافة الى 17000 نسمة من الرحالة العرب و الكورد و الترك استناداً الى آخر احصاء تركي كما هو موضح في الجدول ادناه:

ولاية الموصل	كورد	ترك	عرب	ايزديون	غير مسلمين	المجموع
سنجق السليمانية	62000	32960	7210	-	-	103060
سنجق كركوك	97000	69000	8000	-	-	184000
سنجق الموصل	104000	35000	28000	18000	31000	216000
مجموع الولاية	263000	146960	43210	18000	31000	503000

يوضح هذا الجدول ما يأتي:

أ)نـدرة العنصـر العربـي في سـنجقي كركـوك و السليمانية.

ب)لا يوجـد في سـنجق الموصـل سـوى 28000 عربـي مقابـل 139000 كـوردي و تركـي (تركماني).

ج)هنـاك 410790 تركـي و كـوردي في الولايـة مقابـل 43210 عربـي و 31000 نسـمة مـن غـير المسلمين أي ان 5/4 سـكان الولايـة هـم مـن الـترك و الكورد, و ان اقل من 5/1 سكانها هم من العرب.

فإذا كان الوفد البريطاني يشكك في دقة الأرقام الـواردة في هـذا الاحصـاء, فـإن الأرقـام الـتي يقـدمها الوفد البريطاني هي الأخـرى تشير تقريبا الى نفس النتائج.

امـا فيمـا يخـص التوزيـع الجغـرافي للقوميـات في ولاية الموصل, فقد اشار رئيس الوفد التركي عصمت اينونـو الى ان العـرب يسـكنون كليـة جنـوب الخـط الممتد مـن القيـارة - سـنجار, و علـى الجانـب الأيمـن لنهر دجلة, و اذا استثنينا بقعة صغيرة تقع مـا بـين الفتحـة و كركـوك علـى الجانـب الايسـر للنهـر, فـإن المنطقة تصبح مسكونة بالكامـل مـن قبـل الكـورد و الـترك, و ان سـكان مدينـة الموصـل يتكلمـون ثـلاث لغات هي العربية و التركية و الكوردية. و يسـتطرد عصـمت اينونـو قـائلا: ان الكـورد ليسـوا مـن اصـل ايراني (آري), بـل انهـم مـن اصـل طوراني[11], و ان الايزديين هم بطبيعة الحال من الشعب الكوردي, و ان الـذين يعرفـون الاناضـول يـدركون ان الكـورد لا يختلفـون عـن الـترك, و ان هـذين الشـعبين اللـذين يتكلمان لغتين مختلفتين, يشكلان وحدة واحدة مـن حيـث الـرس والـدين و العـادات. و علـى الوفـد البريطاني ان يدرك بقناعة, ان غالبيـة سـكان ولايـة الموصـل هـم مـن الـترك و الكـورد (اكثـر مـن 85٪ استناداً الى الاحصاء التركي و اكثر مـن 66٪ اسـتنادا الى الاحصـاء البريطـاني). و لـو افترضـنا ان غالبيـة سكان مدينـة الموصـل هـم مـن العـرب فلـيس هنـاك سـبب يفسـر لـماذا تقـرر الغالبيـة العربيـة لسـكان المدينـة الـذين يشـكلون في واقعهـم اقليـة صـغيرة في الولايـة, مصـير الولايـة برمتهـا كمـا يريـد الوفـد البريطاني.

2-**الاسباب السياسية**(12):

اشار اينونو الى ان ادعاءات البريطانيين بخصوص عدم رغبة الكورد في العيش مع الترك, امـر لا يتفـق مـع الحقـائق, و قـال: ان عـدة قـرون مضـت و هـذان الشعبان متحدان بوحدة الرس و الـدين و المطـامح و العادات و التقاليد. و انهما عاشـا معـا متفـاهمين. و ان التأريخ يبين ان الكورد قد خضعوا لحكم الـترك, و انهم شاركوا الترك قسمتهم و نصيبهم. و اضـاف: ان الحكومة التركية الحالية قبلت مساهمة الكـورد في المجلس الوطني التركي و ان لهم الآن ممـثلين في ذلـك المجلس. و ان الشعبين اللذين يشـكلان غالبيـة سـكان الولاية سيحاربان معـا للبرهنـة علـى وحـدة الأراضـي التركية, و معارضة انفصال أي جزء منها, و اشـار الى ان: مـن الامـور المعلومـة ان الطـائرات البريطانيـة

قامت بقصف المواقع الكوردية و التركية لمنعهم من التصويت لصالح الانضمام الى تركيا, و رغم الضغط, فإن اقلية من سكان مدينة الموصل هم الذين ساهموا في التصويت.

و اشار اينونو الى الإعلان الذي اصدره الحلفاء الخاص بتحرير العرب من السيطرة العثمانية قد فقد قيمته الحقيقية منذ عام 1918, فاستنادا الى ذلك الاعلان الذي اصدره الملك فيصل الأول بدمشق في 1920/2/15, فإن السلطات البريطانية كانت قد دخلت في مباحثات مع الشريف حسين عام 1915, و في تلك المباحثات لم توعده بريطانيا بضم ولاية الموصل الى دولته العربية, كما تفعل بريطانيا حاليا, فالموقف الحقيقي للعرب من البريطانيين يمكن ملاحظته في احداث عام 1920 و 1921 في جنوب العراق.

و اضاف: ان تركيا لا تعلم بشروط الانتداب (سان ريمو 1920) و ترى ان الشعب العراقي لم يعط رأيا صريحا بشأن قبول الانتداب البريطاني الذي منحته بريطانيا لنفسها. ان الدول الحليفة عقدت عدة اتفاقيات بشأن تقسيم الدولة العثمانية قبل و بعد الهدنة, الا ان التطورات الأخيرة ألغت مثل تلك الاتفاقيات.

و لا ندري لماذا تبقى اتفاقية سان ريمو[12] سارية المفعول فيما يخص الانتداب على ولاية الموصل. ان حق الاحتلال الذي تتذرع به بريطانيا للعراق و الموصل لا مسوغ له في الوقت الحاضر. ان حق الاحتلال لا ينطبق على ولاية الموصل لأنها احتلت من قبل القوات البريطانية بعد الهدنة و ليس قبلها[14].

و اضاف اينونو: لقد اظهرت الحقائق ان سكان سنجقي السليمانية و كركوك امتنعوا عن التصويت لصالح دمجهم بالعراق. و في الحقيقة لو كان سكان الموصل و المناطق المحيطة بها في موقف يمكنهم من التعبير عن آرائهم بحرية لتبين لنا انهم ايضا غير راغبين في ذلك الدمج.

3-**الاسباب التأريخية**(15):

اوضح عصمت اينونو في هذا الجانب ان الموصل و المقاطعات الممتدة حتى بغداد كانت خاضعة للأتراك منذ ما يزيد عن احد عشر قرنا. أي منذ عهد السلاجقة و بداية ظهور العثمانيين. و هي تبعا لهذا تشكل جزءاً من اراضيهم و ليس هناك سبب يدعو الى دمجها ببغداد.

4-**الاسباب الجغرافية و الاقتصادية**(16):

اشار اينونو في هذا الجانب الى انه استنادا الى الحقائق الجغرافية (الطوبوغرافيةو المناخية) فإن الحد الفاصل بين الاناضول و العراق يمتد عبر جبال حمرين – جبل مكحول - وادي ثرثار – جبل سنجار. فالى الشمال من هذا الخط تتشابه ولاية الموصل جغرافيا مع الاناضول. و ان الولاية لم تكن جزءا مما يعرف بالعراق العربي, بل كانت جزءا من بلاد الجزيرة. و هي جغرافيا و تأريخيا تقع خارج حدود العراق. كما انها لا تشكل جزءا

من العراق حتى مناخيا, و استنادا الى كون اشجار النخيل لا تنمو شمالي خط كفري – تكريت, فإن الحد الجغرافي الذي يفصل الاناضول شمالي العراق هو خط جبال حمرين – جبل مكحول – جبل سنجار, فشمال هذا تتمتع به ولاية الموصل بنفس الصفات المناخية و الجغرافية للأناضول, بينما تختلف بغداد في هذه الخصائص عن الموصل و الاناضول.

و فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية اشار اينونو الى ان ولاية الموصل بعد مد خط السكك الحديدة اصبحت ذات ارتباط وثيق بالاناضول اكثر من ارتباطها بالعراق. و اصبح ارتباطها بالبحر المتوسط و الخليج ثانويا. و ان صناعة الخشب في بغداد و لا تعتمد على الموصل فقط بل على دياربكر و وان ايضا, و ان هذه المواد التجارية تمر بالموصل كترانسيت فقط. و عليه فإن الادعاء بأن الموصل تشكل تكاملا اقتصاديا بالنسبة للعراق يعني انه بالامكان تعديل الكثير من حدود البلدان على هذا الاعتبار. كما ان ولاية الموصل اكثر ارتباطا بالاناضول و ليس بالعراق و يبدو ان اصرار بريطانيا على ضم الولاية و العراق الى مناطق انتدابها يعزى الى ثروتها النفطية.

5-**الاسباب العسكرية و الاستراتيجية**(17):

اكد عصمت اينونو ان جبال حمرين – مكحول – وادي ثرثار – جبل سنجار هو الحد الفاصل بين الاناضول و العراق, لأنه, و بعيدا عن الاعتبارات الاثنوغرافية و الجغرافية و الاقتصادية و السياسية, يشكل خطا فاصلا بين هاتين المنطقتين المتميزتين طبيعيا. ان بغداد ليست في خطر من هذا الحد لأنها تبعد عنه زهاء 112كم. و ان هذا الحد الذي نطالب به ليس قريبا من بغداد. اما الادعاء البريطاني بأنه في حالة عدم حصول العراق على ولاية الموصل فإنه من الناحية الاستراتيجية سيخسر استقلاله بسبب ما يمنحه ذلك الخط من تهديدات تركية, فهو موضوع غير صحيح و بعيد عن الحقيقة.

و اضاف اينونو: ان الخط الذي نقترحه (جبال حمرين), هو سلسلة جبلية, و فاصل طبيعي بين تركيا و العراق, و هو خط استراتيجي لكلا البلدين. ان عدم القبول بهذا الخط معناه فصل نصف مليون كوردي و تركي عن وطنهم الأم. ان خير ضمان لأمن العراق, أيا كان حاكمه, هو في التحالف و الصداقة مع تركيا و ليس في اقتطاع اجزاء من بلاد الكورد و الترك. ان تركيا ليست على استعداد لإعطاء ولاية الموصل لاية قوة اخرى, و في الختام ناشد الدول و الرأي العام الدولي ان يدعم الموقف التركي هذا.

6-**الميثاق الوطني التركي**(18):

اشار اينونو الى ان الميثاق الوطني التركي يعترف في فقرته الأولى باستقلال الشعوب العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية و اصبحت قبل الهدنة

خاضعة للاحتلال البريطاني و الفرنسي. و بهذا يتفق مع بنود الرئيس الامريكي ولسن الخاصة بحق تقرير المصير للشعوب, الا انه ورد في نفس الفقرة: ان جميع المقاطعات العثمانية سواء اكانت داخل او خارج خط الهدنة و التي يسكنها غير العرب (يقصد كوردستان) و من غالبية مسلمة تبقى تشكل كلا غير قابل للتجزئة, و هذا يعطينا الحق في المطالبة بولاية الموصل.

و اختتم اينونو حديثه بما يأتي:

قبل ان انهي حديثي اود ان ابين ان الوفد التركي عندما يكرر مطالبته بولاية الموصل, فإنه متأكد من ان هذا المطلب سيحظى بالتأييد التام من الرأي العام في جميع البلدان, و انه, فوق ذلك مقتنع بأن الجميع سيدركون مصداقية و اثر الحجج التي تشرفنا بوضعها بين ايديكم(19).

نقد الادعاءات التركية:

يتضح مما تقدم ان جهود الوفد التركي في مباحثات لوزان كانت مركزة للمطالبة بإخضاع ولاية الموصل (كوردستان الجنوبية) الى السيادة التركية, بعد ان احتلتها القوات البريطانية في اثناء الحرب العالمية الأولى و اصبحت جزءا من مناطق انتدابها و قد استند رئيس الوفد التركي عصمت اينونو الى نص المادة الأولى الواردة في الميثاق الوطني الذي اصدره البرلمان التركي في 28 كانون الثاني من عام 1920, و التي تشير ضمنا الى عائدية تلك الولاية لتركيا[20].

اما بقية الادعاءات التركية فإنها جاءت على النقيض مما ورد في تلك المادة.

فالمبررات الاثنوغرافية اظهرت ان غالبية سكان الولاية هم من الكورد و ليسوا من الأرمن و العرب و لا الترك, حيث بلغت نسبة الكرد فيها 56٪ من مجموع سكانها, في حين كانت نسبة العرب 8.5٪ و الترك و التركمان معا 29٪ ومن الناحية السياسية فإن الكرد كانوا قد عبروا مرارا عن رغبتهم في الاستقلال عن السيطرة العثمانية او اية سيطرة اجنبية اخرى. و ان كوردستان كوطن قومي للكرد كانت موجودة بشعبها قبل ان يتواجد الأتراك في الاناضول. كما ان السيطرة العثمانية على كوردستان مهما طال امدها لا تمنح الشرعية لتركيا بأن تطالب بإنضمام أي جزء من كوردستان اليها.

اما من الناحية الجغرافية و الاقتصادية فإن كوردستان تشكل اقليماً جغرافيا مستقلا له خصائصه الأقتصادية المتميزة. و ان التشابه وحده في بعض الخصائص الجغرافية او الاقتصادية لا يعني وحدة الوطن, فكوردستان اقليم جبلي و سويسرا كذلك لكنهما ليستا وطنا واحدا لشعب واحد.

و عليه فان مطالب و ادعاءات الوفد التركي في مؤتمر لوزان لا تشكل حججاً مقنعة, كما لم يكن لها أي اساس قانوني او تأريخي او قومي, يضاف الى ذلك, ان ادعاءات الوفد التركي و مطالبته

بولاية الموصل لم تكن مؤيدة من قبل الرأي العام داخل الولاية ذاتها, لذا فهي ادعاءات باطلة, لا تمثل رغبة و ارادة سكان ولاية الموصل ذات الغالبية الكوردية.

ثانيا: ادعاءات الوفد البريطاني(21):

استهل اللورد كيرزن, وزير خارجية بريطانيا حديثه في المؤتمر كما يأتي:

انتهز هذه الفرصة لاقدم عرضا عاما حول هذه المشكلة. ان هناك كثيرا من التحريف و المبالغة و التشويه حول قضية ولاية الموصل. لذا فالمطلوب هو ان تكشف الحقائق. انا ممتن لعصمت باشا الذي لخص لنا الحجج التركية كما عرضها علينا الآن, اما انا فسأتناول حججه نقطة نقطة, و اعطي جوابي عليها, و سأكون مسرورا لو جمعت حجج الطرفين جنبا الى جنب ليطلع عليها الرأي العام العالمي.

1-الاسباب الاثنوغرافية:

على الرغم من ان الحكومة التركية حكمت ولاية الموصل عدة قرون, الا انها عاجزة عن تقديم خريطة صحيحة و احصاءات دقيقة لعدد سكانها و نسبة اجناسها. و عليه فإن الإحصائية المقدمة من قبل الوفد البريطاني هي اكثر دقة من ارقامهم, و احدث منها (1921) و هي كما يأتي:

ولاية الموصل	العرب	الكورد	الترك	المسيحيين	اليهود	المجموع
الموصل	170663	179820	1489	57425	9665	4324
			5			68
اربيل	5100	77000	15000	4100	4800	100000
كركوك	10000	45000	35000	600	1400	92000
السليمانية	-	152900	1000	100	1000	155000
المجموع	185763	454720	65895	62225	16865	785468

فأذا كان عصمت باشا يحتج على دمج الولاية بالعراق بسبب كون العرب لا يشكلون سوى ربع مجموع سكانها, فكيف يطالب بدمجها بتركيا استناداً الى سكانها التركمان الذين لا تبلغ نسبتهم سوى 8.3٪ من مجموع سكانها. لقد حاول الوفد التركي ان يصور لنا بأن غالبية سكان الولاية هم من الترك, زاعما ان الكورد هم من اصل طوراني – تركي.

ان الكورد ليسوا اتراكا بل هم شعب آري, و ان الادعاء بإرتباطهم عنصريا بسكان الاناضول لا ينطبق في الواقع الا على التركمان.

2-الاسباب التأريخية:

ان الوفد التركي لا ينكر بأن الموصل مدينة بناها العرب, و هذا دليل على وجود العرب قبل وصول الترك اليها. اما الكورد فانهم كانوا هناك قبل ذلك التأريخ, و حتى لو سلمنا جدلا بقول الوفد التركي, بأن السيطرة التركية على الموصل دامت زهاء احد عشر قرنا من الزمان فان تلك السيطرة قد انتهت

قبل بضع سنوات, و ظل العرب و الكورد كما كانوا قبل احد عشر قرنا دون ان يمسهم التغيير, لا في الجنس, و لا في الثقافة, او في المشاعر القومية.

3-الأسباب السياسية

يدعي الوفد التركي ان سكان ولاية الموصل يرغبون في الانضمام الى تركيا بسبب ارتباطهم السياسي القديم مع النظام التركي. اذا كان هذا القول صحيحا بالنسبة للتركمان في الولاية نظرا لتمتعهم ببعض الامتيازات في العهد التركي, فإنه لا يصح لا للعرب و لا بالنسبة للكورد, لأن الغالبية العظمى منهم صوتت في الاستفتاء الأخير لصالح الانضمام الى دولة العراق.

4-الأسباب الجغرافية و الاقتصادية:

ان حجج الوفد التركي الجغرافية و الاقتصادية ضعيفة كذلك. فالمعروف ان سهل الموصل بصيفه الحار الطويل و شتائه القليل الثلج و الذي يبلغ مجموع المطر السنوي فيه 22.5 سم, يختلف مناخيا عن الحالة في الاناضول اكثر من اختلافه عن مناخ بغداد. اما من الناحية الاقتصادية, فإن الوفد التركي يعترف بأهمية كل من ولايتي الموصل و دياربكر, كمصدر للغذاء, بالنسبة لبغداد. اننا لا نطالب بدياربكر, الا ان اهمية ولاية الموصل الاقتصادية لبغداد امر لا يمكن اهماله.

و ذكر كيرزن ايضا ان الوفد التركي يعتقد بأن اسباب اصرار بريطانيا على مطالبتها بولاية الموصل هي وجود البترول فيها, لكنه انكر ذلك, و اضاف ان بريطانيا تعرض الموضوع بعيدا عن اية مطالبة بأية ثروة معدنية في الولاية.

5-الاسباب العسكرية و الاستراتيجية:

ليس من الواضح لدينا, لماذا ستكون ولاية الموصل ذات اهمية دفاعية لتركيا. انني ارى في انضمام هذه الولاية الى تركيا انها ستجعلها قاعدة هجومية ضد العراق, في الواقع ليس هناك ما يخيف تركيا من دولة العراق الفتية حتى بعد انضمام ولاية الموصل اليها.

ان جبال حمرين سلسلة واطئة من التلال و ليست بذات اهمية, و لا تصلح لجعلها حدا بين دولتين!!, ان الحدود الحالية في الجبال العالية بين العراق و تركيا تشكل عقبات حقيقية امام العمليات العسكرية و ليس تلال حمرين.

ان الوفد البريطاني يرفض جعل سلسلة حمرين – ديالى, حدا بين الدولتين للأسباب الاستراتيجية الأتية[22]:

أ-ان القوة التي تحتل ولاية الموصل تتمكن من حرمان بغداد من مصادر غذائها الرئيسة.

ب-ان تلك القوة تستطيع قطع الطريق الاستراتيجي الذي يربط بغداد ببلاد فارس.

ج-من الصعب على حكومة بغداد ان ترى دولة غير صديقة على بعد 112 كم من حدودها الشمالية.

الميثاق الوطني التركي(23):

تستند مطالب الوفد التركي الى الميثاق الوطني الذي شرعه البرلمان التركي في عام 1920, و على ضوء ذلك فإنه يعتقد بأن له الحق في استعادة ولاية الموصل استناداً الى الفقرة الأولى من ذلك الميثاق. ان هذا غير ممكن بسبب التطورات الهائلة السريعة التي طرأت على الوضع الإقليمي منذ نهاية الحرب, مثل تنامي الحركة القومية العربية و الكوردية, و صدور صك الانتداب, و انشاء دولة العراق, و يبدو ان الوفد التركي لا يعير هذه الاحداث و التطورات أي اهتمام.

ان الوفد البريطاني غير قادر على التعامل مع القضية بهذا الشكل المبسط و بهذا السلوك الاعتباطي. ان الحكومة البريطانية, اخلاصا لتعهداتها المقدمة لسكان الولاية, و لعصبة الامم, تكرر رفضها لمجرد التفكير بالتنازل عن الولاية, و انها ترى عدم توفر اية فائدة في اية حجج تركية اخرى حول الموضوع, ان حجج الوفد التركي هي حجج ضعيفة في هذا المؤتمر الدولي.

ثم اعلن اللورد كيرزن في ختام مناقشته ان بريطانيا و في حالة استمرار المطالبة التركية بالولاية سترفع الموضوع الى مجلس عصبة الامم للبت فيه.

نقد الادعاءات البريطانية:

ان الغريب في موقف وزير الخارجية البريطاني اللورد كيرزن, انه تنكر في المؤتمر هو و حكومته بالكامل لكل ما يشير الى حق الكورد بعد ان حولت كوردستان الى غنيمة من غنائم الحرب, و عين نفسه محاميا لعرب العراق و طالب بالنيابة عنهم باحقية العرب و ليس الكورد بولاية الموصل "كوردستان الجنوبية" و يرد و يحتج و يسخر من الادعاءات التركية و مطالبتها بتلك الولاية.

الحقيقة ان كل المعلومات الاثنوغرافية و التأريخية و السياسية و الجغرافية و الاقتصادية و الحجج العسكرية و الاستراتيجية التي ذكرها اللورد كيرزن و التي تتمتع بها ولاية الموصل هي مقومات جغرافية لإقليم كوردي متميز مؤهل لأن يكون دولة كوردية صغيرة, و كان بإمكان بريطانيا, لو كانت جادة في وعودها السياسية للشعب الكوردي, ان تحول هذه الولاية برمتها الى حكمدارية حقيقية بقيادة الشيخ محمود الحفيد آنذاك. لا ان تعمل من اجل دمجها بولايتي بغداد و البصرة (مسيوپوتاميا) قسرا لتخلق منها مجتمعة دولة رغم انف سكانها, يقول ادموندز: ليس من شك في اننا كنا نخوض معركة حياة او موت بالنسبة للعراق, و ذلك ليقيننا ان بصرة و بغداد دون الموصل (كوردستان الجنوبية) لا يمكن ان تبنى فيها دولة عربية معقولة لأسباب اقتصادية و استراتيجية, و اننا كنا نجد انه لا فرق بين المصالح العراقية النهائية و المصالح البريطانية المباشرة[24].

ان بريطانيا كانت آنذاك تمثل الدولة العظمى الرئيسة بين دول الحلفاء التي كان بإمكانها ان تقرر كل شيء مثلما كان بإمكانها ان تنشىء دولة كوردية, لكن مصالحها الاستعمارية و مراهنتها على امكانية ابقاء العراق جزء من امبراطوريتها الهندية الى امد

بعيد, جعلتها ترمي بكل ثقلها السياسي و الدبلوماسي من اجل دمج كوردستان الجنوبية بالعراق دون الالتفات الى مواقف الشعب الكوردي من ذلك التوجه الخطير, يقول انطونيوس: (ان اسهامات البريطانيين في بناء كيان العراق "على حساب مصالح الكورد القومية" هي اعظم احداث ما بعد الحرب الاولى, و يمكن القول, بدون اية مبالغة, ان دولة العراق الحديثة تدين بوجودها على الاكثر الى مجهودات بريطانيا, و كان من خط العراق ان تتفق مصالح بريطانيا الخاصة مع مصالحه, فرغبة بريطانيا في وضع اليد على منابع النفط في كركوك نتج عنها ضم ولاية الموصل "كوردستان الجنوبية" برمتها الى الدولة العربية الجديدة "العراق" و تحويلها الى مستعمرة من مستعمراتها, و الفضل في هذا يرجع الى الدبلوماسية البريطانية, هذا فضلا عن كونه ادى الى تعاون فعال وثيق انكلو – عراقي بخصوص التصدي للمشكلة الكوردية)[25].

فالهدف الحقيقي وراء استماتة اللورد كيرزن في المطالبة بولاية الموصل هو اطماع بريطانيا بثروات كوردستان الجنوبية و ليست حاجة مسيوبوتاميا الى خصائصها الاستراتيجية و الاقتصادية, و كان هدف بريطانيا هو دمج الولاية بولايتي بغداد و البصرة دون أي اعتبار لما سيترتب على ذلك الدمج من هدر للحقوق السياسية للشعب الكوردي و وضعه المستقبلي داخل دولة العراق. لذلك يقول كل من بيارسالنجر و اريك لوران: الواقع ان الكيان العراقي كان كيانا مصطنعا, و تعبر الفكرة التالية افضل تعبير عن هذا الواقع: العراق حصيل نوبة جنوبية اصابت تشرشل الذي اراد الجمع بين حقلين للنفط هما كركوك و الموصل و ذلك بدمج لثلاث فئات من الناس هم الكرد و السنة و الشيعة, و ربما كانت هذه الولادة الصعبة غير المتوازنة هي التي جعلت من التأريخ الحديث سلسلة من اعمال العنف[26].

معاهدة لوزان و تجاهل كوردستان

لم يتوصل الطرفان التركي و البريطاني الى اية نتيجة بخصوص مصير ولاية الموصل, مما حدا باللورد كيرزن الى طلب احالة القضية الى مجلس عصبة الامم للبت فيها بتأريخ 25 كانون الثاني من عام 1923, الا ان عصمت اينونو قدم مذكرة بتأريخ 4 شباط الى كل من وفود بريطانيا و فرنسا و ايطاليا يطلب فيها استثناء قضية ولاية الموصل من مناقشات المؤتمر, فوافق اللورد كيرزن عن ذلك[27] و بذلك وقعت معاهدة لوزان بتأريخ 24 تموز من عام 1923 من دون ان يأتي فيها أي ذكر لمطالب الشعب الكوردي او قضية ولاية الموصل, الا ان المعاهدة اشارت الى ضرورة تثبيت الحدود السياسية الفاصلة بين تركيا و العراق باتفاق ودي بين بريطانيا و تركيا, و ان اخفقتا في ذلك فان الموضوع يحال الى عصبة الامم للبت فيه, و قد اشارت المادة الثالثة في المعاهدة المذكورة الى ذلك[28].

اما ما يخص الشعب الكوردي و دولته الكوردية في هذه المعاهدة فإن المعاهدة تجاهلت تماما هذين

الموضوعين, مثلما تجاهلت كلية البنود 62-64 الخاصة بكوردستان و التي سبق ان ثبتها الحلفاء انفسهم ضمن بنود معاهدة سيڤر (10 آب 1920), و هذا يعكس بوضوح الانقلاب الخطير في مواقف الحلفاء من قضية القومية الكوردية, و يشير الى اللامبالاة التي امتاز بها سلوكهم السياسي تجاه الامة الكوردية المضطهدة. ان تخليهم عن معاهدة سيڤر و تجاهلهم لمطالب الشعب الكوردي السياسية العادلة يشير صراحة الى حقيقة نواياهم الاستعمارية الطامعة بأرض كوردستان و ثرواتها, و هذا هو ما يفسر قبول جميع الاطراف بهذه المعاهدة مادامت قد ضمنت لنفسها حصصا من ارض و ثروات كوردستان.

و كل ما جاء في معاهدة لوزان بخصوص الكورد و كوردستان, و ان لم تذكر المعاهدة الاسمين صراحة ضمن البنود الخاصة بالاقليات فقد جاء في البند (37) من المعاهدة المذكورة ما يأتي: (تتكفل الحكومة التركية, و تضمن الحماية الكاملة و التامة لحياة و حرية جميع سكان تركيا بدون تمييز في الميلاد و القومية و اللغة و الجنس والدين, و تمنح جميع سكان تركيا حرية المارسة, الخاصة او العامة, لأي دين او معتقد او رأي, على ان تكون هذه المارسات متفقة مع النظام العام و الأخلاق الحميدة)[29].

اما بقية الفقرات و البنود الخاصة بالاقليات, و هي عديدة, فانها لا تتعلق بالشعب الكوردي لأنها مخصصة حصرا بالاقليات (غير المسلمة) و هذا بطبيعة الحال لا يشمل الكورد و انما مخصص لحماية المسيحيين و اليهود داخل تركيا, و يذكر ان الاقليات غير المسلمة هذه حصلت من الضمانات و الحقوق بموجب هذه المعاهدة اكثر بكثير مما حصل عليه الشعب الكوردي, فقد وردت حقوقهم ضمن البنود 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43 بشكل خاص و غيرها من البنود الأخرى بشكل عام[30] مع ان نسبتهم السكانية, مقارنة بالثقل السكاني للشعب الكوردي, داخل تركيا كانت قليلا جدا لا يمكن مقارنتها بنسبة الكورد.

و بطبيعة الحال اسفر التوقيع على معاهدة لوزان في 24 تموز من عام 1923 على حصول تركيا بقيادة مصطفى كمال اتاتورك عن الاعتراف الدولي بها, ثم جرى تثبيت حدودها الجنوبية مع كل من دولتي العراق و سوريا في اعوام 1926 و 1930 بشكل نهائي على التوالي و بهذا الاجراء تم تقسيم كوردستان العثمانية مجددا الى ثلاثة اقسام يخضع الجزء الاكبر منها لتركيا, و خضعت ولاية الموصل (كوردستان الجنوبية) للاحتلال البريطاني و كوردستان السورية (الغربية) الى الاحتلال الفرنسي ثم اصبحتا فيما بعد جزأين من دولتي العراق و سوريا بعد استقلالهما. انظر خريطة رقم (2). و بذلك يكون الحلفاء قد اسهموا في تشتيت الشعب الكوردي و تمزيق خارطة وطنه و دمجها بأوطان الآخرين و جعلوا من القضية القومية الكوردية

واحدة من اعقد القضايا الجيوبولتيكية في الشرق الاوسط.

***

الخلاصة و الاستنتاج

يتضح مما تقدم ان الظروف المحلية (الكوردستانية) و الإقليمية و الدولية التي رافقت فترة انعقاد مؤتمر السلام, من اليوم الاول لانعقاده في 18 كانون الثاني من عام 1919 و لغاية توقيع معاهدة لوزان في 24 تموز من عام 1923, لم تكن في صالح القضية الكوردية, بإستثناء الفترة التي هيأت لعقد معاهدة سيڤر في 10 آب من عام 1920 و التي تباطأ الحلفاء في تنفيذها و فرضها على تركيا.

ان دول الحلفاء, و في طليعتهم بريطانيا و فرنساو ايطاليا و الولايات المتحدة الامريكية تتحمل بشكل خاص وزر خلق تلك الظروف ثم تجاهل مطالب الكورد القومية و التي قادت الى الخطأ التأريخي المجحف بحق الامة الكوردية و ضياع حقها السياسي في انشاء كيانها المستقل اسوة ببقية امم و شعوب الشرق الاوسط. و هذا يتناقض كلياً مع كل تصريحات الحلفاء الخاصة بتحرير الشعوب و حق تقرير مصيرها.

و هذا لا يعني ان الشعب الكوردي لا يتحمل مسؤولية في ذلك, فهو الآخر كان شعبا غير موحد و لا يخضع لقيادة موحدة, فالتشتت كان, و لا يزال, احد العوامل الرئيسة في ضعف الموقف الكوردي في المحافل الإقليمية و الدولية على حد سواء. و كان هذا العامل احد الأسباب الرئيسة الذي قاد الحلفاء في النهاية الى تجاهل الرأي العام الكوردي مع انه كان يتخذ قرارات تتعلق بمصيره السياسي.

ان مؤتمر لوزان هو بحق, المؤتمر الدولي الخاص بتقسيم كوردستان الى حصص ضمنت مصالح كل الاطراف التي ساهمت في ذلك التقسيم, لكن بريطانيا العظمى و فرنسا تتحملان المسؤولية الكبرى في هذا الاتجاه لأنهما كانتا تمثلان القوتين الفاعلتين آنذاك و المتحكمتين بمؤتمر السلام, و انهما ساهمتا في دمج اجزاء واسعة من كوردستان العثمانية السابقة, بعد ان اصبحت من مناطق انتدابهما بموجب هذه المعاهدة رسميا, بدولتي العراق و سوريا بدلا من ان تضمنا الى حكمدارية كوردستان التي كان البريطانيون يوعدون بها سكان كوردستان الجنوبية بإنشائها بقيادة الشيخ محمود الحفيد.

و من الطبيعي ان يسفر التوقيع على معاهدة لوزان ليس فقط على حصول تركيا الكمالية على الاعتراف الدولي بها, بل جر ذلك فيما بعد الى ظهور سياسة التعاون الاقليمي و الاستراتيجي بين الدول التي حصلت على حصة من ارض كوردستان و شعبها بهدف ايجاد سياسة موحدة لقمع هذا الشعب و حركته التحررية و منع اية محاولة لاعادة توحيد كوردستان و استقلالها. و اسفر ذلك عن تعقيد الوضع الجيوبولتيكي الذي تعاني منه الحركة القومية الكوردية حتى الآن.

كما ادت معاهدة لوزان الى افتقار خارطة الشرق الاوسط السياسية الى دولة كوردية, و هذا يعكس بوضوح مدى الظلم الذي الحق بالامة الكوردية التي تشكل رابع اكبر مجموعة اثنية في الشرق الاوسط. ان تمزيق خارطة كوردستان, من ناحية الجغرافية السياسية, و دمج كل حصة منها بدولة من دول الجوار الجغرافي لكوردستان يعكس بوضوح ذلك الظلم, و في نفس الوقت يشير الى عظمة الامة الكوردية وقوة اقليمها الجغرافي التي لا تزال تثير مخاوف دول الجوار رغم تشتت هذه الامة, فكيف بها ان توحدت؟!.

و اخيرا ان دول الحلفاء المشار اليها آنفا, و دولاً كبرى اخرى في الوقت الحاضر, تتحمل مجتمعة مسؤولية تصحيح ذلك الغبن التأريخي الذي جاءت به معاهدة لوزان لهذه الامة المظلومة و ذلك بتخليص كوردستان من الدمج القسري و السماح للامة الكوردية لممارسة حقها الطبيعي في تقرير مصيرها بنفسها اسوة ببقية الشعوب.

الهوامش:

1-Kaniholm, Bruce Robellet, The Origin of the cold war in Near East, Princetion University.

Press, Prinction, New Jesery, 1980, P. 9.

2-Sonyel, Salah Ramsdam, Turkish Diplomacy, 1918-1923, Say Publication, 1976, PP. 43-44.

3-كيم, جورجي, ثورة اوكتوبر الكبرى و مصائر شعوب آسيا و افريقيا و امريكا اللاتينية, دار النشر نوفوستي, موسكو, 1987, ص 13.

4-Lenczowski, George. The Middle East in world Affairs, Cornell University Press, Ithaca.

London, 1980, P. 104.

5-Fisher, Sydney Nettleton, The Middle East:A history, Routledge and Kegan Paul, 1971, P. 386.

6-Kutchera, Chris, Le Movement National Kurde, Flammarian, Paris, 1979, PP. 24-25 & 75, and

لازاريف, م.ش, المسألة الكردية 1917-1923, ترجمة عبدي حاجي, دار الرازي, بيروت, 1991, ص 264-265.

7-Lenczowski, George, Op. Cit, P. 262.

8-Fisher, Sedney Nettleton, Op, Cit, P. 386.

9-His Majestrys Stationery Office, Lausann Conference on Near Eastern Affairs 1922-1923, London, 1923, PP. 337, 363, 393, 404

ان معظم المعلومات الخاصة بالمؤتمر مستقاة من هذا المصدر لأنه الملف الذي يضم جميع اعماله.

10-Ibid, PP. 339-341.

11-استند الترك في ادعائهم الى فقرة خاطئة وردت في دائرة المعارف المطبوعة آنذاك في مادة (كوردستان) التي وصفت سكان كوردستان "الكورد" بأنهم كانوا يصنفون ضمن السومريين على انهم طورانيون (Turanians)و من هنا جاء ربطهم الخاطىء بالترك. للتفاصيل انظر:

Toynbee, Arnold J., Survey of Ineternational Affairs 1925, Vol. 1, Oxford University Press, London, 1927, P. 478 and-

His Majestys Stationary office, Op. Cit, P. 342.

12-His Majestys Stationery office, Op. Cit, P. 344.

13-عقد مؤتمر سان ريمو في 24 نيسان من عام 1920 و هو امتداد لمؤتمر السلام, ثم التوصل فيه الى اتفاق حول

تقسيم امتيازات النفط و مد الانابيب و الانتداب و اتخاذ المواقف الموحدة من قبل الحلفاء تجاه تركيا و العرب.

14-اعلنت الهدنة في 1918/10/30, بينما احتلت القوات البريطانية مدينة الموصل بعد ذلك بتأريخ 1918./11/3

15-His Majestys stationery office, Op. Cit, P. 348.

16-Ibid, PP. 344-348.

17-His Majestys stationery office, Op. Cit. P. 349.

18-His Majestys stationery office, Op. Cit. P. 370.

19-Ibid, P. 352.

20-Lenczowski, George, Op. Cit, P. 103.

21-His Majestys Stationery Office, Op. Cit., PP. 325-363.

22-His Majestys Stationery Office, Op. Cit. P. 369.

23-Ibid, PP. 371-372.

24-ادموندز سي. جي. كرد, ترك و عرب, ترجمة: جرجيس فتح الله, مطبعة التايمس, بغداد, 1971, ص 357.

25-Antonius, George, The Arab Awa Kening, aparagon book, Newyork 1979. P. 363.

26-سالنجر, بيار واريك لوران, المفكرة الخفية لحرب الخليج, دار فيشر, 1991, ص 23-24.

27-Toynbee, Arnold J. Op. Cit. P. 495.

28-Ibid, PP. 494-495.

29-His Majestys Stationery Office, Op. Cir, P. 698.

30-Ibid, PP. 698-701.

المصادر

1) العربية

1-ادموندز, سي. جي, كرد, ترك و عرب, ترجمة: جرجيس فتح الله, مطبعة التايمس, بغداد, 1971.

2-داخلية نظارتي, امور محلية ولايات, ولايات يوللر خريطة سيدر, اسطنبول, هلال مطبعة سي.

3-سالنجر, بيار و اريك لوران, المفكرة الخفية لحرب الخليج, دار فيشر, 1991.

4-كيم, جورجي, ثورة اوكتوبر الكبرى و مصائر شعوب آسيا و افريقيا و امريكا اللاتينية, دار النشر نوفوستي, موسكو, 1987.

5-گرميانى, د, جيوپولتيك تقسيم كوردستان, مجلة (گولاّن) العربي, العدد (41), 1999.

6-لازاريف, م. ش, المسألة الكوردية 1917-1923, ترجمة عبدي حاجي, دار الرازي, بيروت, 1991.

2) الاجنبية

1-Antonius, George, The Arab Awakening, aparagon book, New Yoyk, 1970.

2-Fisher, Sydney Ntteton, The Middle East: A history, Routldge and Kegan Paul, 1971.

3-His Majestys Stationery Office, Lausanne Conference on Near Eastern Affairs 1922-1923, London, 1923.

4-Kaniholm, Bruce Robellt, The Origin of the cold war in Near East, Princeton – University Press, Princeton and New Jersey, 1980.

5-Lenczowski, George, The middle East in the world Affairs, Cornell University Press, Ithaca, London, 1980.

6-Kutchera, Chris, Le Movement National Kurde, Flammarian, Paris, 1979.



شعر

قصيدة للشاعر الكردي مولوي [1806-1882]

➢ ترجمة: رؤوف عثمان*

يا قلبي المترع بخمرة هوى ليلى
انت الآن طريح رمسها الأبديّ
يا قلبي.. امسى مربعك
اوكار جدائل تضوع مسكاً
لحداً صخرياً يضيق بكلينا
ياقلبي الهائم كفراشة
تطوف حول شمعة فرارها
كن ترجمانا لآلام جوارحي...
ابلغ ليلاي..
اني لمحت صاحبك
بقلب ولهان و عين دامعة
و خاطر غشته غمامة الأحزان
و جسد شبّ في ثناياه
ضرام نيران
ان انينه يعلو بمئة ايقاع
كل حين..

ان نواحه في رثاء ليلى
يذيب القلوب الصخرية
انه حينا يغمى عليه للموتى
و ريثما يعود الى رشده
يئن من آلام جسد هامد
و بكاءٍ لفراقك. و نظرات هائمة وراءك
انه يعاني من مواجدة اشد الجراحات مرة
و من مرابع خاوية اخرى
كلما يشاهد الطرقات و مرابعها
تلطم هامته يد الحسرة قائلاً
حالم انا ام فاقد وعي؟
كذب هذا ام صدق؟
انه يمزج قصائده بآلام[1] (فرهاد)
ذاك الذي يعبر عن جللِ مصابه[2] قائلاً:
افدي بروحي هذه الديار لأنها
مرابع (شيرين) التي تفوح من ضفائرها
رائحة العبير
اذ وطأت قدماها حيناً هذه الصخور
و نزعت عن صفحة وجهها برقع الدلال
لقد صوبت نظرتها من هذا المرصد
جاعلة جراحات القلوب المصابة الفا
و من هذا الحزون تنثر ماء الأزهار
مسترخصة المسك و العبير
حيث تصفو جبهتها الجميلة
و تربك خط الق البدر
من هنا تتفوه حلو الكلمات
و تمسح غيوم مذاق الام البعاد

ان اشراقة ليلى في مرابعها
تضاهي نواح مصاب مجنون
هل بمقدوري وصف الحالة لخادمك
املي الا تسمع انت و اصدقاؤك الخبر
يا (معدوم[3]).. ان قضاء الله يباغتك
و يجرف العاقل كما يجرف غيره
اين عرفانك؟ أنى فهمك؟
الا تدرك ان لا نهاية لرحمة الإله؟
فاليوم هكذا تشرق الرحمة..
و اما غداً فيقحم اخر في باحة العمل
حيث لا نهاية
ان اية اخفاء للطائفه
تنم عن ظهور اخرى
و لا يدرك هذا الا ذوو القلوب الصافية
اذاً لم تهاوت قدماك في فخ الأحزان؟
من رأى ارباب العقول في الخطب الى هذا الحد؟
اليوم على اعتاب رحيلها
تتألق رحمة الإله
حيث يسقيها ملاك الموت
المرشفة الأبدية.

الهامش:

1-فرهاد: عاشق اسطوري احب (شيرين) و ضحت في سبيلها.

2-القول بعد (قائلاً:) لـ(فرهاد).

3-التخلص الشعري لـ(مولوي).

*رؤوف عثمان: كاتب من السليمانية.

من السجن الى تموز

- شعر: عبد الله گوران
- ترجمة: عبد الله طاهر برزنجي*

صدى بعيد

بعيد.. جد بعيد

ايها الصوت البعيد

ثقيلاً تنفذ الى الداخل!

ما لونك, ابيض, اسود, أم احمر؟

تقدم و اقترب اكثر

تقدم مثلما الماء يهرق فوق النار

انتشر في الروح عبر درب السمع

و انت يا قيد القدم,

استكن برهة, و اهدأ كالقطن المدفون في الآذان

و يا هواء الزنزانة المتلاطم,

اخلد الى النوم كالرضيع

كي تخدش اذني طلقة مرام صوت الخارج

و ينفجر لهيب الرأس

كدوي اطلاقة المدفع!

في غمرة فيضان الصخب

جلبت الريح صبيحة و ادنتها من سمعي:

"عاشت الجمهورية عاشت"

افي الحلم انا! أي جمهورية؟

-لست في الحلم..

هذا الصوت النائي المبشر

انه عرس الجمهورية!..

يا جسد الزنزانة المتعفن

انهمك في الرقص

و أنت يا من تحيا في شبر من القبر:

لقد نفد الموت

و لم يعد له أثر.

بعقوبة
1958

في العدد القادم:

ملف خاص عن الشاعر الكردي المعروف

(شيركو بيكس)

يتضمن سيرته الابداعية ونماذج من قصائده

المترجمة الى العربية.

مقاطع من قصيدة:

[مشانق الجنة]

- قباد جلي زاده*

➢ ترجمة: سيفر احمد

أ-مقدمة

الروح هي ظل الجسد, و من ظل الحرية يولد الجسد الطليق, اما الجسد الذليل المحتل فتنتج عنه روح مضطهدة و ذليلة. لن يشاهد الانسان روحاً نورانية هادئة مادامت الحضارة المنافقة تطبق قبضتها على صرخة و مطالب الجسد المشروعة.

ب-نهاية و بداية

عندما تنتهي من قراءة هذه القصيدة, اذا بدا لك تنسجم معها, حينذاك امسك مطرقة من مطارق ثورة الجسد و ناضل من أجل تحطيم الاقفال الحديدية التي وضعت على ابواب الجسد.

(1)

عندما احتضنك انت ايتها الغائبة الحاضرة

اخونها هي

عندما احتضنها هي ايتها الحاضرة الغائبة

اخونك انت

و عندما اقف بينكما

اخون نفسي

اللعنة.. اللعنة.. اللعنة..

اللعنة على عمر مليء بالعشق و الخيانة

اللعنة ايها العسل المر.. اللعنة

اللعنة ايها السم اللذيذ.. اللعنة

(2)

في مفترق الطرق بين الجنة و النار

و تحت امطار الورود و الجمرة

اقف على قدمي,

اطلق سلوقية عيني في الفتيات الرشيقات الغزلان

اللآتي يصطفن عاريات نحو الجحيم

اللآتي يصطفن عاريات صوب الجنة

الفتيات الجميلات

اللآتي عشن قبلي و لم أرهن

اللآتي عشن معي و لم أرهن

اللآتي عشن بعدي و لم أرهن

اتتبع نهدي اجملهن

ليس مهماً ان تتوجه نحو مصايف الفردوس

ام مشتى الجحيم.

(3)

ذهبت ثانية ايتها المرأة, بعدك ذهبت

قبلت احذية حراس الجنة

حطمت كريستال قلبي على الاحجار السود

فوق صدر (بلال)..

وقد افترقت مفاصل جسدي الخاطئة و قلت:

دموعي قطيع قنافذ دموية يغذيها دخان الحجر

على اكتافهم تمائم الندم الميدوزية تطفر من حدقة عيني

قلت: صغني من جديد, صغني من الغبار الذي

اختلط بالعرق و الدم فوق جناح فرس بدر الشهير

صغني, صغ عيني من بقية التراب الذي يثور

في صحراء انفاس الرجال الصالحين

و يتراكم على سلاسل دفوف الدراويش

خذ دمي من قطرات الندى و الدموع

التي ذرفها

بنلوب لأوديسيوس

و جلجامش للعشب

انسج صوتي من تلك الخيوط الرفيعة

التي تحولت في فم المغارة المقدسة

الى شبكة عنكبوتية الهية

و التي خدعت الموت حتى الموت.

فاقت الملائكة من حريق شراييني

سراً أرتني من ثقب الابواب

قباب نهديها البيض.

المرأة..

المرأة..

المرأة..

يا أجراس تشرد الرجال

يا نور اللعنة

ها أنا اشرب مرارة اعناب خطاياك

كنت شبوطاً في انهار الجنة العميقة

سنارة اجفان عينيك الوقحتين

رمتني الى بحيرات الجحيم المتكدرة

و حولتني الى سرطان..

كنت حمامة بيضاء في الكنائس و الجوامع السياحية

في الجنة..

بندقية رغباتك المجنونة لاحقتني

حتى غدوت بوماً في القلاع المنهارة

للأرض المنهارة

جراحات كل فحول الارض هي من براثن

شهيتك النهمة

احجار جدران جميع زنزانات الارض

من صخور عصيانك

هات, هات, هات

هات فواكه الفردوس المسروقة

اعطيني اياها.

اسمحي لي ان اصغي لأغاني الجنة المؤنفلة

ضعي مفاتيح الجنة السحرية في كفي..

لولا خطيئتك, ايتها المرأة, لما إنشقت

بيضة الارض الطاعونية

ما كانت ستحدث الحرب العالمية الاولى و الثانية و الثالثة

و المئة.. و الألف.

ما كانت الغربان تنعق فوق أطلال أرواحنا

ايتها المرأة, يا أجراس تشرد الرجال

يا نور اللعنة

يا خالقة تلك النجمة الخامدة التي

معامل قيئها اكثر من خلايا عسلها

مصابيح ظلامها اشد من دياجير نورها

و احات رصاصاتها اكثر من بارود ازهارها

غابات رماناتها اكثر من مزهريات نهودها

اعشاش جرادها اكثر من طيور قمحها.

من اجل عينيك

يرمي ملك الشرق سهمه الناري صوب الغرب

و قد اعتلاه جيش مسموم,

و يرمي ملك الغرب سهمه الناري صوب الشرق

و قد اعتلاه جيش مسموم.

نيازك الجنائز يتساقط على اراجيحنا الناعسة

جليد النخاعات الدموية يتساقط فوق حدقات مواقدنا

فوق مائدتنا تلتقي الجماجم

امام مرآتنا نلتقي القلوب التائهة.

من اجل عينيك

يرمي الملوك سيوفهم بعد كل انتصار و بعد كل هزيمة

ليمتشقوا سيوفهم ما بين الفخذين

يقذفون منوياتهم في ارحام فتيات القصر

و في ارحام عاهرات القبور, و لا وقت لديهم للحب.

ايتها المرأة, يا أجراس تشرد الرجال

يانور اللعنة

كانت شفتاك.. شفتي مغنية حورية فردوسية

سرقتها في حفلة الثمالة و فقدت البكارة.

شقوق جسدك هي آثار الغلمان الانيقين

في ليالي عريك

نهداك ثمار شجرة مباركة

كانت تظلل كتب الله المقدسة

لقد خطفتها في غفلة.

أيتها المرأة.. نهداك قباب كتب الفردوس المقدسة.. اطاردك.

ثغرك طنبور اغاني الفردوس العارية.. اطاردك.

شقوق جسدك خزائن لمفاتيح الفردوس الذهبية.. اطاردك.

لا اكاد اتخلص من كسر حصار حلقة

حتى اقع في حلقة أخرى.

وسط الدوائر ذات الاسيجة الشائكة.. الرياح نواعم الحديد.

من بين الاسيجة الشائكة تتجذر النوارس

في اعماق البحار المتجمدة

و تتحول الى اشجار موحشة

تفترق مناقير الاشجار من عضلات جثمان الارض

تنحرف و تتحول في السموات الى طيور حجرية.

وسط دائرة الاسلاك الشائكة

تنبح الكلاب المسعورة للقوانين البائدة

بوجه أزاهير الفكر النارية

و احراس نفسي الوردية.

وسط الدوائر المتأزمة

اسراب صقر الحضارة بمناقيرها الاسطورية و ريشها و أجنحتها

تنشب أظافرها في الارانب الراقصة لجسدي

و هي تطفيء عيون غرائزي.

ايتها المرأة.. ايتها الحمامة الشريرة يا قنديل الحظ العاثر للرجل.

اجلبوا لي طيراً قطعت بسببي وتراً من الحانه

اجلبوا لي شجرة قطع عصن و سقط تفاح منها

بفأس جشعي و شهوتي

هاتوا لي حورية امتزجت شعرة منها بأنفاسي

قلت لهم لم اكن انا.. بالله لم اكن

بل كانت (حواء)

بجهلها ازعلت الله

بغبائها خسرت رحمة الانبياء.

ايتها المرأة التي منحتني جميع قمم جسدك الملتهبة

ايتها المرأة التي منحتني جميع وديان جسدك الخصبة

ايتها المرأة التي وهبتني جميع ثمار جسدك الناضجة

ايتها المرأة التي وهبتني جميع ابواب جسدك المغلقة

انت وطني**.

*قوباد جلي زاده، شاعر برز في الثمانينيات، له عدة دواوين مطبوعة.

**من مجموعته الثالثة (مشانق الجنة) الطبعة الاولى - السليمانية 1998..

قصائد لبختيار علي*

ترجمها:آزاد برزنجي

1-حينما أنقسمُ

حينما أنقسم،تبكي احدى يدي تحت هذه الأشجار..وتذهب الأخرى
الى الدعاء تحت الأمطار..ينطلق احد انفاسي الى بساتين الرب..و آخر الى الزوبعة والعاصفة..
احد قلوبي يصبح سادنا في نيسابور..و آخر يغدو عاشقا على الحجر الصبور.
حينما انقسم ،لن يبقى وفاء بيني وبين نفسي
لن تبقى عقدة ..جسر..سلام بيني و بين نفسي
حينما انقسم ،تدخل كل قطرة من قطراتي نظرة،وكل يد من ايادي بحرا،تدخل كل كلمة من كلماتي صرخة احدى الليالي.أينما انكسر نور ،أنا موجود في أجزائه.أينما مات الماء ،أنا موجود في اختناقه.
حينما انقسم انا ،أدخل البرق ، ادخل اللظى القديمة..أدخل صداح العندليب..أدخل ياقوت الدموع و مرجان الحزن و ماس الجروح.
اني أنقسم على الأديان،على الآلهة القدامى،على أكثر من صلاة و أكثر من زكاة،على اليقين و اللايقين،على قلوب الزاهدين و الزنادقة...

أنقسم على الدول ،على بلاط الملوك وبيوت الأمراء،على مؤامرات الوزراء ودماء السلاطين.أنقسم على مسبحة الوالي وابتسامات الحكام،على أكتاف العبيد وسلاسل السجون و اسنان الفرسان.أنقسم على الحروب ،على جيف المتمردين،على صيد الأمراء و جروح الفرائس. أنقسم على الغرف،على الشبابيك...على الأشجار والطيور و الأزهار.

متشائم انا....فأمزج نفسي بالتفاؤل

اسود انا....فأخلط نفسي بالألوان

مرّ انا ....فأخلط نفسي بالحلاوة

أنقسم على نور المتصوفين ،على ظلمة العميان ،على شموع الشك المشتعلة،على سجود الخلوة و نسيم الغابات

فتعالي أنت أيضا وانقسمي معي على الأشجار

تعالي وانقسمي معي على الطيور

تعالي كي ننقسم على أنفسنا

تعالي و اقسمي دماءك على جروحي

تعالي و اقسمي جروحك على دمائي

كي يضيء دمك بألمي

و يضيء ألمك بدمي

2-كذب النار

مادمت أحترق،فلا خوف لي من الجحيم

من يكون جرحا بأكمله،لن يخفي نفسه من السيف

أيتها النار،يا صديقة جميع الأصدقاء

الخائفون فقط يحتاجون لهبك للأحتراق

نحن الذين نفهم النور،لن يكون بوسعك تفسير ظلماتنا

نحن الذين نروح على نار انفسنا،لن يتوقد لهيبنا بلهيبك.

اشتعالك لن يصل ابواب الروح،هسيسك لن يصل العظام.

أيتها النار...

اني عشِشت فيماوراء الأحاسيس

وتحدثت عن التفكير فيماوراء التأملات

وعن العظمة فيماوراءالاله

وعن الحياة فيما وراء الانسان.

لست من جنس تلك الأجساد التي تحرقها النار

لست من جنس تلك الكتب التي لن يقرأ رمادها

لست من جنس تلك اللوحات التي لن يمتلئ فحمها بالألوان

لقد تجاسرت ان امد يدي الى الأشجار التي اشتعلت من البرد.

وانتم يا رجال الأطفاء ،يامن تصبون الماء على هيستيريا الحدائق من بدء الخليقة

حتى اليوم،تصبون الماء على هذيان النوافذ،تخمدون الجمرات الموجودة داخل رؤوس السكارى

تطفؤون الشرارات الموجودة في عيون الضحايا.

انتم يا قاتلي النيران،يامن تخنقون اللهب،يا صيادي الجمر.

اني ابحث عن نار ليس بوسع اياديكم الأمساك بها

اتحدث عن لهيب يأتي من الدم،اتحدث عن نور لا تعرفه أشعة الشمس،أتحدث عن ضياء تمطره الأمطار الموجودة في القلب لا غير.

اني أتحدث عن نور يبدأ فيما وراء النار

اتحدث عن رماد يتقدم اللهب

والذين يحترقون بهذه النيران هم الأجساد الكاذبة

والذين ينطفؤن بهذه المياه هم الحدائق المنافقة

3-يا من تجعلني مذنبا

أيها الأحمق،ليس ذنبي حيث لا تستطيع صيد الياقوت

ليس ذنبي حيث انك من جنس الزواحف وأنا من جنس الطوفان

أنا من جنس الآلهة و أنت من جنس النمل المبتل تحت الأمطار

أنا من قبيلة المنجمين، وانت بائع ديدان سقيم

انت حارس للخراب ، وانا مهندس اليوتوبيا

انت غصن شجرة منخورة،وانا نور و لهيب و عاصفة

ليس ذنبي حيث لا تستطيع أن تزهر

ليس ذنبي حيث لا ينمو في رأسك غير الشوك

ما أرسله انا للأبدية لن يكون بوسعك انت اعادته

ما أخلقه من أراض و بحار ،لن تقاس بمعاييرك المبتذلة

أنت أيها الشاري القديم لمزبلة الحياة

أسنانك أكثر شيخوخة من أن تكسر جوزي المليء بالحكم

وانفك أذل من أن تشم حدائقي

4-حينما تتيه في الخريف

ان تهت في الخريف بين عصفورين

انت يا من قلبك مليء بضياء الكريستال ،حينما تهت

بين الماء و الأساطير و صوت الغابات،حينما فقدت

لسانك بين هذا الحرف و ذاك..ادخل هذا النفق الذي

ملأته من أقصاه الى اقصاه بباستيل الخرافة..

ادخل الليل الذي من الضوء

واعلم ان هذه يمامة الصوت الأخيرة ،و سوف تطير اثرك الى أقصى مدى..صوت قد جعلته تماما اغنية بمزمار الخرافة

يلعنك الله ..ان لم تخرج كل كلمة تكتبها من فوران دمك

يلعنك الله..ان لم تخرج كل اغنية تغنيها من جرح حنجرتك

يلعنك الله ..ان لم تكن كل طريق تسلكها نابعة من ثمالتك

هناك من يريد ان يبحث في زنزانته الميتافيزيكية عن بذور موته في قلب الخريف،ومن شدة خجله الميتافيزيكي ينحني رأسه لتساقط الأوراق ،و لكن هاهو الخريف يملأ المدينة برسائل الطيور غير المقروءة..يملأ المدينة من أئمة مختنقين في الخريف ..

يملأ المدينة بحمائم مختنقة في الأوراق...ادخل انت الكتاب الأخضر الذي قد جعلته بستانا بقلم الخرافة،ادخل الهيام الأسود الذي قد جعلته بيتا بحجر الخرافة.

يلعنك الله .. ان لم تحيي في الأخير كل ورقة تذويها الآن

يلعنك الله..ان لم تجعله حقيقة مرة اخرى ،كل خيال تقتله الآن

يلعنك الله..ان لم تجعله وردة ثانية ،كل برعم تذبله الآن

حينما يرمي الخريف الضوء بسهامه،يغرز رماحه في الصباح

يمتلئ زاد الظهر باوراق جريحة ....انت تحرس اشجارك بسكين في يدك..

تذهب صوب المرافئ البعيدة، تخاطب الخريف فيماوراء حكم الزمان..تخفي قلبك فيماوراء الذبول بوردة الخرافة.

يلعنك الله.. ما لا تعطيه للخريف،أعده للدنيا في الآخرة

يلعنك الله..ما اضفته للروح،اعده للجسد

يلعنك الله..ما جعلته مطلقا،اجعله نسبيا ثانية

الخريف هو ان تموت الشفرات ان يكون بوسعنا قراءتها

ان لا يحال الحقيقي الى الخيال ثانية

ان لا تعاد الصور الى الجسد ثانية

ان لا يصبح الدخان نارا ثانية

ان لا يصبح المنفى بيتا ثانية

5-البحر يتبرأ منا

ان أتقاسم معكم البيت،سوف تأخذون الأصداف كلها لأنفسكم

ان أتقاسم معكم الليل ،لن تتركوا لي ظلاما يكفي لموت زورق

ان أتقاسم معكم الصبح،لن تبقى لي جرعة واحدة من حليب الفجر

اذن لم لا اتبرا من سفنكم التي لطخها خيال النورس بالدماء؟

اعلموا ان غضب الغيوم هو جرح كرامتي

جروح غرقاكم

ليست كالجرح الذي تحدثه في صخور الشواطئ

دواركم الذي سببه الأمواج

أين من دواري الذي سببه النظر الى أزل السماء و عبثها؟

منذ آلاف السنين و أنا أرفع يدي دون ان تلمس أيادي احد النجوم
من قال ان عبث معركتي يقاس بعبث معركتك المبتذلة ..أيها الانسان
من قال ان سرابك يقاس بعظمة سرابي..أيها الانسان؟

6-البحث عن الفرائس

أين هي الفرائس البيضاء التي هربت و هي ملطخة بدماء سكاكين الموت؟
ايقظ الوردة من نومها ،فالوردة النائمة هي الوحيدةالتي تعلم اين هم.
ليس في مناقير هذه الطيور غير صراخ الماء..من أين يعلم الطيور الحديث عن الفرائس؟أنت؟أنت أيها الصياد الأسود ،يا من تحيل الأشياء كلها الى ماء..أين هي فرائسي..أين؟أيا سيء الأرومة..يا أسوأ من العاصفة..دماء من تلك التي تخفيها ذات نهار بالعشب و ذات ليلة بالخريف وذات صباح بالبرد و ذات ظهر بالماء؟صوت ماذا،ذاك الذي تغطيه براعم دمك؟ارفع يدك أيها الماء،وأدر ظهرك الى الاله.ثمة ديجور حتى في أصفى قطراتك،في أكثر جرعاتك بياضا،يدخل النور حنجرتنا منخورا.

في كل ارتطام ماء،هناك رمل الطاعون و رج اوبئة الصيف.لم تدعي البراءة وفي ثديك الحليب القديم للبرابرة..في ثديك حليب أمس الحشاشين؟لور أبيض للشتاءات التي نتذوقها في الأصياف..هناك قطرات الندى التي تنزل في الصباح فنشربها في الليل.هناك روائح نتعرف عليها عند الصباح و ننساها في المساء.

*بختيار علي
-كاتب وروائي وشاعر كردي من السليمانية.
-له روايات مطبوعة؛ منها: (موت الوحيد الثاني)، (مساء پروانه) (آخر رمان في الدنيا).
-عضو هيئة تحرير مجلة (رەهەند- أي المدى) الكردية التي تصدر في اوروبا، وتعتبر من المجلات الكردية الرصينة.

قصة

- مسرطنة بالوهم — جليل القيسي
- اللعبة والبكاء — رؤوف بيگرد
- حي الفزاعات — شيرزاد حسن
- كتب الخيال — عطا محمد

مُسَرْطَنة بالوهم

جليل القيسي

الى الشاعر الكبير شيركو بيكەس

تسلمت اكثر من ثلاث رسائل قصيرة, لكنها غريبة اللهجة, و الديباجة.. كلمات تنداح فسيحة فياضة, بلورية اللمعان و المعاني.. في هذه الرسائل المتوترة ثمة غسق ايماني بقضايا سرابية تارة, و واقعية تارة اخرى , و هستيرية عنيفة, اكدت لي ان صاحبتها قد مزقت جميع صواري ثقتها, و ايمانها بكل شيء.. سأكتفي بادراج اخر, و اقصر, بل ابسط رسالة لها.

عزيزي الفنان المبدع مهدي الصالحي:

اذا اخذت من عش طائر ما بيضة واحدة, فإن الطير لن يلاحظ ذلك, اما اذا اخذت بيضتين فإن الطائر سيهجر عشه. و لأنك بصمتك المتعمد, خلقت لي حرماناً حلزونياً من الفرح, و الغضب, و وترت اسلاك اعصابي, عليه قررت ان اتصرف بطريقتي الخاصة حتى اذا سقطت معك في غسق فوضوي من الاشكالات المعقدة.. كالعادة لم تذكر اسمها الحقيقي.

****

ذات مساء كنت بعد ان انتهيت من رسم واحدة من اروع لوحاتي, جلست اتناول رشفات من ويسكي (بلاك جاك). رن جرس الباب. فجأةً وجدتني امام فتاة باهرة الجمال على الرغم من شذوذ مظهرها, وقفت قبالتي دافعة رأسها الذي يتوجه شعر اشعر منفوش بفوضى مثل لبدة الأسد, و عيناها ترسلان شعاعاً قوياً وهما في مثل خضرة عين الهرة الوحشية.. خطت داخل الغرفة بثقة متينة بالنفس من غير ان تنتظر مني اية كلمة, و القت حقيبتها بلا مبالاة فوق اقرب صوفا. كانت حركاتها, و خطواتها, و التفاتاتها تفيض بأرستقراطية الروح.. تأملت

عدداً من لوحاتي المعلقة على جدران الغرفة, و اطلقت تنهيدة حارة, و قالت: قالوا لي انك رقيق جداً. و وديع جداً.. و عنيد جداً.. و انا اعرف بطريقتي الخاصة انك فنان تشكيلي رائع و عظيم.. حسناً, لماذا رفضت الإجابة عن رسائلي؟ لقد حولتني بصمتك الأخرس ايها السيد مهدي الصالحي الى الهة الجنون الإغريقية - اتية – اتعرف ان المرأة عندما تحقد حقداً دفيناً, تتصرف مع من تحقد عليه على طريقة الآلهة –اتية- التي كما تقول الأسطورة تأتي على الف قدم و ذراع.. ابتسمت لها, و قلت حمداً لله انك جئت بقدمين و ذراعين فقط..

-اعرف يا سيد مهدي انك تنفر من الآخرين على طريقة كلمات سارتر الجحيم هي الآخرون, تماماً كما افعل انا..

-حسناً, ما سبب نفورك عن الآخرين.

-لأن عذابات سخيفة تستحوذ عليهم, فيبدون امام ادراكي, و وعيي, و بسبب زخم حياتي الفكرية, و ربما الطبقية السخيفة و كأنهم اقزام.. هزت رأسها بتوتر و رددت: لا لا.. لا اتحمل وجودهم..؟ فتحت حقيبتها, و لدهشتي اخرجت مطواة كبيرة بلون الفضة, ثم اخرجت علبة سجائر – فينوس – و مقدحة ذهبية اللون. قالت و هي تعيد المطواة الى الحقيبة: هل لا مانع لديك ان ادخن؟؟

-لالا..اطلاقاً.. اشعلت سيجارتها و اخذت منها مجة طويلة. في عينيها اللتين كانتا ترسلان شعاعاً قوياً رأيت ثمة ألماً اصم, من النوع الذي تجده عادةً عند الصوفي و هو يتأمل في ساعة وجد العالم, و علقه لا يستطيع ان يتجاوز في ادراكه سوى تخوم المعقول فقط, و هو حائر ماذا هناك وراء اللامعقول؟. ظلمة بلا معالم! عالم مادي خام؟ غمر مسكون بكائنات غريبة.. ابهام! عالم اللاشيء الخارج عن نطاق الزمن..!؟. قلت:

-هل افهم من كلامك انك وحيدة؟

-انا دائماً وحيدة.. وحيدة حتى مع اسرتي.. اعيش مع كتبي, اسطواناتي الكلاسيكية, مع خيالي, و احياناً مع هستيريتي, و استمتع بنعيم انهياراتي النفسية.. ها ها.. الاحظ من نظراتك التي راح التعجب يتراقص فيها, و كذلك الدهشة, بل الإندهاش..

-لماذا انت وحيدة.. فتاة بهذا الجمال الباذخ وحيدة؟ كيف!؟

-الإنسان يا استاذ مهدي دائماً وحيد.. انا, لا اريد ان يعرف عني أي شيء.. انا هي انا..

-لماذا؟

-انني انسانة مغتربة بكل معنى الكلمة.. الهو مع نفسي فقط. انا بطلة بطريقتي الخاصة..

-الاحظ انك تعانين من الالم.. اشعلت سيجارة ثانية, و اخذت مجات منها دراكاً, و قالت بصوت اقرب الى الهمس: هل تصب لي كأساً من هذا الـ: (بلاك جاك) ويسكي نوع رديء. لكن لا بأس.. صببت لها كأساً. اخذت عدة حسوات صغيرة, و قالت: في الشرب فقط اكون موفورة البهجة, ظاهرة المرح, و متلاحقة الضحكات, و اكون فتاة ربيعية الوجه, و التوهج كما تقول لي والدتي..

-اه.. رائع.. رغم آلامك.

-الألم يبقى, لكنه ينحسر ليلسعني بعد فترة بطريقته الأفعوية.

-للمناسبة ما الذي تعانين منه؟

-هل جربت الألم – الكير كغاردي؟

-لا لا.. ما نوع هذا الألم..؟ ....صمتت, و راحت تشعل السجائر تباعاً حتى ان غرفتي تحولت الى مدخنة حقيقية.. و كانت كلما تخرج مقدحتها و علبة السجائر, و تخرج من غير تعمد و بآلية المطواة ايضاً.. قلت: لماذا تحملين هذه المطواة؟؟ قالت:

-سأخبرك لاحقاً.. آه.. قبل قليل سألتني عن نوع الألم الذي اعانيه؟ هل قرأت أي شيء للفيلسوف كير كغارد؟

-لا لا.. حسناً.. ما نوع الألم الكير كغاردي.!؟

-انه نوع صعب! و معقد! و ملولب.. حلزوني.. حقير.

-حقير!؟ .. كيف؟

-حسناً.. سأحاول باختصار ان اشرح لك آلامي, و اوهامي. احياناً, يا الهي تشتد علي وطأة الليل.. الظلمة.. الهدوء. هل حدث ان خفت من الأمان؟؟ الأمان يخيفني.. هل فكرت كرسام موهوب في زمن الصفر. الصفر.. احاول ان انغرس في اللازمن.لا اريد ان اتزمن.. لكن الإنسان, و هنا المأساة, متزمن رغماً عنه.. ها ها ها ها.. اتعرف بين الزمن و اللازمن فجأة اشعر كما لو انني ازدهر, ثم اذبل و اروح في ضرب نادر من القسوة و العذاب. هل تفهمني.

-احاول..

-سيد مهدي الصالحي, هل تثق بالأمان؟؟ لم تنتظر جواباً مني. اطلقت صيحات صغيرة و حلوة, و رسمت بيدها التي تمسك السيجارة حركات مسرحية صغيرة.. قدمت لها كأساً ثانية. شكرتني بحرارة بعينيها. تنهدت بعمق و قالت: الأمان مجرد مظهر.. صدقني ثمة خطر في الأمان.. و من خلال ضحكة حلوة اضافت:

-هل تؤمن بأن عالم الغد يكون رائعاً مع امبراطورية الفوضى العالمية.. كيف يكون رائعاً مع امبراطورية المال.. صدقني انا شديدة الايمان بكلمات المسرحي اليوناني العظيم سوفوكليس (و اني لأرى اننا جميعاً ما حيينا لسنا الا اشباحاً, الا ظلالاً كاذبة) انت رغم روعة موهبتك كذبة.. انا كذبة تتألم لأنها تعيش في الكذب, و كذب هي الحياة..

-يا الهي, لم هذا القدر من الالم؟

-الا تتألم و انت تعرف سلفاً انك مجرد شبح.. ظل.. انا انسانة بلا هدف, لأنني وحيدة رغماً عني.. انني بسبب وعيي الحاد انمو و ازدهر في القسوة و العذاب.

-انت ساحرة الجمال.. يمكنك ان تجدي بعلاً وسيما.

-اهكذا يتكلم فنان تشكيلي مبدع.. يبدو انك فنان بالفطرة, اما ثقافتك فمسطحة جداً.. اسمع, كانت مارلين مونرو باهرة الجمال, و ثرية جداً, و نجمة عالمية, لكنها في اعماقها كانت وحيدة دائماً, و انتحرت بسبب وحدتها.. يا مهدي الصالحي اذا تزوجت سأكون اكثر وحدة.. ثم انني اشعر بالإشمئزاز و التقزز لمجرد التفكير بالرجال, و في تلك العلاقات البغيضة بينهم و بين النساء.. ارى يا سيد مهدي ان معاناتك الداخلية باردة, لكن لوحاتك, و هنا الغرابة فيها براكين..

-للمناسبة متى قرأت كيركغارد؟

-في كلية الفلسفة.. انا متابعة جيدة للعديد من الفلاسفة.. احب قراءة الفلسفة كثيراً.

-هل افهم انك تحت سيطرة كيركغارد فكرياً.

-اطلاقاً.. انا تحت سيطرة العديد منهم.. نوعية الي كيركغاردي فقط.

نهضت و راحت تتمشى في الغرفة, و تدقق بصرها في لوحاتي و تهز رأسها بانبهار تارة, و بنشوة تارة اخرى, ثم تدقق بصرها في لوحاتي و تهز رأسها بانبهار تارة, و بنشوة تارة اخرى, ثم تدقق بصرها فيّ .. فجأة اقتربت مني و طبعت قبلة حارة على شفتي. فاح ارج مثير من جسدها الرشيق الجميل. اطالت قبلتها, و رشتني بهمر من المشاعر النادرة الرائعة.. قلت لا ارادياً و انا ادقق بصري فيها:

-للمناسبة, هل بالامكان ان نتكلم بشيء من الصراحة؟

طبعاً يا سيد مهدي.. انا جريئة جداً, و اكثر منك صدقاً مع نفسي.

-الا تعانين من النيوروسية؟

-ها ها.. النيوروسية, هي طبعاً علاقة حيوية الكائن بتعقيد البيئة التي يعيش فيها, طبعاً أي كائن حي يستطيع ان يتعرض لها.. اجل اعاني منها بقوة.

-هل بالإمكان ان تخبريني لماذا فجأة قبلتِني بحرارة؟

-لا حباً بك .. لا .. ابداً .. ابداً .. اسمع, يوم كنت في الثانية عشرة من عمري كان يشاركني في بعض العابي صبي تركماني جميل من نفس عمري يدعى – تورهان – كان ذكياً, وسيماً جداً, غير انه و عرفت هذا بعد سنوات كان يعاني من اختلالات غددية كانت تجعله يحس بالضجر و التعب. و كان ضغط دمه منخفضاً, و التحول اللوكيمي, و التجدد في خلاياه واطئاً.. و انت, يا الهي, عندما تحرك رأسك بإتجاهات عديدة تشبهه كثيراً في ملامحك.. يا الهي, على طريقة كعكة الروائي مارسيل بروست فتقت فجأة ذكريات دفينة فيّ. كان تورهان يعاني من نضج جنسي مبكر, لذا كلما انفرد بي كان يقبلني بحرارة و بجنون شهوي في فمي مرات عديدة و يهصر بيده ثدي الشبيه بالبرعم.. صدقني قبلت فيك تورهان. ملامحك, و تورهان و قبلاته و عبثه بصدري

ذكرتني الان بكلمات الفيلسوف بارمنيدس (ان شعورنا بكينونتنا ما هو الا شيء شبيه بالحلم) اين تورهان؟ كان حلماً.. انت حلم.. انا حلم.. المهم.. ايها الصالحي جئت عندك لترسمني.. قل لي, متى سترسمني كحلم, و تغوص عميقاً تحت جلدي لتريني بموهبتك جوانب لم استطع رؤيتها انا التي اعرف الكثير عن نفسي.

-الم تعرفني, او تتعرفني في الجامعة على شاب؟

-ها ها ها ها.. في الجامعة.. ما اكثر الطلاب, ولاسيما اولئك الذين كانوا يحاولون بمختلف الاساليب ان يتبينوا اتجاهاتي, افكاري, مشاعري. كانوا يتجسسون علي كالكلاب التي تشم طريقها استراقاً لما يدور في رأسي, افكاري.. كنت ازجرهم بسخرياتي الكاوية, و كنت عندما اخلو لنفسي كان قلبي يختلج تقززاً من افعال ارتكبها معهم, و هم يسمونني بـ(جمال الشيطان) لا لا تسألني لماذا.. انا امرأة, و من طبع النساء الطيرة و التشاؤم, و الشك الذي يثير الندم.. لماذا لك وحدك اعترف بأسراري انا المغلقة على نفسي؟؟ ربما لأساعدك على طريقة العالم فرويد لتجسدني على نحو اعمق في لوحتك.

-حتماً سأرسمك على نحو اعمق اذا عرفت الكثير عنك.. اخبريني ماذا تعملين حالياً.

-لاشيء.. نعم لاشيء. للمناسبة هل انت قارئ جيد؟؟

-الى حد ما.. و لكنني اعترف لست بمستواك.

-هل قرأت رواية –غاتسبي العظيم- لسكوت فيتز جرالد؟

-نعم.

-هل تتذكر شخصية (نك).

-ليس بكل وضوح.

-المهم.. كان يقول عن صديقته (ان صوتها مليء بالمال) و كذلك صوتي.

-ماذا تقصدين؟

-لدي الكثير جداً من المال.. والدي ثري خرافي و انا وحيدته. طلبت كأساً ثالثة, و اشعلت سيجارة اخرى. قلت:

-الاحظ انك تشربين و تدخنين بافراط.

-سألتني قبل قليل عن النيوروسية, و قلت لك انها علاقة حيوية الكائن بتعقيد البيئة, و البيت الذي يعيش فيه. ان وفرة المال يا سيد مهدي جعلت مني كائنة غامضة, سخيفة, طاغية, و مثقفة بورجوازية مضطربة, و شخصية كاريزمية.. كلنا في البيت, والدتي, و والدي شخصيات سخيفة كاريزمية, و عبثية.. اذكر ذات مرة ان طبيباً جراحاً اجرى لوالدي عملية فثء دملة في ذراعه في البيت, و لمجرد ان يتظاهر بكاريزميته, و يستعرض شخصيته رفض ان يزرقه الطبيب بالمخدر, و غنى طوال العملية.

-هل تشربين و تدخنين بكثرة.

-بالضبط مثل والدي, و والدتي.. عبثاً حاولت ان اطبق على نفسي نصيحة ارسطو (الوسط الذهبي) أي الإعتدال في الأمور.. ها ها ها ها .. لم الاعتدال! انا جد قاسية مع نفسي.. لقد اصبح لدي دافع ديونيسي قوي يضغط على نفسي بقوة, و أصابني بالوهم.. ليس المال, و الحرية المنفلتة, بل الفلسفة ايضاً افسدتني..

-الم تحاولي ان تعالجي نفسك؟

-انا كذبة.. ما جدوى علاج الكذب..

-لكن الإنسان بحاجة الى تنظيف و تغيير نفسه بأفكار جديدة.

-ما جدوى الأفكار الجديدة؟ لماذا افكار جديدة.. انا شديدة الإقتناع ان كينونتي مجرد حلم... بعد صمت طويل, قالت بلهجة امرة: آلان متى سترسمني؟ كحلم.. كسراب..

-آه.. كحلم.! سأرسمك.. اجل.. لقد عرفت الكثير عنك. لكن يجب ان تكوني صبورة معي.. حسناً, ما رأيك ان نبدأ غداً..

-غداً.. لم لا.

***

جاءت في اليوم التالي و شعرها منفوش و ثمة ابتهاج متدفق في وجهها, و رائحة ملساء تتدفق برفق من جسدها. لم يحدث قط ان رأيت هكذا جمال صارم اجرد في اية امرأة اخرى. جلست كما طلبت منها بهدوء شديد, و بكثير من الرقة, و الطيبة, و الصبر, على عكس شخصيتها العنيدة, و الفوضوية الكاريزمية.. و لأنني اعجبت بصدقها الشديد, بل الصارم مع نفسها, و افكارها, رحت اجسدها مثل وعاء صاف لتموجات روحية متلاطمة. و لست ادري لماذا و انا ارسمها ذكرتني بالشاعرة اليونانية القديمة – سافو – التي ولدت في جزيرة (ليسبوس) الواقعة على ايجة, تلك الجزيرة التي تتميز نساؤها بميول شهوانية لا تعرف الحدود, و علاقتهن العاطفية المثلية.. كانت سافو شاعرة و مفكرة عظيمة, و انسانة ملتهبة للجنس و الحب, و القت نفسها من فوق اعلى جبل الى البحر في محاولة للإنتحار لأن حبيبها رفض مبادلتها الحب. و هذه الإنسانة التي لم اتعرف على اسمها حتى الان, و مضى اكثر من شهر على ترددها الى مرسمي و كثيرة الشبه بالشاعرة –سافو- وعياً, و مشاعر, كانت كلما اقبلت لأرسمها اشعر بأن كآبتي, و ما اكثرها كفنان تنكمش, و تتقلص و تأخذ طريقها عجلى خارج كياني و ابدأ بالرسم بحماس و ديناميكية العظيم فان كوخ.. قلت لها ذات مرة و انا ارسم بحماس: بصراحتك الصارمة جداً, اخبريني في عدة كلمات عن مشاعرك الجنسية. اجابتني ببرود: امارس السحاق بين حين و آخر مع شابة جميلة جداً.. انا للمناسبة سحاقية ايجابية.. هل انا واضحة.. اجبتها بهمس: اجل جداً واضحة. جرأتها الرائعة زادت من حماسي للرسم. جسدتها يوماً بعد آخر كما لو تقدم طقوساً فلسفية تغرقها تدفقات الروح السابحة وسط ملكوت يتسع بطريقة مثيرة امام ذات الإنسان مع الخمرة.. عندما انتهيت من العمل تعجبت كيف جعلت وجهها الباهر الجمال

مركزاً للإنفجار و التدفق لمعاناتها البورجوازية.. وقفت امام اللوحة طويلاً و بإمعان و عمق شديدين تأملتها كما لو تصلي, ثم اطلقت عدة صيحات وامضة مرددة: انا هنا على حقيقتي الرائعة مثل الأبد.. بورجوازية عنيدة جداً و منهارة جداً.. اقتربت مني و بحرارة مجنونة قبلتني قبلة اطول من تلك التي اعطتنيها في اول يوم لزيارتها و قالت انها لتورهان الراحل.. تراجعت الى الخلف. تأملتني بحرارة و في عينيها ومضات ندية و قالت: هذه القبلة ليست لتورهان. انها لك.. اذا كان ثمة انسان واحد استطيع ان استشف منه شعاعاً من العزاء لأنه و في بحر شهر و نصف استطاع ان يفهم داخلي المنهار, هو, انت.. اجل, هنا الى الأبد.. هنا لن يتقلص ظلي, و يتصوح شبابي.. اخذت رشفة من كأسها و قالت كما لو تمثل مشهداً مسرحياً رومانسياً: كان يزورنا و انا في العشرين من عمري شاب ايطالي وسيم ممثلاً عن شركة ايطالية كان والدي يستورد منتجاتها.. لهذا الأيطالي صوت ساحر, رخيم, يلامس القلب. بعد الكأس الثالثة و بناءً على طلب والدتي التي كانت تزفه قبلات حارة, يغني هذه الأغنية التي سأغنيها لك. لقد حفظتها لكثرة استماعي لها.. القصيدة للشاعر ابولونير الرائع.. حتماً سمعت به.. مات في الحرب.. تنهدت بعمق, و قبل ان تغني استرخت اهدابها و بدت كأنها نائمة, ثم فجأة بصوت –سوبرانو – غنت, ثم ترجمت لي الأغنية.

اعرف بشراً من كل الأصناف

اقدار لا تتساوى

انهم حائرون كأوراق الشجر الميتة

وعيونهم خبا فيها البريق

اما قلوبهم فتتحرك كأبوابهم..

كان صوتها رائعاً مس مشاعري مثل الأسيد الحارق رغم جهلي باللغة الايطالية. صفقت لها, و قبلتها لا ارادياً. لم تعترض البتة لقبلاتي, بل شكرتني عليها.. التقطت حقيبتها. اخرجت المطواة, و قبل ان تحرر لي صكاً بمبلغ جيد لأتعابي, سألتها عن سر المطواة في حقيبتها. قالت: المعروف عنك انك لا ترسم لوحات لأي انسان. ولأنك رفضت الاجابة عن رسائلي الثلاث, جئتك بنفسي وكلي اصرار على ان اقنعك لترسمني, وثق لو رفضت طلبي, و اصررت على اثارة عواصف محيط مشاعري, و جسدي كنت اطعنك لا محال اقلا ثلاث طعنات قاتلة... و لكي اغير الموضوع قلت: هل والدتك موجودة؟ ماذا تعمل.. اجابتني بسخريتها الجميلة: ماذا تعمل؟ انها مثل الملكة نفر تيتي لا تعنيها من البيت الا الزينة, و التجميل, و ارتداء اجمل الملابس, و اغلى الجواهر, و مغازلة الوسيمين من الشباب.. و لكي اخفف من فضولك, اما والدي فهو في عالمه الفوضوي الفاسق, و انا اعيش معهما, لكنني شق منفصل عنهما انفصال العصفور من البيضة.. التقطت لوحتها, و قبل ان تغادر المرسم, وقفت طويلاً امام رائعة بيكاسو التي نقلتها بكل ما لدي من حب, و بالحجم الكبير, و قالت:

-جرنيكا..

-بالضبط..

-ايها الصالحي, اين اولئك الذين رسم لهم بيكاسو هذه اللوحة؟

-في ضمير التأريخ العالمي..

-غادرت بخطوات قصيرة متابطة لوحتها و هي تغني البيت الأول للأغنية الإيطالية (اعرف بشرا من كل الأصناف)

و لم التق بها بعد ذلك ابداً.

****

و لأن الأحلام هي خارج ارادتنا, نستسلم لها مرغمين, و لا نخجل منها. ذات ليلة حلمت بها حليقة الرأس مثل العديد من لاعبي كرة القدم هذه الأيام.. كانت عيناها خضراوين كلون ضوء القمر منعكساً على ماء النهر. كانت تطلق ضحكات مشعة ذات نغم ناعم هادئ و ترقص بطريقة هستيرية على اهراء الحقول. كنت و انا اراقبها اشعر بحزن مشرب بالمتعة. استمرت ترقص بطريقة مجهدة مثيرة للأعصاب. تتقلب في الهواء مثل طير ثم فجأة تقف على قدميها بجأش رابط.. كانت ترسم صورة غريبة بجسدها و كأنها تشرح لي احزانها الكيركغاردية. ظلت ترقص, ثم بطريقة مثيرة تخففت من ملابسها و ظهرت عارية لترقص بطريقة اكثر اثارة, و براعة, و خفة و رشاقة. اختفت. لحظات و عادت ترتدي لباساً شفافاً على قوامها الرشيق الفاتن. قبلتني بحرارة و قدمت لي نبيذا في جرة صغيرة مصنوعة من فخار بلون الشذر, و خبزاً مأدوماً بالعسل. سألتها لماذا حلقت رأسها؟ اجابتني في تؤدة, و رشاقة و افترار ثغر: انني اقلد بنات الفرعون اخناتون. هل سمعت بهن؟ ميرت اتون و ميكيت اتون و غنخسن اتون.. كانت هذه الأميرات الرائعات يجدن في حلاقة رؤوسهن جمالاً غريبا.. الا ابدو جميلة هكذا؟

و اختفت

الى

الأبد...

*جليل القيسي: قاص معروف من كركوك، له عدة مجاميع قصصية مطبوعة منها: (صهيل المارة حول العالم)، (في زورق واحد)، (زليخا، البعد يقترب)، (جيفارا عاد، افتحوا الأبواب-مسرحيات)، (وداعا ايها الشعراء- مسرحيات)، (مملكة الانعكاسات الضوئية- مجموعة قصص).

اللعبة والبكاء

قصة/ رؤوف بيگەرد *

ترجمة/ نوزاد احمد اسود **

منذ سنة تقريبا تعرفت على (شازاده)، بصدفة غريبة تعرفت عليها، حينما نشرتُ في احدى المجلات المختصة بشؤون المرأة مقالا حول مشاكل المرأة وموقف الرجل تجاهها. ذات يوم رن جرس الهاتف في منزلي، كان صوت فتاة لا اعرف كيف حصلت على رقم هاتفي، قالت: اعجبت بمقالك، ولكن ياترى هل تطبق تلك الافكار التي طرحتها في مقالك، هل تطبقها في حياتك اليومية؟ قلت: ولم لا؟

-وهل نبدأ بالاختبار؟

-ماذا تقصدين؟

-لنصبح اصدقاء.

وقفت برهة ثم قلت: لا احد يشتري سمكة في الماء، فلنر بعضنا آنذاك نقرر.

ادركت قصدي على الفور وقالت: انا اجمل بكثير من الفتيات اللواتي احببتهن من قبل.

-يبدو انك تعرفينني منذ مدة طويلة؟

-ثمة عيون كثيرة تترصد الرجال المعروفين.

حينما رأيتها للمرة الاولى في كافتريا جريدتنا اعجبت بها كثيرا، وهي ايضا تظاهرت باعجابها. لم يعجبني مظهرها فقط بل اعجبني كلامها وآراؤها ايضا، لكنني منذ بداية الكلام قلت لها: انا لست رجلا عاديا، هل بوسعك الانسجام معي؟

-كذلك انا احب الرجال غير العاديين، ينبغي لنا ان نتحمل بعضنا.

-لكنني مع الاسف ليس لدي صبر ايوب ولا امتلك قلب اسد.

تأملت قليلا وتنهدت كأنها تأسف لشيء لا يسعدها وقالت: على أية حال فانا مؤمنة بالمثل القائل: ان الرجل تحت يد المرأة يصبح عجينا.

-واذا اصبحت المرأة حجرا في يد الرجل؟

ضحكنا وحددنا موعدنا القادم

* * *

عندما جلسنا معا للمرة الاولى في غرفتي قلت: هذه الغرفة ملائمة لشخصين فقط.

ثم نهضت بهدوء وغنج وبدأت عيونها تتفحص الغرفة وسألتني: هل بإمكاني تبديل امكنة اشياء غرفتك؟

قلت: بالطبع فعيناك تريان انسجام الالوان افضل مني بل ربما اجمل ذوقا مني.

أزاحت جانبا من ستارة النافذة ولاحت شجرة الرمان المورِدة، نظر احدنا الى الآخر، تذكرت ما قلته في لقائنا الاول: محياك يشبه لون زهرة الرمان. بدأت باعادة ترتيب اشياء الغرفة، فاخذت التمثال النصفي لسلفادور دالي من فوق مكتبتي ووضعته في الرف الثاني من المعرض. غيرت مكان المصباحين الصغيرين اللذين صنعا للزينة على الطاولات فقط. رفعت لوحة رقصة البالية لروميو وجوليت من على الجدار قليلا وثبتتها. انزلت صورة الطفل ذي الرأس الكبير وغليظ المعصم وهو يتأمل مثل هاملت في شيء مجهول، حيث مكتوب تحتها هذه العبارة: To be or not to be واخلت مكان صورة والدي من على رأسي وعلقت عليها هذه الصورة. وضعت تمثال البطل الذي يحمل رمحا على المعرض، كما وضعت الكلب المصنوع من الصوف قبالتي تماما. ثم غيرت مكان سندانات الزهور بحيث تنسجم مع لون الستارة والنوافذ ووضعت كل واحدة منها في زاوية ملائمة. واخيرا وقفت في ركن من الغرفة لبرهة وهي تتأمل هذا الترتيب الجديد لكي تتلاءم الاشياء مع جلستنا او مع ذوقها الفني. أرادت غلق درج مكتبتي المفتوح رأت البوم صوري فتعجبت من لونه وقالت:

-هذا اللون الارجواني نادر جدا، ترى هل صورها نادرة ايضا؟

-تستطيعين ان تنظري اليها.

-كيفما أرغب؟

-بالتأكيد.

-اليوم فقط؟

-حسب تطور الامور.

اخرجت البوم الصور ووضعته على الطاولة، ثم جالت بنظراتها على مكتبتي فاخرجت كتابا، كان رواية بعنوان (عيونها) للكاتب الايراني (بزرگ علوي).

_انا لم اقرأ هذه الرواية، ما المقصود بعيونها؟

-احداث هذه الرواية تدور حول لوحة لعيون فتاة لا يفهم احد معناها واسرارها.

بدأت تقلب الكتاب ثم تأملت صورة الغلاف وقالت: يبدو ان عيون هذه المرأة تشبه ابتسامة موناليزا في غموضها.

-نعم كثيرا، بل حتى تخفيان موت انسان، ارجعت الكتاب الى مكانه وبدأت تنظر الى صور الالبوم، وقفت على بعضها ومرت على الاخريات كأنها تودع ضيوفا ثقال الظل. وحينما انتهت من مشاهدتها عادت وتوقفت عند صورة معينة كنت قد التقطتها قبل اكثر من خمسة عشر عاماً، تأملتها كثيرا.

-ستتعب يدك.

-هذه الفتاة الواقفة بجانبك ليست طبيعية.

-كيف؟

-انظر الى عينيها ووقفتها.

اقتربت برأسي من صدرها وبدأت اتأمل الصورة.

-في نظري كل شيء فيها طبيعي.

-لا.. وقفتك ايضا ليست طبيعية.

-كيف؟

-كلاكما واقف وفق رغبة الآخر او بالاحرى وفق ما تملي عليه عين الآخر.

حينما عرفت انني اتمعن في الصورة ولا افهم قصدها بدأت توضح ما يجول في خاطرها.

-معظمنا تلاحقه عيون مراقبة، اثناء الجلوس والقراءة والرقص والغناء والمشي وسياقة السيارة بل حتى مجالس التعازي والمآتم نشعر بتلك العيون المراقبة، فالعشاق الذين احيانا تفصل بعضهم عن البعض مئات الاميال يحسون انهم مراقبون وان عيون محبيهم ترافق سلوكهم، بل حتى في الغرف المنعزلة يحاول كل واحد منا ان يوائم نفسه وفق نظرات تلك العيون الخيالية.

فكرت واردت ان اقارن كلام شازاده بأفعالي، او بالعكس اقارن سلوكها هي بارادتي، لكن قلق الوصول الى النتيجة اوقفني، ادركت ان هذه المسألة تقودنا الى بيت العنكبوت!

-اتركي هذا الكلام، تعود هذه الصورة الى سنوات طويلة مضت، ربما محتواها تغير ايضا كموضتها، تحدثي عن اشياء اخرى.

-ثمة بعض المسائل تبقى مشرقة مهما طال الزمن، هذه المسائل جوهرية عن الانسان وليست مظهرا.

اردت ابعادها عما تقصد كي اعيدها الى غرفتي من خلال الذكريات الجميلة التي عشناها معا:

-هل تذكرين عندما كنا جالسين عند شاطئ النهر وننظر الى اشعة الشمس المنعكسة في الماء؟

آنذاك قلت لك: (كأنهم وضعوك في زورق صغير وبعثوك الي عبر النهر).

-اتذكرها جيدا، كانت اذن في مخيلتك تلك العيون التي تراني وحيدة في الزورق، عندما رأيتني من بعيد ما الذي فعلته؟

-بدأت العب بالماء وكنت اظن بانك تشاركيني، فتحت احضاني لنظراتك المشوقة وأرخيت نفسي لدفء حضنك الناعم.

-كنت اشعر ايضا انك محمول على ظهر حصان وأتى بك خصيصا الي لذا وضعت خصلات من شعري الاشقر على وجنتي، نظرت بعيني العسليتين الى الامواج كي تهدأ من تعب شعاع الشمس، وفي مرآتي الصغيرة اعدت النظر الى شفتي كي اتأكد من بقاء اللون الاحمر عليها.

-هذا يشبه خيالا محضا.

-لا انها الحقيقة، وانني احس بعينيك تراقبانني، اعرف مدى اشتياقك في النظر الى شعري المشع.

-تريدين ان تقنعيني بقاعدة وضعتها بنفسك؟

-هذه قاعدة العشق، عشق أي شيء.

-فلندع جانبا هذا الصداع.

-لماذا تهرب من قاعدة وهي حقيقة الطبيعة البشرية التي لاتستطيع الفرار منها حتى على فراش الموت؟

بقيت صامتا لبرهة، لكن صمتي لم يدم طويلا، حيث بدأت هي بالكلام:

-حينما كنا في غرفتك ذلك اليوم وكنت جالسة على حافة الاريكة وكنت تعدل ستارة النافذة، حينما نظرت الي وتأملت عيوني، فزعت، لماذا؟

-لا اعرف ولا اتذكر.

-يجب ان تعرف انها كانت تلك العيون التي جعلتها مراقبة عليك فشعرت بالخجل.

وصل ضجري الصبور الى حد الشعور بالملل فقلت لها:

حسنا، قولي ما تشائين.

-ليس هكذا من دون رضاك، اعرف انك تريد ان تهرب مني، اعرف انك تريد ان تجلس صامتا في غرفة او في قطار او سفينة، او ان تقطع طريقا طويلا على الاقدام وحيدا وان تنتعش بتلك اللحظات التي تقضيها وحيدا ولا تريد ان يكدر احد هدوء جلستك وايقاع مشيتك فيضيع عنك ظل نظرات العيون التي تراقبك، اذن ثمة سحر العشق داخل النظرات ولا يحس به الجميع.

-نظرات عينيك فقط؟

-لا ليس شرطا، قلت ان تحب أي شيء كان، ربما يرغب ابن ما ان يعيش في عيون والده او زوجة في عيون زوجها او ام في عيون ابنتها، المهم انت أي عين ترغب للعيش فيها؟

اخفضت رأسي، مرة اخرى حاولت العودة الى ذكريات الايام الماضية الجميلة واعادتها الى غـرفتي، اردت ان اذكرها بتلك الليلة الـتي بللتنـا الامطـار، وانقطـاع الكهربـاء حـول المدينـة الى غابـة ظلمـاء وكنـا تحـت مظلـة انتظار الحافلات نفتح احضان قلبينا لقبلات طرية، ذلـك اليـوم الـذي خرجنـا مـن قاعـة المسـرحية الـتي لم نفهم شيئا منها غير الهمسات وشكاوى القلوب، او المساء الذي وخزت شوكة من اشواك ورد الجوري الموجـود في الشرفة اصبعها واحمر منديلي بالدم، لكنها كبحت جماح حبي ورغباتي لذا شـعرت فجـأة ان رجـلا غاضـبا او غير طبيعي غيرني في غمضة عين، لا اعلم هل كان الدافع هو شعوري بالهزيمة او طـيش نـزواتـي، رغـم انـني لم اكن قد اعددت نفسي لموقف كهذا، الا انني قلت لها:

-انت مسكينة.

نظرت الي بصمت ثم قالت بهدوء:

-مسكينة؟ ماذا تقصد؟

-قلت انك مسكينة.

-انا مسكينة فقط ام نحن جميعا؟

-لا، انت لوحدك مسكينة.

تأملت قليلا، ثم بدأت تنظر الى اشياء الغرفة، قلت في نفسي ربما تعد خطاياها بعدد الاشـياء الموجـودة في الغرفةاو انها تفكر في موقفي المفاجئ هذا.

قلت لها: تلك العيون الغيبية التي تتكلمين عنها لا وجود لها الا في قاموسك، والا فانا لم احبك في الحقيقة.

ببرود قالت: ليس مهما، المهم انني احببتك.

قلت: كلا، انت ايضا كنت مثلي.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ماكرة، قالت:

-هل بامكانك ان تعطيني دليلا ولو صغيرا؟

توجهت نحو الثلاجة واخرجت سلة العنب، قلت لها:

-اغمضي عينيك وافتحي فمك كي اضع فيه حبات من العنب حينذاك نواصل الحديث.

احسست بضجرها رغم انها تظاهرت عكس ذلك.

اغمضت عينيها وفتحت فمها، كنت اكثر برودا مما تتصورني، بدأت بأكـل العنـب دون ان اضعه في فمهـا، فتحت عينيها، قلت:

-أتظنين اعطيك العنب هكذا وبسهولة بلا مقابل؟ الا تعطيني شيئا؟

-ما الذي تريده؟

-الذي في حقيبتك.

استغربت من طلبي لكنها اعطتني حقيبتها اليدوية على الفور، فتحتها، اخرجت منها كل الاوراق النقدية وضعت الدينار الحديدي في جيبي، اشعلت سيجارتي ثم وضعت الاوراق النقدية على المنفضة واشعلت فيها النار، مع اشتعال الاوراق النقدية كنت اراقبها، رأيت في عينيها النار وهي تزيد من تألق عينيها، كانت نارا هادئة تشبه لون الجمرات التي تتلألأ عيونها اثناء تحريك رمادها، ارجعت الحقيبة اليها قائلا: كهذه النقود المحترقة انسي الذكريات كلها.

اخذت نفسا عميقا وقالت: هل لديك لعبة اخرى تلعبها معي؟

قلت لها بهدوء ورفق: ارقصي لي.

رمتني بنظرة مليئة بالحيرة والاسرار اكثر مما في نظرات (فرنگيس) بطلة رواية (عيونها)، لكنها وقفت كإنسان آلي يأمره سيده بتنفيذ طلبه، قالت وهي تنزع بلوزتها: حتى في استسلامي اعتبر نفسي منتصرة.

نزعت منديلها الاحمر من حول عنقها ومسكته بيدها لتهزه، وضعت في جهاز التسجيل كاسيت (بنت الچلبية) للمطربة فيروز وردّدت معها الاغنية، خطت عدة خطوات نحو لوحة رقصة البالية (روميو وجوليت). ومع ايقاع الاغنية بدأت تهز جسدها تارة سريعة وتارة اخرى بطيئة.

اوقفت جهاز التسجيل، ثم وضعت فيه كاسيتاً يحتوي على الحان كردية راقصة، بدأت ترقص بحرارة مدهشة وهي تحرك يديها ورجليها كأنها تدربت منذ اعوام على الرقص، حتى احمرت خدودها قلت لها: كلا، انت متعبة، شكرا، اجلسي.

مسحت وجهها بمنديلها وجلست في مكانها، بدأت انظر اليها، كانت تتوقع ان افعل شيئا، ثمة رغبة شديدة تشع من عينيها وكانت رغبتي تحاول كسر القيود. لكني لم افعل، فاغرورقت عيناها بالدموع وبدأت تنحدر على خديها الحمراوين قطرة فقطرة. قلت لها:

-مادمت تبحثين عن اسرار الانسان، سجلي هذا عندك ايضا.

-انها لعبة اطفال.

-اشكر تعبك، لولاك لربما جرت الامور على شاكلة اخرى.

-شكرا لك ايضا لأنك منحتني شرف هذا التعب.

نهضت وبدأت بارتداء بلوزتها ولفت المنديل الاحمر حول عنقها قائلة:

لقد تأخرت، علي ان اذهب.

كانت (شازاده) متأكدة من انني سوف اجلسها في مقدمة سيارتي واودعها مع ترديدي اغاني فيروز، لكنني لم افعل، وعندها اقتربنا من الباب الخارجي قلت لها:

-اتعرفين انك لا تحملين نقودا؟

-ماذا افعل بالنقود؟

-تحتاجينها لأجرة الباص.

وقفت للحظة وضغطت على شفتيها باسنانها، لم ادعها تفكر كثيرا، امتزجت اشعة الشمس بدموعها فبدت اكثر جمالا، قالت لي:

-انت رجل كبير ولكن في داخلك طفل صغير.

-وانا امارس الحب كي اعود واصبح طفلاً.

-الا تعتبر تصرفك اليوم شيئاً مشيناً.

-لا اعرف ماذا اسميه، ضعي له قانوناً ثم اخبريني به.

مسحتْ عينها وأخذتْ نفساً عميقاً، حينما خرجتْ من الباب قلتُ لها للمرة الاخيرة:

-وداعاً يا (شازاده) على امل اللقاء ثانية.

التفتت ونظرت اليّ، ما زالت بقية الدموع تلتمع في عينيها، في نظراتها احسستُ بمعان غامضة تركع الكلمات امامها، كانت تنظر اليّ دون ان تغمض عينيها وانا مشلول اللسان، كانت نظرتها تشبه الامواج التي تأخذ الانسان نحو اعماق البحر احياناً ونحو شاطئ الحياة كنصف غريق احياناً اخرى.

ولكن من جانبي فسرت نظراتها بأنها تقول لي:

"لو ابكيتني عشرات المرات مازلت تحبنى".

*رووف بيگەرد، الرقص، مجموعة قصص، منتدى گەلاويێژ الادبي و الثقافي- السليمانية-1998.

*رؤوف بيگرد: كاتب وقاص من السليمانية، له عدة مجاميع قصصية مطبوعة، يرأس تحرير مجلة (سردم-العصر) التي تصدر عن دار سردم للطباعة والنشر.

**نوزاد أحمد اسود: كاتب ومترجم، له عدة كتب مطبوعة منها: (شعرية النص وعسل القراءة) و (مقالات لمفكرين عرب- ترجمة) و (مملكة الاضواء- مجموعة قصص مترجمة للقاص جليل القيسي)..

حي الفزاعات

شيرزاد حسن*
ترجمة: عادل گرمیانی

كاد چلبى ان يطير فرحاً في صبيحة ذلك اليوم الذي بذرت بذور الحنطة في ارضه, و تصور بان حنطة جميع العنابر و المخازن تحت الارضية ستكون عائدة له, و ستكون حنطة جميع الاكياس ذات الخطوط الزرق او الحمر, من ملكه, بل ستكون حنطة كل العالم من ملكه يتصرف بها كيفما يشاء, فلو حصل و كان الموسم جيداً ستنتج كل حبة حنطة مبذورة عشرة اضعافها, و بقعة الارض هذه القريبة من المدينة هي سهل خصب ذو خير وفير لو حلت بركة الله عليها.

نظر لما حوله على طول مدى بصيرته, و تمنى لو ان كل تلك الاراضي و لغاية حدود الافق هي من ضمن املاكه.. رفع رأسه فوجد السماء مكتظة بسواد عجيب, فعدا اسراب العصافير لم ير أي شيء آخر فيها, و بدت السماء و كأن عصافير كل زوايا العالم قد هاجرت هذا العام و اتجهت لهذه المنطقة و سمائها. تلك السماء المغطية لمساحة ارض چلبى.. يا للعجب.. التفت لمحمد صانع الفزاعات و بحسرة قال له:

-انقذني يا محمد, فلو استمرت الحال على هذا المنوال لن نحصل في الغد على حبة حنطة واحدة كدواء.

-سيدي.. ان احببت سأغرز لك حالاً مئة فزاعة في هذه الارض.. فزاعات من تلك التي تتكلم و تبصق على العصافير بدلاً منك.

-احسنت يا محمد, ليس لي سواك في هذه المحنة..

رفع چلبى رأسه و بصق على العصافير, و لكن الرياح لم تدع رذاذ بصاقه تصعد للاعلى فنزلت على شاربه, فأخرج المنديل من جيبه و مسح الرذاذ.. ذلك المنديل الذي اهداه له الحاج ملا شيخ شيروان ميرزا بگ بعد عودته من مكة المكرمة و ادائه مناسك الحج..

-الا تقل لي يا محمد ما فائدة العصافير عدا كونها تأكل حبوب الحنطة و تقذف ببرازها.. الا تقل لي ما الحكمة في وجود العصافير!؟

اغرز محمد في الارض.. ثلاثاً.. اربعاً.. عشراً من الفزاعات.. عشرين.. ثلاثين.. اربعين.. ياللعجب.. العصافير لم تخف او تفزع, بل انها استمرت على موجات طيرانها فوق ارض چلبى.. لم تكن اسراب تلك العصافير لتأتي من السماء, بل كن يأتين من عالم الغيب.. سرب يطير, و سرب آخر يهبط على تلك الارض.. كان حفيف طيران الاف الاجنحة تفزع حتى الرجل الجسور.

حاول محمد كثيراً ان يمنع اسراب العصافير و يبعدها عن الارض التي بذرت فيها الحنطة, و لكن جهوده ذهبت سدى.. قذف بالاحجار يميناً و يساراً, و كان چلبى كالغراف يصفق بأجنحته و يحرس حبات الحنطة المبذورة.. كانت جهوده بلا جدوى.. بلا فائدة.. ها قد حل الليل و محمد الفزاع لم يترك تلك البقعة من الارض.. جلس تحتاً و لغاية الصبح لعن العصافير, و عند حلول الفجر اخذ غفوة من النوم و لكن حفيف اجنحة آلاف العصافير و زقزقتها ايقظته من نومه.

-ها قد عدن.. الا لعنة الله عليكن. اين انتم يا صقور و نسور و بواشق الدنيا الحقراء و الجبناء.. اين انتم.. ها هن العصافير بلا خوف و استئذان تهبط على الارض!!

اطلت سيارة البيك اب العائدة لچلبى مع ظهور اشعة الشمس عند الصباح و اثارت نحو السماء كميات من الاتربة.. حين ترجل چلبى من السيارة لم يرـ محمد الفزاع.. كانت العصافير و الاتربة المتصاعدة من تلك المنطقة قد اثرت فيه, و بصعوبة استطاع رؤية محمد الفزاع, ثم ذهب نحوه.. سار و اقترب.. اقترب اكثر, و حين وصل لحدود ارضه المبذورة ركض بسرعة, و خرجت (الكالة الهورامية) من احدى قدميه و لم يرجع لها.. و صل للقرب منه.. يا للعجب.. رأى محمد الفزاع حافي القدمين يوجه الصفعات لرؤوس الفزاعات و يكيلهن ضرباً بركلاته.. يبصق عليهن.. يخلع اذرع و اعضاد و رؤوس و رقاب الفزاعات عن بعضها.. يمسك باحداها و يتشاجر بها مع الفزاعة الأخرى.. انها الفزاعات تحطم بعضها البعض الآخر و بالاذرع و الاعضاد المخلوعة للفزاعات يطارد العصافير, و لكن العصافير تطير من فوق رأسه و كتفيه و من بين ساقيه, امسك به چلبى من الخلف و احتضنه.. لم يتوقف محمد الفزاع عن حركاته, و لم يستطع چلبى السيطرة عليه, و ظل محمد يحاول انقاذ نفسه و الانتفاض نحو الامام, و من خلال ذلك الغبار و تحت ظلام ظلال آلاف العصافير ظن أن چلبى ايضاً واحدا من الفزاعات و قد عادت له الروح فأمسك به و طرحه ارضاً و تولاه ضرباً بالركلات على بطنه.. كان محمد بفعلته هذه يشبه عصفوراً تولى بمنقاره بطن غراب اسود ميت.. وقع ارضاً (يشماغ) چلبى, و من هذه الاحتفالية

خلقت العصافير مهرجاناً لها, و بدون خجل يزقزقن و يسقطن برازهن فوق رأسي چلبى و محمد.. صرخ چلبى بجنون ملأ مساحة ارضه و مع صراخه كانت آلاف العصافير تطير و تهبط و مناقيرها و حويصلاتها مليئة بالحنطة.. طارت و هبطت.. و لم يعد الوعي لمحمد الفزاع الا بعد صراخ چلبى قائلاً له:

-يا ابن الكلب.. ابن الكلـ... ب... ب... يا ابن الفزاعة.. ابن الفز... ا... عة... ما شأنك و تلك الفزاعات, لم تحطمها لم!؟..

نهض چلبى من بين ذلك الغبار و هو يمسك بشدة ما هو بين فخذيه مرسلاً رذاذ بصاق اثر رذاذ بصاق على شارب محمد, و كان محمد لحين تلك اللحظة يضطرم هيجاناً, و يتصبب عرقاً من انحاء جسمه محطماً جميع الفزاعات من حوله يميناً و يساراً و يرمي على العصافير حجارة اثر حجارة, و يبصق على السماء الواسعة المليئة بالعصافير, لكنه الآن اصبح مثل لعبة اطفال يرتجف بين يدي چلبى, و حين انتهى الاخير من شتائمه لمحمد بعد ان وجه له مئة شتيمة و شتيمة, قال لمحمد: (ايا حمارة.. ايا خنزير), و عندما فتح محمد الفزاع فاهه و بلسان متلعثم و هو يبلع البصاق قال له:

-سامحني يا سيدي.. سامحني.. انا معذور, فهذه العصافير الحقيرة لا تقدرنني و تستهزئ بي.

-لأنك انت ايضاً عصفور.. عصفور اعمى..!

-يا سيدي.. لم يحدث مثل هذا الامر من قبل قط.. انا اضع فزاعات و العصافير لا تخاف منها.. اتعجب من مثل هذا الأمر..!

-لأنك.. لأنك انت ايضاً فزاعة..!

-يا سيدي..

-صه, و لا تفتح فمك.. اذهب و ابحث عن فردة (كالتي).. اسرع..

وجه چلبى برجله الحافية ضربة على مؤخرة عجز محمد, فاسرع الاخير مهرولاً بشكل و كأن الضربة وجهت لخصيتيه.. بحث كثيراً و وجد اخيراً (الكالة).. رجع للقرب من چلبى و انحنى نحو قدمه, و بيده امسك بركبة ساق چلبى و رفع قدمه.. انها قدم عريضة ذاق محمد و السركال و العمال الاجراء ضرباته المريرة, و هم فقط يعرفون طعمها, و تفصد محمد عرقاً كثيراً من جسده, وكأمر خارج عن ارادته اخرج صوتاً نشازاً من مؤخرته شعر به چلبى, لكن الاخير كان يرتجف غضباً من اثر مصيبة العصافير, و فقد لسانه القدرة على الكلام, و باضطراب شديد هرول نحو سيارة البيك اب و رمى بنفسه لداخلها, و احدث تحريك السيارة صوتاً اطار آلاف العصافير التي كانت هابطة على ارض تلك البقعة, بينما كان محمد الفزاع

جالساً بيأس حول فزاعاته المحطمة, و لم ينهض من مكانه.. ذلك المكان الذي وضع فيه جلبى قدمه المباركة في (كالته).. زاد محمد من جرأته و التفت لما حوله, و تجرأ على رؤية الحركة اللولبية للاتربة المتصاعدة نحو الاعلى و التي احدثها جلبى بسيارته و تركه في تلك البقعة بعد مغادرته لها,و بدأ ذلك اللولب الترابي المتصاعد و كأنه غول كبير منتصب, و تساءل لماذا تركه جلبى بصمت؟! و جلس في ذلك المكان داخل دائرة من الفزاعات المحطمة و تحت مطر براز العصافير فوق رأسه يفكر في ارضاء قلب جلبى وكيفية القضاء على جميع عصافير العالم, و كان رضاء جلبى لديه من رضاء الله!.

و صل جلبى الى المدينة.. احاط به رجاله و افهمهم ما حل بأرضه و حنطته المبذورة فيها, فاندهشوا و هم فاغرو افواههم, و هزوا رؤوسهم تعجباً, و ضربوا كفاً بكف, و بعدها هرول كل واحد منهم نحو محلة.. زقاق.. بيت.. باب.. اثنين.. عشرة.. ابواب البيوت الطينية المتهرئة عشرات من الآباء الجائعين العصبيي المزاج, و الذين لم يحلقوا ذقونهم.. وجوه تغطيها الابواب.. و خلف كل رجل منهم طفل ذو اسمال رثة و عيون صفر و رقبة رفيعة يتلصصون النظر و قد كحل الخوف و الجوع عيونهم, اخرجوا فرادى من زقاق و زقاق.. بيت و بيت.. ليسوا كاطفال جائعين و خائفين و خجولين, بل انهم كمجموعة فزاعات حملوا في حوض سيارة البيك اب, و عادت السيارة ادراجها بسرعة نحو بقعة ارض جلبى, فكل الشيء الذي كانوا يشاهدونه في الطريق هو فقط ذلك اللولب الترابي المتصاعد نحو الاعلى من اثر جريان السيارة, و لحين وصولهم كان محمد الفزاع ساقطاً على بقعة الارض بين مهرجان العصافير, و عندها اخرج جلبى رأسه من نافذة السيارة و ناداه باعلى صوته: (تعال يا خنزير.. انزل هذه الفزاعات), و بهرولة ركض محمد نحو تنفيذ طلب جلبى الذي لم يترجل من سيارته, و الذي خاطب الاطفال قائلاً لهم:

-ايها الاطفال القذرون.. لا تدعوا عصفوراً يقترب من ارضي, و سأعود لكم مساء.. و سيقبض آباؤكم اجوركم.. (لم يتفوه أي من الاطفال ذوي السيقان الرفيعة).. لا تكونوا كالفزاعات, و ليمسك كل منكم علبة صغيرة و يملؤها بالاحجار و هزوها مثل الخرافيش, فإن لم تفعلوا مثلما قلت لكم ستعتبركم العصافير مثل الفزاعات ايضاً..!

لم يتفوه أي من الاطفال ذوي العيون الصفر, فنادى جلبى على محمد, لكن الاخير لم يدعه يكمل كلامه, فركض نحو الكبرة, و عاد بعشر صفائح فارغة, و اعطى لكل طفل منهم واحدة منها..

-اسرع يا محمد و ليقف كل واحد منكم في زاوية من زوايا الارض, و لا تدعوا العصافير تهبط على الارض.

مرة اخرى لم يتكلم الاطفال ذوو الرقاب الرفيعة, فصرخ بهم و اذا بكل واحد منهم يركض نحو زاويته التي حددت له, و التفت جلبى نحو محمد الفزاع, و قال له:

-هناك صفيحة مليئة بالنفط الاسود موجودة داخل الكبرة, فقل لهم ليسودوا وجوههم بها.

بعدها بصق على العصافير, و ادار محرك سيارته, ركض محمد الفزاع خلف الغبار المنبثق من حركتها, وبجهد شاق اوصل يده نحو احدى الحلقات المعلقة بها, و قفز بجسده نحو داخلها, و ما هي الا اقل من ثوان و اذا به يقع مترنحاً على الارض, فنهض و كرر المحاولة بلا جدوى.. تسلى چلبى بهذا المنظر رغم احزانه و هومه تلك.. ثلاث و اربع مرات يتوقف بسيارته و ينطلق و من المرآة كان يشاهده, فرآه داخل عاصفة من الاتربة, و اخيراً و كشيء ثقيل سقط على ظهره, و مرة لم ير اكثر من غبار الاتربة و الاطفال غارقون فيها, بل هم عشرة اولاد من اليافعين و الخائفين في تلك البقعة من الارض الخالية الا من آلاف العصافير و كل واحد منهم يحلم بمصيدة لاستيكية.. عصفور مشوي, افواه يسيل اللعاب على جانبها.. انهم واقفون كالفزاعات ينظرون نحو الشمس.. اية شمس.. انها تصبح مثل قطعة رغيف مشوي.. او اطار ذهبي لعربة.. او شال اصفر لأم.. او معضد ذهبي لعضد ابنة چلبى الصغرى.

عند وقف الغروب و قبل ان يحل الظلام عادت السيارة لبقعة الارض, و لكن هذه المرة كان محمد يقودها و چلبى جالس بجنبه يأخذ شهقات من سيكارته.. ترجلوا بسرعة, و باضطراب ركضوا نحو الزوايا, و لكن يا للعجب فبدلاً من عشرة اولاد يافعين وجدوا عشر فزاعات بلا ارواح و جنب كل فزاعة علبة مليئة بالاحجار, و كلهم يتطلعون بابصارهم نحو غروب شمس الافق, فاقترب چلبى بتأن و خوف من كل واحد منهم, و بخوف مسد بيده فوق رؤوس و رقاب و سيقان الاطفال الفزاعات, فبدلاً من الشعر كان هناك اعشاب, و بدلاً من العظام كانت هناك لوحات خشبية, و بدلاً من الساقين كانت هناك عكازتان و بدلاً من عينين مليئتين بالحزن و الخجل و الخوف كانت هناك قطعتان من زجاج صفراوين يلمعان.. و بعينين مندهشتين و بخوف التفت نحو محمد, و قال له:

-اذاً اين هم الاطفال؟

-يا سيدي.. من الممكن انهم هربوا؟

-الى اين؟

-الله وحده يعلم.. يا عزيزي انهم لم يكونوا اطفالاً بل انهم كانوا اشبه بعشرة فراخ للشياطين.

-والله انك لأحمق.. يا خنزير انهم كانوا يتنفسون من جحورهم.. عن اية شياطين تتحدث؟

-كما تشاء يا سيدي

-حسناً من الذي صنع هذه الفزاعات العشر الجميلة؟

-و من يكون سواهم؟!

-انهم منهكون من الجوع, فما شأنهم و هذه الفزاعات؟

-حسناً يا عزيزي, هل من الممكن انهم سحروا و اصبحوا فزاعات؟

-لا تسفه في كلامك.. ليس هناك من وقت للكلام غير المعقول.. عليَّ ان اعيد عشرة اطفال لآبائهم و امهاتهم..

-ولمَ تجعل نفسك مضطربة هكذا..؟

صرخ چلبى بعصبية..يا حمار, ان لم اضطرب و اتضايق ماذا افعل اذاً.. يا ابن الخنزير.

قال له محمد العاقل و المطيع بإبتسامة و كأنه يسمع طرفة:- يا عزيزي, بدلاً من عشرة اطفال اعد لهم فزاعات, فمن منهم يجرؤ على الاعتراض.. تأمل چلبى العصافير و باضطراب قال له: ضع عشر فزاعات في حوض البيك اب.

كانت الشمس في غروبها تشبه برتقالة كبيرة, تلك البرتقالة التي لم يذق الاطفال الفزاعات طعمها, و كان طيف الشمس يضيء كل الذرات..

رميت الفزاعات العشر من الاطفال في داخل حوض السيارة الواحدة فوق الأخرى, و آلاف العصافير اصبحت مظلة ما فوق الرأس, فأخرج چلبى رأسه من النافذة و بصق نحو الاعلى عليها و لعن كل عصافير الدنيا, و فجأة انهمر مطر برازهن و سقط على فم و انف و شارب و حنجرة و عيون چلبى, و بسرعة ادخل رأسه نحو الدال كالقنفذ و من شدة حقده و بلاوعي رفع يده اليمنى عن مقود السيارة و وجه بها لكمة لرأس محمد الفزاع و يشماغه فضحك محمد دون ان يعرف السبب.

حين حل الصباح كان التعجب يغطي كالسماء فوق المدينة و امتلأت بآلاف العصافير في الغابات و الحدائق و تحت سقف البيوت و الايوانات و فوق الاشجار الوحيدة داخل بيوت الفقراء, و لم يهدأ لها بال لغاية الصبح ظلت تزقزق زقزقات مليئة بالآلام و الاحزان و كأنها زقزقات للمواساة فقال الشيوخ:

-لم يحدث و لم نسمع بأن العصافير لا تخلد ليلاً للنوم و الهدوء..!

و في صبيحة اليوم التالي اصطحب چلبى معه عشرة اطفال آخرون الى ارضه, و عند حلول المساء عاد بعشر فزاعات اخرى, و هكذا الحال في اليوم الثالث, و الرابع, و العاشر, و العشرين, و الاربعين, و المئة و المئتين.. فزاعة.. طفل.. طفل.. فزاعة.. فزاعة.. طفل فزاعة.. فزاعة.. فزاعة.. فزاعة.. حي الفزاعات!!

*شيرزاد حسن: قاص ومترجم، بدأ ينشر نتاجاته منذ اواسط السبعينيات، له مجاميع قصصية مطبوعة وكذلك روايات منها: (العزلة)، (الزهرة السوداء)، (سهب الأيائل المقتولة)، (ضباب فوق خرند).

كتب الخيال

عطا محمد*

ترجمة: آوات أحمد**

كنت محرراً في مجلة "آينده", كلفوني بإدارة القسم الخاص بعرض الكتب, كي أقرأ و اعرض الكتب التي تطبع و تنشر في تلك الآونة, لربما كان هذا القسم من اكثر أقسام المجلة رومانسية, لأنني كنت قادرا على التكلم بأسماء مستعارة دون وجل. خلال مدة اشتغالي في اينده, كنت اعرض ثلاثة أو أربعة كتب في كل عدد من المجلة, ساعيا إلى اختصار المحتوى أو التحدث بوضوح اكثر عن الخطوط العريضة للكتاب, ليستطيع القارئ أن يخرج برأي عام عنه, ولو يستحيل اختصار الكتب.

و الآن ما أريد العودة أليه الآن هو إفشاء سر خاص بالكتب التي عرضتها آنذاك على الصفحات الأخيرة من المجلة. ولا أريد ذكر رقم العدد ـ فقد حدث أن كنت منشغلا جدا ولم استطع إعداد كتاب ما (اعتقد أني كنت أريد العودة إلى قراءة معظم كتابات ذلك الكاتب التعيس الشبيه ببطل أحدى الروايات و كان مشهورا بدستوفسكي). فحاولت مضطرا إعداد خلاصة روايتين من الخيال, ودفعتهما إلى الطبع. بعد النشر شعرت بمتعة شديدة جدا, جعلتني انشر الكتب الخيالية تباعا, واحدة في كل عدد على الأقل, وإذا احتاج الأمر, رتبت لها الغلاف لتعرض مع الكتابة. والآن أريد نشر اثنين من تلك الروايات, كما نشرتهما المجلة, دون الإشارة إلى الكاتب المختلق و سنة النشر و عدد النسخ المطبوعة, هدفي من هذا هو إفشاء جزء من السر الذي مارسته تحت أسماء مستعارة, لأنني لا أريد حرمان القارئ من لذة التشكيك في الأسماء, حال عودته للمجلة المذكورة سلفا ويبحث عن تفريق الكتب الحقيقية عن الخيالية. والكتابان اللذان أريد نشرهما بنفس متعة المرة الأولى, هما "الكتاب الأسود" و "الخلق".

الكتاب الأسود

لو أخذنا ابسط نظرة إلى الرواية بأنها محاولة لاحتلال الواقع عن طريق الخيال, فيمكن جعل الكتاب الأسود إحدى الروايات التي تحاول استئناس الخيال عن طريق الواقع, أو نستطيع القول ان هذا الكتاب هو رحلة بحث عن الحقيقة المختفية داخل الخيال.

بشكل عام, يمكننا رؤية مصير الرحالة في كتاب الشعوذة هذا, الذي عرف كـ "خسرو قاهر البحار", كان يحلم بجعل أسفاره مرجعا لعلم يعرف بعلم الرحالة.

في بداية الرواية, وفي القسم الأول منها, نتبين أن خسرو وصل إلى منزل بمدينة مجهولة لا يذكر اسمها نهائيا, ويقضي عدة أيام مع رجل (رآه مصادفة) منغمسا داخل الأحلام, كما نرى ذلك في قراءة القسم الذي يأتي رجل مجهول يقدم نفسه ككيخوسرو ليصبح صديقا لخسرو, ويقوم بحكاية قصة خسرو, تلك القصة الخيالية التي تتجاوز الزمان والمكان و تعرض نفسها من وجهة نظر حكائية, هاهي تتحدث على لسان كيخوسرو مثل الرواة الخبراء السرمديين, نتعرف على مرحلة شباب خسرو ويروي جميع أسفاره إلى أن يصل البيت الذي فيه ينتظران قافلة هائمة تأخذهما خارج المكان.

هناك نفهم, حينما كان خسرو في سني شبابه, يصطدم يده مصادفة بعبوة الدواة فتنكسر, ويتمكن من قراءة أحرف عدة, في لوحة الحبر المسكوب, وبعد تأملها يتبين أنها مكتوبة " الكتاب الأسود" ومن هنا, في اليوم التالي وبعد أن يستفهم الكتاب من أحد أساتذته, وقد نال منه الشيخوخة تاركة إياه ككتاب منسي داخل تلك الحجرة, يقول له الأستاذ: (انه كتاب المشعوذين والحصول عليه كالاستيلاء على الأرض برمتها, لأنها كنز الخيال). فيقرر بذل حياته كلها في سبيل هذا الكتاب ويسلك طريق المغامرة, يعبر مدنا منسية عديمة الأسماء, متمردة من الزمن, غارقة في الدمار, خيالية, إلى أن يصل في النهاية إلى ذلك الخان. طوال الأسفار السحرية الشبيهة بفتح الطلاسم , التي يرويها كيخوسرو, يحصل على عدة كلمات عن كتابه المنشود, كقول الزاهد الذي اخبره في إحدى المرات: يدعى ذلك الكتاب مخطوطة الأرض والبحث عنها ضرب من الجنون, لأنها لم تشاهد أبدا, أو لدى اجتيازه الصحراء, قال له قائد أحدى القوافل: كل ما سمعته عن ذلك الكتاب الأسود, أن الذنوب جميعا تتدفق منه. قال لي أحد أصحابي.. بقاء هذه الحياة العفنة, مرهون بذاك الكتاب. و مرة توسل أليه أحدهم انه لا يجوز البحث عن الكتاب الذي لا يستحق الا النسيان.

وهنا يصل خسرو إلى نتيجة أن هذا الكتاب الذي يتحدثون عنه غير موجود, أو هو جوهرنا نحن ليس الا.

وقد سجلت كثير من الحكايات و الأحداث التي صادفها خسرو أثناء رحلاته أو مر بها, كحادثة الرجل الساكن في القفر الذي ذهب إلى هناك بعد أن رأى في أحلامه زوجته تزني فقتلها, أو حكاية المخطوطة المسماة" قاتل الذئاب" التي تروي حكاية أحد الرعاة يفاجئه الليل وهو في البراري, لا يحمل ألا هذه

المخطوطة, فلهذا يتصفح المخطوطة مجبرا, أمام نفسه و القطيع..عندما يستيقظ في النهار, يكتشف قطيعا من الذئاب موتى قرب المخطوطة.

وفي نهاية الرواية ندرك أن كيخوسرو نفسه كان واحدا من الذين بحثوا عن مخطوطات الإنجيل و نجح في أيجاد سبع منها.

وهنا يصلان إلى اعتقاد بان للحقيقة وجوداً شفافاً, مثلها مثل مخطوطات الإنجيل التي لايمكن قراءة إحداها في غياب المخطوطات الأخرى. أو أن الكتاب الأسود المتكون من مجموعة من الصور المدهشة و يتحول إلى كتاب وهمي, وهنا نصل إلى الحدود النهائية لهذه الرواية وهى اقترحه كيخوسرو لكتابة حكايتهما و تسميتها بالكتاب الأسود, مع علمه أن الحقيقة ليست شيئا تروى بل في استطاعتنا تشويهها, يقول لنا هذا ونحن توصلنا إلى هذه النتيجة:

"أراد المتشائمون مشاهدة الحياة في غرفة مبطنة بمرايا مختلفة الشكل و الصنف, حيث تكون لكل شيء عدة صور مختلفة. ولا ندرك هذه الحقيقة ألا حين أدركنا أن الموت هو اليقين الوحيد, فإذا نظرنا في أعماق المرايا الموجودة داخل هذه الغرف اللاهوتية, تتكرر الأشياء جميعا في صور مختلفة. وهنا نستطيع أن نقول بأن الحياة نفسها مثل ذلك الكتاب الذي يستعرض وجوها مختلفة كأنها نظرة من داخل هذه الغرف الوهمية التي تعكس الأوجه المختلفة للأشياء و الحياة أيضا دون حدود. أن ظهور و اكتشاف الغرف التي يتوصل أليها المتشائمون, يعود إلى عصر أولئك المشعوذين الذين نعتوا بالكتبة, أو العصر الذي كان العالم فيها كتلة خفية, وكان الرحالة يبغون الغور في ثناياها السرية".

بقي أن نقول أن هذه الرواية التي هي رحلة خلف كنز الخيال, تتكون من عدة فصول منها: نحو الكتاب الأسود, غابة الرحلات, قصة الحكايات, اللعب داخل المرآة و عدة فصول أخرى..

الخلق

يجوز أن تكون هذه الرواية بحثا عن اكثر الرواة غموضا وذلك عن طريق البحث عن ذلك الكتاب الذي هو مرآة الحياة ويمكن اختصاره إلى جملة واحدة أو اقل كما يختصر المتدينون الحياة في تعريف واحد, يمكن اعتبار هذه الرواية انعكاسا عميقا لذلك العصر النير, الذي وصل الإنسان فيها إلى اعتقاد أن "الرواية ليست تقليدا للواقع, بل تخلق الواقع" اعتقد أن هذه الجملة إلتي قالها بطل الرواية, نطقها تودوروف كذلك ببساطة عميقة, وتقف غروب عصور طويلة و عريضة خلف هذا الكلام وهي العصور التي كان فيها الأدب والفن تقليدا للواقع, وذلك العصر الطويل الذي يسميه البطل عصر الملحمة, حيث أن الإنسان لم يكن له شاغل سوى نقل مقاييس الواقع إلى الأدب. وهنا يمكن أن نتفحص ذلك التأمل الذي يتأمل البطل فيها اكثر كتب العالم حزنا (كما يسميه الرومانسيون الألمان), وقد سرد فيها حواديت دون كيشوت و استطاع

سيرفانتيس أن يخلق واقعا آخر من خلال الواقع.. وهذه بداية العصر المنور الذي يحدق فيه البطل باندهاش. في بداية الرواية, نرى بطل الرواية (الذي هو شخص لا يكشف عن اسمه) في إحدى ليالي الخريف وهو يقرا أحدى هذه الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد و مثقلة بالحواشي. أحد حواشي الكتاب عن تشتت حلم الكيميائيين الباحثين أبدا عن سائل يقهر الموت, ولكن مع ظهور كتاب العالم تتبدد سحر ذلك الحلم. وهنا يقرر البطل القيام برحلة عجيبة, ليبحث عن كتاب العالم, ألا وهو السفر داخل الكتب والغور في إبداعات الأدب ليصل إلى الكتاب الذي هو مرآة العالم و افشل مسعى الكيميائيين, الكتاب الذي ينبع الحياة من سطوره. وهذا السفر العجيب يتم إنجازه عن طريق أحدى المكتبات التي تتفاخر بها عائلة البطل و هي تتسع و تكبر دوما.

بعد قرار السفر, يقوم بطل الرواية بتصنيف الكتب على أساس دور الراوي فيها ليستطيع تحديد مجرى رحلته. مثلا الكتب التي يقوم راو خبير برواية كل شيء, وكذلك يصنف الروايات الكلاسيكية بين الكتب التي رواتها جزء من الرواية مع الذين يتحدثون بضمير المخاطب و الغائب, مع عدة روايات لها اكثر من راوٍ, الكتب التي تروي نفسها بنفسها مثل "النظرية النسبية و ذلك الكتيب العلمي الصغير الذي يتحدث عن التلفزيون" لن ادخل هنا في تفاصيل ذكر الأسماء والتصنيفات, لأنها مذكورة في الرواية بتفاصيلها, ولا أريد إلى التقليل من المتعة التي يتوصل القارئ إليها أثناء قراءته للرواية. بعد الانتهاء من التصنيفات, يبدأ طريق الحوار مع الأعمال و يحاول إلى ان يظهر في كل عمل الجوانب الخفية التي لا توجد في الكتاب, وذلك بمقارنتها مع الحياة كي يصل من هنا الإنسان الى القناعة بان الأعمال المقروءة ليست صورا للحياة, لأن كل كتاب يهتم بجانب من الحياة كأن كل واحد من الكتب عالم مفتوح داخل الحياة, ونأتي نحن لنقيس الكتب فوق الواقع. وحين يصل الإنسان هذه النتيجة, فكر لو تم جمع الكتب كلها و المكتوبات على طول التاريخ و ضمها الإنسان بعضها, يمكن إن تكون مرآة العالم, ولكن تكمن صعوبة ذلك في أننا لا نستطيع قياس الواقع من ذلك الكتاب الخيالي, لهذا يحتمل إلى يكون الكتاب الذي هو مرآة للعالم, ذلك الكتاب الذي سطرها الأدب في الوقت الذي يتحول فيه راوٍ ليروي سيرة الكاتب الحقيقي, وهذا هو الكتاب الوحيد الذي لم يدخل في نطاق تصانيف بطل الرواية, وهو القرآن.

فلهذا يجوز أن تكون هذه الرواية بحثا عن ذلك الراوي الغامض الذي يكتب سيرة العالم و بفتح الكتاب تتخلق العالم

*عطا محمد قاص شاب ظهر في التسعينيات، له مجموعتان قصصيتان.

**آوات احمد كاتب ومترجم من السليمانية.

نقد

- مفهوم الفناء في شعر (محوي)   عبدالله قرداغي
- گوران والطابع الثوري في رمنطقة النص الشعري   دانا احمد

مفهوم الفناء في شعر "محوي"

عبدالله قرداغى*

طالما كان ظلام الوجود قائماً, فانك ستكون بمنأىً عن نور العشق
واذ يفنى "محوي" لا يبقى للظل اثر, و تبسط الشمس جناحيها

(17-1أ/7 ص 5)[1]

بهذا البيت يختتم الشاعر الصوفي الكردي الملا محمد عثمان البالخي الملقب بـ(محوي) غزله الأول, حسب الترتيب الذي نجده في ديوان الشاعر[1] لكنه يفتح ملف واحدةٍ من اعقد المسائل في التصوف الاسلامي, و في زاوية تربط الجوانب الوجودية (الأنطولوجية) و المعرفية (الأبستمولوجية) و الأخلاقية ببعضها بشكل منهجي فريد. فعبارة "ظلام الوجود", رغم ان "الوجود" المعبر عن "الأنية" و المثقل بالشهوات و الغرائز هو السائد و المقصود فيها, الا ان صفة "الظلام" ستبقى ضرورية و ساندة تماماً, لأنها تحدد في المقام الأول ماهية ذلك الوجود, ثم تحدد الموقف المبدئي منه في الدرجة الثانية, ليأتي الدور بعد ذلك على تشخيص المبررات الداعية الى اتخاذ الموقف اخيراً. و بالطبع فان هذا التحديد سيبقى اولياً يغلب عليه طابع التعميم.

الجانب الوجودي في هذا البيت معبر عنه بالصفة السلبية تلك: (الظلام), و يبدو ان الظلام هذا يعبر عن غياب او تغييب – بصورة ادق – لموضوع يحاول الشاعر ان يجعله كنه الانسان و ماهيته. فالعشق –الحب- هو المغيب هنا, و هو المقرون بصفة النور, تلك الصفة التي يفتقدها "الوجود" الذي يفترضه الشاعر قائماً, في هذا البيت.

و الشاعر محوي صوفي نقشبندي, يدين بالشافعية كمذهب و بالاشعرية كعقيدة, و لأن الطريقة النقشبندية تلتزم بالشريعة و السنة, فاننا يمكن ان نستنتج بأن يكون الامام الغزالي واحداً من اكبر المراجع المعتمدين لديه, لاسيما لأن قصيدة (عقد العقائد) لمحوي توضح هذه الحقيقة بشكل لا

لبس فيه. و من جانب اخر, فان للشيخ الاكبر تأثيراً روحياً كبيراً عليه, اذ يشير محوي في بيت متميز له الى عمق ذلك التأثير:

عم ا تحدث!, عن لا محدودية بحر "العشق" الهائجة!؟

فقطرة منها هي "الفتوحات" و قطيرة هي "المثنوي"

(17- 12 ي/7 ص 318).

و معروف بأن كتاب "الفتوحات الملكية في معرفة الاسرار المالكية و الملكية" هو احد اكثر مؤلفات الأمام الاكبر ابن عربي شهرة و اهمية, ان لم يكن اشهرها و اهمها. و الاشارة هذه كافية لمعرفة مدى تأثير ابن عربي. و لأن الملاحظتين اللتين دونتهما عن الغزالي و ابن عربي منهجيتان في نظري, فانني لا اجد بدأ من تتبع مفاهيم مشتركة مهمة بين المرجعين المشار اليهما من ناحية و الشاعر من ناحية ثانية.

يرى الغزالي بأن القلب هو "نفس الانسان و حقيقته, و هو العارف بالله تعالى و الولي لله, اذا تخلص من الأوصاف الخسيسة و تحلى بالصفات المحمودة, و هو العدو لله اذا تلوث بكدورات الكفر و المعاصي و اتصف بالأوصاف الخبيثة من المكر و الخداع و النفاق و الجسد تبع له في ذلك (14/ ص 18). اما حول معنى "القلب" الذي يقصده, فيؤكد بأن "لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني – المعنى الأول – تعلق, و تلك اللطيفة هي حقيقة الانسان, و هي المدرك العالم العارف من الانسان, و هو المخاطب و المعاقب و المعاتب و المطالب" (3/13). معنى القلب هنا, كي يحدده الغزالي, يربط الجوانب الوجودية و المعرفية و الأخلاقية معاً بوضوح تام. فـ"حقيقة الانسان" لا يمكن فهمها الا باعتبارها "وجود الانسان وجوهره" كما ان عبارتي "المدرك العالم العارف" و "المخاطب و المعاقب و المعاتب و المطالب" تشيران الى الجانبين المعرفي و الأخلاقي بشكل جلي. الا أن الأشارة مازالت مقتصرة على تحديد المصدر دون التطرق الى آلية العمل, و الصورة التي يربط القلب فيها الجوانب الثلاثة ببعض. يوضح الغزالي هذه النقطة بالقول: "قلب المؤمن بمنزلة المرآة المصقولة, و الأخلاق الذميمة من الحسد و الشماتة و الكبر و الايذاء و الحيلة و المكر و الخيانة و الرياء و العجب و النفاق و الغل و ماضاهاها, بمنزلة الدخان التي تصيب المرآة فتسودها و تجعلها محجوبة عن الله تعالى في الآخر" و "الأخلاق الحسنة من القناعة و الحياء و الصبر و الكرم و المعرفة و العلم و العقل و الحكمة و الصلاح و ماشابهها, بمنزلة انوار تصيب المرآة تزيل عنها ظلمات المعاصي و سواد الأخلاق القبيحة" (14/ ص 20).

حتى هذه اللحظة يمكن ان نحلل "صدر" البيت الذي جعلناه مدخلاً لتتبع مسألة مهمة في التصوف الاسلامي في شعر "محوي" هي الفناء. فالشاعر ينبه نفسه الى غفلة قائمة تتلخص في ان بقاءه مكتوف اليدين تجاه تكاثر طبقات الدخان المتكونة نتيجة لتراكم الأخلاق الذميمة, سيجعل قلب الشاعر, أي

جوهر وجوده, معرضاً لظلام يزداد قتامة يوماً بعد يوم, مما يمنعه عن التنعم بالنور.. بـ"نور العشق" حسب تعبير "محوي", أي ستجعل مرآة القلب "محجوبة عن الله تعالى في الآخرة..", كما يؤكد الغزالي. فالوجود المعبر عنه اذاً هو هذا الوجود الأرضي الذي يعبر عن سطوة النفس التي عرفها الغزالي نفسه بانها "يراد به – كما مدون نصاً – المعنى الجامع لقوة الغضب و الشهوة في الانسان (4/13).

يتضمن عجز البيت تبشيراً يتلخص في زوال "فناء" الشاعر, و بسط الشمس جناحيها – سطوعها و انارتها للأطراف – تبعاً لذلك, محدداً بذلك ان الطريق رغم طغيان "ظلام الوجود" ليس مسدوداً و ان امكانية الخلاص من ذلك الطغيان "ظلام الوجود" ليس مسدوداً و ان امكانية الخلاص من ذلك الطغيان تظل قائمة. و في الوهلة الأولى فان البيت, كما نرى, يتضمن اشارة خفية الى الآية الكريمة "قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم" (الزمر 53). اما تجسيد هذه الامكانية في رأي الغزالي يكمن في معرفة حاجات الجسد و القلب, فحاجات الجسد لديه ثلاث هي الطعام و اللباس و المسكن, و لو زاد أي منها عن الحد يتضرر الشخص, "بخلاف غذاء القلب؛ الذي هو محل معرفة الله تعالى و محبته, فكلما كثر كان افضل" (26/14). و في موقع آخر, سابق لهذا يؤكد بوضوح تام ان القلب ليس محل معرفة الله و محبته فحسب بل ان تلك المعرفة و المحبة هي غذاؤه و ان سبب هلاكه – أي القلب – ان يستغرق في محبة شيء سوى الله تعالى" (14/ ص 25). الى هذه النقطة تحديداً يشير محوي في احد ابياته:

القلب هو عرش الله يا "محوي", فليأخذك الحياء من غفلته
اذ غدى معبداً و ثنياً بلا براهمن او ديراً بلا راهبا

(17- 6ب/7 ص 55)

هذا البيت من شأنه الايحاء الى القارئ بوجود بصمة جلية للشيخ الاكبر محي الدين ابن عربي عليه, رغم ان هذه البصمة لا ترقى الى مرتبة القول بـ"وحدة الاديان" تبعاً لـ"وحدة الوجود", كما نراه في هذه الأبيات لابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي
اذا لم يكن دينه الى ديني داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعىً لغزلان و دير لرهبان
و بيت لأوثان و كعبة طائف
و الواح توراة, و مصحف قرآن[2]

الا ان البصمة المشار اليها تفصح عن تسامح و انفتاح على علاقات روحية تنضوي, في الظاهر, تحت لواء الوثنية, و التسامح و الانفتاح المشار اليهما هما من السمات الجوهرية للتجربة الصوفية التي تجعل الصوفي الحقيقي يفنى عن ذاته الى درجة لا يمكنه حتى الالتفات الى جفوة الناس معه. اضافة الى ما سبق, فان جوهر البيت "القلب هو عرش الله..." يتلخص في الاشارة الى قولٍ جرى اعتباره

حديثاً نبوياً شريفاً – لم اعثر على سند يؤكد صحة كونه حديثاً – و هو: "قلب المؤمن عرش الرحمن", او الى قولٍ آخر جرى اعتباره حديثاً قدسياً – لم اعثر على مصدر يسند هذا التصور ايضاً – و هو: "ما وسعني ارضي و لا سمائي, و لكن و سعني قلب عبدي المؤمن النقي التقي", الا ان ما هو معروف و متبع في التصوف الاسلامي المدعوم بعدة نصوص قرآنية و احاديث قدسية و اخرى نبوية شريفة هو ان نقاء القلوب (خلوها من غير الله) و تقواها (خشيتها من الله و تجنب المعاصي و الشبهات) من السمات الأساسية التي تدل على الفلاح في تزكيتها. و لعل من المفيد الاشارة الى ان الامام الغزالي يورد للامام علي ابن ابي طالب (رضي الله عنه) قولاً ان صحت نسبته اليه, سيكون ذلك سنداً لمكانة القلوب, اذ يقول: "قال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب: ان لله تعالى في ارضه آنية و هي القلوب فاحبها اليه تعالى ارقها و اصفاها و اصلبها ثم فسره فقال: اصلبها في الدين و اصفاها في اليقين و ارقها على الاخوان (13/ ص 10).

يرى الامام الغزالي بأن طبع الانسان يحوي اربعة عناصر هي (الربانية, الشيطانية, السبعية و البهيمية), و لما كان تعريفه لكلمة (النفس), كما سلف ذكره, قد جمع قوتي الغضب و الشهوة معاً, أي عنصري (السبعية و البهيمية), فاننا يمكن ان نستنتج بأن العنصرين الأخيرين ايضاً يشكلان ثقل الجانب الداعي نحو مزيد من الدخان المتراكم على مرآة القلب. هذه المعادلة يوضحها الامام في كتاب (الاحياء) عبر التركيز على عبارات من قبيل "روح معنى السبعية" التي تمثل في "الضراوة و العدوان و العقر" و "شبق الخنزير" الذي يمثل (البهيمية), و الدور الذي يلعبه الشيطان في اغراء الغريزتين المشار اليهما ببعضهما و تحسين ما هما "مجبولان" عليه, عند ذلك يعود مرة اخرى الى مرآة القلب ليؤكد بأن تظافر تلك المسائل تؤدي الى عماد القلب عن "ادراك الحق"[3] و الاستهانة بأمر الآخرة و استعظام امر الدنيا (12/ ص 12). و بالعودة الى التبشير الذي وجدناه في عجز البيت الذي ثبتناه في المدخل الى هذه الدراسة, نرى الغزالي يقترح ضمن تجربة روحية تعبير (جلاء القلب) لمعارضته (عماد القلب) من جهة, و للمطابقة بين القلب و المرآة (جلاء المرآة) من جهة ثانية, مستقرئاً النص القرآني: "ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"[4] ليؤكد: "فأخبر – أي الله في الآية – ان جلاء القلب و ابصاره يحصل بالذكر, و انه لا يتمكن منه الا الذين اتقوا, فالتقوى باب الذكر, و الذكر باب الكشف, و الكشف باب الفوز الاكبر, و هو الفوز بلقاء الله" (12/13). و الملاحظ هنا هو اعادة الربط بين الجوانب الأخلاقية (التقوى) و المعرفية (الذكر - الكشف) و الوجودية (الفوز بلقاء الله – البقاء بعد الفناء – نزع الوجود المظلم و اكتساب الوجود المنور).

ما يحرص الغزالي عليه هو ان هذا التحول لا يمكن حصوله باكتساب ما سماه بـ"العلوم التعليمية", ولذلك لم يتوجه الى تلك العلوم اهل

التصوف الذين اختاروا "طريق المجاهدة و محو الصفات المذمومة و قطع العلائق كلها و الاقبال بكنه الهمة على الله تعالى, و مهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده المؤمن و المتكفل له بتنويره بانوار العلم (13/ ص 19) فالمسألة تكمن في تجربة طويلة تتطلب من القائم بها (الصوفي – السالك) جهداً كبيراً و مستمراً للخلاص من قيود "الوجود" الخاضع لسلطة الأهواء و الشهوات المظلمة, عبر المرور بأحوالٍ و مقامات تتجاوز في صعوباتها حدود اجتياز الوديان و الجبال, يقول محوي:

اجتياز الجبال وطي الوديان من شروط العشق الحقيقية

فأنى لك ان تأبه بالمرتفعات و المنحدرات ان كنت سالكا

(12/17 ص 317).

هذه الصعوبة الكبيرة التي تكتنف التجربة الصوفية (المجاهدة – الرياضة الروحية) يعزوها الامام الغزالي الى ان "القلوب كلها مريضة الا ماشاء الله, الا ان من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها, و مرض القلب ما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه, و ان عرف صعب عليه الصبر على مرارة دوائه, فإن دواءه مخالفة الشهوات هو نزع الروح" (63/13).

رغم ان ابن عربي (ابو بكر محمد بن علي بن محمد احمد بن عبدالله الطائي الملقب بمحيي الدين) يؤكد في معظم كتاباته على الطابع العملي (السلوكي) لتصوفه, و يشير في مواضع كثيرة – لا يسعنا هنا الاشارة اليها – الى المقام الذي يشغله او الحضرة التي اقامه الله فيها, الا ان الجانبين الوجودي و العرفي – في ارتباطهما ببعضهما و منفصلين – يستأثران باهتمامه اكثر من الجانب الأخلاقي. و في نظري فان هذه الملاحظة يمكن ان تكون ضرورية بشكل اكثر حين يتعلق الأمر بمناقشة الجانبين النظري و العملي في الفكر الصوفي – ان صحت اقامة تصنيف كهذا - الا اننا قد بدأنا اساساً بربط "محوي" في بيته المدون مطلع هذه الدراسة الجوانب الوجودية و المعرفية و الاخلاقية معاً, مما يؤثر تضعيف أي من تلك الجوانب بشكل مباشر على مقدار التأثر و التأثير, كما ان العديد من كبار الصوفية اجمعوا على ان التصوف اخلاق, فإن أي تضعيف للجانب الأخلاقي سيشكل ضربة لهذا التصور, او ضربة لماهية الفكر الصوفي لدى احد اقطابه. و ربما يفسر هذا الأمر معاداة عدد كبير من كبار المفكرين لابن عربي.

ينحى ابن عربي في مسألة الخلق منحى يبعده عن معظم سابقيه من الصوفية ان لم يبعدهم عنهم جميعاً. فالاهتمام قبله كان منصباً على التوحيد, كما نجده لدى السلف, دون "تمثيل او تعطيل", و بالإعتماد على ما ورد في القرآن و السنة كما لم يتجاوزوا حدود مفاهيم مثل "القدم" و "المحدث" و "الازلي" و "الاستواء" و "الصفات" و "الذات" و "الجوهر" و "العرض" و "الزمان" و الاجل" و غيرها من المفاهيم المستنبطة اساساً من القرآن و السنة, مع التأكيد على عدم استساغة العديد من تصورات المعتزلة. اما الغزالي, فقد نبذ

اراء المعتزلة صراحة و كان الداعم الاكبر لشيوع عقائد الأشاعرة بين اهل السنة و الجماعة, بينما ينطلق ابن عربي, بدءاً من مسألة الخلق, من مبررات الخلق لدى الخالق بالاستناد, على ما يبدو, الى قول عده كثير من المتصوفة حديثاً قدسياً, بينما لم اجد لذلك سنداً, و القول هو: "كنت كنزاً مخفياً فاردت ان اعرف, فخلقت الخلق لكي اعرف"[5], و يذهب الى ان البارئ لما شاء ان يرى "اعيانه" او "عينه" "في كون جامع يحصر الامر كله" اوجد العالم كله. و يشبه العالم الذي اوجده الله بـ"شبح مسوىً لا روح فيه" او بـ"مرآة" غير مجلوة". و لما كان الحكم الالهي لا يحتمل النقص, فانه "ما سوى محلاً الا و يقبل روحاً الهياً عبر عنه بالنفخ فيه: و ما هو الا حصول الاستعداد من تلك الصورة المسواة لقبول الفيض التجلي الدائم", "و ما بقي الا قابل, و القابل لا يكون الا من فيضه الأقدس", "فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم, فكان آدم عين جلاء تلك المرآة" (4/ ص 49). و الملاحظ ان هذا الذي جرت تسميته بـ"حول الاستعداد" يبقى في تصوف ابن عربي جوهرياً و محورياً لأنه يعبر عن "المشيئة" او "الارادة"[6] الالهية التي يعتبر الوجود ككل قبولاً, بل تنفيذاً او ترجمة لها, و يعتبر (الاستعداد) الآلية الازلية التي تتخذها عملية "التنفيذ او الترجمة" صورة لها. ضمن هذه الرؤية يعود ابن عربي الى القول "ما وسعني ارضي و سمائي, و لكن وسعن قلب عبدي المؤمن النقي التقي" – الذي يسلم كثير من المتصوفة بكونه حديثاً قدسياً كما سبقت الاشارة – ليؤكد بانه, اذا حصل الاستعداد في قلب و وسع بارئه, فإنه يمتلئ الى حد لا يمكن ان يسع غيره, و يرى ان هذا الاستعداد هو في جوهره تعبير عن النظر الى الحق في تجليه, و اذا تم ذلك فان امكانية النظر الى غير الحق تنتفي بالكامل.

يميز ابن عربي بين مفهومين للإستعداد هما "عطاء الاستعداد" و "حصول الاستعداد" عبر تمييز نوعين من التجلي, و يؤكد بان النوع الأول من التجلي يولد, او يعطي الاستعداد للقلب, اما حصول الاستعداد فهو الذي يولد النوع الثاني: "لله تجليان, تجلي غيب و تجلي شهادة. فمن تجلي الغيب يعطي الاستعداد الذي يكون عليه القلب, و هو التجلي الذاتي الذي الغيب حقيقته, و هو الهوية التي يستحقها بقوله عن نفسه "هو" فلا يزال "هو" له دائماً ابداً. فاذا حصل له – اعني القلب- هذا الاستعداد, تجلى له التجلي الشهودي فرآه فظهر بصورة ما تجلى له كما ذكرناه. فهو تعالى اعطى الاستعداد بقوله "اعطى كل شيء خلقه"[7] ثم رفع الحجاب بينه و بين عبده فرآه في صورة معتقده" (4/ ص 120-121). و من المهم التأكيد على ان مفهوم "المعتقد" الذي يطرحه ابن عربي يظل غامضاً بعض الشيء, فهل يعني به العقيدة؟. يبدو هذا الأمر غريباً و بعيداً لأن ابن عربي يشدد فيما بعد ان القلب و العين يريان صورة المعتقد في الحق فحسب, فليس واردأ ان يطابق "الحق" المتجلي صورة "العقيدة", بل تبدو عبارة "صورة العقيدة" غريبة في حد ذاتها. اذاً هل تعني كلمة "المعتقد"

القصور؟ يمكن ان نقبل ذلك شريطة ان تعني "صورة المعتقد" التصور, لكن كلمة "التصور" لا تخلو من غموض هي الأخرى, فهل تعني "تصور الهيئة" ام "تصور الماهية"؟. انا ارى بأن المقصود في ذلك هو "الظن" بالمعنى الذي ورد في الحديث القدسي: "انا عند ظن عبدي بي, و انا معه حيث يذكرني, - و الله, لله افرح بتوبة عبده, من احدكم يجد ضالته بالفلاة, و من تقرب الي شبراً تقربت اليه ذراعاً, و من تقرب الي ذراعاً, تقربت اليه باعا, و اذا اقبل الي يمشي اقبلت اليه اهرول" (2/ ص 237) و وفق هذا المعنى فان التجلي يكون اوضح و اجلى كلما كان "الظن – المعتقد" اكثر اقتراناً برسوخ الايمان و الاخلاص في العمل.[8]

لا تقتصر المعرفة عند ابن عربي على التجلي, بل ان هذا النوع يتوسط نوعين آخرين هما "المكاشفة" و "المشاهدة" و كما انه قسم التجلي الى نوعين, فان المكاشفة ايضاً تقومه على درجات خمس هي: "عقلي" و "قلبي" و "سري" و "روحي" و "خفي". و الكشف الأخير يسمى عنده ايضاً إنكشف الصفاتي, لأنه ينم عن انكشاف الله بالصفات: الجلال او الجمال, على حسب المقامات و الأحوال. و يؤكد: "فإن إنكشف بصفة العالمية تظهر العلوم الدينية, و ان انكشف بصفة السمعية يظهر استماع الكلام و الخطب, و ان انكشف بصفة البصرية تظهر الرؤية و المشاهدة, و ان انكشف بصفة الجلال يظهر فناء الفناء, و ان انكشف بصفة الجمال يظهر شوق شهود الجمال, و ان انكشف بصفة القيومية يظهر بقاء البقاء. و ان انكشف بصفة الواحدية تظهر الوحدة بلا علم" (تحفة السفرة – عن 6/ ص 214).

يميز ابن عربي بين انواع المعرفة المشار اليها من حيث تكملتها لبعضها. فبينما تمثل المكاشفة طي الحجب التي تخفي "تستر" ما هو الهي عن "عيون النفس", فان التجلي هو تلقي انوار السر, اما المشاهدة فانها عبارة عن انعكاس الأنوار المشار اليها في القلب. و في هذا المجال يظهر ابن عربي مجلي القلب, او مجلي مرآة القلب الذي هو الذكر (6/ ص 218). للمشاهدة عند ابن عربي ثلاث درجات هي: مشاهدة الخلق في الحق, مشاهدة الحق في الخلق, و مشاهدة بلا خلق و هي اتم انواعها كما انها هي "حقيقة اليقين بلا شك" (485/3).

من خلال متابعتي لمفهوم الفناء في بعض من أشهر مؤلفات عربي, لم استطع ان اجد ما يدعم قوة و عظم دور الجانب الاخلاقي "المجاهدة" او "مخالفة النفس", بل ان ما ذهب اليه (بلاثيوس) في تحديد ان ابن عربي يرى "ان كل الظواهر الامتثالية و الانفعالية التي تصحب او تسبق الفناء تتميز بالمفاجأة في الظهور, و هذا دليل على ان النفس ليس لها دور في نشأته, بل هو فضل و موهبة من الله يمنحها كما يشاء و لمن يشاء" (6/ ص 222) هذا المذهب اعتقده صحيحاً, و لهذا السبب, فانني لم الحظ تأثيراً واضحاً لابن عربي في محوي في هذا المجال, رغم ان عموم المتصوفة, و يتبعهم في ذلك محوي, و يرون بأن "العناية الالهية هو الشرط

الأول حتى لمجرد الهداية, فما بالك من الاقتداء باحدى الطرق الصوفية.

ينطلق محوي, في توجهه نحو "نور العشق" من "ظلمة الوجود, من حقيقة ان النفس "الأمارة بالسوء" قد خنقت انفاسه:

لقد جعلتني النفس الأمارة اسير قيودها و طريد حيلها
فما هو المفر من هذه الأفعى البشعة يا الهي, اين هو الحلّ!؟

(17 – 9م / ص 228)

تشير كلمة "النفس" هنا تحديداً الى ما عرف الغزالي بأن المراد به هو "المعنى الجامع لقوة الغضب و الشهوة في الانسان (4/13), و اذا ما عدنا الى اوائل السائرين في طريق التصوف نجد ان المكي (الشيخ محمد بن علي بن عطية الحارثي الملقب بأبي طالب و توفي سنة (386 هـ)يربط النفس بـ"الهوى" (146/18 و 157), اما الكلاباذى (ابوبكر محمد توفي سنة 380 هـ) فانه ينقل عن ابي الحسن النوري قوله عن التصوف بأن "ترك كل حظ للنفس" و يرى بان جميع معاني التصوف كلها "من التخلي عن الدنيا و عزوف النفس عنها و ترك الاركان و لزوم الأسفار, ومنع النفوس حظوظها و صفاء المعاملات, و صفوة الاسرار, و انشراح الصدور وصفة السباق" (16/ ص 32). و في القرآن الكريم يلاحظ بوضوح ربط النفس بالسوء و الهوى في ايات عديدة منها: "و ما ابرئ نفسي, ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي" (يوسف/ 53) و "نهى النفس عن الهوى" (النازعات/ 40) و "تهوى الأنفس" (النجم/23), كما تحدد ايات اخرى دور النفس في تزيين الآثام: "بل سولت لكم انفسكم" (يوسف/ 18 و 83) و "فطوعت له نفسه قتل اخيه" (المائدة/ 30) "و "كذلك سولت لي نفسي" (طه/ 96). غير ان القرآن قد اشار الى نقطة اخرى هي ان البارئ قد الهم النفس الفجور و التقوى معاً, الا ان الشهوات و الغرائز تلعب دوراً كبيراً في صعوبة لجم فجور النفس, كما ان الشيطان يعمل على الاغواء, "الشيطان سول لهم" (محمد/ 25). لهذه الاسباب اكتسب التزكية اهمية كبيرة: "قد افلح من تزكى" (الأعلى/ 10) و "قد افلح من زكاها" (الشمس/ 9).

يرى معظم الصوفية بأن العناية الالهية هي الأساسية في تمكين الانسان من نفسه. فالسهروردي (ابو النجيب عبد القاهر بن محمد بن عبدالله) يعتقد بأن ذلك ضروري و ان الرسول (ص) "كان موضع نظر الله من قبضة عزرائيل" و لم يمس "قدم ابليس" ذرته, كما لم يصبه حظ الجهل و توفر حظه من العلم و لذلك "بعثه الله تعالى بالهدى و العلم, و انتقل من قلبه الى القلوب, و من نفسه الى النفوس" (47/11).

لهذا السبب يميز السهروردي بين علمين هما "الوراثة", و يكتسب من تلك العناية, و "الدراسة" الذي يأتي كسباً: "فلما زهدوا في الدنيا انصبت الى بواطنهم اقسام العلوم انصبابا" (477/11). و العناية الالهية نفسها, هي التي يسميها الكلاباذى بـ"اللطف" حين ينقل عن الجنيد تمييزه بين

نوعين من المعرفة هما "التعرف" و "التعريف" (17/ ص 77), او حين يميز بين نوعين من "المحبة" هما "محبة الاقرار" و "محبة الوجد" (129/17). الى اللطف عينه يشير المكي اذ ينقل عن بعض "الموقنين" قوله: "ركعتان تتقبل مني احب الي من دخول الجنة, قيل: و كيف؟, قال: لأن في الركعتين رضا ربي عز و جل و محبته, و في الجنة رضاي و شهوتي" (18/ج1 157). اما العروسي (شارح الرسالة القشيرية, فإنه يختار التمييز بين معاني "الروح" و "النفس" و "القلب" ليوازن بين العناية الالهية و بين دور القلب في "قهر النفس" (12/ ص 163 ج1 (الهامش)).غير ان الصوفية كلهم يرون ضرورة معاندة النفس و مجاهدتها و كسرها, و معهم يؤكد الشاعر محوي:

ان كنت تبغي دواء النفس, فانه الداء, كما في الزئبق
فان قتلتهما صار هذا روحاً محضاً, و استحال الآخر فضة

(12-17 هـ1 ص 287)

الا ان هذا الأمر لا يتم دون العناية الالهية:

لله الحمد فان الحبيب قد اذن لي بالبكاء و طمر الرأس بالطين
فقد منح مليكي "البحر" و "البر" الى درويش دفعة واحدة

(17 – 5ى 3 ص 303).

كما ان الشاعر لا ينسى صعوبة المجاهدة و عدم امكانية خوض غمار هذه التجربة دون مرشد معين:

لا تدخل معركة ضد "اسفنديار" النفس دون معين
لأن "رستم" في هذا الميدان عجوز عاجز دون عون "زال"(9)

(17-1 ص 8 ص 203).

اضافة الى ما سبق, فان "محوي" يرى بأن السلوك في جوهره يتضمن شرطاً مسبقاً هو ترك "الانية":

ان لم تتخل عن "الرأس" فانك لا تضع قدماً في ميدان العشق
فان الرأس هو ما ينبغي وصفه قبل القدم في هذا الطريق

(17-10 أ/ه ص 29).

و اذا ما عرفنا بأن "محوي" يرى بأن الاحتفاظ بالحبيب يلغي الاحتفاظ بالآخرين و الدنيا:

لأجلك تعاديني الدنيا , فقضيتي هي "مانعة الجميع"
و اذ ارفض ان اتركك , فما الذي يتبقى لي غير ترك الدنيا

(17-10 م/7 ص 232)

و ان الاحتفاظ بـ"الحبيب" يعني "غياب الذات – الفناء":

تسأل: لم غاب قلبك قلبك (اغمي عليك) حين ظهرت انا:؟
انه لمؤكد و طبيعي: فقطره الندى تغيب اذ تشرق الشمس

(17-6ب 1 ص 53)

نستنتج ان الفناء عن الذات و الخلق هو الشرط الأساسي للحكم على صحة السلوك, انه يرى بأن السبيل الى "التصير الجديد" لا يمكن الا بعد فناء الصورة القديمة للوجود كاملة:

اي وهمٍ هو "البقاء" دون "فناء الجسد"

فالرأس لا يمكن ان ينضج دون الخراب التام

(17-2 د 1 ص 111).

يستخدم "محوي" كلمتي "العشق" و "المحبة" للاشارة الى مذهبه, و هذا ليس غريباً, فمذهب رابعة العدوية هو مذهب المحبة, و يؤكد ابن عربي بان "المحبة" دينه, الا ان القشيري ينقل عن ابي علي الدقاق قوله "العشق مجاوزة الحد في المحبة, و الحق سبحانه لا يوصف بان يجاوز الحد, فلا يوصف بالعشق" (145/15), الا ان الجيلي لا يرى ضيراً في ذلك, و يرى ان لـ"الارادة" تسعة مظاهر اخرها العشق, و هو عنده "اخر مقامات الوصول و القرب, فيه ينكر العارف معروف, فلا يبقى عارف و لا معروف و لا عاشق و لا معشوق, و لا يبقى الا العشق وحده" (8/ ص 84). و يبدو ان الاجيال الاولى من المتصوفة, وصولاً الى القرن الثامن الهجري لم تستخدم تلك الكلمة, و قد يكون للتصوف في ايران الأثر الاكبر لشيوع استخدام كلمة العشق.

ينبغي التنويه الى ان حب الله و الرسول (ص) ليس بدعة, بل انه ركن مهم في الايمان: "قل ان كان اباؤكم و ابناؤكم و اخوانكم و ازواجكم و عشيرتكم و اموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها احب اليكم من الله و رسوله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره " (التوبة/24) كما ان الله ايضاً يحب عبده كما جاء في الحديث القدسي "و ما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه" (5/م4 ج8 ص 482-483).

ثمة ملاحظة مهمة دونها (وولتر ستيس) الشارح المتاز لفلسفة (هيگل) بأن "الحب – لدى الصوفية – هو الاساس الوحيد و الوصية الوحيدة للاخلاق" (391/9) و ان هذا الحب اذ يؤكد بالمحب الى الغيبوبة يجد في خضم تجربته عالماً مغايراً تماماً عن العالم المعاش, لذلك فانه يعتقد بان اللغة غير صالحة للتعبير عن تجربته التي "يقول ان تجربته لا يمكن وصفها" (369/9).

و من الغريب ان فيلسوفاً مثل رسل قد اعترف بان "اعظم الرجال الذين خاضوا غمار الفلسفة قد شعروا بأنه بحاجة الى العلم كما انهم بحاجة الى التصوف.

الهوامش:

1-النسخة المطبوعة من ديوان الشاعر و التي حققها و حلل ابياتها السيدان الملا عبد الكريم المدرس و محمد الملا كريم, هي النسخة المعتمدة في هذه الدراسة. و يشير الرقم الموجود في اليسار الى تسلسل هذا الديوان ضمن قائمة المراجع التي اعتمدت عليها, اما الرقم الذي يلي الفاصلة فيشير الى رقم الغزل ضمن القوافي المندرجة تحت الحرف المحدد بعد ذلك. اما الرقم المحدد بعد الخط المائل فانه يشير الى رقم السطر – تسلسله ضمن الغزل المذكور. تم بعد ذلك تثبيت رقم الصفحة تسهيلاً لعملية التحقق من صحة الاقتباس.

2-اثناء اعداد هذه الدراسة بحثت كثيراً عن ديوان (ترجمان الاشواق) او ديوان للشاعر يتضمن هذه الابيات, لكنني عثرت على بعضها في كتاب (بلا شيوس) (266/6).

3-التزام الغزالي بالنص القرآني واضح, فثمة اشارة خفية الى الآية "ختم الله على قلوبهم و على

سمعهم و على ابصارهم غشاوة/ البقرة/ 7) كما نجد اقتباساً واضحاً لتعبير (تعمى القلوب), مع تطابق كامل في الاستنتاج, من الآية الكريمة: "افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او اذان يسمعون بها فانها لا تعمى البصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور" (الحج/ 46).

4-الاعراف/ 201.

5-من بين اصحاب اشهر المعاجم: اورد التهانوي في الجزء الثاني من "كشاف اصطلاحات الفنون" ضمن شرح معنى "المحبة" هذا الحديث, و قد اسندت هيئة التحقيق و الاشراف و الترجمة, بالاستناد الى (ابن عراق الكناني) في (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الاحاديث الموضوعة) الى "ابن تيمية" قوله "بأنه موضوع" (7/ ج2- ص 1482 / الهامش). الا ان المتتبع للقرآن و السنة يجد لمن يعتبرون هذا الحديث صحيحاً عذراً كبيراً, اذ ان القرآن ينص على " و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون" (الذاريات/56), و قد فسر كثير من المفسرين عبارة "ليعبدون", نقلاً عن "ابن عباس –رض-" على انها تعني "ليعرفون – ليعرفوني". و من هذا المنطلق اورد القشيري في "الرسالة" قولاً عن "رويم" هو: "اول فرض افترضه الله عز و جل على خلقه", "هو المعرفة لقوله جل ذكره: و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون, قال ابن عباس: الا ليعرفون" (15/ ص 3).

الا ان جزم ابن عربي على منح مسألة الخلق تفصيلاً ممزوجاً بشيء من التشبيه قد جعله موضع تحامل بعض المفكرين المسلمين المعروفين.

6ترتبط مسألة الخلق في القرآن الكريم, فيما يتعلق بالأنس بـ"التشهيد على النفس" الذي يضم جانبي المشيئة الالهية الازلية و التزام الانسان ببعض: " و اذ اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم و اشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة آنا كنا عن هذا غافلين" (الأعراف /172). و لذلك فقد دخلت تعابير من قبيل "قالوا بلى" و "الست" ضمن المصطلحات الصوفية التي تعبر عن طرفي معادلة مهمة في "العشق" و "المحبة". اما الصورة الاشمل للارادة الالهية فتعبر عنه الاية الكريمة: "إنما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون" (يس/82).

7-(طه/ 50)

8-يقول محوي في الاخلاص:

تسألون عن الكيمياء؟ انها الخدمة المقترنة بالاخلاص فحسب و الا, فلم يكن "ابو طالب" اقل خدمة للرسول من "ابي بكر" (17/ 6ب/ 3 ص 53)

و يبدو ان محوي يقصد بـ"الاخلاص" هنا حسن الظن بالبارئ و العمل لوجه الله فحسب.

9-"رستم" ابن "زال" من الابطال الاسطوريين الفرس في "شاهنامه" للفردوسي. أما "اسفنديار" بن "گشتاسب" فهو من الابطال الذين كانوا في جبهة المعادين, و قد يمكن "رستم" من قهره بعد صراع قوي لم يحسم الا بعد مؤازرة ابيه "زال" له فيه.

المصادر

1–القرآن الكريم

2-الأحاديث القدسية, مكتبة دار التراث, القاهرة, بلا.

3-ابن عربي: الفتوحات المكية في معرفة الاسرار المالكية و الملكية, تقديم: محمد عبد الرحمن مرعشلي, دار احياء التراث العربي, بيروت, ط1 1988 م (ج2).

4-ابن عربي: فصوص الحكم, تحقيق: ابو العلا عفيفي, مكتبة دار الثقافة, نينوى, ط2 .1989

5-البخاري (ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبة الجعفي): صحيح البخاري, شرح و تحقيق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي, دار القلم, بيروت ط 1 1987, المجلد الرابع, الجزء الثامن.

6-بلاﭬيوس (اسين): ابن عربي.. حياته و مذهبه, ترجمه عن الاسبانية: عبد الرحمن بدوي, و كالة المطبوعات, الكويت, دار القلم, بيروت .1979

7-التهانوي (العلامة محمد علي): موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم, تقديم و اشراف و مراجعة: د. رفيق العجم, تحقيق: د. على دحروج, مكتبة لبنان ناشرون, بيروت, ط1 - 1996, المجلد الثاني.

8-الجيلي (الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم): الانسان الكامل في معرفة الأواخر و الاوائل, تصحيح و تعليق: فاتن محمد خليل اللبون فؤاد دكار, مؤسسة التاريخ العربي, ط1 - .2000

9-راسل (برتراند): عرفان و منطق, ترجمة: نجف دريابندري, شركت سهامي كتابهاى جيبى, تهران, چاپ دوم 1362 هـ . ش (1983 م)

10-ستيس (ولتر): التصوف و الفلسفة, ترجمة و تقديم: أ. د. امام عبد الفتاح امام, مكتبة مدبولي, القاهرة, بلا

11-السهروردي (ابو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد): عوارف المعارف, ضمن المجلد الخامس من كتاب (احياء علوم الدين) للغزالي.

12-العروسي (العلامة مصطفى): نتائج الافكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية لشيخ الاسلام زكريا بن محمد الأنصاري, ضبط و تصحيح و تخريج الآيات و الاحاديث: الشيخ عبد الوارث محمد علي, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1 - 2000م.

13-الغزالي (ابو حامد محمد بن محمد): احياء علوم الدين, دار الندوة الجديدة, بيروت (بلا) م.3

14-الغزالي: رسالة في المعرفة, تحقيق الدكتور مهند الأعسم, مطبعة العاني, بغداد, ط1 1990م.

15-القشيري (ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن): الرسالة القشيرية, مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح و اولاده, القاهرة, ط1 - 1957م.

16-الكلاباذي (ابوبكر محمد): التعرف لمذهب اهل التصوف, تقديم و تحقيق و مراجعة الأصول: محمود أمين النوادي, المكتبة الأزهرية للتراث, القاهرة, ط3 - 1992م.

17-مەحوى (مەلا محەمەدى مەلا عوسمانى بالّخى): ديوانى مەحوى, لێكدانەوه و پێداچوونەوەى: مەلا عبدالكريمى مدرس و محمدى مەلا كريم, چاپخانەى ئۆفسێتى (حسام) چ2, لە رووى چاپى يەكەمى (كۆڕى زانيارى كورد), 1984 م.

گوران
والطابع الثوري في رمنطقة النص الشعري

دانا احمد*

مازال البحث عن الطاقات الايحائية والتقصي عن المستويات الجمالية لنصوص الشعراء الرومانسيين بحثا جاريا وتقصيا متواصلاً من قبل النقاد والباحثين والمهتمين بشؤون الادب والنقد. ذلك ان تلك النصوص تحفل بطاقات ورؤى لايمكن حصرها في دائرة ضيقة او قراءتها قراءة احادية الجانب, كما ان لتلك النصوص امتدادا وتواصلا في الشعر منذ بروز الرومانسية وحتى يومنا هذا.

لم تكن الرومانسية انعطافة في تاريخ الادب الاوروبي والغربي فحسب , بل كانت بمثابة قفزة نوعية في الرؤيا والتساؤل الشعري وتوظيف عناصر الخيال والذاتية واستنطاق الجوانب الجمالية للطبيعة, عليه, فإن الرومانسية تخطت موطن ولادتها واخترقت ثقافات معظم شعوب العالم وآدابها ومنها آداب الشرق عموما والادب الكردي على وجه الخصوص, حيث برز في بدايات القرن الماضي استجابة من قبل الشعراء الكرد وفنانيهم ومبدعيهم مع هذا المذهب الجديد الذي قد بدأ باجتياح ثقافات شعوب العالم قاطبة.

ومن بين الشعراء الذين احدثوا شرخا في جدار الشعر الكلاسيكي الكردي وبدأوا بتوظيف عناصر الرومانسية في نصوصهم (عبدالله گوران), الذي برز في خارطة الشعر الكردي في بدايات القرن الماضي كشاعر رومانسي مبدع و مجدد.

ان هذا الشاعر يمثل مصوراً مجيدا وحاذقا في الوصف, سواء وصف الطبيعة الثائرة مثل رحلتي (هورامان وقرداغ) ام وصف المرأة الكردية في حال ذهابها وايابها من والى النبع, فالافتنان بالجمال والطبيعة في قصائده انما هو انعكاس جمالي لحب الوطن, فان العاشق الذي يبديه الشاعر من خلال

قصائده في الحب مناضل وطني , فان احساسه الوطني نابع من جمال الطبيعة, فهو يتعامل مع الطبيعة من خلال تعشق الوطن وجماله.

لقد كرس هذا الشاعر في النصف الثاني من القرن الماضي نفسه كليا للنضال الوطني والعمل من اجل القضية النبيلة , قضية السلم , واستمر في هذا الطريق مناضلا ادبيا جريئا , ان اسهام گوران في الحركة الوطنية و ممارسته للعمل الوطني عمقا ادراكه وقدرته على تصوير بؤس الشعب ومطامحه , ومنحاه طاقة كبيرة في رسم الطريق النضالي والمستقبل النير, فلم تبق صورة كردستان المزدهرة امنية, بل اصبحت صورة واضحة الملامح, وغدت تلك الامنية العزيزة رومانتيكية في التصور , و لكنها واقعية بامكانية تحقيقها , ويملك الشاعر ايمانا ثابتا بها :

آنذاك سترانا كيف نعمر الدار
ونقطع كل اعوام عشرة من التأريخ
بعام واحد
نصعد مياه الانهر الى قمم الجبال
ونقلع الصخور العاتية و نزيحها
ونزين اماكنها بحدائق

وستفتح حدائقنا كلها زهورا
وتتعلم بلابلنا الحانا جديدة
وتطرد معجزة الحياة السعيدة
البكاء,
حتى من مهود الرضع من اطفالنا

وحينما يتحدث الشاعر عن الجمال فانما ينظر الى الانسان وجمال الطبيعة من خلال مناظر كردستان الساحرة. فهو لايفصل بين الانسان والطبيعة كعنصرين متعارضين, بل الانسان عنده من اجمل المخلوقات, ولعل قصيدته (المرأة والجمال) خير مثال على ذلك , كما في قصيدته (ئـهرؤى ئؤغر- الى أين و على خير):

معوجة الطاقية, مسرعة بطباع الخجل,
لاتنظرين وتذهبين فعلى خير
انت لا تحذرين من آهات بؤسي, فالى اين وعلى خير؟
دموع حسراتي تمطر الدم على السهول من بعدك
واذ انت لاتنظرين الى مربع الورد على دربك
وتذهبين, فالى اين وعلى خير؟

فصوره الشعرية مليئة بالخيال المجنح, هذا من جهة و من جهة ثانية , انه اثمر الطيور نماذج لاشعاره الرومانسية, كما في قصيدته (الى البلبل):

يا طائرا جميل المحيا
يابلبلا صغير المنقار
انك تطير من بستان لبستان
وتتمهل قليلا
لتختار غصنا يعشقه قلبك

وفي قصيدة (لحن القبج) تشابه القبج في خفة الحركة والنغم الجميل تعبير صارخ عن الام كبيرة. يتشكى القبج في لحنه بحرقة ومرارة ممضة من بنادق الصيادين الملاحقين له:

انبري البح مبكرا
واغذ في السير نحو القمة الشماء الجميلة
منشدا اللحن متجهاً الى السماء ..

ان الطبيعة عند هذا الشاعر ليست غاية في نفسها. حيث يحترق في جحيم من شعور جدوائية جمال كردستان مانحا لغة معبرة لمشاعره المشبوبة بالقلق العاصف في سخط. كما انه وضع قياسا (خياليا-عاطفيا) لدائرته الشعرية, حيث ان امتشاج الطبيعة بادواتها الكامنة, ووصف المرأة الكردية في منطقة جبلية كهورامان يجرنا الى القول:

ان هذا الشاعر خالد بيد الطبيعة الثائرة, فربط تلك الامور الحية بطبيعة مغمورة, يحدث اشكالا نوعيا من الناحية الادبية , ذلك فانه ربط بين نقطتين في لحظة من لحظات الطلاق والانفصال الكوني والطوباوي, اذ ان طبيعة الحياة في المملكة الاولى مفعمة بالمحاكاة اما في المملكة الثانية فمليئة بالابداع الايحائي والمستويات الجمالية..

ان (گوران) انتهج في قصائده محورا رومانطقيا ومرتكزا فعليا في تناول القضايا المثارة من لدن الشعور الانساني المحض فهو مايمكن ان نعتبره برومانتيكية الادب الكردي مثل اليأس والبكاء والقلق نتيجة عدم وجود طريق نضالي واضح وآفاق صافية امام شعراء هذا الاتجاه, كما برع في وصف المرأة ووصف الطبيعة رغم الخيال الرائع في هذا الوصف , فانه لم يخل من واقعية في ابراز الجمال , فان ارتكازه تجاه النصوص الشعرية ربما على الفكرة اكثر من الشكل الخارجي , فان المظهر في هذه المدرسة لاينافي مضمون النص الشعري هنا نستطيع القول : ان هذا الشاعر كان رائدا من رواد حركة الشعر الرومانتيكي الحديث في الادب الكردي , بل هو اول من ادخل هذا الاتجاه في الادب و الشعر الكرديين , فناضل في سبيل هذا المنوال , كما ناضلت نازك الملائكة عندما ابدت رأيها في قضية الشعر الحر .

وفي نهاية هذه العجالة ان النقد الادبي بوصفه عملية ادراكية عقلية وظيفته دراسة النصوص الادبية ملامح و اشكالا و معاني و مدلولا.. وكذلك ما يسمى بـ(بيولوجية النص) التي من خلالها يحدد موقع الشاعر في الخارطة الشعرية .

*استفدت في ترجمة بعض من مقتطفات القصائد من (الاثار الشعرية الكاملة لعبدالله گوران) للدكتور عزالدين مصطفى رسول .

*كاتب وناقد من السليمانيه.



حوار

- **حوار مع الكاتب والناقد الكردي (عبدالله طاهر برزنجي)**

اجراه: نوزاد احمد

الناقد عبدالله طاهر برزنجي:

أعترف, أنا خجول في حياتي اليومية وجريء في الممارسة النقدية

اجرى الحوار : نوزاد احمد

يشغل النقد الادبي اهمية كبيرة في الحياة الادبية و الثقافية بصورة عامة , وقد برزت هذه الاهمية بصورة حية عند الممارسة النقدية بشقيها التنظيري و التطبيقي و التي تعتمد بطبيعة الحال على المناهج الادبية و النقدية المختلفة لترفد الافاق الفكرية و الابداعية للاديب .

ووفقا للفرضية التي يؤمن بها العديد من المشتغلين في حقل الفكر و الادب و التي ترى بأن النقد الادبي يتطور بموازاة الفكر بشكل عام خلال مراحل تجليات العقل البشري , وان هذه الفرضية تؤمن بالعلاقة الجدلية بين المناهج النقدية و مناهج العلوم الانسانية بشكل عام . و من اجل تسليط الاضواء على واقع هذه العلاقة و تجلياتها في الثقافة الكردية , ارتأينا ان نلتقي مع احد النقاد الكرد حول واقع النقد الكردي و مدى فاعليته في الساحة الثقافية الكردية و الازمات التي



يواجهها في الوقت الحاضر و اسباب تراجع او ضعف الممارسة النقدية التطبيقية , وهو الناقد عبدالله طاهر برزنجي , وكان لنا معه هذا الحوار :

×ماهو تقييمك لراهن النقد الكردي؟ هل هناك فعلا نقد أدبي كردي, اقصد مايكتب في الجرائد والمجلات الأدبية حول النصوص الكردية, هل يمكن اعتباره نقدا بالمعنى الدقيق للممارسة النقدية الأدبية؟

-لا أستغرب حين يوجه الينا سؤال تقليدي مثل سؤالكم هذا, انه يكرر كثيرا في لقاءاتنا وندواتنا ومهرجاناتنا الثقافية لكن اثارته واعادته ذات صلة بحقيقة واقعنا الثقافي ومستوى مجتمعنا الفكري. إنه لحقيقة مرة أن نتساءل في سنة (2003) وبعد الثورات المعلوماتية الهائلة والموجات الفكرية وظهور وخفوت عشرات المذاهب والتيارات النقدية أن نقول ونتساءل هل هناك فعلا نقد أدبي كردي؟ هذا السؤال طرح قبل عقود في ثقافة الأمم المجاورة لنا لكنه لا يزال يهيمن على مساحة كبيرة من مناقشاتنا الأدبية. إن دل ذلك على شيء انما يدل على ان هناك بونا شاسعا بين هومونا الثقافية كأمة في وسط شرقي اسلامي وبين طموحات ومستويات الثقافة الغربية مثلا. تصور: لقد تداخلت الاجناس الادبية ونجم عنه تعامل جديد مع النص وتثار الآن النقاشات حول موت النقد الأدبي واحلال النقد الثقافي محله – مع تحفظي وتمسكي برأيي الخاص حول هذ الموضوع-مع ما يظهر من المبتكرات والابداعات في المجالات العلمية والثقافية غير اننا مازلنا نبحث عن ايجاد واكتشاف بدايات التحقيب النقدي عندنا. هذه الظاهرة الملموسة تشخص بوضوح عللنا الفكرية والثقافية والاجتماعية وتدل على ان بعض هومونا لا يزال يعود الى القرون الغابرة ويثوى بين طياتها, أي ان بعض هومونا القومية والثقافية ينتمي كهوية وتشخيص وزمن الى القرن التاسع أو الثامن أو السادس عشر في حين زال لدى الأمم الغربية أو في جميع أرجاء العالم في أوانه.

×تريد أن تقول ان هومونا ذات سمات خاصة..

-نعم هومونا ذات سمات محلية خاصة. هناك هموم أقلقت امم وشعوب العالم لكن عقدها انفكت مبكرا. وكأن المثقف الكردي يعيش في برزخ وهمومه واشكالياته تنبع من حالات برزخية, يعيش في زمن العولمة والثورة المعلوماتية الهائلة, يتعامل مع الكومبيوتر والانترنيت وفي الوقت نفسه يسعى لايجاد الحلول لمشاكل وقضايا محلية تعود الى القرون الغابرة, فهو حداثوي وتقليدي في آن واحد, همومه حداثوية وتقليدية, بعضها نابع من خصوصيات القرون الماضية وبعضها يتولد على أرضية حديثة لعالم يتعولم.

أعود الى احد شقي سؤالك الذي يخص راهن النقد الكردي وأقول ان حاضر النقد الكردي ذو مشهد مضبب ومضطرب. هناك كتابات لاتمت الى النقد والقراءة النقدية بصلة, أنا مؤمن بانفتاح النص واحتمالاته المشارفة على التعدد القرائي وأؤمن بدور القارئ في اكثار القوة القرائية وتزويد النص بمياه تأويلية غير محدودة, بيد ان للقراءة مناهجها واستراتيجياتها واجراءاتها ينبغي الالمام بها. ترى كتابات نقدية جيدة غير انها تختفي بين ركامات هائلة من اوراق تسود باسم النقد والقراءة النقدية. هناك حاضر نقدي جميل تشترك فيه قلة من النقاد والادباء ذوي الاطلاع على المناهج والنظريات النقدية والأدبية الحديثة ولو انهم يزهدون في العطاء ومع ذلك تبقى عطاءاتهم علامات مميزة في النقد الكردي. وهناك حاضر وهو الأعم والأكثر والأغلب يفتقر إلى الضبط والوضوح من الأجدى كبح جماحه بائية وسيلة من الوسائل وأي سبيل من السبل وهو احكام جاهزة مسطحة بعيدة عن العقل النقدي والنزاهة القرائية.

×ما تفسيرك لتراجع ممارسة النقد الأدبي بشكل عام وعلى المستوى العالمي أيضا؟ اقول هذا و في ذهني اسماء بعض النقاد العالميين الكبار امثال :

تودوروف و ادوارد سعيد و جومسكي و اخرين غيرهم ؟ وهناك ايضا اسماء عدد من النقاد العرب و الكرد ؟

-سأكون متحفظا نوعا ما امام هذا السؤال. في الأقل حيال ابداء رأيي تجاه تراجع أو انحسار ممارسة النقد الأدبي على المستوى العالمي لان مشهد النقد على مستوى العالم ليس واضحا أمامنا, كما نفتقر الى الاطلاع التام على ممارسة النقد الأدبي في جميع بلدان العالم شرقا وغربا ومما يزيد من تحفظي هو التقدم السريع والهائل في مجال النقد وتعدد تياراته التي تحول أشياء كثيرة دون اطلاعنا الكافي عليها. النقد الأدبي على المستوى العالمي لا يهمل كثيرا وتبقى ممارسته أمرا ملحا. هناك جامعات يدرس فيها النقد الأدبي وهناك صحافة هامة يمارس فيها نوع خاص من النقد, نقاد أكاديميون يتصدون لجذب الانتباه نحو النقد ودراسة الأدب وهناك نقاد يمارسون النقد خارج أسوار الجامعة. يبقى سؤالك مرتبطا بكتاب كبار لهم جهودهم الباهرة في التنظير للثقافة والنقد غير ان الهموم الثقافية العامة والاحداث الانسانية الساخنة تجرفهم وتحد من نشاطهم النقدي. أذكر لكم الناقد الايراني رضا براهني, هذا الرجل كان يكتب الشعر والرواية وطبعت له مجلدات ضخمة في النقد الأدبي لكنه كان يكتب اضافة الى تلك الاجناس مقالات ودراسات عن حقوق الانسان والاستبداد والعرفان وتاريخ المذكر, في أواخر التسعينيات دافع في مقال دفاعا مستميتا عن عبدالله اوجلان وادان سياسة القمع والابادة ضد الشعب الكردي في تركيا, ادوارد سعيد لم يتسمر في دائرة واحدة إذ جره قلمه الى فلسطين والهجرة والاستيطان. أدونيس مثلا يتطرق أحيانا الى هموم السياسة والتصادم الحضاري, لكن يبقى الأهم لديه هو الأدب والنقد. اللغوي الشهير جومسكي خرج عن دائرة تخصصه فكتب عن الكرد والعراق وفلسطين وانتقد السياسة الامريكية وهذا لا يعني تخلي جومسكي عن اللغة بل يعتبر ذلك حقا من حقوقه المشروعة ينبغي ان يتمتع به ليبدي رأيه حول مايجري من الأحداث الانسانية.

تحتدم نقاشات اجتماعية, في التلفزيون تنظم ندوات حول العلمنة يسطحون هذا المصطلح ويدعون فيها الى اصدار فتوى في المساجد لدعمها والترويج لها ناسين ان وراء هذا المصطلح قرونا من الوعي والجهد التنويري وانها مسألة فوارق في المنظومات العقلية. الصحافة تكاد تخلو من كتابات جادة تنور افكار القارئ وتتحول الى مجموعة من الاخبار والجمل التي يتيسر للجميع تركيبها ودمجها في مقاطع, الاعلام يدعو الى العنف, للناقد الأدبي أن ينتقد تلك المظاهر ويكتب عنها عشرات المقالات ان أراد ذلك شريطة الا يبعده عن تخصصه وهمه الكتابي الأول .

النقد الأدبي في الثقافة الكردية لم يمارس بشكل جيد ولا على نحو متواصل. ومازلنا في المراحل الأولى, في مراحل التمهيد والتأسيس الجادين.

×كيف ترى تأثير النقد الادبي العربي في النقد الادبي الكردي؟ هل تلمس هذا التأثير عند النقاد الكرد في كتاباتهم التطبيقية؟

-ثمة خطوط وقواسم مشتركة بين الثقافتين العربية والكردية انهما تنحدران من اصول متقاربة. أفادت ثقافتنا كثيرا من الثقافة العربية بل كانت اللغة العربية وسيلة تعرفنا بها على ثقافات الشعوب الأخرى المترجمة الى العربية. اطلعنا على بطون وامهات الروايات العالمية ونصوص الأجانب الأدبية وتيارات النقد العالمية القديمة والحديثة عبر اللغة العربية التي ترجمت اليها آداب وثقافات العالم.

المثقف الكردي كان يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة. نحن قرأنا دستويفسكي وتولستوي ويسنين وماياكوفسكي وهنري جيمس وجويس وجاك لندن و د.ه.لورنس ورامبو ورولان بارت وجاك دريدا باللغة العربية, للمترجمين العرب فضل في هذا المجال, نـدين لهم بـالكثير. لانجد نصا نقديا كرديا يعود الى القرن التاسع أو الثامن عشر, الكائن النقدي عندنا من مواليد القرن العشرين تـزامن ظهوره مـع ظهور حداثتنا الشعرية ولكن لي أن أتساءل هنا كيف كان الشاعر الكـردي القـديم يتـذوق الشعر و وفق أي مقيـاس أو معيـار كان يحاور نفسه حـول المهمة الشعرية أثنـاء الكتابـة؟ يبـدو انه كان يربي نفسه الشعرية على أسس البلاغة العربيـة. من هنا يظهر التأثير النقدي العربي في الشاعر الكردي وفي أوان ظهور النقد الكردي كان الناقد الكردي يستفيد مـن البلاغة لتقويم النصوص.

افاد الكرد من النقاد العرب الميالين الى الماركسية غـير ان افدح ضـرر الحق بهـم هـذا الميل هـو تغلب وتـرجيح الحس الايـديولوجي. كلنـا نـتـذكر الكتابـات التطبيقيـة الجميلة لفاضل ثـامر, يمنـى العيـد, جـابر عـصفور, عبـد الملـك مرتـاض, حـاتم الصـكر, سـعيد الغـانمي, عبـدالله ابراهيم , كمال أبو ديب. محمد مفتاح, خاصـة جهودهم النقديـة الـتي توهجـت في أواخـر الثمانينيـات وطعمـت باحـدث المنـاهج النقديـة الحديثـة. صـحيح ان المنـاهج البنيوية وما بعد البنيوية والسيمولوجيا ونقـد استجابة القارئ ليست مـن بنـات أفكـار العـرب لكننـا اطلعنـا مـن خلال اللغة العربية على تطبيقات جميلـة لهـا في الثقافة النقدية العربية.

×ظهـر النقـد الكـردي-كممارسـة أدبيـة-في النصف الأول من القـرن العشـرين, هـل بوسـعنا القـول ان لدينا تاريخا للنقد الكـردي؟

-ليس لنقدنا تاريخ طويل على غرار النقد اليونـاني أو العربـي. منـذ مئـات السـنين واليونـانيون ينتقـدون النصوص ويفككونها وبهذا راحـوا يعـودون قـارئ الـنص ومنتجـه علـى المناقشـة وتقبـل الاراء المضـادة. اذن لعـب النقد لدى بعض الشعوب دورا متميـزا في ايجاد وتنقيـة الجو المنفتح الملائم لمناقشة الآراء المتضادة.

استطيع القول ان الصحافة كانت عاملا هاما ساعدت على ظهور النقد الكردي الذي تزامن مع ميلاد الصحافة الكرديــة أو تلاهـا بسـنوات. في الصـحافة عـادة تعـرض الكتب, وتبدي الآراء في الاعمـدة الصـحفية ويلقـي الضـوء على النشاطات الأدبية, هذه الملاحظات الصحافية تـؤدي الى تنشـئة وتحريــك الحـس النقـدي. أرى ان الصــحافة الكرديــة لا تســتثنى في هــذا المجـال. لا اقــول ان نقــدا صحافيا بـالمعنى المتعـارف عليـه في الغـرب والمـدرج ضـمن المناهج النقديـة المعروفـة قـد ظهـر في الصـحافة الكرديـة بل اعني ان بدايات الصحافة الكردية أثرت بشكل ايجابي في بدايات النقد الكردي في أوائل القرن العشرين و وسعت له المجال لابراز ملامحه وخطواته الأولى.

×غياب النقد كيف تفسره وما هي السبل الكفيلـة بعلاجه؟

-النقـد لـيس غائبـا, تـاريخ النقـد الكـردي الـذي لايتجاوز (100) سـنة عبـارة عـن الحضـور, مـا كتـب في تلك السنوات يشكل حضورا للنقد الكردي وللنقـاد الكـرد مهما كان نوعه وأثره, اذن المشكلة تكمـن في غيـاب النقـد الجاد. الجديـة في العمل النقـدي هـي الغائبـة. اضـافة الى كتابـة الشعر والتـاريخ والقصـة كـان هنـاك أدبـاء وكتـاب (الشـيخ نـوري الشـيخ صـالح, رفيـق حلمـي, علاءالـدين سـجادي) يكتبـون في النصـف الاول مـن القـرن المنصـرم النقـد ويـدونون ملاحظـاتهم النقديـة حـول النصـوص

الأدبية بيد ان جهودهم النقدية كانت تستند الى الاسس البلاغيـة واكتشـاف بعـض الصـور الشـعرية مـن خـلال الاشارة الى المشبه والمشبه بـه والأدوات البلاغيـة الأخـرى كمـا كـانوا يعتنـون بالجانـب التـاريخي والاجتمـاعي والمرجعيـات المتعلقـة بخـارج النصـوص. اسـتمر النقـد الكردي على هذا المنوال ولايزال هناك نقاد يكتبون على نفس الوتيرة. اذن النقد بهذا المفهوم البدائي لـيس غائبـا يمكنني القول ان النقد الجاد هو الغائب..

×وما هي اسباب غياب النقد الجاد في واقع الأدبي الكردي؟

-تقـف وراء هـذا الغيـاب اسـباب عديـدة. ان ممارسـة النقد تحتـاج الى خلق المناخات الحرة كي تفسح المجال لمناقشة الأراء المختلفـة بحريـة و وئـام. تشـبثنا بالطـابع العقلي القبلي يحول دون نشوء تلك المناخات. مـن جانـب آخـر اعـزو السـبب الى عـدم اطلاع الناقـد الكـردي علـى تاريخ النظريـات والمنـاهج النقديـة والتطـور الـذي يطـرأ عليـه. هنـاك نقـاد يكتبـون بغـزارة بيـد انهـم لا يغـذون كتاباتهم بمنهج أو مناهج, الناقد الكردي فقـير في عدتـه وأدواته وثقافته النقديـة. لـتلافي العراقيـل أمـام تنشـيط وتعزيز النقد الكردي يجب ان نسعى لخلق الفضاء الحـر لطرح الآراء المختلفة ونـدجج انفسنا بثقافات ونظريـات ومنـاهج حديثـة. الحـوار النقـدي لايـتم ولا يتكامـل بثرثرة المرسل وصمت المتلقي.

×موقع الناقد الكردي بالنسبة الى ثالوث (المؤلف , النص , القارئ) ؟

-في تاريخ النظريات النقدية لعب المؤلـف دورا كـبيرا كان هو السلطان والمهيمن. كان الناقد يشتغل على المؤلف ويبحث اثنـاء ممارسـة النقـد عنـه وعـن قصـده ونوايـاه, مقصد المؤلف أصبح هو الشغل الشاغل. كان الناقد يسعى مـن أجـل اكتشـاف شخصـية المؤلـف ومقاصده وملامحـه وصولا الى كشف طبـع أصابعه. ظـل النقـد لفـترة طويلـة يمارس تحت هذه المهيمنة الى ان جاء دور النص خصوصا منذ سطوع نجم الشكلانيين الروس وظهور البنيوية وما بعـد البنيويـة. اعتقـد ان القـرن العشـرين هـو قـرن التحـولات النقديـة الهامـة. اصـبح الـنص هـو المنطلـق والمرتكـز. ثـم جـاء دور القـارئ ليحتـل موقعـه في هـذا الثالوث ويحل محل المؤلف لاعادة بناء النص, بمعنـى آخـر لم يعد القارئ مجرد مستهلك كي يمثل دور المتلقي فقـط ويستهلك المرسَل اليه علـى الفـور بـل أصـبح يعيـد البنـاء من جديد. أظن أن نظريات التلقي أوجـدت توازنـا هامـا بـين المهيمنـات النقديـة الميالـة بتطـرف تـارة الى المؤلـف وتارة الى الـنص, تـارة الى المرجعيـات الخارجيـة وتـارة الى داخل النص.

بالنسـبة الى الناقـد الكـردي وتحديـد موقعـه مـن ثلاثيـة (المؤلـف, الـنص, القـارىء) فانـه أمـر في غايـة الوضـوح, منـذ مرحلـة التأسـيس والتـدوين الأولى والـتي أستطيع أن أحددها زمنيا بجهود الرواد في بـدايات القـرن العشـرين حتـى سـنة 1970 كـان الناقـد الكـردي يتعـب نفسـه وراء البحـث عـن المؤلـف ومقاصده ولايـزال النقـد الكـردي يـئن تحت سـلطة المؤلـف. في السـبعينات تطـور النقـد الكـردي نوعـا مـا, لايمكـن أن نكـون منصـفين لـو غضضنا الطرف عن التحولات النقديـة في السـبعينات أمـا التوجـه نحـو الـنص فقـد بـدأ الاهتمـام بـه في أواخـر الثمانينـات, النقـاد الشـباب بـذلوا مـا في جهـدهم لاضـاءة النص وتفكيـك عناصـره الداخليـة, يبـدو لـي أن التحـول الهـام في النقـد الكـردي تم بفضـل هـذه الموجـة الجديـدة المتواضعة. مجموعـة مـن النقـاد الشـباب أحسـوا بضـرورة

الدعوة الى تحديث النقد الكردي منهجا ومصطلحا. اكرر: الجهود كانت قليلة ومتواضعة لكنها كانت نقطة انطلاق اخرى نحو آفاق التحديث النقدي. في التسعينيات تزايد الاحساس بأهمية التحديث, الأن وبعد الاطلاع الأكثر على الكتب النقدية الأجنبية المترجمة الى اللغتين العربية والفارسية أصبحت في متناول القراء ثقافة نقدية جديدة. هناك بوادر للاعتناء بالدور الملموس للقارئ وموقعه في بناء النص وتجديده من خلال الاختلاف في القراءات,خاصة بعد سبر كنه مفاهيم نظريات التلقي.

×لمناسبة الحديث عن التحديث النقدي كيف تنظر الى الحداثة الكردية بشكل عام؟

-الحداثة الكردية هي الأخرى متواضعة فهي حديثة بكل معنى الكلمة, انجزت في مجال الادب بجميع أجناسه وخاصة الشعر ولم تقتحم المجالات الاجتماعية والدينية والاقتصادية. لانغض الطرف عن التحديث الذي طال بعض المؤسسات الإدارية وهي غربية في الأصل جاءتنا عن طريق الاستعمار أو بوسائل الاحتكاك غير الاستعماري وذلك عن طريق وسيط. بالمناسبة أرى: ان الحداثة غربية في الأصل و وراءها قرون من الوعي والانقلاب الفكري أما في الوقت الراهن فانها لاتنحصر في الإطار الغربي. هناك حداثات وليست حداثة واحدة, حداثة اليابان, حداثة الدول النامية, يعني أصبحت الحداثة قدرنا إذا هربنا وابتعدنا عنها نحكم على انفسنا بالانتحار.

قلت الحداثة الكردية ناقصة ومتواضعة, أولا نحن نفتقر الى مشروع حداثوي مدجج بطاقات تنظيرية لنتمكن من مراجعة خطواتنا المتعثرة أي بؤس هذا نكون حداثويين في الشعر ومقلدين في رؤانا الاجتماعية والفكرية الأخرى.. هناك ظروف قاهرة فرضت علينا التشظي في رؤيتنا الى الحياة الحديثة. هناك أحزاب ومنظمات وجماعات لاتنفك ليلا ونهارا عن الدعوة الى التحديث ولكن حين تأتي الى الممارسة تجدها في واد آخر, مثلا تتلهف وراء موجات الحداثة وحين تتناول أو تتحدث عن الأدب تتجنب جميع ملامح الحداثة وتختار تيارا أدبيا غارقا في متاهات التقليد والتقليدية. ولايفوتني القول ان تسعينيات القرن المنصرم علامة زمنية جميلة نوقشت فيها الحداثة على نحو آخر ومغاير للطروحات في العقود المنصرمة.

×بماذا تعزو قلة نقاد الأدب بينما يزداد عدد الشعراء والروائيين والكتاب باستمرار؟

-ارتفاع عدد الشعراء والروائيين والكتاب ونقاد الأدب حالة متلازمة ومشتركة وسأكون مرتاح البال لو كان الارتفاع على حساب الابداع والجدية واضاءة النصوص.

×حدثنا عن جهودك مع النقد.

*انطلاقتي الأدبية في أوائل السبعينيات كانت مع الشعر والترجمة فكانت مساهماتي الأولى تنشر أوتبث في برنامج (في المرآة) حين كنت في المتوسطة غير ان متابعاتي الثقافية وقراءاتي للنقد والدراسة النقدية ساقتني في أواسط السبعينيات الى النقد والممارسة النقدية. اتصور ان الموجة النقدية في السبعينيات قد خطت عدة خطوات وانتشلت نفسها من ظلال الجهود البدائية التي ظهرت مع ظهور ونمو الصحافة الكردية في مطالع القرن العشرين المتوغلة في شعاب البلاغة وأسسها والبحث في النص عن تاريخ حياة وسيرة المؤلف بيد انها لم يتسن لها التحرر من سلطة الايديولوجيا التي كادت تطغى على الرؤى النقدية والأدبية. كانت الافكار الماركسية والقومية تتحكم في البنية النقدية, على سبيل

المثال مال نقادنا نحو الافادة من كلاسيكيات النقد الروسي والنزعة الايديولوجية اليسارية الاشتراكية بدلا من اكتشاف باختين والناقد الماركسي البريطاني تيري اكلتون, ومع ذلك استطاع القلائل من النقاد التوقف عند الجوانب الفنية. في تلك الفترة أحسست ان البحث عن الشكل وأدبية النص يهمل اثناء التعامل مع النص فوجدتني أنجذب في ذائقتي النقدية نحو الشكل. وكان لكتاب رولان بارت (درجة الصفر للكتابة) المترجم والمطبوع في سوريا في السبعينيات ودراسة جميلة ومفصلة لهاشم صالح حول كتاب (بنية اللغة الشعرية) لجان كوهين المنشورة في مجلة المعرفة السورية وكتابات يوسف اليوسف وكتاب جدلية الخفاء والتجلي لكمال أبو ديب المطبوع في (1979) ودراسات اخرى أهمية بالغة في تغيير رؤيتي النقدية وفي سنة 1978 كتبت مقالا حول يشار كمال اثنى عليه أساتذتي في النقد, ودراسة عن بنية الرباعيات في شعر كامران اشتهيت فيهما البحث عن التشكيل. من جان كوهين تعلمت الانسياق وراء الانزياحات والانحرافات واعتبارها معايير للشعرية. ومن الشكلانيين الروس تعلمت العزف على الشكل.

×احيانا يقال بين الأصدقاء ان عبدالله طاهر يتمكن من طرح الآراء لكنه يكبحها بدافع التحفظ.

-الاعزة والاحبة في الوسط الأدبي يقولون لي ذلك بصراحة تامة ويشجعونني لأكون قاسيا مع النصوص, وأنا أقول لهم بدوري: راجعوا كتاباتي النقدية ستجدون انسانا صريحا مع النصوص وأصحابها, له لغة هادئة هادفة بعيدة عن التجريح الشائع بيننا, الجرأة النقدية في رأيي تكمن في الاجراء النقدي وتطبيق المناهج أو استثمارها وتفكيك النصوص بغية الوصول من المبنى الى تعدد المعاني. ألمس عنفا شديدا في لغتنا النقدية والصحافية. سأعترف لك: أنا خجول في حياتي اليومية وخجلي هذا نابع من تواضعي لكنني جرئ مع النص وفي الممارسة النقدية.

••••••••••••••

عبدالله طاهر برزنجي - 1957

-خريج كلية الآداب – قسم اللغة العربية- 1980-1981

-يكتب في مجال الأدب والنقد بشكل خاص.

-يترجم من العربية والكردية والفارسية.

-له ستة كتب مطبوعة باللغة العربية.

-عضو اتحاد الأدباء

-عضو الهيئة التأسيسية لمنتدى گلاوێژ الأدبي والثقافي.

-عمل محررا في جريدة المؤتمر, مجلة پروزه, ئێستا, ويران.

-حاليا يعمل رئيسا لتحرير مجلة گلاوێژى نوێ.

ملف العدد

الأنفال

- تذكر القسوة — كنعان مكية
- الأنفال: تجسيد لسيادة الفكر الشمولي — د. جبار قادر
- الأنفال: نحو تأسيس قراءة تأريخية لما جرى — خالد سليمان
- تصنيف جرائم الأنفال — د. مارف عمر گول
- كارثة الأنفال وانعكاساتها النفسية على المجتمع الكردي — مهاباد قرداغي
- ويسألونك عن الأنفال (حوار مع ويست هلترمان) — اجراه: آراس فتاح
- المقابر الجماعية في العراق — هاورى جمال
- قصة حفر الأنفال الضائعة (حوار) — اجراه: عبدالله كريم

(الأنفال) عنوان سورة قرآنية, جعله صدام حسـين عـام 1988 عنوانـاً لجريمة شيطانية, استهدفت ابادة شعب كردستان و تطهيره عرقيـا, و الـتي راح ضحيتها عشرات الآلاف دفنوا في الصحراء, كمـا احرقـت خلالهـا الاف القرى و القصبات الكردية, و الهدف من فتح هـذا الملـف الـذي نأمـل ان يتواصل في الأعداد القادمة, اطلاع القاريء العربي على جانـب مـن هـذا المشهد المأساوي الذي لم يتسن له الاطلاع عليه في حينه بسبب سياسـات النظـام التمويهيـة و التضـليلية في طمـس الحقـائق و حجبهـا عـن عيـون العراقيين و العالم.

تذكر القسوة

كنعان مكية*

اعتقدت, حتى وقت قريب, ان (الانفال) اسم لسورة قرآنية. عندما اطلق صدام حسين عملية عسكرية ضخمة في جنوب العراق حزيران/ يونيو 1991, مطلقا عليها ايضاً اسماً شفرياً هو (الأنفال), لم يكن لدى أي منا, نحن العراقيين الذين اندفعنا في كل الأمكنة لإيصال الخبر الى وسائل الإعلام, أية فكرة عن المعنى الضمني الكامل لإختياره تلك العبارة, هرب اللاجئون من إنتقام النظام في اعقاب عمليات الثأر التي تلت إنتفاضة آذار/ مارس 1991 الفاشلة, ودمرت مجمعات سكنية بأكملها مع كل الجوار في مدن جنوبية طوال أسابيع كان كل ذكر شيعي يفوق عمره الإثنتي عشرة سنة معرضا للإعدام بالرصاص داخل مقابر جماعية بالجرافات. كل تلامذة الفقه الذين استطاع النظام إلقاء القبض عليهم اعدموا. أناس مثل ابي حيدر هم من الذين فروا هاربين من كل ذلك, لكنهم, اذ لم يستطعوا الفرار من البلاد لجأوا الى منطقة الأهوار ما بين دجلة والفرات في جنوب العراق. في حزيران/ يونيو بدأ الجيش حصاره لهم وقطع عنهم المواد الغذائية والوقود والأدوية. وفقط عبر تذكر استعادي للأحداث, استطعت ان ادرك ان تلك ليست الا استعادة للسابقة الكردية الرهيبة في 1988.

سوف يستمر البشر مناقشة مسألة جوهر الحقيقة حتى نهاية الازمنة. لكنه لن يكون هناك أي نقاش حول ماهية القسوة. منذ الآن فصاعدا ستحمل عبارة (الانفال)إلى الأبد ولدى كل عربي, معنى جديدا اعطاه حزب البعث العراقي وهو: الإبادة الجماعية المقررة رسمياً فى العام 1988, لما لا يقل عن مئة الف كردي.

وهذا المعنى الجديد هو بداية اعتراف بمسؤولية ما جرى في 1988 فلن يكون ثمة مستقبل طبيعي للعراق من دون ذلك الإعتراف. الماضى لا يزول هكذا كأن لم يكن, ينبغي مواجهته قبل ان يوضع جانبا.

ان بلدا وثقافة خبرا تجربة كالأنفال, او عاشه كل العراقيين في تجربة العام 1991 لا يمكن ان يعودا اطلاقا إلى الحياة (كما كانت من قبل). هل باستطاعة تيمور ان يعود مجرد طفل كردي صغير ثانية؟ تذكارات ما جرى في 1988و1991 ليست الا بعضا من الميراث الضخم المرير الذي تركه صدام حسين, هذا الميراث الذي سيعيش معه الشعب العراقي زمنا طويلا بعد ذهابه.

لكن من هو المسؤول عما جرى في 1988؟

لم اعرف بشأن عمليات الأنفال حتى تشرين الثاني/ 1991 هل يعني هذا انني لست مسؤولا؟ كان العالم يعرف بالتأكيد, في الأقل منذ 1975, انه كان يجري اعادة توطين الكرد. عدد كبير من الناس كان يعرف ان المئات ان لم نقل الآلاف من القرى ازيلت من الوجود. كانت الأنفال هي الذروة المنطقية جدا للوحشية المتصاعدة التي كانت تمارس منذ سنوات داخل العراق, وبمعرفة تامة من جميع الحكومات الغربية والمثقفين العرب: الأولى سلحت الطاغية والآخرون (المثقفون) دعموه سياسيا.والآن, مست الوحشية الجميع.

المسؤولية عن الموتى الكرد في الأنفال تتعدى النظام البعثي في بغداد. هل يعني هذا أن كل عراقي عربي مسؤول ايضا؟ ومن جهة أخرى, هناك عدد كبير من الكرد ما كان ليلاقي حتفه لو لم يسقه كرد آخرون إلى خارج قراه ويذهب به إلى حتفه. هل يعني هذا ان الكرد مسؤولون ايضا؟

إن كل عربي مسؤول؟ كتبت ملايين الكلمات والسطور عن تدمير مئات من القرى الفلسطينية ابان قيام دولة إسرائيل. وهذا أمر محق إلا أنه العديد من المثقفين الذين كتبوا تلك الكلمات, اختاروا الصمت عندما تعلق الامر بازالة آلاف القرى الكردية من قبل دولة عربية. يبدو اننا لا نعرف الا الأمور التي نريد معرفتها.

ربما تقع المسؤولية ايضا على الحكومات المتحالفة التي دمرت العراق لإجبار صدام حسين على الخروج من الكويت. العديد من العراقيين يتذكرون انه في الماضي, في العام 1988, كان صدام حسين صديق الجميع, جورج بوش, الذي كان آنذاك نائب رئيس الولايات المتحدة, تدخل شخصيا لمصلحة نظام البعث في مناسبات عديدة, لجعل بلاده (ترجح) كفة العراق خلال الحرب العراقية الإيرانية(1). إنهم يذكرون تلك الأيام غير البعيدة يذكرون بأية طريقة جرت الحرب في الخليج, ويرون ان صدام ترك في السلطة ليشفي غضبه دماراً و خراباً بشعبه, وقالوا: هل كان رئيس الولايات المتحدة قد تلقى معلومات استخباراتية بشأن عمليات الأنفال, وهل تجاهل عمدا تلك المعلومات واستخباراته؟(2).

في ذات يوم, اعتقد اننا سوف نعثر على قبور جماعية من ذلك النوع الذي وصفه تيمور, في الصحراء غربي السماوة قرب السعودية. وقد حدث بالصدفة انه بينما كانت تسحق الإنتفاضة العراقية في آذار/مارس 1991, كانت القوات المتحالفة تعسكر بين السماوة والحدود العراقية- السعودية, وربما

بالضبط فوق تلك القبور وتشاهد حدوث تلك المذبحة هل كان احد يعرف في اروقة السلطة في واشنطن، فوق ماذا يجلس جنودهم؟

تتذكر حرب الخليج

الحرب جحيم, لكن ليست كل الحروب جحيماً من النوع نفسه. لقد تبين ان الطريقة التي انهت الولايات المتحدة حرب الخليج اشد اذى لشعب العراق, وقد اوقعت ضحايا يفوق عددهاما قد توقعه حرب مباشرة. مع بداية صيف 1991 كان العراق قد تحول من بلد معاصر يمتلك جهازاً طبياً متطوراً, وشبكات مياه ومجارير, ونظام طاقة كهربائية, إلى (أحد اكثر بلدان العالم فقراً) كان هذا استنتاج فريق دراسة عالمي مؤلف من 87 باحثاً اكاديمياً ومختصاً. لقد زاروا العراق في ايلول/ سيبتمبر 1991 ليدرسوا تأثير الحرب عموماً على صحة المدنيين ورفاههم(3). كان ما يزيد عن نصف عدد السكان مازالوا معرضين للتلوث بالمجاري, اذ اختلطت اوساخها بمياه الشفة التي كانوا يشربونها طوال الأشهر السبعة التي اعقبت وقف إطلاق النار. ثلث أطفال العراق كانوا يعانون من سوء التغذية, وارتفعت اسعار المواد الغذائية بين 1500و 2000 بالمئة فيما تدنت قيمة الأجور ما دون الـ 7 بالمئة قياساً لما قبل الحرب. الأمراض المنتقلة بالماء, تضاعفت مئة مرة ومنها التيفيوئيد والأمراض المعوية والكوليرا, وكثرت إلتهابات الكبد وانتشر مرض إلتهاب السحايا في جنوب العراق, وانبعثت في كل مكان امراض لم تعد مالوفة مثل شلل الأطفال والحصبة والكزا(4).

أبان حرب الخليج, وعلى الرغم من الـ 120 الف طلعة التي قامت بها طائرات التحالف, لم يكن التدمير والأضرار التي لحقت بالمناطق السكنية واسعاً وشاملاً.ولم يجر البتة مايمكن ان ندعوه بحملة قصف جوي عشوائي نموذجية. كذلك لم يكن عدد الضحايا المدنيين مساوياً لما يمكن ان يتوقعه المرء من حملة بتلك الضخامة, ان عدد الموتى المدنيين يتراوح بين 3 آلاف و 5 آلاف(5). والتقديرات المتعلقة بعدد الجنود العراقيين الذين قتلوا في المعارك تراوح مابين 30 الفاً ومئة الف قتيل, لكن ثمة إجماعا متزايداً على ان تلك الأرقام تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل نحو الأقل(6).

بيث دابونت ديموغرافية تعمل في مكتب الإحصاءات السكانية الرسمية في الولايات المتحدة, تقدر انه سقط 53 الف قتيل بسبب الحرب مباشرة في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير, مقابل 105 آلاف عراقي قتلوا بنتيجة الإنتفاضة ضد صدام حسين وبنتيجة امراض وبائية شائعة, وامراض منقولة بالماء, نتجت عن الدمار الحربي لبنية التحتية للبلاد(7) هربا إلى الجبال بعد فشل الإنتفاضة فخلال الهجرة الجماعية التأريخية لأكثر من مليوني كردي-اغلبيتهم الساحقة من الأحداث- كانوا يموتون بمعدل يتراوح بين 450 و 750 يومياً بسبب الإسهال والأمراض التنفسية المعوية والمبرحة, والجروح. وفي المجموع مات بين 25 الفاً و

30 الف كردي(8). غير أن الشيعة العراقيين تكبدوا القسط الأعظم من إنتقام صدام حسين بعد انتهاء الحرب, ولا احد يعرف كم من عشرات الآلاف قتل منهم.

الطابع المتطور تكونولبوجيا للحرب استطاع انهاء وجود العراق كدولة حديثة بعد بضع ساعات على بدء المعركة. وطن بأكمله ترك (ميت الدماغ), بحسب وصف ريتشارد ريد من صندوق الأمم المتحدة للأطفال. قال إن (بغداد بدت مدينة غير مخدوشة بشكل أساسي, وجسداً لم يمس جلده بشكل جوهري, فيما كل عظمة اساسية فيه محطمة وكل مفاصله واوتاره مقطوعة)(9). فريق دراسات من هارفرد زار احدى عشرة مدينة وبلدة عراقية رئيسة من 27 نيسان/ ابريل حتى 6 أيار/ مايو استنتج التالي (على الرغم من ان قصف التحالف الجوي قد الحق خسائر قليلة نسبياً بين السكان المدنيين. الا أن تدمير البنية التحتية نتجت عنه عواقب طويلة الأمد ومدمرة على الصعيد الصحي. نعتبر عادة ان الضحايا المدنيين هم فقط الذين قتلوا كنتيجة مباشرة لإصابتهم خلال الحرب, غير أن هذا التفسير بحاجة إلى إعادة نظر)(10).

إن الضحايا الحقيقيين للبراعة التكنولوجية الأميركية كانوا اطفال العراق. توصلت دراسة معمقة قامت بها مدرسة هارفرد للصحة, وكانت ارتكزت على دراسة عينة سكانية من 16.076 طفلاً عراقياً. الى أن (نسبة وفيات الأطفال ازدادت ثلاثة اضعاف في الاقل بنتيجة حرب الخليج, والإنتفاضة المدنية التي تلتها واستمرار العقوبات الاقتصادية، هذه الزيادة تتطابق مع زيادة تبلغ 46897 من الوفيات بين الاطفال العراقيين الذين تقل اعمارهم عن الخمس سنوات ما بين كانون الثاني/ وآب/ اغسطس 1991,(11)). دراسة اخرى ركزت على مدينة البصرة. حيث يعيش حوالى الـ 175 ألف طفل, واستنتجت من خلال عينة سكانية تتألف من 723 طفلاً, كانت الأغلبية بينهم تتراوح اعمارهم بين يوم واحدو 36 شهراً, ان 8 بالمئة كانوا بحكم (المصابين بالهزال) طبياً و24 بالمئة (متوقفين عن النمو) كلياً, و 2 بالمئة (يعانون اشكالاً معتدلة او من سوء التغذية)(12). تلك الدراسات تثبت ان الرابط بين حرب الخليج و امراض الأطفال وفياتهم كانت اقوى في شمال العراق و جنوبه منها في المناطق الوسطية اليوم وبكلام آخر, مات نسبياً عدد اكبر من من الأطفال الكرد و الشيعة كنتيجة مباشرة للقرار الأمريكي باستهداف محطات الطاقة في البلاد, ومن ثم التنصل من العراق وتركها من دون إصلاح. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط ككل, يقدر رسميون من الأمم المتحدة ان يقارب الخمسة ملايين معرضون لخطر أن يقضوا سنوات تكوينهم في ظروف عدم نتيجة لحرب الخليج. (نستطيع ان نتحدث بثقة مرعبة و خطيرة عن جيل ضائع). هذا ما قاله ريتشارد ريد(13).

تأثيرات حرب الخليج سوف تبقى داخل اولئك الأطفال الذين نجوا من القصف الجوي, وإنتقام النظام, وكوارث الامراض وسوء التغذية. عالمان

نفسيان كانا من بين اعضاء, فريق الابحاث الدولي الآنف الذكر, وهما متخصصان في مجال صدمات الاطفال النفسية, اجريا مقابلات مستفيضة مع 214 طفلاً عراقياً في اعمار الصفوف الابتدائية, وتوصلا الى استنتاج مذهل وهو ان الصدمة النفسية التي يعيشها اطفال العراق من جراء الحرب, تفوق أية صدمة تعرض لها الاطفال من جراء الحروب عبر التأريخ). كما اكتشفا مستويات من الحصر النفسي والقلق. والضغط النفسي, والسلوك المرضي لم يسبق لها مثيل عبر سنوات ابحاثهما الميدانية فقد تراوحت الاعراض التي وصفاها في تقريرهما مابين)(الكآبه والخوف) و (الافتقار إلى الحياة). كان الاطفال مشوهين من الداخل بالكآبة والحزن والخوف المريع. ثمانون بالمئة من الذين اجريت معهم الاحاديث يعيشون خوفا يوميا من احتمال فقدان عائلاتهم بالموت او الإنفصال ثلثاهما تقريبا يعتقدون انهم لن يبقوا احياء حتى بلوغهم من النضوج وينتهي التقدير بالأستنتاج التالي: حتى في المناطق الاكثر تمزقا وتأثراً بالحرب في الموزامبيق, كان الاطفال لا يزالون يلعبون ويتصرفون كالأطفال. الأطفال في العراق ذكروا كاتبين بوصف (الموتى الاحياء) الذي ظهر بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما(14).

في اوائل خريف 1991, تلقيت رسالة من صديق قديم للعائلة, يدعى ابو علي (اسم مستعار), وهو رجل من جيل والدي كنت اجله واحترمه ايام المراهقة في العراق، رسالته تستعرض اليأس الذي استولى على جميع العراقيين طوال الاشهر التي تلت الحرب. ابو علي استطاع الخروج من بغداد مع عائلته وكان يكتب الي من عمان. كان قد علم للتو انني اعد وثيقة تحمل عنوان (ميثاق 91), وهي حملة جمع تواقيع بين العراقيين, غايتها الربط بين حقوق الإنسان وقيام تصور سياسي مبني على التسامح الديني والسياسي(15). نص الميثاق كان قد نشر في إحدى الصحف اليومية العربية المتوافرة في الاردن, وكان ابو علي يكتب ليوبخني على مثاليتي العديمة الفائدة, وعلى كوني غريباً عما يجري داخل العراق. تختصر رسالته, بلغة افضل مما يسعني ان ابتكر, اليأس والقنوط اللذين يشعر بهما العديد من العراقيين.

(عزيزي الاخ كنعان.. لا ادري هل يصل لك هذا الورق الازرق البريء, بعض ما احس به والقليل بما يضيق به قلبي من هموم مجتمعنا).

الذي اراه- واسمح لي بقول ذلك- ان آراء وافكار الابراج العاجية العالية التي صعدت للسموات حتى لم نعد نراها الا بالكاد او بمجرد السماع عنها واعتقد ان مجتمعنا اصبح اليوم مثل مجتمع (1984) وليس هناك من يتذكر او حتى ان يتجاسر بتذكر معاني كلمات "الحرية" و "الديمقراطية" و "الاخوة" و "الانسانية". ولم يعودوا يعرفوا ما هي (حقوق الانسان) وما له وما عليهم صار واجبهم اليوم ان يصفقوا ويهتفوا للأخ الأكبر Big Brother: بالروح... بالدم... نفديك يا صدام)...

وصار همهم اليوم ان يعيشوا.. مجرد ان يعيشوا كالأغنام.. ومجرد ان يحافظوا على رؤوسهم قائمة على اكتافهم.. او ان يملأوا بعض بطونهم الجائعة ليبقوا احياء..او ان يحافظوا على القليل الذي لديهم خوفا من سرقته من قبل جلاوزة الحزب او شرطته او الجائعين المشردين.. او ان يحافظوا على السنتهم خوفا من ان تصدر كلمات لا يرتضها امن صدام او مخابراتهم وتأخذ بهم الى المشنقة...

اسمع لي يا كنعان... فهل تتوقع من مثل هذا الفرد ان يثور. نعم ثار البعض ولكن الاسباب قومية او اقليمية او طائفية.. ثم لحق بهم المتذمرون.. ومن ثم ماذا كانت نتيجة ثورتهم فالذين قتلوا في الثوار ضعف من قتلوا في حرب الخليج..

وبعد ذلك عوملوا هم و عائلاتهم واملاكهم و ممتلكاتهم.. بل حتى مقدساتهم اسوأ معاملة وبأقسى اسلوب ولا يكاد ان يصدق.. فهل تتوقع بعد ذلك ان يثور الشعب وهناك حرس جمهوري وامن وحماية ومخابرات نزعت منهم كل القيم الانسانية واصبحوا وحوشا لا رحمة في قلوبهم لطفل او شيخ او امراة او مريض او عالم او... او... وليس هناك من يحاسبهم (ولا اقول يعاقبهم) على كل ما يقترفونه من اعمال وحشية انسانية.

وبعد كل هذا لنعود الى (ميثاق 91) والدعوة لجمهورية التسامح فهي موجهة لمن؟ للشعب العراقي؟..لا.. انها موجهة للمثقفين القابعين في ابراجهم العاجية في بلدان الحرية والنعيم والرخاء. وهم آمنون وليس هناك من مخابرات تراقبهم او تكمم افواههم... بل وتفكيرهم... كل ما لديهم هي هواية معارضة الحكم الديكتاتوري في العراق والتحريض على الثورة عليه... دون ان يرفع أي منهم ولا حجارة و برميها في وجه هذا الحكم... ويسمع (بعض) الناس في العراق اخبار هذه المعارضة.. وقد مل الناس.. انهم يريدون عملا.. انهم يريدون من ينقذهم من براثن هذا الجور الطاغي...

بعد كل هذا الا ترى ان الوضع في بلدنا الآن اصبح ميؤوساً منه؟... فالشعب العراقي كله بائس واصبح يلوم القوى الخارجية (و خصوصا امريكا) على ما يعانونه من بؤس وتسلط وجور و طغيان ويرفعون ايديهم الى السماء ذارعين ان يهدي الله امريكا او بوش أوايا من المدعين بالإنسانية والديموقراطية للانسان ان يأتوا لينقذوهم مما هم فيه من الآم).

حين يكتب في كتب التاريخ هذا النوع من الكلام الحقيقي والصادق الذي كتبه ابو علي سوف يتساءلون أي نوع من الحروب كانت تلك الحرب؟

* * *

في تموز/ يوليو 1991 تلقيت اتصالا هاتفياً من منتج تلفزيوني كان مهتما بانتاج برنامج فكرته انشاء نصب تذكاري لعملية (عاصفة الصحراء). كان قد رشح ان في مكان ما من واشنطن من يفكر باقامة نصب من هذا النوع لربما الكرة قد دغدغت مخيلة البيروقراطيين بعد ان قام المحافظ دايجيد فيكي باطلاق (ام الاستعراضات)في 10

حزيـران/ يونيـو بمدينـة نيـورك. حـوالى الخمسـة ملايين شـخص, وهـو اكبر حشـد اجتمـع في مناسـبة واحدة عبر تاريخ المدينة, اصطفوا علـى طـول ميـل من الطريق الممتدة بين حديقة بـاتيري پـارك وورث ستريت.

كانت تلك فرصة سانحة للمدينة, كي (تعـبر عـن إمتنانها لأولئـك الـذين ضحوا بأنفسهم ومـاتوا مـن اجل البلاد, وان تتباهى بـرجالها الجنود, على الـرغم من الأزمة المالية والركود الاقتصادي). كـان هـذا مـا كتبتـه صحيفة نيويـورك تـايمز مباركـة الاحتفال. هل كان في ذهن الكاتب اولئك الجنود الـ 146 الذين قتلوا في المعركة والعـددالاكبر مـنهم ذهـب (برصـاص صديق)؟ربما كان يجول في باله ما قاله جـورج بـوش في الاول من آذار/ مارس بعد يوم واحـد مـن اعلانـه وقـف اطـلاق النـار, وبعـد يـوم كامـل مـن بـدء الانتفاضة العراقيـة ضـد صـدام حسـين. قـال بـوش: (انه يوم فخر للأميركيين, وبحق الله لقد ركلنا عقدة فيتنام مرة والى الابد)[16]. السؤال بقي غير مطـروح وغير مجاب عليـه وسـط زخـات الاشـرطة الورقيـة و القصاصات الاحتفاليـة الـتي تكدسـت سميكـة, والـتي قـال عنهـا المقـال: (كانـت السـماء في بعـض الاحـايين تعتـم)[17].

ايـا كـان مطلـق فكـرة النصـب التـذكاري لحـرب الخليج, فان المنتج التلفزيوني كان يـدرك انها فكـرة حسـنة. كانـت تقـوم علـى اسـتباق النقـاش الـوطني الذي لابد ان ينشأ وتفريغه. كان قـد جـرى الاتصـال بعميـد كليـة يـال للهندسـة, وقـد ابـدى اسـتعداده لتنظيم تجربـة تصاميم بـين الطلاب تـتيح المجال لإختيـار مخططـات ورسـوم. وبعـد مناقشـة متلفـزة لتلك المخطوطات المفترضة, مفيدة لتركيز الانتباه الى المسائل الاخلاقية المرتبطة بـالأمر, وبطريقـة تعجـز لجنة واشنطن عن القيام بها. مايا لين الـتي صـممت نصب حرب ڤيتنـام التـذكاري, كانـت تلميـذة في يـال عنـدما فـازت بالمسـابقة الخاصـة بـذلك النصـب في 1981, و كــان علــى البرنــامج ان ينــاقش الآراء, المختلفة التي قامت حول انجازها العظيم, كما يتخذ في الوقت نفسه, كنقطة انطلاق لسلوك جيـل جديـد نحو نوع مختلف جداً من الحروب.

لسوء الحظ كانت تلك المكالمة التلفونيـة بـلا ايـة نتيجـة. غـير ان الفكـرة مـن ورائهـا تطـرح السـؤال التالي على الامريكي: ما الذي يستحق ان نحفظه في الذاكرة من حرب الخليج؟

نصـب حـرب ڤيتنـام التـذكاري حقـق غرضـه كونـه تحاشـى ذكـر الـروح الوطنيـة واكتفـى بـاعلان وفائـه للـذين قضـوا- فرديـا او جماعيـا- بوصـفهم القيمة الوحيدة الجـديرة بـرفع أي نـوع مـن النصـب لتذكار تلك الحرب بالتحديـد. جـدار لـين الغـرانيتي المعلق والخفيض المستدق الأطـراف, والمحفـورة عليـه اسماء الـ 58132 قتيلاً امريكياً يعـبر عـن شـعورين مترافقـين وهمـا خجـل الأمـة, وحنوهـا علـى اولئـك الذين فقدوا. ان واجهة النصب العاكسة تثير التأمـل, وتحول النظارة الى مشاركين متخـيلين, متـورطين في الحـرب الـتي يصـار الى تـذكرها كلائحـة بسيطة مـن الاسماء الافراديـة مرتبـة بحسب تـواريخ الايـام الـتي

ماتوا فيها. فضلاً عن لون النصب مغروزاً في الارض لا مرتفعا فوقها على نحوما تقف عادة النصب التذكارية التقليدية. كذلك اطلق على نصب لين التذكاري اسم (جرح العار البليغ) فيما الجدار الغرانيتي الاسود المنخفض والذي يتوجب الهبوط اليه يقف على طرف تناقض حاد مع المسلة الرخامية البيضاء لنصب واشنطن التذكاري. و هذا بكل تفصيل فيه, يصرخ ضد تمجيد الحرب, او تأليه القوة. في تلك النقطة تمكن بلاغته:

والآن لنفترض انه ينبغي اقامة نصب تذكاري لحرب الخليج, فعما ينبغي أن يعبر؟

افكر بكل اولئك العراقيين, امثال ابي حيدر وحميد, الذين انتفضوا ضد نظام البعث في آذار/ مارس 1991, ان رئيس الولايات المتحدة سمح لطاغية العراق الكبير بتقطيعهم اربا بمدافع اسلحته الرشاشة. لم يكن من المفترض ان يموت العديد منهم. افكر بكل مراكز الطاقة الكهربائية تلك التي كان بوسع فيالق الجيش الهندسة ان تعيد بسرعة تشغيلها بشكل مؤقت(كماجرى في الكويت). افكر بكل اولئك اللاجئين امثال مصطفى الذين ماتوا جزافاً بالأمراض وسوء التغذية. افكر بالعراقيين العاديين, مثل عمر, والذين يتعرضون بشكل روتيني لوحشية تفوق التصور. واخيرا وليس آخرا افكر بتلك الرسالة من عمان, المرسلة من شخص كان خسر, خسر, شأن جميع العراقيين في داخل البلاد, اهم شيء في الحياة بعد الحياة, واثمن مايمكن ان يملكه كائن بشري, الا وهو الأمل. إن الحقائق التي كتبها هي كلمات نقش ضريح الحرب التي لم تكتمل لجورج بوش.

ماكان ينبغي ان تنتهي الأمور على هذا النحو, وهذه الحقيقة توفر الإطار الاخلاقي المناسب الذي ينبغي ان تعمل من خلاله كل مايالين مستقبلية, مرسخة عبر فنها, ومن اجل الذاكرة الاميركية, هذا المعنى لحرب 1991 ضد العراق.

فحرب فيتنام وحرب الخليج مرتبطتان رتباطاً قابل للإنفصام في الضميرالشعبي الأمريكي, غير أن عدد القتلى بالكاد يكفي لإقامة نصب تذكاري لحرب الخليج. هناك فقط عدد ضخم من العراقيين. فان قرروا يوماً بناء نصب تذكاري لحرب الخليج في واشنطن, فان دعامته الاخلاقية لن تكون بعد الآن خجل الأمة, بل فقدانها الإحساس بالرحمة.

تذكر الأنفال

إن سنة 1988, سنة الانفال ينبغي ان تدخل كتب التأريخ العربية كمثال مميز عن وحشية تفوق الوصف. انها مميزة إلى درجة ان صدام حسين بالذات إختار ان يحفظ ذكراها. ازيح الستار عن (قوس نصر) في بغداد بمناسبة الذكرى الأولى لنهاية حرب العراق مع إيران, وصدق ايضاً انه في آب/ اغسطس 1988 كانت تجري (خاتمة الأنفال). كانت فكرة صدام إقامة قوس بعثي مواز في ارتفاعه لقوس النصر الفرنسي (ارك دو تريومف) (ارتفاعه 54 قدما) الواقع عند نهاية شارع الشانزيليزيه في باريس. كانت بطاقة الدعوة التي تدعو السفراء

الغربيين وشخصيات مرموقة من انحاء العالم إلى حفل الإفتتاح تصف نصب صدام التذكاري كـ (احد اضخم الاعمال الفنية في العالم) وفي ذلك النهار, عبر الرئيس تحت قوسه ممتطياً حصاناً ابيض هو الرمز العربي للنقاء والزهو الرجولي.

الحدث الاهم بشأن النصب والذي جاء بقصد رؤيته, هو كون رئيس العراق نفسه من تصور النصب لا كمجرد تصميم نظري, بل كرسم تخطيطي فعلي.لم يخطر في بال احد من قبل ان صدام حسين فناناً. كان نموذج النصب المصغر قد صب بقالبين من الجص لذراعي الرئيس بالذات, ثم جرى تكبيرهما إلى طول يقارب ال 54قدما. وهاتان الذراعان كانتا تنبعثان من الأرض مثل جذعي شجرة برونزيين وترتفعان حاملتين في كل قبضة سيفاً يبلغ طوله سته وستين قدماً. يتقاطع السيفان ليشكلا قمة القوس عند نقطة ترتفع ما يقارب الـ 130 قدما عن سطح الأرض, وكل من الذراعين مع القبضتين, مع الإطار الفولاذي الذي اثبتت فيه القبضة والذراع يزن 40 طنا, وكان كل من السيفين المصنوعين من الفولاذ غير القابل للصداى, يزن 24 طناً. وذلك الفولاذ, كما بطاقة الدعوة صيغ من اسلحة (الشهداء) انفسهم بعد صهرها وتذويبها. مخلفات من الحرب متمثلة بخمسة آلاف خوذة إيرانية حقيقية كانت قد جمعت من ارض المعركة وجمعت في شبكتين (2500 خوذة في كل شبكة). وهذان الكيسان المنتفخان تمزقا اربا عند القاعدة, لتنتشر الخوذات على الارض حول الذراعين المنبثقتين من الارض. ان تنظر إلى الخوذات عارفاً ان خدوشها وانبعاجاتها وثقوب الرصاص حقيقية, وان رؤوساً بشرية كانت بالتأكيد قد انفجرت داخلها, معرفة تخطف الأنفاس, كمثل معرفة ان ذينك الذراعين لم تكونا أي ذراعين بل نسختان عن ذراعي الرئيس بالذات, بأصغر تفاصيل نتوءاتها و خربشاتها.

تطرقت في مكان آخر الى الأساليب المتعددة التي يرمز فيها ابتكار صدام إلى عالم حزب البعث الذي انتجه, على اكمل وجه[18]. انه شنيع, ولكن ليس بطريقة عادية, انه شنيع بطريقة تخطف الأنفاس, وهو سوقي إلى درجة منقطعة النظير... خذلتني الكلمات آنذاك وها هي تخذلني الآن ايضاً قوس النصر المثبت في وسط المدينة التي ولدت فيها ونشأت, يتميز بخاصية من البشاعة منتشرة في كل تفصيل فيه, و هي تفوق بشاعة مطلق نصب عام آخر اعرفه, الا انها في النهاية غير قابلة للتفسير.

في مقابل ذلك فان نصب مصطفى العسكري التذكاري لما جرى في قرية غبطاية في 3 آيار/ مايو 1988, عادي بقدر ماهو نصب صدام حسين استثنائي[19]. انه عادي إلى درجة انه, كشكل غير مثير للإهتمام. قوسان اسمنتيان مثبتان على منصة عالية تبدو و كأنها إطار غير مكتمل لنزل مائل السطح. ليست هناك أية مرجعيات رمزية أو بصرية لتلك الظرف الإستثنائية والمريعة التي دفعت إلى انشاء ذلك الابتكار. هنا لا يوجد أي

(تناسق) ملفت بين الشكل المتجسد, والمقصود الرمزي, كما الحال و بوضوح في قوس نصر صدام حسين. غير اني اعتقد ان المدفن افلح في التعبير عما كان يريد مصطفى بناءه.

فما الذي يعنيه جثوث فوق تلة, كما فعل عبدالله في 3 أيار/ مايو, ومشاهدة الطائرات وهي تقصف قريتك بالأسلحة الكيميائية, ثم تعجل منحدراً إلى النهر الذي كنت عرفته طوال حياتك, لتجد كل اولادك امواتاً وأمك ممددة في المياه الضحلة وفمها (منكب على وحل الضفة)؟

اصطحبتكم معي في رحلة لنعيش مجدداً الم العراق. اني افكر بشكل منطقي الآن, غير اني لم اكن استطيع ذلك من قبل وانا هناك. مستمعاً إلى عبدالله وتيمور بداخل العراق, شعرت كما لو انني ادركت نقطة النهاية ولحظة إنزال الستارة, لينتهي كل شيء بعد ذلك إلى خاتمته المأساوية. وقسوة من هذا الصنف تهديد للمنطق. إنها تتحدى التأمل والتحليل[20]. لهذا ندير لها غالبا ظهورنا ونتحاشاها, لا بفعل إنعدام التعاطف, لكن إنطلاقاً من عجزنا تحت تأثيرها عن التواصل. القسوة تبعث على الصمت وتعدم الكلام. ربما لذلك السبب تولت كلمات الضحايا وضع نهاية كتابي هذا.

لكن أليس هنا, في محنة عبدالله ومعاناته, وفي لحظات عجزي عن الكلام ولد معنى ماكان قد قام به مصطفى؟ أليس هنا بالذات, حيثما تمت غلبة الحضارة على البربرية, نشأت فكرة النصب؟ العراقيون بناة نصب تذكارية عظماء..

او هكذا يحب المؤرخون ان يقولوا لنا, وفي الوسع ايضاً ان تجادل في ان فكرة النصب نفسها ولدت في بلاد ما بين النهرين القديمة. فهناك بدأ أول احتشاد لجنسنا داخل منشآت مدينة في مدن قديمة مثل سومر وبابل واريدو. وربما ترك ذلك التاريخ بصماته على قادة مثل صدام, وعراقيين عاديين مثل مصطفى.

عندما اقام مصطفى تلك المقبرة وبنى قوسيه, كان يفكر ويتصرف مثل اول بناء اسطوري في العالم, والذي شعر وشعرت, انه كان يتوجب عليه أو عليها إقامة معلم فوق ارضنا هذه- معلم لا غرض مادياً له كالالتجاء أو العمل أو البقاء.فالهندسة, بالمقارنة مع البناء. بدأت مع معالم من ذلك الصنف. ومصطفى يشبه ذاك المهندس الأول.

أما نحن الذين نتعاطى الكتابة والقراءة والكلام, نعاني احيانا من خطورة نسيان ينابيع الأحاسيس العميقة, وتعقيدات الأحاسيس- اكانت غريبة نافرة ام سامية, تلك التي تقوم في خلفية صنيع كمثل قوس نصر صدام حسين, او نصب مصطفى التذكاري. يمكن ان نكره تلك الأحاسيس او أن نعجب بها, فهذا لا علاقة له بالمسألة. ويمكن ان يقوم النصب وينجح بغض النظر عما كنا نحب او نكره ما يرمز إليه.

في مواجهة كل من نصبي مصطفى العسكري وصدام حسين, نجد انفسنا أمام نشأة الأشياء الأولى, متحسسين الحياة, الموت والشقف الخام في لحظاته الأشد حساسية, لنسبر اغوار المعاني في تلك الزوايا

القاتمة من الروح البشرية حيث تبدأ المعاني الجديدة. فالنصب التذكارية في جوهرها الأعمق, ومن خلال لا جدواها, اكثر من اشياء فنية جمالية, انها تمثل ذكريات قديمة و تضعنا بمواجهتها, ذكريات يمكن ان تكون مؤلة إلى حد تمزيق كل ما هنالك إربأ, ذكريات لا يمكن محوها, وينتهي بها الامر إلى تشكيل جوهر هوية الجماعة,. او اعدامه. وعلى الرغم من عاديته- او ربما حتى بسببها- فان نصب مصطفى التذكاري لوتى غبطابة يوضح للعراقيين من جميع المجموعات الاثنية, والقومية, والدينية, والطائفية, ان السؤال الوجودي الحقيقي بالنسبة اليهم لم يعد صدام حسين. بل هو كيفية بناء مستقبل لأنفسهم في ظروف يتوجب على الجميع فيها- عرباً, كرداً, شيعة وسنة- ان يواجهوا انواعاً مختلفة من ميراث الآلام القاسية.

و مرور الوقت يساعد كثيراً على محو البدايات الأولية التي كان لها التأثير الأكبر في مصطفى. إذ المعاني تتعرض للمسخ بدورها. ونزع القشور المتراكمة للمعاني امر بلا شك نموذجي رائع. فهناك لب تحت كل تلك القشور مصنوع في اقل المقادير من شيء بسيط الانبناء يفسر كيف جاء هذا الشيء إلى العالم ولن نستطيع البتة أن ندرك اعمال كل منهما لأنهما ببساطة شيئان بالغا التعقيد, مطموران بعمق في الأزمنة السحيقة.

هذه هي الحال مع نصب قديمة مثل الاهرامات و (ابو الهول). غير أن البحث عن ذلك اللب, وعلى الرغم من الوقت الذي يمضي و يضع المشكلة في منظورها المناسب. فالمفارقة في كل من النصبين- نصب صدام حسين ونصب مصطفى العسكري- واللذين يحيي كلاهما ذكرى أحداث جرت في 1988, هي في أنه لم ينقض وقت قليل على إنشائهما. إن الإنعدام في المسافة الزمنية هذا هو دليل ساع على تأرجح العراق الآن على شفا مخاطر جديدة, مخاطر لم تعد تنبعث من شخص صدام حسين او نظامه.

فميراث صدام حسين سوف يبقى طويلاً حتى بعد غيابه عن الساحة. إن هاجمت أي امرئ لكونه كردياً او شيعياً فان رد الفعل سيكون مزيداً من التأكيد على أن هذا هو الأمر الذي يهاجم المرء من اجله. إن هجمات من هذا النوع خلال سنوات الحرب في اوروبا سيست الوعي الذاتي اليهودي وزادته إرهاقاً وسهلت قيام دولة اسرائيل سنة 1948 ثم جرى تأصيل الهوية الفلسطينية كردة فعل على انكار الصهيونية العنيف لها. والمغزى من وراء قصة خليل أن الهوية الكويتية, والتي لم يعرها أي منا الإنتباه في الماضي (بمن فينا خليل بالذات), باتت موجودة لتبقى ابداً.

إذن, ما الذي سيحل بالعراق غداً؟. إن القومية الكردية هي اقوي واشد عدوانية الآن مما كانت في وقت مضي, وقد الهبت نارها الإدراك المتعاظم لما قامت به دولة عربية ضد الشعب الكردي. وقد يختار غداً العديد من الكرد الإنفصال وإقامة دولتهم الخاصة, وهذا فيما الكراهية المتبادلة بين السنة

والشيعة هي اليوم المنبع المحتمل والأشد سماً للعنف الجديد.

هذه القوى هي ميراث صدام حسين لكل العراقيين. والسؤال المطروح هو هل يمتلك العراقيون من الحكمة يجعلهم يحولون ذلك الميراث إلى قوة جمع واعادة بناء بدل ان ينصب في عنف افظع.

إن ماهية النصب تكمن في مصيره. ما الذي سنفعله اذا في مواجهة واقع نصب مصطفى التذكاري لم يكتمل حتى بعد إنشائه, بينما جرى إفتتاح نصب صدام فى صيف 1989؟ بحسب مجلة (نيوزويك) ان قوس النصر قدر له النجاة من حرب الخليج, بعدما قام وزير الدفاع الأميركي بشطبه عن لائحة البنتاغون للأهداف المقترحة في بغداد (21). ربما لم يكن ريتشارد تشيني يريد أن ينظر اليه وكأنه يشن حرباً على الثقافة العراقية. فتدمير مصانع توليد الطاقة الكهربائية في البلاد بدا امراً عادلاً, غير أن تدمير مأثرة صدام حسين للفنون البصرية لم يكن كذلك. اظنها ملاحظة مناسبة على نتائج حرب الخليج, لكن السؤال الاهم هو: هل سينجو قوس النصر من غضب الشعب العراقي عندما يحل, اخيراً, يوم حسابات الطاغية؟ أو هل سيظهر آخرون كثيرون مثل مصطفى؟

لا احد يعرف الاجوبة عن هذه الأسئلة. ولكن باستطاعتنا في الأقل ان نتخذ موقفاً من القضايا المرتبطة بها. يمكننا في الأقل تقديم رأي أو حكم. فهل ينبغي أن يحطم نصب صدام حسين التذكاري يوم الإطاحةبه؟ وهل ينبغي ان يتبع العراقيون مثال مصطفى؟

ليس في المقدور استئصال الماضي بالسهولة نفسها التي نستأصل فيها نصباً تذكارياً. إنه يترك آثاراً ينبغي مواجهتها. و أهمية العام 1988 سوف تكبر مع الوقت فيما تتضح بشكل افضل رؤية شاملة لما قد حدث أمام عدد اكبر من العراقيين. انها سنة سوف يذكرها أناس مختلفون ولأسباب مختلفة.

لقد استمر حكم حزب البعث اكثر من أي حكم آخر في تأريخ العراق الحديث. ما فعلوه وطريقة حكمهم امور لن يدركها النسيان ابداً, فهي, مثل سيف ديموقليتس, سيبقى سيفا صدام معلقين طويلين فوق كل العراقيين. حتى لو مات الطاغية, سيظل الشعب العراقي مجبراً على المرور من تحت ذينك السيفين اتقاء لجبروته. ثمة تذكارات لا يستطع الناس الوقوف امامها غير مروعين فاقدي القدرة على النطق. وإن كان قوس نصر صدام حسين هو الأخير بين مجموعة من النصب التذكارية العراقية- تلك التي شيدت في الثمانينات وغيرت معالم بغداد كلياً فلنأمل أن يكون نصب مصطفى, الأول في جنس جديد من النصب العراقية التذكارية, وان بناءها يمكن أن يبدأ يوم اطاحة الطاغية بالذات.

هل ثمة دروس يستخلصها العراقيون من عمل مايالين العظيم المهيمن بالحزن على الذاكرة؟ ليس في مقدور أي نصب تذكاري يقام لذكرى حرب الخليج في واشنطن ان يطغى على عملها, وذلك

لسبب بسيط ما كنت قلته سابقا, وهو انه لم يقتل أي اميركي على يد عراقي. بيد ان الحرب كشفت الستار عن العراق للمرة الأولى, وأتاحت لنا أن نعرف اموراً مثل المئة ألف قتيل أو ما يدانيهم في عمليات الأنفال, و3500 قرية مثل غبطابة.

دعنا نفترض أن نظاماً جديداً سوف يحل محل هذا الذي يتعفن ببطء ويهترئ في بغداد. ولنفترض أن ذلك النظام الجديد سوف يقوم على نوع من الحكمة المستعدة للاعتراف بما ارتكب بحق الشعب الكردي في العراق. دعنا نفترض أن القيام بإنشاء نصب تذكاري وطني في وسط بغداد, يكون وسيلة صغيرة لإعلان ذلك الإعتراف. عندها يصير لا مفر من ضرورة البحث والتنقيب عن اسماء كل قتلى الأنفال والقرى التي كانوا اتوا منها. إنهم معنى النصب وغايته. كيف يمكن أن يكون شكل نصب تذكاري كهذا لضحايا الأنفال في 1988 وفي عمق بغداد؟ أين ينبغي أن يوضع؟ من أي المصادر ينبغي أن يستقي جيل الفنانين العراقيين الجديد إلهامه؟

اني استمتع بفكرة تقوم بالكامل على الافتراض وحده, وهي ان يقام النصب التذكاري الجديد تماماً في جوار قوس نصر صدام حسين الذي لا ينبغي أن يحطم وأن يبنى النصب الجديد بروحية عمل مايالين العظيم في العاصمة الأميركية واشنطن.

العراق إلى أين؟

يهوى العراقيون أن يتخيلوا السلام والأمن مثل حمامة عظيمة بيضاء ستهبط عليهم في يوم من الأيام. ولكن هل ستفعل؟ هذا هو السؤال الرئيسي للسياسة العراقية الآن, ولا شيء يضاهيه في الاهمية. فحزب البعث وصدام حسين اصبحا بالتأكيد ينتميان للماضي, وهما في طريقهما إلى الخروج والإنتهاء. ولكن ماذا سيأتي من بعد؟ لا ينبغي أن يفترض اي عراقي ان الأمور لا يمكن أن تزداد سوأ. أنا لا اقول إنها ستصبح كذلك بالضرورة. ولكن ذلك يمكن أن يحصل. فكل شيء يتوقف على ما سيستخلص العراقيون من قوى الذاكرة المخيفة, والتي تسعى على الدوام إلى زرع أسنان التنين في هيئات الأطفال والناجين من موتهم.

بدأت فكرة هذا الكتاب بقصد وضع تأريخ شفوي للإنتفاضة, وهي حدث يمكن اعتباره بمثابة تمرين إختياري لعراق المستقبل. كان اعد وصمم لمناهضة سجل تأييد صدام المعيب من قبل المثقفين العرب والرأي لعام خلال أزمة الخليج (1). غير أني تخليت عن تلك الفكرة. كانت مصادري من هنا وهناك. لكن الناس كانوا ما يزالون خائفين, والبعض الآخر لم يكن صريحا الى درجة كافية. عندها ومجدداً وجدت نفسي اميل إلى المادة الموثقة. و اهم من كل ذلك, استطعت أن ادرك من حيث كنت قد وصلت في الأقل, ان الإنتفاضة ظاهرة معقدة جداً ومشحونة سياسياً إلى درجة يصعب هضمها منطقياً في تلك المرحلة: شعب بأكمله قد ذاق طعم الحرية, وفي الوقت نفسه كانت ذروة جديدة من القسوة البشرية قد سطرت لتضاف إلى سجل التأريخ. وبمنطق فولاذي, بدت الإنتفاضة التي تضامنت كليا لتضاف

كمرآة للطغيان التي سعت جاهدة لتخليص العراق منه. وانفتح جحيم من جهنم بشرية- قتل, وغدر وخيانة, وجرائم انتقام, ونهب, وكراهية, وابادة جماعية, وعبث بالمقدسات وتدنيسها- وكل ذلك ترافق مع افعال من التضحيات بالذات, والشجاعة, ومراعاة الغير, والتعاطف, وهي من انقى ما يمكن أن يكون في الفصل الذي يحمل عنوان (ابو حيدر) حاولت ان اكتب ذلك كله, مدركا حقيقة أن السرد الأول لما جرى في العراق ما بعد الحرب سيكون حتماً ناقصاً إلا ان الأمر الأكيد في مطلق الأحوال, أن موازنة حسنات انتفاضة ابي حيدر بسيئاتها, وكيف تلقاها العرب الاخرون, تظهر لنا: إن ربع قرن من الإنحطاط السياسي والأخلاقي ارعب الكثير من القلوب العربية. و مجرد الكتابة عن ذلك كله سوف يحرقني.

إن استثنينا التصرفات الفردية, فان كلاً من المجموعات تصرفت بأقصى ما يمكن من انانية عند البشر. الثوار الشيعة في الجنوب قتلوا فردياً من اجل الإنتقام وباسم الإسلام, بينما قتل البعثيون جماعياً من اجل البقاء والإستمرار باسم العروبة. اما سنة الطبقات الوسطى البغدادية المثقفة, والذين كان يمكنهم التمييز بين الأمور, فلم يؤدوا هذا الدور. بل انهم جلسوا على حدة وجعلوا يتشدقون بتبريرات طائفية متعصبة جديدة نشرها النظام, او بتبريرات قومية قديمة نشر بعض ابرز الصحافيين والكتاب المعارضين في العالم العربي. الكرد لم يثقوا البتة بمطلق شخص, وعلى الأخص بحلفائهم الشيعة في الجنوب (وكان الشعور متبادل) قدم لهم الغرب ملاذاً آمناً, وبدأوا التفاوض مع صدام, غير آبهين بالجميع وبالطبع لم يثقوا البتة بالإيرانيين.

أود لو التقي مناضلاً سياسياً كردياً عراقياً لايؤمن بأن الإيرانيين كذابون بالفطرة. المنظمات الكردية والشيعية اجبرت رغماً عنها على العمل معاً تحت الوصاية الإيرانية اثناء استفحال حرب الخليج, إلا أن معظم العراقيين يدركون تورط الإيرانيين في كل ما هو مرتبط بالشؤون العراقية هو بمثابة (قبلة الموت) في حين يقر معظم العراقيين ان صدام هو من بدأ حرب الثماني سنوات مع ايران، يشعر الجميع وبحق ان الخميني هو من جعلها تستمر, مزوداً اياها بالوقود الى الأبد بواسطة الطينة الخاصة لتعصبه. قد يكون تقياً, قد يكون روحاً ورعة تخاف الله, وغير قابلة للفساد, لكنه كان كذلك روحاً قاسية, بالغة القسوة ارسل جيلاً بكامله من الشبان الإيرانيين إلى حتفه بلا ضرورة، فقسوة الخميني وقسوة صدام حسين هي ما يهم في النهاية. كلاهما خلف ندوباً نفسية عميقة يلزمها اجيال بأكملها لتندمل.

في وقت سابق كنت دعوت بالبطل ضابط الجيش الذي اعتلي برج الدبابة في ساحة سعد ومزق حاجز الخوف في العراق. لقد قدم لكل العراقيين بمن فيهم أنا نفسي, إحتمال مستقبل. في 8آذار/مارس 1991, بجامعة هارفرد استطاع كاتب ومؤلف (جمهورية الخوف)أن يظهر أمام الجمهور نتيجة لما كان- بدأه ذلك الرجل- لنسميه ابا حيدر- بالبصرة في 28 شباط/ فبراير.مذ ذاك تعدلت حياتي, وحياة كل

العراقيين كلياً. فالعراقيون اليوم يتكلمون ويلتقون ويكتبون وينظمون ويصدرون صحفاً (اكثر من خمسين منذ الانتفاضة).؟ لكن ابا حيدر فتح ايضاً صندوق باندورا, وهو صندوق كان ينبغي أن يفتح إن قدر عراق أن يكون له أي مستقبل. لكن أي نوع من المستقبل؟ فاذا ما نظر اليه من خلال الحرب العراقية- الإيرانية, وحرب الخليج, وانتفاضة آذار/ مارس 1991, فان مستقبل العراق يتوقف على جواب السؤال الأساسي والضمني المطروح في فصل (ابو حيدر) وربما حتى في كامل القسم الأول من هذا الكتاب: من هو أبو حيدر؟ وبخصوص تلك المسألة, هل يعرف حتى أبو حيدر بالذات من هو؟

أبو حيدر ذاك الذي كنت اجريت حديثاً معه في خان لندن, والذي اجرى على قصته الفصل الثاني, كان في السابق بعثياً (الى أن قتل صدام افراداً من عائلتي). بدأ صدام التقتيل بأبناء الكثير من العائلات الشيعية بعد 1979. عند ذاك بدأ إضطهاد اكثرية الـ 55 بالمئة وما فوق من السكان يصبح القضية الرئيسة في السياسة العراقية. ففي أواخر السبعينيات, وبشكل متكافئ مع نمو الوعي الشيعي الذاتي في العقد السابق (والذي كان بالطبع مقموعاً), بدأت الحكومة العراقية تطرد مئات الآلاف من الشيعة العراقيين إلى إيران بحجة أنهم (من أصل ايراني) وغير موالين. بقية الشيعة استخدموا في ماكينة الحرب العراقية- الإيراني, حيث بقوا, حاربوا وماتوا بأعداد ضخمة. امر طبيعي أن يفقد أبو حيدر كل اوهامه السابقة بمشاريع حزب البعث العربية الشاملة والموهومة. لقد خاب أمله بالسياسة الإيدولوجية, وحارب الإيرانيين طوال ثماني سنوات لأنه رجل محترف ولأن الحرب كانت الأمر الذي تدرب كجندي على القيام به, غير أنهم تابعوا يطردون ويقتلون اصدقاءه واقرباءه ويسوقونهم إلى القتال في حروب بلا معنى. وقد تعلم شيئاً فشيئاً أن يكره اولئك المتسببين بكل آلامه. كان عليه ان يتحول إلى مكان آخر بحثاً عن تفسير ما تولد افكار جديدة داخل حزب البعث العراقي, وبدأ له ان المعيار الاكثر جوهرية لهوية المجموعة والولاء الذي ان تركه- إسلامه وشيعيته- كانا الهدفين الأساسين لحملات صدام حسين. لم يذهب ابعد من ذلك, اذ لم يستطع الذهاب. فالميزة الإسلامية الشيعية المتشددة للإنتفاضة في جنوب العراق يمكن تفسيرها إنطلاقاً من اعتبارات اولية كهذه.

المشكلة هي في ان غرائز أبي حيدر السياسية تقوم على الأحاسيس, وليس على فهم تأريخي واسع الأفق لماهية حزب البعث كابتكار سياسي عربي حديث و على عكس ما يميل العديد من العراقيين إلى الاعتقاد به حاليا, فان حزب البعث لم يقم البتة دولة سنية طائفية في العراق, (دولة منظمة مؤسسانية على أساس الطوائف كالدولة اللبنانية). ولم يقيموا كذلك حكماً معارضاً ايديولوجيا للشيعية في حد ذاتها. الذي جعلهم يعتقدون ذلك أساسه الخطأ الشائع القائم على تفسير الآلام الحاضرة بأسباب ووقائع جرت في الماضي. والباعث على السخرية أن حزب البعث لو أقام دولة طائفية

في العراق, لما كانت الأمور سيئة إلى هذا الحد الذي يعيشه حالياً الشيعة في العراق. عندما كانت الشيعية ستحظى بنوع نظام انطلاقاً من واقع تميزها عن السنية أو الكردية أو المسيحية, عن (الآخر)الذي قد جرى الاعتراف به بطريقة أو بأخرى, ولو بشكل غير عادل.

هكذا كانت تجري الامور ابان سيطرة الامبراطورية العثمانية, وهكذا جرت في لبنان. غير ان الأمور لم تجر على هذا المنوال في العراق. فحزب البعث قتل من الكرد اكثر مما سبق لاي كان أن فعل. غير أنه لا يمكن القول إن حزب البعث معاد ايديولوجياً للكرد, كماهم النازيون, على سبيل المثال, معادون للسامية. لاشيء اهم بالنسبة لمستقبل العراق من تفهم واضح جداً لماضيه. فالدولة التي بناها حزب البعث في العراق. اسوأ بكثير من دولة تقام على مقاييس طائفية واثنية خالصة. انها اسوأ لأنها تساوي بشكل ثابت في عدائها بين كل ماهو غيرها. وحزب البعث يطلب ملحاً من كل العراقيين إنسجاماً مطلقاً مع نظرته المشحونة بالعنف والتآمرية لعالم هو في حرب مستديمة مع نفسه (2). يخترع صدام حسين ويعيد إختراع أعدائه من مادة الجماهير البشرية الواقعة تحت تصرفه وينمو ويزدهر في الإرتياب, والشك, والتآمرية التي يزرعها عملياً في أذهان الجميع, و يسعى إلى إشاعة الكره والعطش إلى الثار في قلوب السنة والشيعة على حد سواء. فنتيجة للهجمات التي يتعرض لها من كل النواحي, إنهار المجتمع المدني عملياً العراق. كل عراقي- كردي أو عربي سني أو شيعي- جعله حزب البعث مشاركاً في مشروعة وتحول في نفسه إلى ضحية كل عراقي اصبح يحمل في اعماقه علاقات الضحية. واطلاقاً من تلك الظروف فان لجوء ابي حيدر البائس إلى اسلامه او شيعيته (أو كذلك لجوء العراقيين الآخرين إلى العصبية السنية, أو القومية الكردية) ليس تفسيراً, ولا حلاً لمأزق البلاد, إنه الملاذ الأخير, وبرهان على الانهيار الاجتماعي التام الذي وصلت إليه الأمور داخل العراق.

في شكل النظام الذي اقامه حزب البعث في العراق, عانى الكرد أكثر من سواهم لا لمجرد انهم كرد, بل لأنهم قاوموا وناضلوا بشراسة. وما ان بدأ الشيعة يصرون على حقوقهم حتى اصبحوا كالكرد يهاجمون على أساس انهم شيعة, غير ان هناك ايضاً اخصاماً للنظام من الآشوريين والمسيحيين, والتركمانيين والسنة, وكل اولئك عانوا بالتساوي مع أي شيعي أو كردي. بين ربيع 1987 وشباط/ فبراير 1988 دمرت الحكومة العراقية 31 قرية آشورية. بما في ذلك 25 ديراً وكنيسة(3). و واقع أن العراقيين يتنافسون الآن مع بعضهم البعض على من منهم تكبد معاناة اكبر, دليل على أنه, بغض النظر عن وجود صدام أو عدم وجوده, فان ما يمثله يعيش داخل كل القلوب العراقية. وها تكمن الخطورة الأعظم التي تهدد مستقبل البلاد.

إن الاشباح الصادرة عن هذا التوحش كله- كثائر الميليشيا على سبيل المثال الذي عاش في إيران طوال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته, والمرشد

الكردي الذي قاتل مع صدام ضد عائلته بالذات- تلك الاشباح سوف تعود باستمرار لتسرح فوق العراق. فجمهورية ايران الإسلامية انشأت حزب الله العراقي التابع لها, وهو منظمة شقيقة لأخرى في لبنان, ويجري تسريب العديد من مقاتليها إلى الداخل الآن, اثناء كتابتي هذه السطور. وفي الوقت نفسه تمنع الحكومة الأيرانية المجموعات المعارضة المستقلة- إسلامية وغير إسلامية- من الدخول الى النصف الجنوبي المحاصر من البلاد, بالإضافة إلى الصحافة الأجنبية ومنظمات الإسعاف الدولية.

الله, والمال.. والدول المجاورة القريبة هي الثالوث الفعال والقوي في سياسة الشرق الأوسط. ولكن مع إيران أو من دونها فان شبانا جهلة, ويائسين ربيبي سلاح, مثل ثاثر, يعيشون تحت وطأة ظرف تهجير لجوء بائسة, من المرجح أن يصبحوا فاعلين كرجال حرب عصابات مأجورين, يقاتلون تحت لواء الإسلام.

عندما انتفض ابو حيدر في آذار/ مارس 1991, انضم ثوار شبان مثل ثائر إلى الإنتفاضة, حاملين معهم إحساسهم بكونهم ضحايا على شكل ضرب من الإسلام ضار وحقود, ساع إلى الإنتقام, ومتعصب بعمق ومسلحين بهذه المشاعر، اندفعوا في ثورة قتل، وضعضعوا الانتفاضة، منفرين اولئك الذين كان من الممكن أن يقدموا لهم الدعم, واولئك الذين كانوا بحاجة إلى دعمهم. بروحية (أم حسين)من البصرة اتساءل: أي نوع من الإسلام هو هذا؟ ليس هذا الإسلام, انه الصورة المعكوسة للنظام البعثي. كل العراقيين يدفعون اليوم ثمن فشل انتفاضة آذار/ مارس 1991 ولكن هذه المرة, بات الشيعة يدفعون اكثر من كل الآخرين. كان الشيعة العراقيون يعتقدون انهم خبروا الآلام, لكنهم لم يعرفوا خلال تأريخهم الحديث بأكمله آلاماً كهذه.

لقد استخدمت في قمع الانتفاضة درجة من العنف لم تستخدم سابقا الا ضد الكرد. و بات نوع جديد من الحرب المذهبية العنيفة والصريحة, التي تستهدف الاشخاص لمجرد كونهم من الشيعة, جزءاً لا يتجزأ من ارث صدام. وبذلك فان ما هو على المحك اليوم, هو ضعف النظام بعد حرب الخليج, لا قوته. والفرصة الوحيدة امام البعض للتشبث بالسلطة في حصن بغداد, كان إضرام الكراهية بين الشيعة والسنة, ونجاح هذه الاستراتيجية لا يعود الى ان الامريكيين لم يدعموا الانتفاضة (وهم لم يفعلوا ذلك بالطبع), و باتاكيد لا يعود الى انهم ارادوا فعيا ان يستمر صدام في السلطة (كانوا يفضلون ان يستبدل برجل ما قوي من الجيش, او من داخل الدائرة البعثية). ونجاح استراتيجية صدام في زرع الطائفية بين العراقيين, لا يعود ايضاً الى سلاحه وعتاده المتفوق, بل السبب الوحيد هو فشل القيادة السياسية الشيعية.

فالمشكلة انه ينبغي أن يتحدث احد ما باسم كل العراقيين, لكن شيعة العراق مرتبكون. ابو حيدر مرتبك. بات كالعديد من العرب الآخرين ان يبدأ التفكير بشكل اكثر جدية من الماضي, ولكنه لا يزال يجهل من هو.. او حتى من يريد أن يكون هل هو عربي؟ هل هو عراقي؟ هل شيعي؟ شيعي عراقي قومي, أو ربما مجرد مسلم من العالم؟ وإن كان تركيب

كل هذه الاشياء منها ستكون له الأولية في نظرته السياسية لنفسه؟ الأهم من كل شي اين سنجد إنسانيتنا المشتركة (على شكل حقوق الجميع المتساوية) مكانها المناسب؟

ان الإجابة عن هذه الأسئلة سوف تحدد حتى إن كان الجيل العراقي الجديد سيحظى بمستقبل ام لا في الأقل أي نوع من المستقبل. فلم يعد صدام حسين المسألة الرئيسية في السياسة العراقية, غير أن ارثه هو كذلك, وسوف تبقى المسألة الرئيسية طوال سنوات قادمة.

يراوح الشيعة العراقيون حالياً على حافة اهم الاسئلة التي واجهتهم طوال تاريخهم وهو: ماذا يمثلون سياسياً؟ ومن هم؟ فطوال معظم تاريخهم تحاشى الشيعة العراقيون ذلك السؤال بدأوا يتحاشونه منذ مصرع الحسين وأتباعه وحيدين في سهل كربلاء عام 680 بعد الميلاد, اذ لم يدافع عنه من دعوه لأن يكون حاكمهم (وهو امر سارع الخميني الذي لم يكن مترفعاً البتة عن التزمن الإيراني, لاستغلاله خلال الحرب العراقية- الإيرانية)(4). واندمجت الشيعية العراقية بعمق مع تلك اللحظة المأساوية لنشأتها مع اعتبارها انها ولدت في لحظة اخفاق, لحظة تحييها سنوياً في احتفالات حداد تعرف (بالتعزية), وهي مرتبطة بذلك الحدث التأريخي الشديد الاهمية. في هذا تتميز الشيعية العراقية عن نظيرتها الإيرانية, بكونها لم تحكم نفسها بنفسها البتة, ولم تعرف سوى لغة المعارضة والرفض.. والواقع أن الشيعية العراقية لم تأخذ البتة مسألة الحكم على محمل الجد, وحتى على الصعيد الفردي فان الشيعية ينفرون تقليدياً من كل ما يمت إلى الحكم بصلة. انهم يتحاشون الخدمة العسكرية ويحجمون عن الانخراط في وظائف الدولة العامة ومصالحها. وما أن تلوح لهم نصف فرصة حتى يؤثروا أن يصيروا تجاراً, متخصصين مستقلين, وثواراً, ومصلحين وصوفيين وفنانين وليس البتة رجال دولة او دبلوماسيين. والمجموعات العراقية الإسلامية المعارضة المختلفة السبع عشرة- ومعظمها شيعية في الأساس في تركيباتها وروحيتها لم تضع كلها أية نظرية سياسية واضحة للحكم في العراق. وهذا يعني بالتالي, انه اذا كان ابو حيدر لا يعرف إلى الآن إن كان مسلماأو عربياً, او عراقياً, فهو أيضاً لايعرف إلى الآن من يريد أن يحكمه- رجال الدين, أو العلمانيون او السياسيون المحترفون. ومن جديد, باسم من سوف يحكم هؤلاء المجهولون: باسم الله, او الشعب او اتحاد الاثنين معاً؟ وفوق أية مقاطعة؟ كل هذه الاسئلة لا تزال من دون اجابة بين الشيعية حالياً, حتى فيما النظام ببغداد يتأكل ببطء ويعيش بالتأكيد آخر أيامه.

والى ان اختارت ثورة الخميني الإسلامية الحكم الجمهوري في ايران, كان العديد من المناضلين العراقيين الإسلاميين لا يزالون يتحدثون عن اعادة تأسيس الخلافة الأسلامية. لقد ترك في الواقع كل ما هو مهم للسياسة مشرعاً على كل الإحتمالات داخل الحركة الإسلامية العراقية- وهي صيغة

ممهـــدة لكارثـــة اشـــد بالنســـبة إلى مســـتقبل الديمقراطيـة. فجميـع العـراقيين يفكـرون اليـوم بالديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان, غـير أن الحركـة الإسـلامية تأريخيـا, كانـت تشـكلت مـن السـتينيات وحتـــى منتصـــف الثمانينيـــات علـــى فكـــرة أن الديموقراطيـة سـلعة غربيـة وغريبـة عـن الإسـلام, ومعظم الأحزاب العراقية الإسلامية قضى السنوات العشـر معتـبرا نفسـه جـزءاً مـن الحركـة الإسـلامية العالميـة الـتي تشـكل إيـران مركزهـا. إنهـم اليـوم مستاؤون جداً مـن ذلـك, غـير انهـم لا يملكـون شـيئاً آخر لوضعه في مكانه. ويوماً بعديوم يتضح لهم ان القـوة الإيرانيـة لا تسـتخدم مطلقـاً لأمـر يتعلـق بالمصلحة العراقية. فقد عومل اللاجئون العراقيون الشيعة, والمناضلون الإسلاميون, بشكل مقيت داخل ايران بدأ من آواخـر السـبعينيات. أمـن العجب إذا ان يشـعر ابـو حيـدر بالضـياع؟ ومـا يهـب هـذه المواضـيع تلـك الأهميـة المتقـدة هـو واقـع أساسـي جديـد لامفـر منـه في السياسـة العراقيـة: فشـيعة العـراق هـم وحـدهم في موضـع مـن يسـتطيع منـع صدام انتزاع النصر من فكي موتـه بالـذات, وذلـك من خلال تصعيد العنف الطائفي والإثني لسنوات وســنوات. وانطلاقــاً مــن اكثــريتهم العدديــة, يتحملـون مسـؤولية تأريخيـة تجـاه المسـتقبل وهـي اكـبر مـن مسـؤولية ايـة مجموعـة اخـرى اثنيـة او طائفيــة في العــراق. صــحيح ان مواهــب سياســية عربيـاً شـرعت تظهـر في صـفوفهم لكـن علـى رغـم ذلك لم يثبت أي سياسي شيعي متبرعم بعد جدارة الاجابة عن هذه الإسئلة. فـالأكثر ليبراليـة بيـنهم, يتحـدثون عـن رغبتـه في تقسـيم الـبلاد الى ثلاثـة اجـزاء ويتـذمرون في الوقـت نفسـه مـن ان وسـائل الإعلام الغربية تهـتم إلى درجـة كـبيرة بـالكرد(5). بعــض المفكــرين المنفــردين مــن داخــل الحركــة الإسلامية يقومون بعمل هام محاولين المواءمة بـين الإفكـــار الغربيـــة عـــن الديموقراطيـــة والخطـــاب الأسـلامي (6), غـير أن الاغلبيـة تنـوء تحـت اثقـال المعتقـدات وهـي مشوشـة الأفكـار كليـاً فيمـا يتعلـق بمعظم الاسئلة البديهية في السياسة.

(البشـر يتمتعـون بحقـوق بسـبب كـونهم بشـراً ولـيس لأي سـبب آخـر). هـذه تظهـر كبنـد أول في ميثـاق 91 بعـض افضـل العناصـر في المعارضـة العراقيـة الديموقراطيـة, وهـم شـيعيون ليبراليـون خرجـوا مـن صـفوف المعارضـة الإسـلامية, وجـدوا انفسهم عـاجزين عـن الموافقـة علـى الحجـر الأسـاس هذا في أي سياسة قائمة على حقوق الإنسان. بكلام آخر, انهم يجدون انفسهم غير قادرين على أن تشمل الحقوق الجميع دونما استثناء, بصرف النظر عـن أي اعتبـار آخـر. هـل للمرتـد حقـوق؟ أو هـل ترتفـع الصيغة الإنسانية فوق ارادة الله؟

وتشـير الـدلائل إلى أن الشـيعة قـد تـأذوا كـثيراً نتيجة مأساتهم الخاصة, إلى درجة أن قـدرتهم على التفكير والتصرف كعراقيين بات في تضاؤل مستمر. عندما تستأصل احاسيس مـن هـذا النـوع كل فكر عقلاني, كما هـي الحال بـين العديـد مـن العـراقيين الشيعة حاليـاً, فـان التعصـب ومعـه العنـف هـو مـا

سينتج في المستقبل. كل الكلام عن حقوق الإنسان, الذي هو موضة رائجة بين العراقيين حالياً, يمكن أن ينحى بسرعة إلى حافة الطريق, ويمكن أن يتحول بسهولة إلى لا شيء سوى دعاية رخيصة لفكرة عالمية جبارة, ولأهداف لا يتعدى الغرض منها جذب انتباه الغرب. (كما تعرف انهم اعضاء الهيئة التشريعية الأمريكية) يحبون هذه الكلمات (حقوق الانسان). هكذا قال لي مناضل شيعي يدير منظمة لحقوق الإنسان في الغرب. إن بذور كارثة تقع على العراق تكمن في هذا النوع من الرياء.

لنفترض أن أبا حيدر قرر أن تكون ولاءاته الأولية لجمهورية إسلامية-مهما كانت مجلببة بحشو كلام ديموقراطي. فذلك القرار سوف يتطلب مواجهة واقع أن السنة العرب تستحوذ عليهم حالياً برحاء الخوف من مجرد ذكر أي شيء يتعلق بالإسلام السياسي. ويشكو باستمرار الجيل الجديد الصاعد من السياسيين الشيعة العراقيين من مبالغة الغرب بمسألة التهديد الشيعي (الاسلامي) في العراق وهذا من واقع اصداء الثورة الإيرانية والخمينية في العقول الغربية, لكن الأمر الوحيد الذي لا يتحدث عنه هؤلاء السياسيون بالذات هو المخاوف المشروعة الحقيقية لدى السنة العراقيين. فما الذي سيراود السني العراقي عندما يرى انه حتى اكثر المثقفين الشيعة ليبرالية يشاركون في اعادة كتابة تأريخ العراق الحديث على نحو يقصد منه (اثبات) أن كل سياسي سني معاصر كان في سره طائفياً؟ حتى اني سمعت اقوالاً من نوع أن كامل الجادرجي, وهو السياسي الديموقراطي الكبير, كان طائفياً.احد اشهر الكتاب السياسيين الشيعة المعاصرين, وكان يعمل سابقا وكيلا للإعلام في الحكومة العراقية, قال لي في تشرين الأول/ أكتوبر 1992, أ الشيعة هم (شعب العراق الحقيقي), فيما السنة هم مجرد طائفة تطفلت وفرضت بالقسر على البلاد. واضاف انه لم يعرف البتة سنياً لم يكن في اعماقه طائفياً. برأيي الشخصي, ليس هذا نسخ معكوسة عن معدل التفكير البعثي).

والمخاوف السنية مما قد يفعله بهم الشيعة العراقيون إن وصلت إلى السلطة قائمة على اساس اعمق بكثير من افتراضات بعض القادة الغربيين الساذجة, وهي لاعلاقه لها بالإسلام كإسلام إلا بقدر ما ان تبني الشيعة لإسلام السياسي ستكون له عواقب على حرية المعتقد الديني. ليس المعتقد ما هو على المحك في الصراع المستقبلي بين المجموعتين السنية والشيعية في العراق, بل البقاء والإستمرار. وبعد رحيل صدام سوف تصبح حياة الناس وحياة اعزائهم وكأنما على وضم الجزار, وستصبح مخاوف السنة من إحتمال ما يمكن أن يفعله الشيعة بهم باسم الإسلام قوة رئيسية في السياسة العراقية. وكلما عمل الشيعة العراقيون على فرض وتأكيد هويتهم الشيعية, ازدادت في المقابل نزعة الاقلية السنية العراقية إلى ان تقاوم وبعنف, وحتى النهاية, كل مايكن ان يشي بقيام جمهورية إسلامية في العراق. إنهم يرون في دولة كهذه- بغض

النظر عما اذا كان ما يرونه صواباً او خطأ- إلغاء لجودهم, وفي ذلك سوف يدعمهم الكرد (هذا إن لم يكن قد اصبحت لديهم دولتهم الخاصة عند ذلك الوقت).

إن معادلات كاذبة مثل (كلنا مسلمون), لن تعني شيئاً, كما لم يعن شعار منظمة التحرير الفلسطينية (فلسطين ديموقراطية علمانية). أي شيء للاسرائليين.

المشكلة ليست مع الإسلام بذاته اكثر مما هي مع الوحدة العربية كفكرة طيبة ستتحقق في وقت ما في المستقبل. وقد يستطيع الإيرانيون والجزائيريون وربما المصريون ايضاً أن يستنبطوا ديموقراطية دولة إسلامية, لسبب بسيط هو ان الشعب يمكنه, بالرحمة, أن يصبح لينا قابلاً للتكيف حتى حيال معتقداته العزيزة جداً عليه.

والنقطة الأساسية هي ان الأوضاع العراقية بشكل خاص تقصي الخيار الإسلامي هناك. فالعراق اقل تجانساً من تلك البلدان التي ذكرتها, وقد سبق أن دمره هذا النوع او ذاك من (سياسة العقيدة) (البعثية تقوم ايديولوجياً على فكرة الإيمان إيماناً اعمى ومطلقاً بالعروبة). كما أن نظاماً جديداً غير عنيف لن يبنى بالتأكيد على نمط جديد من هذه السياسة(7).

إن الدول البوليسية والإرهابية لابد ان تقوم بعيد نجاح السكان في ان ينقلوا إلى مركز الحياة العامة, ما يتمسكون به ويعتبرون اعز ما لديهم, أي جوهر نظامهم المعتقدي. واذا اصر شيعة العراق على وضع الشيعية في المرتبة الأولى فسيستنزف ذلك جيلاً آخر في العراق. واشارات التحذير هي منذ الآن علينا.

دعوني اقدم اليكم مثالاً من تجربة مؤلمة وشخصية. عندما سافرت إلى شمال العراق في تشرين الثاني/ نوفمبر 1991 لمقابلة الفتى الناجي (تيمور), وتقصي ملفات الشرطة السرية التي كان استولى عليها الكرد خلال الإنتفاضة, واجهتني الشكوك التي يبديها الشيعة المقيمون في الغرب. فمن بين اكثر اعضاء المعارضة العراقية تنوراً من تذمر قائلاً: (لماذا لاتكتب عما فعله صدام بأبناء جلدتك شيعة العراق؟ إننا نتعذب ايضاً). عدت من زيارتي لأسمع تدفقاً مستمراً من الشكاوي, في اوروبا والولايات المتحدة, بأنني تخليت عن (القضية العراقية)أو (القضية الشيعية) من اجل (لقضية الكردية). وسأل الآشوريون. (ماذا بشأننا؟ نحن كنا ضحايا عمليات الأنفال ايضاً).ولا يزال عراقيون من كل الأنواع يثيرون تلك المسألة معي بطريقة ماكرة أو بأخرى, وبعد انقضاء سنة كاملة عرض شبكة تلفزيون البي بي سي الفيلم الوثائقي عن حملة الإبادة الجماعية الرسمية تلك. المشكلة في العراق في ان الجميع كان ضحية, ومعظم الناس, وبوجه اخص الأكثرية الشيعية, لا تعرف سوى التفكير والتصرف كضحية.

لقد انتشر على نطاق فردي بين العراقيين السنة المقيمين في لندن, أن كنعان مكية يقوم بتشكيل تحالف جديد من فقهاء الشيعة وزعماء القبائل الكردية, واعتبروا انه هم هدفه الأساسي. واكثر من ذلك, قد اتضح جلياً انه يعمل بالخفاء مع الأمير كيين (على

الرغم من ان اولئك الاشخاص بالذات كانوا يعتقدون ايضاً أن الولايات المتحدة تريد أن يبقى صدام في السلطة). وفي النهاية عندما نقلت الوثائق العراقية التي كان استحوذ عليها الكرد إلى مكان آمن في الغرب, عبر جهود قامت بها منظمة (هيومان رايتز واتش) التابعة لمنظمة حقوق الإنسان, عارض بعض القوميين الكرد أن يعمل مكية عليها, على الرغم من جهوده التي كان يقوم بها لكشف عمليات الأنفال وإعلانها للعيان. كانوا يريدون, لأسباب سياسية, شخصاً اميركياً, لا عراقياً مثلهم, كي يخبر ماذا حل بهم, وهكذا توضحت كل التباسات المناورة تلك.

هذه هي المادة البشرية المجروحة التي سينبثق منها ويتشكل النظام الجديد. فكل من سم الطائفية السنية- الشيعية, والعداوة العربية- الكردية, يكفي بمفرده لقتل العراق, وهما يعملان اليوم سوية على تمزيق البلاد. وتقسيمها قد اصبح الآن قائماً فعلياً في قلوب العراقيين قبل أن ينفذ على الأرض وتدفع ثمنه اعداد جديدة وكبيرة منه. فلم يعد أي عراقي محصنا بل الجميع باتوا معوقين. والانفعالات القومية والطائفية الخبيثة متفشية الآن في العراق اكثر من أي وقت مضى. إنها القوى الموجهة للتغيير, حتى لو كانت افضل عناصر المعارضة العراقية تدعي غير ذلك فالى أين سنصل نحن العراقيين إن كان هذا منطلقنا؟

دعونا نبدأ من حقيقة أن الجميع تواطأ وقبل بتسوية مذلة مع الديكتاتورية (بغض النظر عما اذا كان ذلك بمحض ارادته ام لا), وان الذين بقيت اكفهم نظيفة من الداخل او الخارج ليسوا كثيرين. فتلك الملفات الاستخباراتية السرية التي نقلت الى الغرب, تكشف كيف ان العديد من الكرد وبدرجات متفاوتة, كانوا متورطين في ما حل بكرد آخرين سنة 1988ــ والسنة والشيعة, بدورهم, كانوا ممثلين في كل اجهزة الدولة العراقية, وفي الجيش, البوليس, والاستخبارات, اما قصة عمر (الفصل الثالث), فهي قصة عربي وشى به كردي, وحقق معه سني واستجوبه شيعي. فالمنافسة على احتكار صفة (الضحية) طريق لا تؤدي إلا الى الكارثة. ربما ان طبيعة النظام في بغداد كانت من النوع الذي يترك الجميع مع حسابات عالقة, فربما كان من الافضل تسوية بعض منها بحسب ما تجيزه الطبيعة الإنسانية والسياسيون من ذوي الحكمة(8).

ان عفوا عاما شاملا واسع النظرة والأفق هو السبيل الأوحد لرد حصاد الدم الهائل بعد سقوط النظام.

والاعتراف الهام الثاني, هو ادراك الشيعة العراقيين- وهم الذين تقع على عاتقهم وبشكل اساسي مسؤولية مستقبل العراق- ان مخاوف السنة صحيحة ومشروعة. وينبغي على الجيل الجديد من القادة العراقيين ان يواجه سياسياً تلك المخاوف بصفتها ذروة الأوليات وينبغي كذلك ايجاد صيغ في الحكم تؤمن ضمانات صارمة ضد (طغيان الاكثرية). فحياة الآلاف من العراقيين في المستقبل سوف تتوقف على الجدية التي ستقوم عليها تلك الضمانات. وتقع على الشيعة مسؤولية سياسية

اخلاقية, تلزمهم ادراك تلك الصيغ. فلا يستطيع الا ان يتوقع القيادة من اقلية تشعر منذ البداية بأنها في موقف دفاع عن الذات انها محاصرة, فيما الجميع يشير إليها باصبع اللوم ولإتهام.

ان تفكك العراق والمزيد من الفوضى واراقة الدم اللذين سيحلان في ما بد صدام, سيعودان بدرجة رئيسية إلى فشل القيادة الشيعة السياسية في الارتفاع الى مستوى تلك الفرصة التأريخية, والمسؤوليات التي تفرضها عليها جماعته بالذات.

اما ثالث اكبر المهمات التي ينبغي ان تأخذها على عاتقها معارضة عراقية مسؤولة فهي اعتناق الفدرالية كحل للمسألة الكردية, وضمن اطار دولة عراقية موحدة، وقد اتخذت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه في لقاء صلاح الدين شمال العراق بين 27و 31 تشرين الأول/ اوكتوبر 1992, عندما التقت مختلف منظمات المعارضة العراقية, تحت مظلة المؤتمر الوطني العراقي. وكنت قد منحت إمتياز حضور ذلك اللقاء التاريخي, والتوجه إلى المؤتمر الوطني العراقي. وكنت قد منحت إمتياز حضور ذلك اللقاء التاريخي, والتوجه إلى المؤتمر لطرح هذه المسألة بالذات, فالفدرالية ليست تنازلاً نمن نحن العرب على الكرد به, إنها السبيل الوحيد للحفاظ على وحدة العراق. وكردستان العراقي عاشت تجربة خاصة بعد نهاية حرب الخليج, ليس فقط من غير الجائز التراجع عنها, بل ينبغي أن يبنى على اساسها مستقبل العراق.

لقد قامت ثورة فعلية فوق 20 بالمئة من الارض العراقية منذ حرب الخليج. وجاءت بشكل انتخابات شملت 20 بالمئة من الشعب العراقي, وبرلمان كردي فاعل إلى حدما. كانت تلك انتفاضة من دون شعارات حربية طنانة, وسياسات راديكالية رفضية. فاما ان نعمم تلك التجربة لتشمل كل العراق, أو نخسرها كلياً, ونتقدم بمنطق التقسيم. وحين يسود ذلك المنطق الرهيب فانه, كما اتوقع, لن يتوقف عن متابعة طريقة لينتهي الأمر بأن يقتل العرب العرب, ويقتل الشيعة إخوانهم الشيعة, وحتى الكرد سوف ينقلبون ضد بعضهم البعض. فذلك البلد التعيس المدعو العراق, الذي ورثناه مع تقسيمات الامبراطورية العثمانية, قد لا يكون بالشيء الهام, ولكن المجازر التي رافقت تمزق بعض الدول (الهند سنة 1947 ويوغوسلافيا منذ سنة 1991) اظهرت انه يمكن أن يكون افضل الف مرة من بدائله المطروحة.

فما من مرارة أو فكرة او عقيدة أو دين أو معتقد أو إله, يستحق أن يدافع عنه إن كان ذلك يستلزم القضاء على حياة عراقية اخرى. واذا اراد الكرد, بالرغم من كل شيء, دولة خاصة بهم, بعد فشل محاولات اقناعهم بأن هذا الاختيار قد لا يكون افضل لمصلحتهم, فسيكون امراً ملزماً على كل العراقيين أن يناصروهم كلياً, ويتمنوا لهم النجاح في المغامرة العظيمة الجديدة لبناء دولة.إن تلك الطريقة بالذات محفوفة بالمخاطر, وأنا شخصياً اتمنى بالتأكيد أن لا يختار الشعب الكردي

احتيازها اقول هذا ليس فقط من اجلهم, ولكن لأني اعرف ان ذهابهم خسارة لي. ولسوء الحظ, ان ذلك الاختيار بالذات ليس متوافراً لشيعة العراق وسنته. وهنا تكمن بالذات مشاكل المستقبل الحقيقية.

إن هاتين المجموعتين الطائفيتين, متمازجتان متوائمتان في العراق, واتحادهما غير قابل للإنفصال, ان كان هنالك اتحاد اصلاً. فاما أن يتقاتلا ويقتل قطيع منهما القطيع الآخر, وينتصر بهذا كلياً عليه! أو أن يجد سبيلاً للعيش معا وليس هناك اي خيار ثالث. لقد بدأ يربكني, وانا أراجع احداث الإنتفاضة ومما تبعها من دموية, ادراكي لطبيعة الإرث الذي حمل حزب البعث العراق اعباءه. وجدت ان التأثير المتراكم للقصص يفوق طاقة الإحتمال, وهو يعدم كل منطق ويهددني حتى في سلامتي العقلية. تلك التجربة الشخصية غير المباشرة سوف تتكرر غداً داخل العراق وبشكل اضخم,. وذلك عندما تكشف فظائع الماضي, حتى لو كانت تتبعها فظائع جديدة اضافية, وعندها يمكن أن يتحول شيئاً فشيئاً إدراك الجميع إلى لامبالاة جماعية. فالقدرة على إمتلاك أي نوع من الشعور تجاه مخلوق بشري آخر قابلة هي الأخرى لأن تموت. إلا انه ينبغي فتح صندوق باندورا, وعراقيون مثل أبي حيدر امتلكوا مايكفي من الشجاعة للقيام بالخطوة الأولى.

هذا هو فحوى ما جرى في آذار/ مارس1991 (إلى أي درجة ستتسع في المستقبل فتحة صندوق باندورا؟) إن من سيقرر هذا هو الحكمة السياسية عند الجيل الجديد من الزعماء السياسيين في العراق. وكل شيء يتوقف عليهم. فالتشاؤم بشأن مستقبل العراق, فضلاً عن حقيقة أن العراقيين يملكون الآن ولأول مرة احتمال مستقبل, هما كلاهما إرث انتفاضة ابي حيدر.

كتب إليوت: (ماذا كان يمكن أن يكون وماذا جرى حقاً, يشيران إلى نهاية واحدة هي دائماً حاضرة) (9). وانتفاضة آذار/ مارس 1991 في العراق, إن جرت دراستها بصدق, ومن دون ممنوعات ومعوقات, ومن دون مراعاة لشعور أحد, هي اشبه بعدسة تلوح خلالها وتطوف اشباح من الماضي, فيما خيارات المستقبل يمكن بالكاد رؤيتها. لقد تعبت من النظر عبر تلك العدسة. ربما لانني لم أعد قادراً أو راغباً في تحمل كل ذلك القدر من الواقع. اذا سوف ادع حميد, الشاب النجفي غير الطائفي الذي استشهدت به في الفصل الثاني لينهي رحلة القسوة هذه.

(نحن فى العراق ليس لدينا مستقبل. عمري 28 سنة. حياتي انتهت. لكن ربما لن يعاني اولادي مثلما عانيت. اني احب ولدي الصغيرين- الصبي عمره سنتان وعمر الفتاة سبعة اشهر فقط. حين اشعر باليأس اقول للصبي (ربما عندما تكبر ستقاتل في حرب ضد سوريا أو الاردن. الكلمات الوحيدة التي يعرفها هي (ماما) (بابا)و (صدام).

لست اعرف ما الذي سأفعله. ربما سأذهب إلى الأردن لأجد عملاً هناك. علي أن ارتدي الثياب نفسها كل يوم لأن القميص يكلف الآن 30 ديناراً. لم

نـذق طعـم اللحـم منـذ شـهر. إننـا نحلـم بأطعمـة مختلفة, غير أننا لا نستطيع أن نأكلها. معظم المال الذي اكسبه ندفعه ثمناً لحليب الطفلة, فثمن العلبـة

العمـر والـتي اقودهـا الآن. عنـدما ابتعتهـا رحـت اقودها, في البدايـة, بـين اربـع ساعات وسـت يوميـاً, والآن اقودهـا بـين الثمـاني سـاعات والعشـر يوميـاً. احلــم بــالتوقف عــن التــدخين لأن العلبــة تكلــف دينارين, أنا الآن ادخن اكثر.

احب المسرحيات الإنكليزية والشعر. إنها تجعلني سعيداً. اصبحت مولعاً بها بعدما درست الإنكليزيـة في المركز البريطاني ببغداد. احب مسرحية شكسبير (الليلة الثانية عشرة): إن كانت الموسيقى هـي طعـام الحب. هيا اعزف) اظن أن القراءة ثورة, انها تجعلنا نفكر ونتساءل. لكن في صفوف المدرسة, كـان علـي أن اقـرأ قصـائد تمجـد صـدام, وكـان علـى التلامـذة أن يحفظوها غيباً. كان ينبغي أن تكون مواضع الإنشاء الـتي يكتبونهـا عـن امـور مثـل تمجيـد صـدام. لقـد قتلوا التفكير الحر. لماذا ينبغي أن يـدرس تلامـذتي؟ انهـم ينظـرون إلى –110 دنـانير في الشـهر واقـود سيارة تاكسي خلال الصيف- ويخالجهم: (سوف أخرج من المدرسة, واتوجه تواً إلى الجندية).

إن مسرحيتي المفضلة هي (موت بـائع متجـول) لأن ويلي لومـان بطل المسـرحية يتمسك بأحلامـه ويضـحي بنفسـه مـن اجـل اولاده. احـب مسـرحية (بانتظار غودو) ايضا, اني اقرأها لأمي. غودو يمثل الأمـل. مـن أيـن ومتـى سـيأتي؟ لسـنا نعـرف. لكـن غودو سيأتي. ليس في مقدورنا وحدنا أن نفعل أي

يبلغ 15 ديناراً. اضطررنا إلى بيع مجوهرات زوجتي لنشتري سيارة التاكسي تلك البالغة عشر سنوات مـن

شي. على ويلي لومـان أن يضـحي بحياتـه مـن اجـل اولاده. لذلك ينبغي أن نظل هنـا, منتظـرين. نحـن في انتظار غودو)(10).

الهوامش:

1-أنظـر "لمـاذا نحـن عـالقون فـى الرمـل" بقلـم كريسـتوفر هيتشـينز في مجلـة" هـاربرز Harper's, العــدد 282, الــرقم 1688 (كــانون الثــانى/ ينــاير 1991). أنظـر أيضـاً التقريـر الخـاص المميـز بعنـوان "عراق غايت: كيف ساعدت إدارة بـوش صـدام حسـين في شـراء أسـلحته الحربيـة, ولمـاذا وقـع دافعـو الضـرائب الأمريكيـون في فـخ دفـع الفـاتورة؟". "يو.أس.نيـوز إنـد وورلد ريبورت", 18 أيار/مايو, 1992.

2- السؤال كـان سـأله كينيـث روث, المـدير المسـاعد لمنظمـة "ميـدل إيسـت واتـش" Middle East Watch , في رسالته إلى "النيويورك تايمز , 13 تموز/ يوليو 1992, ص أ 14.

3-أنظـر الملخـص التنفيـذي , "الصـحة والخـدمات الاجتماعيـة في العـراق بعـد أزمـة الخلـيج : تقيـيم في العمق". قام بـه فريـق دراسة عـالمي (كامبردج), تشـرين الأول/ أكتوبر 1991, ص3.

4- المصدر السابق 4-5, 12-13 , الوضع أصبح أسوأ بشكل مضطرد في جنوب البلاد في الأشهر التي تلت نشر هذا التقرير, على الرغم من أنها تحسنت في وسط البلاد, حيث استعادت الطاقة الكهربائية أجزاءها التعويضية,

وفي الشمال الذي أصبح منذ ذاك منطقة "محررة" ومفتوحة على المساعدات الخارجية.

5-مجلة "نيوزويك" Newsweek , كانون الثاني /يناير 1992, قدرت عدد القتلى المدنيين خلال الحرب الجوية بما بين 2500 و 3000 شخص. حتى 11 شباط/فبراير 1991 كانت الحكومة العراقية الرسمية تضع رقماً هو : 75قتيلاً و750جريحاً, في ذلك النهار عدّل وزير الشؤون الدينية الرقمين ورفعهما, وتحدث عن "آلاف" من الإصابات المدنية. أنظر "النيويورك تايمز" 12 شباط/فبراير 1991, التقديرات الأولية تحدثت عما بين 5000و15000 قتيل. أنظر "ذي بريتيش ميديكال جورنال" 1991 , عدد 303 ص 303- 306.

6-ذكرت مجلة " يو.أس.نيوز أند وورلد ريبورت" في العدد 20 كانون الثاني/ يناير 1992 أنه يوم بدأت الحرب "أدخل العراق مالايزيد عن 300 ألف جندي إلى الساحة الكويتية وهو عدد أقل منتصف العدد الذى ذكره الجنرال شوارزكوف وهو 632 ألفاً, وأقل من تقديرات البنتاغون: 540 ألفاً. وبشكل مماثل فإن الإصابات العراقية كانت لربما أقل بكثير من المئة ألف التي قدرتها وكالة استخبارات وزارة الدفاع. وربما سقط مالا يزيد عن الثمانية آلاف جندي عراقي فوق ساحة المعارك الكويتية طوال 43 يوماً من القتال".

7-طردت ديبونت بعد إصدارها تقديراتها, الحملة الإعلامية التي تلت ذلك أجبرت موظفيها على إصدار أرقام جديدة . وهذه الأرقام الأخيرة رجحت كفة الميزان إلى صالح الحجة القائلة بأن عدد الإصابات الحقيقي في الحرب جاء بعدما انتهت وليس بينما كانت تجري. بعد ذلك قام "اتحاد الحريات المدنية" بالتحرك , لكن على الرغم من إعادة ديبونت إلى منصبها في نيسان/أبريل 1992, اتهم الاتحاد على الفور مكتب الإحصاء الرسمي الأمريكي بمحاولة " كتم وتأخير نشر معلومات تسبب الارتباك للإدارة الحالية". أنظر "الواشنطن بوست 6 اذار/مارس 1992, ص أ 6, و" البوسطون غلوب" 14 نيسان/ابريل 1991.

8-" جورنال أوف أميركان ميديسين" مجلد 266 العدد 75 أب/أغسطس 1991,ص639. أنظر أيضاً"بريتيش ميديكال ريبورت" 1991: عدد 303 : ص303-.306.

9- مقتبسة عن موراي كمبتون من " نيويورك نيوزداي" 3أذار/مارس 1991. "أنظر أيضاً التقرير الذي نشرته رئاسة الأمم المتحدة في نيويورك, "وهو/ يونيسف (WHO/Unicef) مهمة خاصة الى العراق" شباط/فبراير 1991.

الهوامش "بريتيش ميديكال ريبورت" 1991: عدد 303: ص 303-306.

*كنعان مكية

-كاتب وباحث عراقي معروف، له كتابان عن حزب البعث والعراق.

1-جمهورية الخوف.

2-القسوة والصمت.

والمقال المنشور هنا فصل من كتابه (القسوة والصمت).

الأنفال: تجسيد لسيادة الفكر الشمولي والعنف و القسوة

• د. جبار قادر*

من المؤسف حقا أن نكون مجبرين في إجتماعاتنا و جلساتنا على الحديث عن المآسي و النكبات التي حلت بنا و عن مظاهر القسوة و العنف التي نكبنا بها خلال عقود طويلة من تاريخنا المعاصر. وموضوع اجتماعنا هذا هو الحديث عن عمليات الأنفال التي قامت بها الحكومة العراقية ضد الكرد عام 1988.

ويبدو تعبير ((عمليات الأنفال)) تعبيرا مهذبا و محايدا و بريئا على حد تعبير الباحث العراقي فالح عبدالجبار الذي يقترح علينا ان نستبدل في الأقل كلمة ((عملية)) المهذبة بأخرى تنضح ببشاعة الفعل مثل (المسلخة، الابادة ، المذبحة أو المجزرة). أخشى ان لا تعبر هذه الكلمات بمجموعها عن بشاعة الفعل.

بدءاً أود أن أعرف الحضور الكرام وبخاصة الذين لم تتوفر لديهم الفرصة للاطلاع على تفاصيل مجازر الأنفال بشيء من الاختصار. الانفال هي سلسلة العمليات العسكرية التي قامت بها القوات المسلحة العراقية (نفذتها قوات الفيلقين الأول و الخامس في كركوك و أربيل و قوات منتخبة من الحرس الجمهوري و القوات الخاصة و قوات المغاوير و قوات الأمن و الطوارئ و المفارز الخاصة فضلا عن قوات الجيش الشعبي و أفواج الدفاع الوطني. استخدمت هذه القوات جميع انواع الأسلحة التي كانت بحوزتها خلال الحرب العراقية - الايرانية من الدبابات و المدفعية الثقيلة و الطائرات الحربية المقاتلة و السمتية و الأسلحة الكيمياوية) خلال الفترة من ليلة 23/22 شباط و حتى 6 أيلول من عام 1988 (رغم ان علي حسن المجيد يشير بنفسه الى الفترة من 18 شباط و حتى 4 أيلول - الا ان تقارير منظمة رصد حقوق الانسان في الشرق

الأوسط (Human Rights Watch / Middle East)التي درست و حللت الوثائق الحكومية الخاصة بالأنفال لمدة 18 شهرا تشير الى 23 /2 - 9/6 / 1988).

المعروف ان الحكومة العراقية لم تقم بهذه العمليات بصورة سرية بل كانت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية تشير في بياناتها العسكرية التي تبدأ باحدى آيات سورة الأنفال اليها و تتحدث عن الانتصارات العسكرية في عمليات الأنفال البطولية ضد من كانت تسميهم تلك البيانات بالعدو الغاشم و الخونة و المارقين و تمجد وسائل الاعلام الحكومية هذه العمليات و تضفي عليها كل صفات البطولة و الوطنية التي طهرت ارض الوطن من الخونة و المرتدين و عملاء الأجنبي. وكان الحزب الحاكم و مؤسسات الدولة الرسمية تقوم بتنظيم الاحتفالات والمهرجانات احتفاء بالذكرى السنوية لتلك العمليات و تطلق اسم الأنفال على شركات المقاولات الحكومية و المدارس و غيرها من المؤسسات. حاولت القيادة العامة للقوات المسلحة و الاعلام الرسمي تصوير هذه المسالخ على انها جزء من المجهود الحربي العراقي ضد القوات الايرانية رغم انها كانت لا تخفي كونها موجهة ضد من كانت تسميهم بعملاء ايران و ادلاء الخيانة و غير ذلك من الألقاب.

و نجحت الحكومة العراقية و الاعلام الرسمي الغوبلزي في تمرير الصورة المشوهة لهذه المسالخ على الجزء الأكبر من العراقيين ، فقد كان هناك تصور عام لدى العراقيين بأن هذه البيانات الرنانة اشارة الى عمليات عسكرية ضد ايران على الحدود العراقية الايرانية و اعتقد البعض على انها موجهة ضد الحركة المسلحة الكردية التي تعاونت مع ايران خلال بعض مراحل الحرب العراقية الايرانية و بذلك لم يدرك معظم العراقيين ومازالوا حجم الكارثة التي حلت بالشعب الكردي خلال تلك العمليات. ومما يحز في النفس ورغم توفر اطنان من الوثائق (نقل منها 14 طنا الى الولايات المتحدة الأمريكية و تسلمت لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس الأمريكي مسؤولية الحفاظ عليها) التي اصبحت في متناول الباحثين و منظمات حقوق الانسان و التي توضح الى حد كبير حجم هذه المجازر ان نجد من بين من يدعون معارضة النظام من يستكثر على الكرد التذكير بهذه المسالخ و يعتبرها محاولة لهولكوستتة القضية الكردية في العراق.

استخدمت الحكومة العراقية كلمة الأنفال ككود عسكري في قراراتها العلنية و مراسلاتها الداخلية و كانت معروفة على نطاق واسع في العراق و بخاصة في المناطق الكردية. بدأ التمهيد لمسالخ الأنفال عندما تسلم علي حسن المجيد في 29 آذار 1987 مسؤولية امين سر مكتب تنظيم الشمال لحزب البعث العربي الاشتراكي و منحه مجلس قيادة الثورة بموجب القرار الرقم 160 في 29 آذار 1987 صلاحيات مطلقة في كوردستان فموجب القرار المذكور كان علي حسن المجيد ((ينوب عن القيادة القطرية لحزب البعث و مجلس قيادة الثورة لتنفيذ

سياساتهما في الشمال بما فيها منطقة الحكم الذاتي)) و اعتبر مجلس قيادة الثورة في قراره المذكور ((قرارات الرفيق المجيد الزامية لجميع مؤسسات الدولة العسكرية و الأمنية و المدنية وعليها جميعا تنفيذها بما في ذلك المسائل الداخلة في نطاق صلاحيات مجلس الأمن القومي و لجنة شؤون الشمال)). وكانت هذه الصلاحيا ت مساوية لتلك التي يتمتع بها رئيس الجمهورية في هذه المنطقة.

و أصدر صدام حسين في 20 ابريل 1987 قرارا آخر منح بموجبه صلاحيات اضافية للمجيد لوضع ميزانية خاصة بلجنة شؤون الشمال. وكان القرار يقضي بربط الفيلقين الأول و الخامس من الجيش العراقي النظامي و دوائر الأمن و الاستخبارات العسكرية و قوات الطوارئ وافواج الدفاع الوطني و المفارز الخاصة و غيرها من المؤسسات القمعية بعلي حسن المجيد و تلقي الأوامر منه فقط و وقف تنفيذ جميع القوانين والقرارات و الاجراءات الادارية العراقية التي كانت تتعارض مع نص قرار مجلس قيادة الثورة. وجعل هذا القرار من علي حسن المجيد حاكما مطلقا على كوردستان و المنطقة الشمالية بأسرها.

كانت سياسات المجيد تنفذ تحت شعار ((حل القضية الكردية و القضاء على المخربين)). وكانت المظاهر الرئيسة لهذه السياسة خلال العامين اللذين قضاهما المجيد كحاكم مطلق في كوردستان من 29 آذار 1987 و حتى 15 نيسان 1989 تتلخص في:

1-الاعدام الجماعي و اخفاء أثر عشرات الآلاف من المدنيين الكرد بمن فيهم عدد كبير من النساء و الأطفال و أحيانا سكان قرى كاملة.

2-استخدام الأسلحة الكيمياوية بصورة واسعة كغاز الأعصاب و السارين و الخردل في حلبجة و 40 موقعا آخر خلال الفترة من نيسان 1987 و حتى آب/أيلول 1988.

3- تدمير اكثر من الفي قرية تشير اليها الوثائق الحكومية بصيغ أحرقت، دمرت ، سويت مع الأرض و جرى تطهيرها فضلا عن عشرات القصبات و المراكز الادارية بما فيها مدينة قلعة دزه التي بلغ عدد سكانها اكثر من 70 الف نسمة.

4- تدمير المراكز المدنية كالمدارس ، الجوامع ، الكنائس ، آبار المياه و الينابيع و محطات الطاقة الكهربائية و المباني الأخرى.

5-نهب ممتلكات السكان المدنيين و حيواناتهم من قبل الجيش و قوات الجحوش.

6-القاء القبض على القرويين بحجة التواجد في المناطق المحظورة رغم انهم كانوا في بيوتهم و على ارضهم.

7-الحجز الكيفي لعشرات الآلاف من النساء و الأطفال و الشيوخ لأشهر عديدة و في ظروف جد قاسية بدون أوامر صادرة عن المحاكم و بدون أية اسباب منطقية سوى الشك في كونهم من انصار الحركة الكردية و مات عشرات الآلاف منهم بسبب سوء التغذية و المرض.

8-التهجير القسري لمئات الآلاف من القرويين بعد تدمير قراهم الى المجمعات القسرية التي كانت الدعاية الحكومية تطلق عليها ظلما و بهتانا اسم المجمعات العصرية.

9-تدمير البنية التحتية والاقتصادية للريف الكوردستاني.

وتشير الوثائق الرسمية الى هذه السياسات تحت مسميات ((الاجراءات الادارية الخاصة ، الاجراءات الجماعية، العودة الى الصف الوطني و اعادة الاسكان في الجنوب)) و غيرها من التسميات التي حاولت اخفاء سياسة الابادة الجماعية بحق الكرد.

بلغت عمليات الأنفال ثماني وشملت ست مناطق جغرافية و كان يسبق كل عملية قصف مدفعي و جوي مكثف مع استخدام الأسلحة الكيمياوية مع زج كل الامكانيات المتاحة:

1-الأنفال الأولى بدأت بهجوم كبير صباح يوم 23 شباط 1988 على مقرات الاتحاد الوطني الكوردستاني في سرگلو و برگلو. واستغرقت ثلاثة اسابيع بسبب المقاومة الشديدة التي ابدتها قوات البيشمرگه. ويدخل قصف حلبجة رغم انه لم يشكل جزءا من الأنفال في اطار الأنفال الأولى.

2-الأنفال الثانية في منطقة قرداغ و بدأت في 22 آذار اي بعد يوم واحد من عيد نوروز و استمرت حتى نهاية هذا الشهر. وأشك ان يكون اختيار عيد نوروز قد جاء كمجرد صدفة.

3-الأنفال الثالثة و التي شملت منطقة گرميان بمحافظة كركوك و بدأت في 7 نيسان اي في ذكرى تأسيس البعث و استمرت حتى 20 من نفس الشهر. و كانت أوسع و أقسى صفحات الأنفال و أكثرها تدميرا سواء من حيث مساحة المناطق التي شملتها أو عدد المؤنفلين. وكان الهدف هو تدمير كل الريف الكردي في هذه المحافظة و التخلص من اكبر عدد ممكن من الكرد لاستكمال عمليات التعريب التي بدأ البعث بتنفيذها منذ عام 1963 عندما وصل الى السلطة لأول مرة ليعود ألى تبنيها كاستراتيجية منذ السبعينيات و لتصل الى مرحلة التطهير العرقي في الثمانينيات و التسعينيات. و يعتقد بأن أكثر من 150 ألفا من مجموع 182 ألف من المؤنفلين أخذوا من ساحة عمليات الأنفال الثالثة فقط.

4-الأنفال الرابعة و شملت حوض الزاب الصغير في 7 و 8 مايس.

5-شملت الأنفال الرابعة و الخامسة و السادسة المناطق الجبلية بمحافظة أربيل. وبدأت في 15 مايس و استمرت حتى 7 تموز و اضطر النظام أمام المقاومة الشديدة التي أبدتها قوات الأنصار لوقف العملية بأمر صادر عن مكتب الرئيس (و يثبت هذا الأمر الدور المباشر لصدام حسين شخصيا في مسلخة الأنفال). وتجددت الهجمات في الأنفال السادسة و السابعة في تموز و آب لتعلن القيادة العامة للقوات المسلحة عن تطهير المنطقة ممن سموا بالمخربين.

6-الأنفال الثامنة أو خاتمة الأنفال و بدأت بعد قبول ايران لوقف اطلاق النار في 8 / 8 / 1988 اذ تفرغت القوات العراقية لخاتمة مسالخ الأنفال و التي شملت منطقة بهدينان بشمال كوردستان

العراق و بدأت في 25 آب و استمرت حتى 6 أيلول من نفس العام لتعلن الحكومة عن النصر و العفو العام لصيد البقية الباقية من سكان المناطق المشمولة بالأنفالات.

كانت الخطة المتبعة في عمليات الأنفال هي نفسها تقريبا، اذ يجري البدء بالقصف المدفعي والجوي المكثف لعدة أيام مع استخدام الأسلحة الكيمياوية ليبدأ بعد ذلك الهجوم البري بعد ان يكون قد جرى استكمال تطويق المنطقة المستهدفة من كل الجهات من قبل قوات الجيش الشعبي و ما كانت تسمى بافواج الدفاع الوطني و سد جميع الطرق والممرات لمنع هروب اي شخص الى خارج منطقة العمليات. وادت هذه العمليات الى مقتل عشرات الآلاف من السكان المدنيين و القاء القبض على كل من بقي على قيد الحياة و نهب جميع ممتلكاتهم و حيواناتهم و اضرام النار في البيوت و المزارع ، لتأتي بعد ذلك فرق الهندسة العسكرية لتقوم بتدمير القرى و تسويتها بالأرض.

وكانت الشاحنات العسكرية تقف على أهبة الاستعداد لنقل القرويين الى مراكز و معسكرات الاعتقال، حيث يجري فصل النساء و الأطفال و كبار السن عن الرجال الذين ينقلون الى حيث لقوا مصيرهم المجهول. وتقوم قوات المرتزقة الكرد بعد ذلك بتمشيط المنطقة و سفوح الجبال لالقاء القبض على كل من تمكن من الافلات ، بينما تقوم قوات الشرطة و الأمن و الجيش الشعبي بتمشيط القصبات و المجمعات السكنية لالقاء القبض على كل الذين تمكنوا من الافلات من قبضة الجيش. و انخدع الكثيرون بقرار العفو و سلموا انفسهم ليلقوا نفس المصير.

و كانت مهمة القوات النظامية تنتهي عند هذا الحد لتتسلم قوات اخرى يعتقد بأنها قوات الأمن و المخابرات و المهات الخاصة مهمة نقل و اخفاء أثر القرويين الكرد و عوائلهم الذين بلغ عددهم اكثر من 182 ألفا. و هناك تقارير كثيرة تشير الى دفن عشرات الآلاف منهم في الصحراء الغربية على الحدود السعودية و الأردنية.وحدد بعض الناجين من مسالخ الأنفال مواقع عدد من المقابر الجماعية بالقرب من الرمادي و قرب مدينة حضر التاريخية جنوبي الموصل و في صحراء السماوة. كما يعتقد بوجود مقبرتين جماعيتين في جبل حمرين احداهما بين كركوك و تكريت و الأخرى الى الغرب من طوز خورماتو. وهناك شواهد عديدة على اخضاع آلاف اخرى من هؤلاء التعساء للتجارب لمعرفة مفعول الأسلحة الكيمياوية و البيولوجية العراقية. وجرى نقل اكثر من 8 آلاف شخص من كبار السن الى سجن نقرة السلمان، حيث مات الكثيرون بسبب الحر و الجوع و العطش و الأمراض و اكلت الكلاب السائبة جثثهم.

ويروي الناجون العائدون من جهنم البعث قصصا تقشعر لها الأبدان عن حجم المعاناة الانسانية لنزلاء قلعة نقرة السلمان على يد الملازم حجاج و رفاقه في العقيدة. كما روى بعض الناجين بأن الرجال كانوا يجمعون على شكل صفوف طويلة ثم

يطلق النار عليهم ليسحبوا بعد ذلك الى الحفر الكبيرة التي هيأت لهم مسبقا. وفيما بعد و بسبب الأعداد الكبيرة من المحكومين بالموت كانوا يوقفون على حافات الحفر ليقعوا فيها بعد ان يطلق النار عليهم او يقذفون الى الحفر الكبيرة و يجري اطلاق النار عليهم من جميع الجهات ليواري التراب عليهم بعد التأكد من قتل الجميع.

ويعتقد بأن مجموع الكرد الذين قتلوا خلال عامي 1987 و 1988 في عمليات الأنفال و العمليات العسكرية التي سبقتها وقصف حلبجة واربعين موقعا آخر بالأسلحة الكيمياوية يقارب ربع مليون شخص. وكانت الحكومة العراقية تلاحق ضحاياها وراء الحدود ايضا فقد بعثت من تضع السم في خبز اللاجئين الكرد في تركيا و الذين هربوا بسبب الهجمات الكيمياوية في عمليات الأنفال الثامنة في منطقة بهدينان و الذين بلغ عددهم 80 الف شخص ، كما بعثت طائراتها الحربية لتلقي بقنابلها على رؤوس اللاجئين الكرد في ايران.

إعتمدت الحكومة العراقية في التمهيد لعمليات الأنفال و تنفيذها خطة تضمنت ثلاث مراحل اساسية و ضرورية لتنفيذ أية عملية ابادة جماعية و هي:

1-تحديد أفراد الجماعة المستهدفة بعملية الابادة.

2-جمعهم في مراكز و معسكرات الاعتقال تمهيدا للمرحلة التالية وهي:

3-التخلص منهم و إخفاء آثارهم الى الأبد بعيدا عن اعين الرقباء و الدخلاء.

قام علي حسن المجيد بتنفيذ هذه الخطة بدقة. فقد وضع خطة على مرحلتين كما يشير بنفسه الى ذلك في شريط مسجل بتاريخ 15 نيسان 1989 وقع في ايدي المنتفضين في آذار 1991 اذ يقول ((في اول اجتماع عقدناه في نيسان 1987 مع قادة الجيش و الأمن و الشرطة و المحافظين و مسؤولي الحزب قررنا ترحيل سكان القرى لفصلهم عن المخربين. ونفذنا هذا القرار على مرحلتين بدأت الأولى من 21 نيسان و استمرت حتى 21 مايس و الثانية من 21 مايس و حتى 21 حزيران. وامرنا بقتل كل من يلقى القبض عليه اعتبارا من 22 حزيران في تلك المناطق التي اعلنت كمناطق محظورة و مازلنا ننفذ هذا القرار حتى هذا اليوم)).

رحل عدد كبير من سكان هذه القرى و المراكز الحضرية الى المجمعات القسرية، اما الذين رفضوا الانصياع الى هذه السياسة و هربوا الى المناطق الواقعة تحت سيطرة البيشمرگه فقد اصبحوا ضمن المجموعة المستهدفة. وتشير التقارير الى تدمير اكثر من 700 قرية خلال تلك المرحلتين. واشار المجيد في اجتماع مسجل آخر الى رسم خط فاصل عرفه بالخط الأحمر ليفصل بين المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة و تلك التي شملتها عمليات الأنفال فيما بعد. وكانت هناك مرحلة ثالثة جرى تأجيلها لكي تنفذ فيما بعد في إطار عمليات الأنفال. ومع

بدء المرحلة الأولى بدأت الهجمات الكيمياوية ايضا و التي بلغت خلال 18 شهرا 40 هجوما كما اصدر المجيد اوامره في تموز 1987 بالقيام ((بالقصف الجوي و المدفعي ليلا و نهارا لقتل اكبر عدد ممكن من الموجودين في المناطق المحظورة)). و امر في الفقرة الخامسة من القرار المذكور باعدام كل من يلقى القبض عليه في المناطق من البالغين من العمر 15 - 70 عاما بعد التحقيق معهم و الحصول على المعلومات المفيدة منهم.

اما الخطوة الادارية الأهم لتحديد المجموعة المستهدفة فكان احصاء السكان العام في اكتوبر 1987. اذ وضع سكان ما سميت بالمناطق المحرمة بين خيارين اما ((ترك قراهم و بيوتهم و مزارعهم و القبول بالعيش في المجمعات القسرية-التي سميت ظلما و بهتانا بالمجمعات العصرية-القذرة و تحت رحمة الأمن و المخابرات)) وكان هذا يساوي في الاعلام الحكومي ((عودة الى الصف الوطني)) أو اعتبارهم غير عراقيين و فقدانهم لجميع حقوق المواطنة في الدولة العراقية و اعتبارهم هاربين من الخدمة الالزامية و التي كانت عقوبتها الاعدام.

وكلف المجيد في الوقت نفسه جميع المؤسسات المدنية و الأمنية و الحزبية بتحديد عوائل الهاربين و المتخلفين من الخدمة العسكرية و عوائل البيشمرگه وجمع المعلومات التفصيلية عنهم في المدن و القصبات الخاضعة لسيطرة الحكومة و الذين أخذوا من بيوتهم و القي بهم في المناطق الجبلية و أجبروا الى اللجوء الى المناطق المحرمة لتشمل عمليات الأنفال اعدادا كبيرة منهم فيما بعد.

هكذا جرى تحديد المجموعة المستهدفة بعناية ليجري جمع الباقين منهم على قيد الحياة خلال عمليات الأنفال الثمانية بعد القاء القبض عليهم في مراكز ومعسكرات الاعتقال لتقوم قوات الأمن و القوات الخاصة بفصل الرجال عن النساء و الأطفال و الشيوخ و من ثم يتم التخلص منهم و اخفاء آثارهم بطرق و أساليب مختلفة مازال الغموض يحيط بالكثير من تفاصيلها الدقيقة. و اتخذت الحكومة العراقية من عملية اخفاء اثر اكثر من 8 آلاف من الرجال البارزانيين الذين اخذوا من مجمع قوشتبه القريبة من اربيل صيف عام 1983 نموذجا للتعامل مع ضحايا الأنفال. ورغم توفر أدلة لا يشك في صحتها بأن عشرات الآلاف من المدنيين الكرد الذين غيبتهم القوات العراقية خلال عام 1988 جرى القضاء عليهم، الا ان هناك آلاف العوائل التي مازالت تنتظر حدوث معجزة لمعرفة مصير مفقوديها. وهناك مشاكل اجتماعية و نفسية كبرى تعاني منها هذه العوائل و بخاصة النساء و الأطفال الذين تصعب عليهم ممارسة حياة طبيعة دون التأكد من مصير ذويهم. وللبحث عن تفسير لما حدث خلال هذه العمليات لا بد من القاء الضوء على بعض النقاط:

1-يشير البعض بأن الحكومة العراقية كانت في حرب مصيرية مع ايران وكانت تقاتل الحركات المسلحة الكردية عند قيامها بعمليات الأنفال. وتلجأ

حكومات العالم الثالث عادة الى استخدام كل الوسائل المتوفرة لديها للقضاء على الحركات المناوئة لها. ويمكن الرد على هذه الطروحات بأن الأنفال شملت اعدادا كبيرة من المدنيين الذين لم يشاركوا بصورة مباشرة في العمليات العسكرية و جرى تحديدهم عندما استثنوا من احصاء عام 1987 و جمعوا في معسكرات وجرى التخلص منهم بعد ايام او اسابيع و حتى اشهر من القاء القبض عليهم. وكانت هناك اقلية من المقاتلين او الذين شكلوا قوة مؤازرة للحركة المسلحة الكردية ، اما الباقي وهم الأكثرية فكانوا من المدنيين و جرى قتلهم لسبب واحد لكونهم سكان تلك المناطق التي اعلنتها مناطق محرمة. و اظهر تحليل الوثائق بأن الانفال عبارة عن عملية منهجية و سبق ان خطط لها بصورة دقيقة ، كما أظهرت الوثائق بأن فرق الاعدام جرى انتقاؤها من بين اعضاء النخبة في وحدات الأمن و التي لم تكن مرتبطة بالقوات المسؤولة عن اعتقال الكرد. ولم تكن هذه المجازر نتيجة لانفعال قادة عسكريين ميدانيين قاموا بقتل الناس وخالفوا القوانين دون معرفة قياداتهم العليا ، بل تظهر الوثائق بصورة لا لبس فيها الى توفر النية لدى اعلى مراكز القرار و في قمة هرم السلطة لابادة الكرد بصورة منهجية و بأعداد هائلة و جرى كل ذلك بأوامر صريحة من الحكومة المركزية. لذلك لايمكن ان تقنع مثل هذه الطروحات احدا من الكرد و غيرهم بل يجب ان نبحث عن التفسير في مجمل المنظومة السياسية و الفكرية السائدة في العراق خلال العقود الأربعة الأخيرة.

2-سيادة النظام الشمولي الرافض لأي وجود للآخر و المستعد للجوء الى كل الوسائل المتوفرة لديه مهما كانت قاسية لاستئصال معارضيه و فرض العقاب الجماعي على مناطق و فئات واسعة من السكان بسبب نشاطات مناهضة. وهناك من الأدلة ما لا يتسع وقت اي ندوة لسردها. وفي حالة الأنفال كانت شعارات الأمن الوطني العراقي و تعاون الحركة المسلحة الكردية مع دولة اجنبية في حالة حرب ضروس مع العراق و المطالبة بحقوق قومية و الحفاظ على الخصوصية القومية في ظل نظام شمولي مبررات كافية لاقناع اعداد كبيرة من أنصار النظام بتنفيذ هذه الجرائم.

3-ولا يمكن ان ننسى بطبيعة الحال أن سيادة افكار العنف و القسوة في العراق خلال العقود الثلاثة التي سبقت مسالخ الأنفال هيأت الأرضية لحدوث مثل هذه الجرائم المرعبة. و الغريب ان هذه الأفكار سادت معظم التيارات السياسية العراقية التي تبنت فكرة قلع الآخر من الجذور وبخاصة في العهد الجمهوري الزاهر. ومازلنا و مع الأسف و بعد كل هذه الكوارث التي حلت بنا نرى مظاهر الغاء الآخر تسود شرائح مهمة من الطيف السياسي العراقي.

4-كانت الحكومة العراقية تدعي قبل و اثناء و بعد قيامها بعمليات الأنفال بأنها تعمل على الحفاظ على وحدة العراق و حماية البوابة الشرقية للوطن العربي و غير ذلك من الشعارات القومية البراقة. نحن لا نناقش هنا مصداقية حزب البعث الحاكم في اخلاصها لمبادئ الحركة القومية العربية ، لأن ذلك

يـدخل في صـلب مهـام القـوميين العــرب و بخاصــة العـراقيين مـنهم. ولكننـا يجـب ان نشـير الى ان الحركـة القوميــة العربيــة تعــاني مــن تخــبط فكــري كــبير في تعاملـها مـع القضية الكردية و تتبنـى أحيانـا مفـاهيم تناقض حقائق التأريخ و الجغرافيـا. لا تـدخل مناقشـة هـذه المسألة المهمـة و الملحة في اطـار الموضـوع الـذي انـا بصدده و اتمنى ان نخصص ندوات اخرى للبحث فيهـا. ولكن الشعارات القومية البراقة التي يحاول حزب البعث ان يضفيها على سياسياته مازالت تخدع بعض السذج النــاقمين علـى اوضــاعهم و حكومــاتهم. منفـذ مسـالخ الأنفـال يوصـف الكـرد في الاجتماعـات العديـدة المسجلة علــى الأشــرطة بأوصــاف في غايــة العنصــرية فهــم لا يستحقون الحياة ((لأنهم يعيشون مثل الحمير)) ((وهـم كلاب يجـب ان اطحـن رؤوسـهم)) و ((مـا الفائـدة الـتي نجنيها من هؤلاء)) و (مستحيل ان يكون بيـنهم انسـان جيـد) ((اهتكـوا اعراضـهم)) ((لـن اضـربهم بالأسـلحة الكيمياوية ليوم واحـد بـل سأضـربهم لمـدة 15 يومـا)) ((ســادفنهم بالبلــدوزرات)) او ((ارســلوهم الى الجبــال ليعيشـوا كالمـاعز)) و غـير ذلـك مـن الكلمـات النابيـة و المقولات العنصرية.

و عن تعريب محافظة كركوك الـتي مـازال الـبعض من الكتـاب و المـثقفين العـرب لا يريـدون الاعـتراف بهـا يقول علي حسن المجيـد ((اود ان اتحـدث عـن نقطـتين الاولى التعريـب و الثانيـة المنـاطق المشـتركة بـين الأرض العربيـة و منطقـة الحكـم الـذاتي. المسألة الـتي اتحـدث عنها هي مسألة كركوك. عندما قـدمت الى هنـا لم يـزد العرب و التركمان علـى 51 ٪. مـع كل ماقمنـا صـرفت 60 مليـون دينـار حتـى وصلنا الى الوضع الحالي. كل العرب الذين جلبناهم الى كركوك لم يوصلوا النسبة الى 60٪ ، لذلك منعت الكرد في كركوك و المناطق القريبـة منها العمل خـارج منطقـة الحكـم الـذاتي)). يمكن ان يطول الحديث عن هذا الموضوع ونترك الأمر للقوميين العرب للرد على المجيد و رفاقه.

5-عنــد الحــديث عــن عمليــات الأنفــال رغــم وحشــيتها و تجاوزهــا لكــل الحــدود و رغــم عــدم اختلاف اثنين من البشر علـى عـدم وجـود اي مـبرر للقيام بها ، الا اننا لا يمكن ان نخلي سـاحة الحركـات السياسية الكردية من جزء مـن المسؤولية التأريخيـة الـتي تتحملـها بسـبب عـدم تقييمهـا للنظـام الحـاكم ومــايمكن ان يقــوم بــه مــن افعــال شــنيعة تقييمــا صحيحا و بسبب تحالفاتها الاقليميـة الـتي لم تسـفر الا عن المزيد من الكوارث و الآلام للشعب الكردي.

ورغـم ادانــة عـدد كـبير مـن المـثقفين و السياسـيين العرب العراقيين و غير العراقيين لمسالخ الأنفـال و لكننـا نعتقد مخلصين بأن مواقف النخب الثقافيـة و السياسـية العربية و بخاصة العراقية مازالت لا تتناسب مـع حجـم الجرائم التي ارتكبت بحق الشعب الكردي و تتحمـل هـذه النخــب المســؤولية السياســية و الأخلاقيــة لادانــة هــذه الجـرائم في كـل المحافـل السياسـية و الثقافيـة العربيـة و العالمية، كما ان النظام القادم يتحمل المسؤولية الأخلاقيـة للقيــام بــالتحقيق النزيــه في هــذه الجــرائم و تحديــد مرتكبيها والعمل على مثولهم امـام محـاكم عادلـة لكـي لا تتكرر مثل هذه المجازر في المستقبل.

الأنفال
نحو تأسيس قراءة تاريخية لما جرى

• خالد سليمان*

يقف الكردي، اي كردي، حائرا امام اللغة بكل اشكالها التعبيرية و البلاغية و الرمزية لوصف الانفال و ما تحمله من معان و صور للموت. حتى الذي رآها و عاشها لم يعد قادرا للتذكر، لأن التذكر لما جرى يعني الموت ايضا، الذي يبدي فيه الكردي و صار حقلا خصبا لاحتفال دموي متكامل من كل عناصر الافناء و الابادة.

كان الاحتفال ذاك/ هذا – مستمرا في انتاج خطاب الافناء – متوزعا بين خطابات القتل المتعددة في ساحات اللاقتال التي نتحدث عنها فيما بعد. اما الآن، فالاهم هو مقاربة عمليات الانفال ضد الكرد و اساليب القتل فيها مع الذات الفاعلة لها، ثم الذات الثانية التي اصبحت مشروعا للابادة.

لقد وظفت سلطة (البعث) جميع امكاناتها التقنية و الايديولوجية لهذه العملية و جسدت مستويات همجية متعددة للاستئصال و اقتلاع الانسان الكردي من الارض. فالقتل لدى البعث كان – و ما يزال – له معنى واحد، سواء كان المقتول مسلحا ام امراة ام طفلا ام عجوزا، و وظيفة القاتل هي ان يرى مجد صدام حسين امامه و هو يفني حياة الناس العزل في قرى معزولة عن العالم. فصارت للقتل المتعة و النشوة للقاتل، و اصبحت ارض كردستان امريكا ثانية في التاريخ، لكنها تكتشف و تفتح لا على ايدي الاوروبيين الغزاة، بل على ايدي البعثيين و جنودهم باحصنة حديدية نفاثة على الارض و في السماء. بحيث فقد الكردي كل وسائل اتصاله مع الذات و العالم الخارجي على اثر هذا الاكتشاف، و مع السماء ايضا. لأنه اعزل كليا عن الكون و ما عاد يدرك ما يحصل حوله سوى انه يموت، و باشكال و اساليب فاشية متعددة ابتدعها

نظام فاشي قد يكون الاول من نوعه في انتاج خطاب الموت في عصرنا الحديث.

الانفال, بمراحلها و اشكال تنفيذها على ارض كردستان, ادخلت الشخصية الكاريزمية العربية – البعثية و اشباهها – و النظام الفكري الذي يمثله الى ساحة لا قتالية مليئة بالاسرار الايديولوجية و السياسية, و هي ايضا – الساحة اللاقتالية او الجسد الكردي – احد الحقول الرئيسة للممارسة الفعلية لتوسيع ذلك النظام الفكري, و كذلك احدى المقومات الاستراتيجية في حال انصهاره او القضاء عليه للحداثة العربية – البعثية – التي تحمل في احشائها مشروع مجتمع جديد يعتمد الاصالة العرقية في مجالات اللغة و التاريخ و الجغرافيا و الذاكرة.. الخ, و لأن تكوين العراق الحديث التابع للكولونيالية الاوربية التي الحقت به اجزاء واسعة من اراض كردستان من عام "1916 الى 1924", هو تكوين مختلف ثقافيا و حضاريا, و الكرد رغم كل اشكال الاضطهاد السياسي المتبعة ضدهم لم يدخلوا النسق الثقافي العربي. اي ان فضاءات اللغة و التاريخ و الجغرافيا و الذاكرة العربية التي استثمرها البعث لمشروعه الايديولوجي الذي يكمن في احشائه (المجتمع المدجن), واجهت و تواجه دائما حالة ثقافية اخرى تتميز بقيم حضارية و اخلاقية مغايرة عما يتبناه هو. لهذا بقيت محاولات تبعيث المجتمع الكردي و طوقه ضمن دائرة الايديولوجيا البعثية للتدجين, محاولات عقيمة و لم تستطع العبور الى نقطة تدل على عدم قابلية الكرد للرفض و اللامقاومة .. و كانت الانفال؟!.

اری نفسي مضطرا هنا للولوج, و لو بشكل سريع الى حيثيات المشروع البعثي في العراق. لأن الحديث عن الانفال و تاثيراتها السياسية و الاجتماعية و النفسية و الايكولوجية في المجتمع الكردي دون ربطه بالعمق الاستراتيجي للبعث كحركة فاشية في العراق لا يعني شيئا. و في مثل هذه الحال نرى من الضروري الرجوع الى بعض المنطلقات السياسية لهذه الحركة و اقوال مؤسسها "ميشيل عفلق" و من ثم تبنيها كوحي سياسي انزل على الارض.

يمكننا التطرق او نعاين المشروع البعثي الفاشي في العراق من خلال هذه الاقوال:

1-يقر البعث في المادة الخامسة عشر من دستوره بأن الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدول العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين و انصهارهم في بوتقة امة واحدة, و تكافح جميع العصبيات المذهبية و الطائفية و القبلية و العرقية و الاقليمية.

2-ان قيمة الارادة في تقرير الارتباط القومي تتوسع الآن من خلال توسيع خارطة الوطن العربي, كما هي عليها الآن بالنسبة لانتساب اريتريا و الصومال الى الامة العربية و ربما تظهر في المستقبل امتدادات اخرى.. فلو كانت الامة العربية تمر بمرحلة الانحطاط لما اتسعت خارطتها.. غير ان عوامل الصحة في نمو متصاعد و لهذا نجد ان خارطة الامة تتسع.

3-ان حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب الطليعي الذي يمثل الجماهير, كل الجماهير التي تعيش في الوطن العربي بصرف النظر عن لغتها و سماتها القومية, و هو المدافع الامين و المناضل الصلب عن قضيتها, و هو الذي يقودها على طريق الحرية و على طريق المجتمع الموحد في الوطن العربي.

4-العربي من كان لغته عربية و عاش على الارض العربية, او تطلع للحياة فيها و امن بانتسابه الى الامة العربية.

5-طوال قرون عديدة كان الكرد مواطنين عرب مسلمين كغيرهم من العرب المسلمين لا يوجد اي فرق بينهم عندما كانت البلاد العربية تشكل دولة او دولا عربية اسلامية. و في العصر الحديث كانت الدول الاستعمارية هي البادئة بايجاد الفروق و عوامل التمييز بين العرب و الكرد, سواء باضطلاعها بمهمة التنقيب عن المميزات التاريخية و اللغوية و العرقية للكرد ليكون ذلك منطلقا للانقسام في بلدان المنطقة التي كانت هذه الدول تخطط لاستعمارها منذ القرن الماضي.

تجسد هذه الاقوال العمق الاستراتيجي لايديولوجيا البعث المفترضة لخارطة المستقبل السياسية و الثقافية للامة العربية التي يقترحها علينا. فالاختلاف اللغوي و التاريخي و الجغرافي و الاثني يتجلى هنا و كأنه ظاهرة استعمارية اقترحت من خلال البعثات الاثرية الاوربية للتنقيب من اجل تفكيك الامة العربية. و كانت النظرة هذه, عنصر تكوين اساسي في المحاضرات التي القاها "ميشيل عفلق" في لقاءاته مع طلبة العرب في كل من المغرب العربي و العراق و سوريا و لبنان.

و على نفس هذه القاعدة الفكرية للانتماء للعروبة نرى ان كلمات مثل (الانصهار, الامة الواحدة, توسيع خارطة الامة).. الخ, من الكلمات هي المولدة الاساسية للصيغ النظرية الواردة في برنامج الحزب السياسي. ثم ان "الآخر" هو الهدف المرصود للحديث عنه قبل الحديث عن العرب. و هذا الآخر الذي هو الكرد, يشكل التهديد الاول لمشروع البعث النهضوي للعرب. لهذا الآخر حضوره الاقوى في البرنامج السياسي للبعث كعنصر معرقل لمشروع الثقافة العربية. و اذا تفحصنا رموز هذه البنية الفكرية التي انطلق منها البعث في بدايات تكوينه, نرى ان تغليب العنصر العربي ثقافيا و لغويا و تاريخيا و حتى جغرافيا على الثقافات الاخرى في المنطقة هو المشروع الاساسي للتحول الذي افترضه الحزب (للمجتمع العربي).

و كانت للمنطلق الفكري هذا اسباب كثيرة يمكننا تلخيصها بالشكل الآتي:

1-الوضع الجيوبوليتيكي المتزعزع في العراق, كونه وضع "ما بعد - استعماري", لا يمتلك خصوصيات طبيعية بسبب الصاق اجزاء واسعة من اراضي كردستان به ضمن اتفاقية استعمارية دولية.

2-تأثر اللغة العربية في هذا الاقليم باللغتين الفارسية و الكردية, "العراق".

3-بقاء المجتمع الكردي, رغم خضوعه لسلطة شمولية, ضمن تقاليده الثقافية و الحضارية, اذ بقيت اللغة الكردية تحافظ على انساقها و رموزها و اشكال استخدامها الكتابي و الشفاهي, بالاضافة الى مقاومة الكرد ضد اية لغة جديدة تفرض عليهم باستثناء ممارسة الصلة باللغة العربية. اما الطقوس الدينية الاخرى فتأقلمت ضمن البيئة الكردية.

4-ظهور وعي سياسي كردي في بداية القرن العشرين, و حدث من خلاله تغيير في البنية الثقافية لدى شرائح الكرد المثقفة. و كانت لهذا التغيير امتداداته في جميع اجزاء كردستان المقسمة على دول المنطقة.

5-فصل الاسلام عن العرب, اذ صار الاسلام عند الكرد دينا و عقيدة دون صلة له بالعروبة. عكس ذلك قام الكرد بدمج الاسلام بثقافتهم اللغوية و الشعبية و التاريخية. هنا يتبادر الى الذهن نقطة اخرى تتضمن مستويات مختلفة من التأويل الفكري و السياسي الا و هي تعرض طوائف و مجموعات ثقافية اخرى, عربية و غير عربية الى محاولة احتوائها في نفس المشروع التوسعي البعثي "كالدروز و البربر" كونها مجموعات تتسم بشيء من الخصوصية الثقافية و الاجتماعية. و لا تشكل هذه المساحة جزءاً من هذا المقال.

لتلك الاسباب و غيرها بدأ التنظير البعثي مع ولادته بالحديث عن الانتماء للعروبة لغة و تاريخا و عرقا, لأن "الآخر" عنده, رغم كل خصوصياته الثقافية و العرقية, عربي, او يجب تعريبه بغية الوصول الى مشروع الثقافة العربية, بمعنى آخر قيام و تسيير مشروع النهضة العربية على عجلات الحاملات البعثية. و كان لهذه الحاملات تعريف واضح و مركب بين القول النظري و الواقع العربي المكبل بالتخلف, و هو "المدرسة المستعجلة". اطلق هذا التعريف من قبل "منيف الرزاز" و قد عبر من خلاله عن القول الباطني للجميع الذي لم يقله بهذا الوضوح. و "المدرسة المستعجلة" في برنامج البعث لا تعني الا الاستيلاء على السلطة و هي صيغة نظرية ايضا تحتوي اشكالا اخرى من الباطنيات البعثية و هي:

1-تجريد المجتمع من التعددية الثقافية.

2-السيطرة على الجينالوجيا المجتمعية, اي التبعيث الشامل و القضاء على جميع الاختلافات الاجتماعية و الثقافية و وضعها في دائرة البعث.

3-وضع صورة كاريزمية للرئيس, يكمن في سياقها التسامي النبوي و الرجولة الاستثنائية بين العرب. سنأتي بالحديث عن هذه النقطة بالتفصيل فيما بعد.

4-تأسيس سلطة (بايو - فيزيكية) للكاريزما هذه, تمكنها لافشال فعالية السلطات الاجتماعية و الدينية و العائلية.

5-تكريس مفهوم القتل بين شبكات الحزب و من خلالها داخل المجتمع كاجراء طبيعي ضد اللااطاعة. و بالتالي تأسيس حالة "نعم" الدائمة لنموذج الكاريزما القومية الافضل.

6-وضع حد للحالة الكردية التي هي كبرى البؤر السياسية – الثقافية في الشرق الما بعد – كولونيالي و انصهار الاقليات في جسد الامة العربية.

بعد هذه المقدمة القصيرة عن منطلقات الايديو – اجرامية لحزب البعث في المنطقة نستطيع الولوج في عمليات "الافنا - عرقية" Genocide التي نفذها البعث في كردستان (الجزء الملصق بالدولة العراقية) تحت اسم الانفال[1]. و هي عملية / عمليات تحتوي كل عناصر "الافنا - عرقية" اذا قارناها بالمبادئ الدولية التي تقرر ذلك.

1-افناء اعضاء مجموعة اجتماعية.

2-الحاق الضرر الروحي و السايكولوجي بالاعضاء المنتمية لتلك المجموعة.

3-اختيار اساليب محددة لحياة المجموعة و السيطرة عليها من خلالها, ثم افنائهم.

4-وضع الدستور لتحديد نسبة النسل داخل المجموعة.

5-ابعاد الاجيال الجديدة للمجموعة قسرا و وضعهم عند مجموعة اخرى.

نلاحظ ان هذه المبادئ الدولية التي وضعت عام 1948 تطابق تماما مع سياسات سلطة البعث ضد الكرد في العراق منذ الاتيان بها الى الحكم. و التي بدأت بها خطوة خطوة و ضمن مخطط مدروس تسعى لانهاء العنصر الكردي. بدت ذروتها عام 1988. و ارى لزاما على العودة الى ما قبل هذا التاريخ. كون الانفال و باستثناء اسسها النظرية – الايديولوجية التي تبدأ من عام 1947 – ولادة البعث – لها امتدادات زمنية متفاوتة و ارى من الضروري التطرق اليها لا كعمليات منفصلة, بل مترابطة و تمتلك بعدا واحدا و هو التحكم بالجينالوجيا الكردية و تحديدها حسب النظرية البعثية.

و تتضح هذه الفكرة من خلال جملة قالها "عفلق": (ان مواجهة الفكر الهدام لا تتم بالرد و الحوار, بل تتم بقتل حاملي ذلك الفكر و المقتنعين به) و يقول في مكان آخر: (ان الكرد في العراق و سوريا و البربر في مغرب الوطن العربي يشكلون العرقلة امام مشروع الوحدة العربية و يجب افناؤهم).

بدأت الانفال عام 1971 عندما قامت الحكومة العراقية بتنفيذ سياسة (التبعيث, التعريب, التهجير) في المناطق الكردية "كركوك, خانقين, شنغار, طوز خورماتو". و اعتمدت هذه السياسة على مصادرة اموال اكثر من 40 الف عائلة كردية و من ثم ترحيلهم قسرا, و بالتالي جلبت عشائر عربية الى مناطق سكناهم. هذا و نفذت السلطة البعثية امحاء ذاكرة الامكنة بتغيير الاسماء الكردية فيها الى اسماء عربية, بالاضافة الى تشكيل بعثات اثرية تنقب و تعمل وفق نظرية الانتماء للعرب و عدمية غيرها, اي وضع حد لوجود الامة الكردية. (تعليق: في الشطر السوري ايضا من البعثية العفلقية العفنة تم القيام بهذه السياسة العنصرية حيال الكرد هناك كمشروع "الحزام العربي" سيئ الصيت و تهجير الكرد من مناطقهم و جلب مواطنين عرب

من محافظات اخرى, و تغيير اسماء القرى و المعالم التاريخية الكردية الى العربية بغية تغيير الطبيعة الديموغرافية للمناطق الكردية - اوراق كردية) و قد صدر قرار خاص بخصوص هذه المسألة بتاريخ 1980/5/7 استنادا الى احكام الفقرة الـ"2" من المادة الثانية و الاربعين من الدستور المؤقت, و كان القرار بتوقيع "صدام" فيما يأتي نصه:

1-تسقط الجنسية العراقية عن كل عراقي من اصل اجنبي اذا تبين عدم ولائه للوطن و الشعب و الاهداف القومية و الاجتماعية العليا للثورة.

2-على وزير الداخلية ان يأمر بإبعاد كل من اسقطت عنه الجنسية بموجب الفقرة الـ"2" ما لم يقتنع بناء على اسباب كافية بأن بقاءه في العراق تستدعيه ضرورة قضائية او قانونية او حفظ حقوق الغير الموثقة رسميا.

3-على وزير الداخلية تنفيذ هذا القرار.

توقيع

صدام حسين

(تعليق: في سوريا, قامت الحكومة التي سبقت وصول حزب البعث الى السلطة بانقلاب عسكري عام 1963 بمهمة تجريد شريحة واسعة من الكرد من الجنسية السورية يبلغ تعدادها الآن اكثر من 250 الف انسان كردي في محافظة الحسكة, و بذلك اراحت حكومة البعث من هذه المهمة "التاريخية" – اوراق كردية).

في عام 1976 هجرت القرى الكردية الواقعة في عمق (10-20 كم) مع الحدود الايرانية و حصر قاطني هذه القرى في مجمعات قسرية اعدت لهم قبلا. و بعد عام من هذا التاريخ 1977 موعد اجراء عمليات الاحصاء السكاني العامة في العراق قامت السلطة ضمن مشروعها في التبعيث و التعريب بتحويل الاقضية و النواحي التابعة لمدينة كركوك كـ(طوزخورماتو, كفرى, خانقين, داقوق, سرقلعة, جلولاء) الى مدينة تكريت مسقط رأس صدام. تزامنا مع هذا بدأت بفتح المدارس في القرى الكردية باللغة العربية. (اتذكر هنا كيف جلبوا لنا الكتب و الف باء العربية عام 1978 و نحن نعيش في قرية معزولة في مناطق گرميان التي ترجع جذور اللغة الكردية فيها و تاريخ قاطنيها الى زمن الديانة الزرادشتية) استمرت هذه السياسة الى عام 1979 حيث سيطر فيه صدام حسين عمليا على زمام الحكم و بدأ بإبعاد "كرد اللور" –الفيلية- اذ تم ترحيل (300) الف عائلة منهم الى ايران بالاضافة الى اعتقال (15) الف شخص لم يعرف مصيرهم. جردوا هؤلاء الناس من جميع ممتلكاتهم الشخصية و المدنية و تم فصلهم بالمطلق عن المجتمع.

نستنتج هنا و اعتمادا على تلك الوقائع ان النظام العراقي جسد كل الشروط الدولية التي تقر بوجود سياسة الـ "Genocide" ضد الشعب الكردي. لأنه اقتلع الانسان من الارض و سيطر على جميع الوسائل البشرية و الثقافية و البيئية التي تساعد الانسان للاستمرار في الحياة.

و اذا انتقلنا الى مرحلة الثمانينيات و التي بدأت الحكومة العراقية بحربها ضد ايران نرى ان

(النشاط الافنا - عرقي) Les actes du Genocide يزيد في القرى و الاقضية و النواحي و اخذ يعطي ابعادا تكون اكثر خطرا من السابق. لأن النظام بدأ يستخدم الاسلحة الكيمياوية في المناطق التي يصعب قياسها بالسيطرة عليها. اما المناطق التي سيطر عليها فزج سكانها في مجمعات قسرية و قلاع محكمة و مسيجة بالمخابرات و الامن و العسكر و القوات الخاصة و ميليشيات الحزب.

تساعدنا هذه الوقائع للوصول الى (الواقع الافنا - عرقي) reialite du Genocide و الذي جسدته الفاشية في كردستان و كانت ذروته "الانفال", التي كانت تحديا حضاريا و اخلاقيا تجاه الكرد فرضه نظام فاشي امام المجتمع الدولي. اتسمت الانفال بجميع عناصر الابادة (القتل الجماعي, حصر الناس في مجمعات قسرية, حرق الاراضي و تدمير القرى "الارض المحروقة", اغتصاب النساء, استخدام الاسلحة الكيمياوية المحرمة دوليا, تسميم منابع المياه في كردستان, الاعتقال العشوائي.. الخ من النشاط الافنا - عرقي).

و كانت البداية لهذه العملية عام 1983 حيث انفل فيها 8000 آلاف من العشيرة البارزانية تحت جو من السكوت دوليا و اقليميا, ثم استمرت تبعيثا و تعريبا و ترحيلا في المدن التي ذكرناها, قصفا و تدميرا و قتلا في سائر القرى الى عام 1987 الذي اصدر فيه النظام عفوا عاما للكرد القاطنين في القرى الواقعة تحت سيطرة "البيشمرگه" و في العام ذاته بدأ النظام ببناء مجمعات قسرية مسيجة بالميليشيات البعثية و القوات الخاصة و مرتزقة الكرد للكرد الذين يتركون قراهم خوفا من العمليات العسكرية المستمرة ضدهم, خاصة ان اشارات هجوم عسكري شامل على كردستان بدت وشيكة. هذه الانفالات المتتالية التي بدأت نظريا مع ولادة حزب البعث و عمليا مع تسلمه للحكم في العراق, تضعنا امام فكرة مهمة و هي ان الانفال الكبرى 1988 لم تكن نتاج وضع سياسي و عسكري معين كالحرب العراقية – الايرانية 1980-1988 او الضغط على الحركة التحررية الكردية للاستسلام. بل كانت استراتيجية بعثية استلهمت من تراث دموي في الثقافة القومانية, و مشروعا لاعلان موت الكرد كما اقره "عفلق" من اجل مشروع اكبر و هو "الوحدة العربية"[(2)]. و كان المخطط الهندسي البعثي للانفال موزعا بين مستويات عدة في التفكير و العمل. يبدي المستوى الاول فيها على شكل استعراضي "فرجوي" لتكريس مفهوم الانتماء للعروبة المتجسدة في الشعار المركزي للحزب "امة عربية واحدة, ذات رسالة خالدة". اما الوجه الباطني للمستوى ذاته, فاخذ طابع الترقب و الحذر من احساس الانسان الكردي بالاغتراب تجاه هذه الايديولوجيا التي تدعيه للانصهار و التلاشي او بالاحرى الموت. لأن الشعار و ما يحمله من معان و رموز يضع "الاخر" امام حالة من الخوف و الحذر, لان المستوى الثاني من التبعيث هو الخوف بذاته و تتمخض عنه شروط قاسية للاخضاع. و لما بدت حقيقة رفض الكرد للانصهار -

الموت- عرقيا مع الوضع العربي و عدم التخلي ايضا عن الارض التي هي الحياة و الذاكرة, بدأت الواقعية البعثية بالعمل وفق امكانيات –واقع- المستوى الثالث و هي الكتابة الحفرية لشعار الوحدة و النهضة على الجسد الكردي بمعنى آخر دعوتهم للموت علنا. من هنا نتوصل الى مفهوم "الساحة اللاقتالية" التي ذكرناه في بداية هذا المقال, و تعني هذه "اللاقتالية" الانفال, لأنها اعتمدت كعملية الـ"افنا – عرقية" على اللاتوازن في التخطيط و القوة. كان الاول فيها – البعث و امكاناته التقنية و الاعلامية – يملك الآلة الحربية الحديثة من الطائرات و الدبابات و المدافع و الاسلحة الكيمياوية و الاعلام بالاضافة الى قدرته على التعتيم على ما يقوم به. اما الثاني –الكرد- فما كان يملك غير الترقب لموت آتٍ من السماء و الارض.

و كان المجتمع الدولي في هذه المعادلة طرفا للتعتيم لا اكثر, اي "المناصفة في الجريمة و الصمت" حسب تعبير (يوتست هيلتر مان). اراه ضروريا هنا الدخول الى حيثيات هذه العملية –الانفال- و لو جزئيا بغية تحديد هذه الساحة اللاقتالية و سلوك البعث فيها مع المدنيين الكرد العزل.

في عام 1987 قصفت القوات العراقية مراكز قيادات الاتحاد الوطني الكردستاني في مناطق "سرگلو و برگلو" و الحزب الديموقراطي الكردستاني و الحزب الشيوعي العراقي في مناطق بهدينان بالاسلحة الكيمياوية, و عندما رأت الحكومة العراقية سكوت المجتمع الدولي عن هذه الخطوة في اختراق القوانين الدولية للاسلحة المحرمة دوليا, وسعت نطاق عملياتها مطمئنة من عدم تحرك دولي, فكانت الانفال التي بدأت في العام ذاته, و شارك فيها (الفيلق الاول و الخامس من الجيش, مديرية الامن العامة, مديرية الاستخبارات العسكرية, فيالق من جيش غير نظامي "الجيش الشعبي", ميليشيات من الحزب الحاكم "القوات الخاصة", الحرس الجمهوري, افواج من الكرد المرتزقة للنظام "الجحوش").. بالاضافة الى مساندة هذه القوات بالدبابات و المصفحات و المدافع الثقيلة و الخفيفة و الميدانية, و المروحيات و الطائرات المزودة بالقنابل الكيمياوية و الاسلحة المحرمة دوليا. في البداية قصفت الطائرات اكثر من اربعين هدفا في كردستان, ثم بدأت العمليات بقيادة (علي حسن المجيد) المعروف عند الكرد بـ (علي الكيمياوي) تحت شعار (تصفية او تجميع). و وزعت العمليات على ثلاث مراحل (21 ابريل – 20 مايو) و (21 مايو – 20 يونيو) اما الثالثة فبدأت بعد اربعة اشهر من هذا التاريخ. احرقت خلال هذه الفترة اكثر من 700 قرية و حقول زراعية و مدارس و مساجد. ثم استمرت تحت اسماء الانفالات الرابعة و الخامسة و السادسة و السابعة و الثامنة في جميع مناطق كردستان الى شهر سبتمبر 1988 اذ اعلنت الحكومة رسميا عن النهاية المنتصرة لعمليات الانفال و عن "عفو عام عن الاكراد المخربين"[(3)].

نستطيع القول هنا ان الانفال كانت "ساحة لا قتالية" بين نظام فاشي يملك جميع مفردات القتل

و الابادة و بين ذات لا تملك حتى وسائل الدفاع, و كانت الساحة هذه, مجالا حيويا لتجسيد ايديولوجيا البعث و ماراثوناته الافنا – عرقية لتكريس العروبة على اجساد الآخرين. فلننظر الى هذه الوثائق التي تكشف الوجه الحقيقي لهذا الحزب قبل البدء بالانفال في كردستان.

بعد ان تم تنصيب (علي حسن المجيد) و بقرار من ما يسمى بمجلس قيادة الثورة 29/مارس/1987 الرجل الاول و ممثل قيادة الثورة في المنطقة الشمالية "كردستان", حيث جاء في القرار الصادر عن ما يسمى بـ(مجلس قيادة الثورة): (تنفذ قرارات الرفيق علي حسن المجيد من قبل مؤسسات الدولة العسكرية و المدنية و الامنية, و يفرض قراره على جميع المسائل التي تتعلق بمجالات عمل مجلس الامن الوطني و لجنة شؤون الشمال) و هناك قرار آخر و من صدام حسين يقول: "تنفذ قرارات و توصيات – المجيد – من قبل جهاز الاستخبارات العسكرية و قوات الامن الداخلي و قيادة الجيش الشعبي و جميع القيادات العسكرية في الشمال دون المناقشة".

و قد قرر "علي الكيمياوي" منذ لحظة تنصيبه القاتل الاول في كردستان من قبل "صدام", ان يسيطر على وضع المنطقة خلال سنتين. و تكون خطوته الاولى تدمير القرى و تجميع سكانها في المجمعات القسرية. و قال في كلام واضح "لا يبقى منزل واحد في القرى الكردية في سهل اربيل الا القرى العربية" – لا توجد قرى عربية في سهل اربيل – ثم يقول: "انا اشرف بنفسي على العملية و اذا بقي منزل واحد ساعرف ماذا افعل بالقيادة المسؤولة للعملية". و هذه الخريطة للمجمعات القسرية التي اعدت قبل الانفال تثبت ان المدة التي اقترحها علي الكيمياوي كانت خطة مدروسة عسكريا و في حال مقاومة "البيشمركه" فالسلاح الكيمياوي هو الردع المناسب.

	اسم المجتمع	مكان
1	الصمود	بين كفري و كلار
2	النصر	شهرزور
3	الاخوة	شهرزور
4	حلبجة الجديدة	شهرزور
5	شورش	جمجمال
6	تكيه	جمجمال
8/7	بازيان 1 / بازيان 2	بازيان
9	باينجان	بازيان
10	كوبالة	بازيان
11	اللاهي	بازيان
12	بيرەمەكرون	دوكان
13	حاج آوا	پشدر
14	سروچاوه	پشدر
15	تاسلوجه	بكرەجو
16	قادسيه	بكرەجو

و بالنسبة للاسلحة الكيمياوية, تعطينا هذه الوثيقة التي اعدت من قبل الامم المتحدة تحت رقم

(5/198/6) في 21 ابريـــــل 1988 صـــــورة توضيحية لعدد الضحايا في كردستان:

السنة	عدد الضحايا
1981	11
1982	29
1983	574
1984	2237
1985	3267
1986	11141
1987	13496
1988	13673

الآثار التي تظهر على الانسان مستقبلا:

1-الاصابة بالعقم او تشوه الجهاز التناسلي مما قد يسبب ظهور حالات تشوه بالولادات او حصول ولادات ميتة.

2-الاصابة بالامراض السرطانية المختلفة سواء بصورة مباشرة او لاحقا.

3-تشوه الصفات الوراثية التي تنتقل من الآباء الى الابناء.

اما عمليات الانفال الميدانية فاتسمت بسمات محددة و هي قصف مكثف في البر و الجو و بالاسلحة الكيمياوية على مواقع (البيشمرگه) و قرى المدنيين و من ثم هجوم عسكري شامل, يكون المهاجم "القاتل" فيه مخولا بقتل كل انسان و كل حيوان و تدمير المنازل, نهب كل الممتلكات و كل ما تقع عليه ايديه باعتباره غنائم حرب. و تتم احالة الاسرى الى قلاع مهيأة سلفا قرب مواقع القادة الميدانيين لغرض استجوابهم اولا و من ثم تسليمهم الى فرق الاعدام المتكونة من عناصر مختارة من الاستخبارات و الحزب الحاكم و الامن الداخلي. تزامنا مع هذا يتم مسح و تمشيط شاملين في الجبال و الوديان و وضع نقاط تفتيشية محكمة للقبض على كل من يحاول الهرب نحو المدن, و من ثم البحث داخل المدن و القصبات عن الذين استطاعوا الوصول اليها.

الى هنا كنا نتحدث عن المستوى الثالث لاستراتيجيا البعث في كردستان, ننتقل الآن الى المستوى الرابع الذي هو ذروة فاشية البعث. فبعد جميع العمليات التي تطرقنا اليها بشكل جزئي تمت احالة عشرات الآلاف من الكرد رجالا و نساءً و شيوخا و اطفالا الى مجمعات عسكرية كـ"توبزاوه, كوب تهبه, قورتو, دبس", و هذه كانت الخطوة الاولى, اما في الخطوة الثانية فتمت احالتهم للمرة الثانية الى جنوب العراق الصحراوي "نقرة السلمان, الرمادي, السماوة, صحراء (العرعر) قرب السعودية". و هناك معلومات تشير الى نفي الكثير من المؤنفلين الى دول عربية كـ"السودان". و ليست لدى الكرد و حتى منظمات حقوق الانسان العالمية وثائق مؤكدة حول هذه الاخيرة بسبب سرية العملية.

اما بخصوص المؤنفلين الذين سلموا الى القوات الخاصة و الحرس الجمهوري في الجنوب فتم قتلهم و دفنهم بشكل جماعي. بهذا تم انجاز اكبر عملية الانفا – عرقية في كردستان راح فيها (182000) الف كردي, علما ان القتل و الدفن الجماعيين ما كانا بالامكان لولا تعتيم و سكوت دوليان حول ما

حدث في كردستان. فمن حق "يوست هيلترمان" التركيز على اشتراك المجتمع الدولي في "Genocide" ضد الكرد. و الا كان بالامكان وضع حد لفاشية البعث عندما قصف مدينة "حلبجة" و بقرار مباشر من "صدام حسين" بالاسلحة الكيمياوية و التي لقي فيها اكثر من (5000) آلاف كردي مصرعهم, و هناك نقطة اخرى جديرة بالاشارة و هي ان عمليات القتل الجماعية في الجنوب ما كانت تكتشف لولا مشاهدة الاشخاص السبعة الذين استطاعوا الهرب في قلب ظلام الليالي, ثم الوثائق التي تم الحصول عليها اثناء انتفاضة الشعب الكردي في آذار 1991, و التي يقدر عدد صفحاتها بـ(4-5) مليون صفحة و تزن اكثر من 10 اطنان, و هي الآن بحوزة الحكومة الامريكية, و انجزت منظمة حقوق الانسان في الشرق الاوسط و اعتمادا عليها كتابا بعنوان "الجينوسايد في العراق و حملة الانفال ضد الكرد" باللغة الانكليزية و ترجم الكتاب الى اللغة الكردية من قبل السيد "سيامند مفتي زاده".

الانفال التاسعة و تتماتها

نفذت الانفال في ثماني مراحل و هي مدونة بكل حيثياتها في الوثائق البعثية, اما التاسعة منها فلم تدون, او بالاحرى اختلفت التسمية و تم الاشتغال على اسماء اخرى كـ"الصمود, النصر, الحرية". و هي اسماء لتلك المجمعات القسرية التي بنتها الحكومة قبل الانفال و زجت فيها الكرد الذين وصلوا الى المدن عامي (1987-1986) و سكان المدن الكردية الواقعة على الحدود الايرانية كالـ(بينجوين, قلعه دزه, سيد صادق, رانيه.. الخ) من المدن و الاقضية التي تم تدميرها بالكامل و تحويلها الى بؤر و مناطق عسكرية. كانت الانفال في هذه المرحلة بغية السيطرة على الكرد من خلال الوسائل الاكثر وضوحا و انضباطا بالنسبة للبعث, و نستطيع تحديدها بالشكل الآتي:

1-تشكيل فرق حزبية و عسكرية خاصة لمراقبة هذه المجمعات.

2-بناء المجمعات من حيث مواقعها الخارجية و اشكال تخطيطها الداخلية بشكل يتناسب مع عمل تلك الفرق.

3-توزيع المواد الغذائية و المياه فيها من خلال بطاقات تمنحها المنظمة البعثية المسؤولة, و يتم التأكد من خلال هذه البطاقة من حاملها.

4-فتح ملف خاص لكل عائلة و افرادها و كتابة كل المعلومات اللازمة "بعثيا" عنها.

5-مراقبة التحرك الداخلي و السيطرة على العلاقات الاجتماعية بين السكان.

6-منع تأسيس المعامل و المنشآت الحيوية اقتصاديا.

7-منع الفلاحين بالعودة الى العمل في اراضيهم في القرى المدمرة "الاراضي المحرمة".

8-العمل الدائم لتوسيع دائرة التبعيث و التعريب.

9-ازدياد حدة الترحيل في كل من كركوك و خانقين و سنجار و اجبار المرحلين لاختيار هذه المجمعات.

تزامنا مع هذه السياسة بدأت الحكومة العراقية بمنع اللغة الكردية في الكثير من المدارس و المعاهد في المدن الرئيسة "السليمانية, اربيل, دهوك" علما ان مشروع الابادة بالشكل الذي حصل في القرى و المدن الحدودية و من ثم في المجمعات القسرية شمل المدن الرئيسة ايضا و تعرضت معالمها الحضارية و الثقافية و السكانية و التاريخية الى عمليات استحمائية شاملة. و بالتالي تحولت كردستان الى مجالات مفتوحة للنشاط الامني و الاستخباراتي و العسكري كنشاط موازٍ لمثلث التبعيث و الترحيل و التعريب. و كان عمل البعث في هذه المرحلة في تنفيذ الانفال سهلا نوعا ما, فهو يقوم بماراثوناته "الافنا – عرقية" على الجسد الكردي الذي صار معزولا عن العالم, و الاتصال الوحيد الذي بقي لديه بعالمه الخارجي هو استدعاؤه للموت في جميع الحالات. اذ صارت للموت امكانيات واقعية تكمن في سياقها صورة الدولة العراقية بحيثياتها المستلهمة من تراث و تاريخ دمويين اولا, و وضع عربي عام ثانيا, و بدت في هذا الثاني صورة "صدام" ككاريزما عربية و ليست عراقية فقط. اما الوضع الثالث فهو وضع مزدوج بين البترول و الصمت الدولي تجاه الكتابة الحفرية على الجسد.

مفارقة راكدة في التأريخ

يتسم تاريخ الفاشية في العراق بطابع جد غرائبي في اساليب انتاجه للكاريزما و الشمولية و السرية و القتل.. الخ. و ضمن هذه الغرائبية تتابع تاريخي بينها و بين حركات فاشية في المكان ذاته, مرت على وجودها قرون. اذ نلاحظ ان هناك تشابها جد واضح بين شخصية "الحجاج بن يوسف الثقفي" و بين "صدام" في اسلوب القتل. كان الاول يسأل "انس بن مالك" لشرعنة افعاله الاجرامية. و ما على ابن مالك الا مقاربة افعاله بالخطوات التي اتخذها النبي "محمد" (ص) في تعامله مع الخارجين عن الاسلام و الذين كانوا يرتكبون اعمال القتل, و بهذا استطاع "الحجاج" مستلهما من نصائح عرافه تطبيق ما يدور في رأسه من الافكار حول القتل على الارض. اما "صدام" فعبر عن سلوكه الدموي من خلال توظيفه لرموز اسلامية و آيات من القرآن و الاحاديث النبوية كما هي الحال في الانفال و كان عرافه الاول هو "عفلق" و المثقفون القوميون.

و لا بد للاشارة هنا الى نقطة اخرى في سلوكه و تركيبته النفسية التي انتجهما وضع عائلي جد معقد و في جوٍ من التعتيم حول الاب الشرعي له. ان هذه الشخصية تبحث دائما عن خيوط تكشف لها ذلك الوضع العائلي المعقد الذي ولدت فيه. و حسب الدراسات السايكولوجية فإن سلوكه الحالي ليس حديثا بل انه يرجع الى طفولته المنشطرة بين الاب و امومة وضعتها امام سؤال دائم حول الاب. حسب المقربين له فإن رغبة القتل و الاجرام كانت صفته

المميـزة في بيئتـه التكريتيـة -العوجـة- آنـذاك. و لا نعـرف شـيئا عـن طفولـة "الحجـاج". اتينـا بهـذه المقاربة التشخيصية بغية فتح باب المجالات الـتي تم العمل فيها – عملية القتل- وفق شـروط تاريخيـة و آنية في وقت واحد, و ضـد الكـرد بانفـالات مسـتمرة 1975 – 1983 –1987 –1988 و احـد هـذه المجالات – الفضاءات – هي "نقرة السلمان" الواقعة على الحدود السعودية. كان مسؤول "نقرة السلمان" عـام 1988 يسـمى بـ"الحجاج", و كـان يتميـز باساليب خاصة به في القتل و الـدفن و التعـذيب. و احـد هـذه الاسـاليب هـو سماحـه لحفر القبر للـذين يموتون جوعا او تعـذيبا اكثـر مـن عمـق نصـف مـتر خـارج السـور الرملـي للسـجن بامتـار معـدودة, و في الوقت ذاته ما كان يسمح باعطاء الطعام للكلاب. و بهذا كان يدرب الكلاب على اكل الموتى, و من صفاته الاخـرى كـان يسـتمتع بمشـاهدة النسـاء و الاطفـال الذين يتزاحمون من اجل الحصول على لتر واحـد او اقل من الماء في شدة الحر الظهرية, ثـم اختيـار احـد المنتظرين للحصول على الماء للتعـذيب امـام الجميـع. و قد ظهرت آثار فيما بعد عند العجائز الذين اطلق سـراحهم انهـم يعـانون مـن نقـص الملـح في الجسـم. و السبب هو تصفية المياه التي كانت توزع على المؤنفلين في "نقرة السلمان" من الملح قبـل توزيعها. انها لمفارقـة غريبـة بـين حـركتين فاشـيتين في العـراق تلتقيـان في مجالات القتل الحيوية رغم بعد الازمنة بينهما.

الانفال و الرؤية الكردية

غيرت الانفال الكثير مـن المفـاهيم الفكريـة الـتي كانت سائدة في الثقافة الكردية, و ظهرت على اثرها اشـكال جديـدة مـن الدراسـات النقديـة الفكريـة و السياسية و التاريخية, لأن الانفال حملت معها ابعـادا جديدة للعلاقة بين الكرد و جيرانـه "مسـتعمريه". ثـم المشـروعات الـتي تخطـط بايـاد "فيتشـوية", و كشـفت في الوقـت ذاتـه اسـتحالة التغـيير في الموقـف العربـي الشـعبي و الرسمـي و حتـى الثقـافي تجـاه القضية الكردية و الشعب الكـردي باسـتثناء اصـوات داخل النخبة المثقفة التي وقفت ضد "Genocide" في كردستان كموقف لعلامة الراحل "هـادي العلـوي" مـن قصـف "حلبجـة" بالاسـلحة الكيمياويـة. هـذا بالاضـافة الى اعـادة النظـر عنـد المثقـف الكـردي في علاقتـه مـع الثقافـة العربيـة و مشـروع النهضـة. دفعت هذه العوامـل و غيرهـا المثقـف الكـردي باتجـاه قراءات نقدية و تحليلية للانفال. تختلف ادواتها عن تلك الادوات البكائية التي تعتمد الرثـاء و البكائيـات و الـتي اسـتمرت الى بدايـة النصـف الاول مـن التسعينيات من القرن السابق.

كـان التعـبير Expressione العـاطفي هـو المولـد الاساسـي للجملـة النقديـة الـتي كانـت تبـث صـوراً تراجيدية للآخر بدل الولوج في تشريح آليات القتـل لدى القاتـل و مـن ثـم تقريـب الـذات –ذات المثقـف- للاسـباب الـتي تـؤدي دائمـا الى التتبـع في الهزيمـة. ظهرت هنا ساحة لا قتالية اخـرى في معادلـة الافنـاء و الابـادة ضـد الكـرد. لأن القاتـل يملـك كـل وسـائل

الاتصال و الاعلام و يقوم بالتعتيم على كل ما يقوم به من القتل. بالمقابل يحاول الكرد الاعتماد على الرثاء و الخطاب البكائي لتبيان حقيقة حال القتل المستمرة في كردستان, و بالتالي كانت الانفال عبارة عن كتابة الذكريات عما جرى.

اما الخطوة الاولى للكتابة الحفرية المعتمدة على المنهج "الاحصا - معلوماتي" فهي قيام هيئات كردية و جهات دولية لحقوق الانسان بعملية احصائية لعدد المؤنفلين و تأرخة عمليات الانفال و كيفية تنفيذها, ثم تدوين المشاهدات و الوقائع حولها. و جاءت هذه الخطوة على اثر تلك الوثائق الحكومية التي عثرت عليها اثناء الانتفاضة الآذارية للكرد عام 1991. و ساعدت هي نفسها منظمة الشرق الاوسط لحقوق الانسان في اصدار كتاب "الجينوسايد في العراق و حملة الانفال ضد الكرد". و لولا هذه الخطوات التوثيقية, ما كان بامكان المثقف الكردي تاسيس اي خطاب تحليلي حول الانفال و التنظير فيها – يمكننا القول هنا ان المشروع الذي قامت به مجلة "رەهەند" الكردية هو الاول من نوعه في الثقافة الكردية حول الانفال. و قبل هذا المشروع كتبت اول دراسة نقدية تحليلية في جريدة "ڕێگای كوردستان" عام 1993 للكاتب "هاوری صباح", ربط الكاتب في دراسته تلك الانفال بالفكر البعثي –العفلقي- و حاول فيها اثبات نظرية الانصهار او الابادة ضد الكرد كمجتمع و كثقافة. و كانت الدراسة بعنوان "الانفال و العقل السياسي للبعث". ثم فتح ملف "رەهەند" نفسه بابا واسعا امام السؤال الجوهري للانفال كمشروع متكامل من عناصر الابادة و الافناء, و التي نفذت حسب استراتيجية مسبقة تعتمد المقولات النظرية صاغها البعث حول الاصالة العرقية و التي توجب سياسات التوسع القومي و العرقي جيوبوليتيكيا و ثقافيا و اقتصاديا. تزامنا مع هذا استطاع الكاتب و الصحفي "ستران عبد الله" الولوج الى جانب آخر من (Genocide) وهو الترحيل المستمر لكرد كركوك حتى الوقت الحالي. و قد حاول الكاتب اعتمادا على السياسات اليومية للبعث في كركوك و الوثائق المتعلقة بالترحيل, ان يطرح ملفا دائمياً حول الابعاد الخطيرة للترحيل. من هنا نستطيع القول ان الانفال, رغم انها حدث كارثي خلفنا, لكنها افتراض دائم امامنا ايضا.

الهوامش:

1-الانفال هي سورة من القرآن الكريم وظفها البعث في عملياته الافنا – عرقية في كردستان لاعطاء الشرعية الدينية لها "و اعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم و آخرين من دونهم لا تعلمونهم و الله يعلمهم و ما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم و انتم لا تظلمون" سورة الانفال الآية (60). "و اعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه و للرسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله و ما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان و الله على كل شيء قدير" سورة الانفال الآية (40).

2-يحاول بعض المثقفين العرب الى وقتنا الحالي طرح بعض المفاهيم الشوفينية ضد الكرد و يرون ان الكرد يشكل العرقلة الرئيسة امام مشروع الثقافة العربية. و من هذه الاسماء (حسن حنفي, ميشيل كيلو, فايز خضور, محمد عابد الجابري و زكريا تامر و آخرون).

3-تعبير بعثي لـ"پيشمرگه" اي "الفدائي" و الحركة التحررية الكردية عموما.

4-فيشتوية: اسم اله هندي, لها مئات الايدي و كل يد ستجس مكانا.

المصادر:

1-مجلة "رهند" العدد 7 عام 1999.

2-مجلة الثقافة الكردية العدد الاول – 1988 الموقف الايديولوجي لحزب البعث العفلقي من القومية الكردية للكاتب هوشيار زيباري.

3-الجينوسايد في العراق و حملة الانفال ضد الكرد, ترجمة سيامند مفتي زاده.

4-الترحيل برنامج مدروس في مراحل خطيرة, عبد القادر سعيد - مجلة "هزر" العدد 2 – 1999.

5-زهير الجزائري "آليات تركز السلطة" الثقافة الجديدة - العدد 258 عام 1993.

6-مجلة الفكر الجديد - العددان 25 –26 عام 2000.

7-في سبيل البعث - ميشيل عفلق – طبعة دار الطليعة – بيروت 1976.

8-صحيفة "نداء الكرد" العدد الثالث 2001 لندن (القانون العراقي و حملات التهجير سيئة الصيت) رياض العطار.

عن Amuda. Com

*خالد سليمان: كاتب كردي يقيم في كندا.

تصنيف جرائم الانفال
وفقا لأنواع الابادة الجماعية (الجينوسايد)

• د. معروف عمر گول*

➢ ترجمة: محيي الدين محمود

مقدمة:

حين نتحدث عن الانفال تتجسد امامنا صورة كاملة لمشروع شامل لابادة شعب كردستان و تخريب كامل وطنه. و ما نريد توضيحه هو كيف يمكننا تصنيف جرائم الانفال وفقا لانواع جرائم الابادة الجماعية.

لم تكن عمليات الانفال التي نفذها الجيش العراقي عام 1988م كارثة عظيمة في تاريخ الكرد وحدهم بل في تاريخ الانسانية ايضا. لأن عمليات الانفال كانت جرائم دولية بكل المعاني, و لهذا سنحاول تحديد هذه العمليات العسكرية كجرائم ابادة جماعية و تصنيفها وفقا لخصائص جرائم الابادة الجماعية (الجينوسايد) و انواعها, ثم الوصول الى نتيجة مفادها: ان سياسة الحكومة العراقية المتبعة ضد الشعب الكردي هي سياسة ابادة جماعية.

ان ما تختلف فيه هذه الدراسة عما كتب في هذا الموضوع من قبل هو في استخدامنا منهج الدراسة العلمية و بلوغ النتائج النهائية. و في تحديدها لجرائم الانفال كنوع يندرج ضمن انواع جرائم الابادة الجماعية المتفق عليها.

و لتصنيف جرائم الانفال كجرائم ابادة جماعية سلكنا طريقين هما:

1) النظري: تعريف جرائم الابادة الجماعية كجرائم وحشية ضد الانسانية و فقا لما جاء في القانون الدولي.

2)التطبيقـي: كيفيـة تنفيـذ هـذه الجـرائم و وسائل تنفيذها و اشكالها.

و لكـي تتكامـل محـاور الدراسـة مـن الناحيـة العلمية و جدنا من المناسب تقسيمها الى ما يأتي:

اولا: معنى الابادة الجماعية و عمليات الانفال

ثانيـا: انـواع الابـادة الجماعيـة و انـواع الجـرائم المرتكبة خلال عمليات الانفال.

ثالثا: انواع الابادة الجماعية ومنع جرائم الابادة الجماعية و معاقبة مرتكبيها.

و قـد اعتمـدنا في هـذه الدراسـة على المعلومـات الموثقـة و المصـادر العلميـة الرصـينة لتكـون اساسـا علميا لها و في جانبي الموضوع النظري و التطبيقي.

الابادة الجماعية و الانفال

الابادة الجماعية هي جريمة وحشية ترتكب ضد الانسانية, و تعتبر في القانون الـدولي جريمـة دوليـة مـن خـلال مـا تعنيـه و هـو ابـادة جزئيـة او كليـة لمجتمع انساني معين[1].

ان ابادة أية جماعـة انسـانية و في أيـة بقعـة مـن العالم حتى لـو كانـت ابـادة جزئيـة هـي في الحقيقـة جريمة ضـد الانسـانية جمعـاء. و ذلـك لارتبـاط كـل جماعــة انسـانية بالجماعـات الانسـانية الاخـرى و لامتلاكهـا للعـادات و التقاليـد و الثقافـة و اللغـة و التـاريخ و الحضـارة الخاصـة بهـا و الـتي تجعلـها في حوار دائم فيما بينها.

لقــد اســتخدم (رافائيــل لــيمكين) لاول مــرة مصـطلح (الابـادة الجماعيـة) في مـؤتمر تم عقـده في (مدريد) عام 1933م و ثبت معنى المصطلح كتابة كــ(ابادة عنصــرية او تطهــير عرقــي) في عــام 1944م[2].

ان الابــادة الجماعيــة علــى الــرغم مــن تعــدد انواعهـا (كمـا سـنرى في القسـم الثـاني مـن هـذه الدراسة) الا انها لا تشمل ايـا كـان كفـرد محـدد بـل لانــه ينتمــي الى تلــك الجماعــة الانســانية الــتي تسـتهدفها الابـادة. و وفقـا لمـا يـراه (لـيمكين) فـإن جرائم الابادة الجماعيـة هـي مجموعـة مـن الافعـال هدفها تدمير حياة مجتمع و وطـن لابادتـه. و ذلـك مـن خـلال تـدمير مؤسسـاته او اسسـه السياسـية و الاجتماعيـة و الاقتصـادية و الثقافيـة و اللغويـة و مشاعره الوطنية و الدينيـة[3]. و لهـذا فـان الابـادة الجماعية تصبح جريمة منظمة تنفذ وفـق خطـط طويلـة الامـد و معـدة سـلفا و هـي بالاضـافة الى تحقيقها الابادة المباشرة تهيئ الظروف الصعبة التي يصبح فيها افـراد الجماعـة الانسـانية المستهدفة في حالة مـوت بطـيء يمـر بتقطيـع الاواصـر بيـنهم و ينتهي بإبادتهم.

و عند النظر الى جرائم عمليات الانفال في ضـوء ما ذكرناه سنجد فيها تجسيدا لكل خصـائص الابـادة الجماعية في كيفية التنفيذ و اشكال الجريمة.

ان الانفـال هـي سلسلة الهجمـات العسـكرية الـتي شنها الجيش العراقي في كردستان العـراق و بـداها في ربيـع عـام 1988 م و علـى ثمـاني مراحـل و انتهـى منهـا في خريـف العـام نفسـه. و قـد نفـذت تلـك العمليات وفق خطة عسكرية (مخابراتية) اقتصادية

, قانونية, اعدتها الحكومة العراقية و استخدمت عند التنفيذ بالاضافة الى الوسائل العسكرية التقليدية الاسلحة الكيمياوية و الفسفورية.

و قد قامت الحكومة العراقية قبل بدء العمليات بالاعداد الكامل لها و حددت جميع المناطق التي ستهاجمها و وفرت كل الامكانيات و المستلزمات المادية لتنفيذها.

ان اتساع مساحة المناطق التي هوجمت و السلوك و الممارسات العنيفة للجيش العراقي و المؤسسات ذات العلاقة عند تنفيذ الهجوم, يثبت ان تلك العمليات لم تكن نتيجة لسياسة آنية مفاجئة بل كانت استمرارا لسياسات سابقة للحكومة العراقية و محاولة لتحقيق اهدافها البعيدة المدى و التي تركت اثارها المدمرة الخطيرة في كل نواحي حياة الشعب الكردي و تاريخه المعاصر.

و هكذا نرى جرائم عمليات الانفال شأنها شأن جرائم الابادة الجماعية (الجينوسايد) لم تكن آنية و مفاجئة بل استمرار لسياسات و تنفيذ لخطط مختلفة اعدت سلفا و اهداف متعددة اعدت من قبل لتحقيق هدف اكبر و ابعد مدىً هو ابادة الشعب الكردي و تخريب وطنه من خلال تدمير كل اسس حياته الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بهدف السيطرة عليه و ابقائه في حالة موت بطيء يتشوه خلاله ماضيه و تعم الفوضى حاضره بحيث تستحيل عليه العودة الى حالته الطبيعية استمرارا لحياته الماضية لما تنطوي عليه هذه من ثقافة و تقاليد و آمال[4], و لو قمنا بمقارنة جرائم النازية ضد اليهود بعد الحرب العالمية الثانية بجرائم عمليات الانفال التي نفذتها الحكومة العراقية ضد الكرد لوجدنا اوجه شبه عديدة, لقد كانت جرائم النازية ضد اليهود جرائم ابادة جماعية في اطارها الزمني اي ابادة منظمة و كذلك هي جرائم الانفال جرائم ابادة منظمة. و هنا يجب التذكير بحقيقة هي انه لا يمكن تحديد مستوىً معين لابادة الانسان و ان مجرد ان تصبح الابادة هدفا لا تعود لكثرة الضحايا او قلتهم اهمية تذكر[5]. و نعني بذلك انه حتى لو كانت ضحايا اليهود اكثر عددا من ضحايا الانفال الا ان الاهداف و طرق التنفيذ في كلتيهما شديدة التشابه و تكاد تكون واحدة.

كان الاشراف على تجميع اليهود و قتلهم يتم من قبل مقر (هتلر) و كان نقل المعتقلين يتم في حاملات تغيير الوانها او تموه ثم الوصول الى اماكن محددة و قتلهم او خنقهم بالغازات السامة. ثم ترسل الرسائل الى ذويهم تعلمهم اسفة على موت الضحية بالانفلونزا على الرغم من كثرة محاولات الاطباء لمعالجتهم و انقاذهم[6].

و في مثال من هجمات الانفال نجد ما يطابق او يشبه هذا, فقد ارسل المواطن (عاصي مصطفى احمد) رسالة الى الرئيس السابق للعراق (صدام حسين) يستفسر فيها عن مصير زوجته و اطفاله. فيصله الجواب من ديوان رئاسة الجمهورية العراقية في 1990/10/29 بأن زوجته و اطفاله قد فقدوا خلال هجمات الانفال عام 1988م[7].

يحدد (راؤول هيلبيرك) تاريخ المحرقة (الهولوكوست) بثلاث مراحل هي: التحديد, الجمع, الابادة[8], و بنفس الطريقة قامت الحكومة العراقية قبل فترة من بدء عمليات الانفال (بالتحديد) من خلال عزل القرى و القصبات عن المدن و حددت المناطق و الناس الساكنين فيها بهدف السيطرة تمهيدا لتغييبهم او التصرف بهم و يشبه هذا اسلوبا من اساليب النازية في ابادة اليهود, حيث كان اللجوء الى جمع المعتقلين في معسكرات خاصة ثم ابادتهم مجموعة اثر اخرى و باساليب مختلفة منها ان يحفر المعتقلون حفرة ثم حشر النساء و الاطفال فيها و اعدامهم رميا بالرصاص[9].

يروي احد المؤنفلين الذي كان ضمن مجموعة تم رميها بالرصاص و تمكن بعد اصابته بجروح و بالصدفة و بعد جهد جهيد من الافلات و يدعى (تيمور): بعد قيام الجرافة بطمر الحفرة التي اعدم فيها النساء و الاطفال بالتراب استطاع (تيمور) الافلات في الظلام.. و الاختفاء[10].

في عمليات الانفال لم يميز الجيش العراقي بين المدنيين و مقاتلي الحركة الكردية, حيث اعتقل الجميع دون تمييز و قتلوا. لقد اخبر كولونيل سابق في الجيش العراقي (ميدل ايست ويچ): صدرت الاوامر بقتل جميع البيشمرگه حتى المستسلمين منهم, و اعتبر حتى الفلاحين المدنيين في المناطق المحرمة (پيشمرگه) اي انه اعتبر جميع الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين (15-60) سنة في المناطق المحرمة مخربين – يجب قتلهم.

لقد رسمت المناطق المحرمة في الخرائط العسكرية باللون الاحمر و كل ما فيها مشمول بالتحريم عدا الطرق المبلطة. و كما يذكر الضابط العراقي تم تبليغ الامر الى مستوى قادة الفرق بكتب رسمية, و تبليغ الضابط من مستويات ادنى باوامر شفهية. و استنادا الى ما جاء بكتاب (مكتب الشمال) العدد 4008/360 في حزيران 1987م، حيث تضمن اوامر ثابتة ظلت سارية المفعول لمدة عامين بما فيها فترة عمليات الانفال[11].

و لو اجرينا مقارنة اخرى لعمليات الانفال و هذه المرة بعمليات ابادة الارمن. سنجد هدفا واحدا يكمن خلف سياسة الحكومتين العراقية و التركية و هو الابادة و التدمير بكل الوسائل. ذكر السفير الامريكي في تركيا للفترة من (1913-1916) (هنرى مورگنتاو): لقد كان الارمن بسبب القمع الوحشي التركي يعيشون حالة موت بطيء و لم يكن يمر يوم في الولايات الارمنية من غير قتل و هجوم[12].

الا اننا سنجد في سياسة الحكومة العراقية ما يتجاوز القتل و التدمير الدائم الى استخدام واسع للاسلحة الكيمياوية بحيث صار آلاف الناس ضحايا من ضحاياه و تسممت به الطبيعة و الاجواء و نجمت عنه عواقب وخيمة لاعلى الانسان وحده بل ادت الى قتل الاحياء و الحياة.

في ايام مذابح الارمن قبل الحرب العالمية الاولى كان الاتراك ينظرون الى الارمن باعتبارهم (خونة) و لغرض استخدامهم لصالح الاتراك طلب (حزب الاتحاد و الترقي التركي) من حزب (الطاشناق) الارمني تشكيل مجاميع مسلحة لمساعدة الاتراك في حربهم ضد الروس او للاستعانة بهم في اي شأن آخر و اذا لم يتعاونوا فإن عواقب وخيمة ستحل بالارمن(13).

نجد الامر نفسه عند استخدام الحكومة العراقية لافواج المرتزقة (الجحوش) الكرد ضد الكرد انفسهم و خلال عمليات الانفال خاصة. وصرفت لهم الاموال الطائلة و سمح لهم بالنهب و التخريب كما يشاءون و كما ورد في قرار الحكومة الرسمي المرقم 4008/28 في 1987/6/20 (يسمح للمسلحين الاكراد الذين يسمون (الافواج الخفيفة) او (افواج الدفاع الوطني) بنهب و تخريب اي شيء)(14).

هنا نصل الى نتيجة مفادها: ان هجمات الانفال تمت على الوجه الآتي:

1-ان النظام العراقي قد اتخذ جميع الاجراءات و انجز كامل استعداداته لتنفيذ العمليات قبل الشروع فيها.

2-حدد المناطق التي جعلها هدفا لهجومه.

3-بناء على ما جاء في وثائق النظام الرسمية: ان هدف الهجمات هو قرى كردستان و هذا يعني ان المدنيين صاروا هدفا مباشرا للهجمات.

4-ان الجيش العراقي لم يميز خلال هجماته بين مقاتلي الحركة الكردية و المدنيين العزل بمن فيهم النساء و الاطفال.

5-ان الهدف من مجمل عمليات الهجوم العسكري هو السيطرة على المناطق و اعتقال اكبر عدد من الناس و ابادتهم و تدمير القرى و المصادر الاقتصادية و تخريب اماكن عيشهم التي اعتبرت اماكن لراحة مقاتلي الحركة الكردية.

و لهذا كله يمكننا القول ان سياسة النظام العراقي ازاء الشعب الكردي هي سياسة الابادة الجماعية (الجينوسايد) بكل ما تعنيه من المعاني.

انواع الابادة الجماعية (الجينوسايد) و جرائم الانفال

ان الهدف من الابادة الجماعية هو الابادة الجزئية او الكلية لجماعة انسانية معينة, و ان الابادة لا تكون عن طريق القتل المباشر وحده بل يمكن اللجوء الى مختلف الوسائل الاخرى و اشكالها, اي انه من الممكن لتنفيذ سياسة الابادة الجماعية استخدام مناهج متعددة, و نظرا لكون الهدف النهائي للابادة الجماعية هو الغاء وجود الجماعة الانسانية المستهدفة من خلال تخريب البيئة و العلاقات الاجتماعية و ثقافة تلك الجماعة و تاريخها وصولا الى التدمير الكامل لحياتها, و يمكن تحديد انواع الابادة الجماعية كما يأتي:

1-الابادة الجسدية: القتل المباشر لافراد المجتمع الانساني المستهدف و بكل الوسائل.

2-الابادة البايولوجية: عرقلة النمو السكاني و تخريب نسب المواليد و التكاثر سعيا للحد منها.

3-الابادة الثقافية: تحريم اللغة و تشويهها و تخريب الثقافة و التراث و التاريخ القومي و تدمير العلاقات الاجتماعية و المشاعر المشتركة و الحضارة والدين السائد لأية جماعة انسانية معينة.

4-الابادة الاقتصادية: تخريب المصادر الاقتصادية لأية جماعة انسانية معينة مرورا بتجويعها و حرمانها تمهيدا لابادتها او اقتلاعها من موطنها الاصلي[15].

لو تأملنا هجمات الانفال و انواع الجرائم التي ارتكبت من خلالها في ضوء هذا التصنيف لانواع الابادة الجماعية لوجدناها تنطوي على كل الاصناف المذكورة و لا تقل خطورة و اثرا عن اي صنف منها.

1)الابادة الجسدية:

لقد كانت هجمات الانفال تجسيدا عمليا لسياسة وحشية, حيث نفذت خلالها عمليات القتل للافراد و الجماعات و اذلالهم يوميا قبل ذلك جعله نتيجة الكثرة و التكرار امرا عاديا كما يذكر بعض الذين اطلق سراحهم بعد تلك العمليات. و كمثال صغير على ذلك نستشهد هنا باحدى وثائق النظام التي تثبت ممارسته القتل الجماعي: وثيقة سرية صدرت عن مديرية امن السليمانية بالعدد 25163 في 1988/10/29 موجهة الى مديرية امن منطقة الحكم الذاتي و تبين انه تم بناء على مكالمة هاتفية ارتكاب الجرائم الآتية:

1-تم اعدام عشرة متهمين بناء على قرار من مكتب تنظيم الشمال.

2-تم اعدام تسعة عشر متهما لوجودهم في القرى المحرمة, و استنادا الى برقية من (امن تنظيم الشمال) بالعدد 4008 في 1987./6/20

3-تم اعدام ست عوائل من ذوي المتهمين بلغ مجموع افرادها (18) فردا بموجب الامر الصادر عن (مكتب تنظيم الشمال).

4-الاشارة الى امر صادر عن (مكتب تنظيم الشمال) باعدام (47) سبعة و اربعين متهما.

5-تم اعتقال الفين و خمسة و اثنين و ثلاثين شخصا و (1869) الف و ثمانمئة و تسع و ستين عائلة بلغ مجموع افرادها (9030) تسعة آلاف و ثلاثين شخصا و ترحيلهم الى معسكرات في محافظة التاميم[16].

مثال آخر: يروي (جوامير حمه سعيد حمه) من مواليد 1974 و هو احد المؤنفلين قائلاً: (حين تعرضنا لهجمات الانفال كنت في اول عهد الصبا طالبا في المدرسة الابتدائية. بعد اقتيادنا الى (جمجمال) و ضعونا في شاحنات عسكرية ثم نقلنا الى (طوبزاوه), و هناك فرقوا بين اسرتي و ابي. حيث وضع كل الشباب –على مرأى منا- في شاحنات عسكرية و لكن بعد تجريدهم من الثياب بحيث لم يعد يستر اجسادهم سوى قميص و سروال او منامة و نقلوهم الى حيث لاندري. و بعد مدة تراوحت

بين (10-15) دقيقة, عادت الشاحنات العسكرية و كان هذا آخر عهدنا بهم و لم نرهم حتى الآن و ما من احد يعلم عنهم شيئا).

ذات ليلة اخذوا كل الصبية و الصبايا و فرقوهم عن امهاتهم. و على الرغم من اني كنت في الثالثة عشرة من عمري آنذاك الا انهم لم يأخذوني و ذلك لقصر قامتي. لقد سمحوا لنا, حيث بقيت مع الاطفال الآخرين بالخروج من القاعة. كنا صغارا و يدفعنا الفضول للتجول في كل مكان. ثم نروي ماكنا نشاهده للكبار, نحن الذين اكتشفنا انهم جعلوا امواتنا طعاما للكلاب السوداء. و كانت كلاب كبيرة جدا و شرسة تجول خارج القاعة. في البداية كان عدد الذين يموتون قليلا و ما ان كان يموت احد ما حتى يضعوه امام الكلاب, فتنفض بسرعة علية و تحزمه اربا و لا تبقى منه سوى العظام. بعد ذلك زاد عدد الاموات بحيث ضجرت منهم حتى الكلاب.

تحت القاعات كانت هناك غرف مقفلة, ذات يوم اردت مع مجموعة من الصبية كسر قفل باب احدى الغرف التي كانت تجاور المرافق الصحية و ذلك لكي نحولها هي ايضا الى مرافق صحية, حين كسرنا القفل و فتحنا الباب, وجدنا رجلا طويل اللحية مقيداً بالسلاسل و يواجهه كلباً كبيراً مقيداً هو ايضا بالسلاسل. و كلاهما كانا متيين, و لم نكن نعرف شيئا عن هذا فعدنا راكضين الى القاعة و تحدثنا عما شاهدناه, و انتابنا الخوف. و صار يبدو لنا ان الغرف الاخرى قد تحتوي على اشياء مشابهة لما رأيناه. امي و الآخرون كانوا يقولون انهم يفعلون هذا لكي يخيفونا اكثر. لم نكن نعلم شيئا عن حقيقة ما حدث. و لكن مرأى الاقفال على الابواب المغلقة جعلنا نرجح انها ايضا قد تضم امواتا ماتوا من الجوع و العطش. منذ ذلك لم نعد نجرؤ على الابتعاد عن احضان امهاتنا. ثم بدأوا بتجويعنا على مهل اكثر و اكثر حتى بدأ الكثيرون منا يموتون جوعا. وقد مات لي من الجوع اخ و اخت. و بلغ بنا الجوع حدا بالكاد بقيت فينا بقية من الروح و الحياة. و بعد مدة طويلة نقلنا الى (كركوك) و منها الى (چمچمال), حيث اطلقوا سراحنا. لقد ذكروا ان عفوا قد صدر, و لكن بعد ماذا؟ لقد مات معظم الناس الذين كانوا هناك. و لم يبق منهم سوى نفر قليل. الشباب الذين فرقوهم عنا في (توبزاوه) و ابعدوهم لانعرف حتى الآن شيئا عنهم, و سنظل نتطلع الى اليوم الذي يصلنا فيه خبر ما عنهم. حتى و ان كان خبر موتهم[(17)].

لقد اخترنا هذا المثال من بين آلاف الحالات و الامثلة التي تتحدث عن الكارثة التي حلت بالكثيرين من ابناء كردستان و انتهت بإبادتهم.

2-الابادة البايولوجية:

لقد استخدم الجيش العراقي خلال هجمات عمليات الانفال كل امكانياته العسكرية و منها استخدامه الواسع لاخطر اسلحة الابادة التي يملكها و هي الغازات الكيمياوية. و يتجاوز تأثير هذه الاسلحة القتل المباشر للانسان الى تسميم الماء و الهواء و الطبيعة باكملها, و يظل هذا التأثير في الاحياء

الباقين مدة طويلة جدا و يشكل تهديدا مستمرا للحياة و للانسان.

ان لها تأثيراً دائماً في الاطفال و الرجال و النساء, و قد نجم عن استخدام الاسلحة الكيمياوية في حلبجة و اطرافها و المناطق الاخرى من كردستان العراق تعرض الكثيرين لامراض خطيرة, حيث ازداد عدد الاصابة بالامراض السرطانية و العقم و عدم الانجاب مدة طويلة (بين النساء) و ولادة اكثر من طفل بصورة غير طبيعية و الامراض الولادية و التشوهات الخلقية و العوق و ولادة الاطفال امواتا و كذلك الامراض الدماغية و القلبية و الجلدية و النفسية. و كل هذا يوضح الآثار الخطيرة الطويلة الامد للاسلحة الكيمياوية. و قد اكتشف العلماء في المراكز العلمية المتقدمة في العالم آثاره الخطيرة و اجريت البحوث و الدراسات الشاملة عنه. ففي بلد كالولايات المتحدة الامريكية تحدث الدكتور كرستين م. گوسدين امام اللجنة القضائية الفرعية في مجلس الشيوخ الامريكي عن التكنولوجيا و مخاطر الاسلحة الكيمياوية و البايولوجية و آثارها الخطيرة الطويلة الامد على الانسان و الطبيعة. و وضح كيف يؤدي استخدامها الى تناقص السكان في المجتمعات التي تعرضت لها[18].

و يؤكد الدكتور حسين الشهرستاني على ان استخدام الاسلحة الكيمياوية يتسبب في اصابة الانسان للامراض السرطانية و العقم و ان آثاره على البيئة ايضا طويلة الامد[19].

3)الابادة الثقافية:

من المعروف ان لحياة الريفيين طابعاً خاصاً و ان العلاقات الاجتماعية مرتبطة بخصوصية الحياة في المجتمع الريفي, و نظرا لكون القرى في ريف كردستان منذ القدم مراكز للتعليم و التعليم الديني منه بصورة خاصة نشأت فيه اجيال من المثقفين و المبدعين. وقد تبوأ الكثير منهم مراكز القيادة في الحركات الكردية التحررية و بتأثير من هذه الحركة تكونت طبقة من المثقفين و الادباء و العلماء حرصت على المحافظة على التراث الثقافي المتمثل في المخطوطات الزاخرة بالحكايات و السير و التواريخ و الامثال و الحكم و دواوين الشعراء و الاغاني كالـ (لاوك) و الحيران و الطرائف و اضافت اليه الكثير من ابداعاتها مما جعلها مصدرا ثريا للتراث القومي و من خصوصيات الحياة في الريف الكردي تعدد اللهجات و انواع الدبكات و الرقص الشعبي و الالعاب و الازياء و اساليب البناء و المواد المستخدمة فيه و جمالياته. و باخلاء الريف و ترحيل سكان القرى و تدميرها من بعدهم تتم ابادة جزء كبير من هذا التراث، حيث تتفكك العلاقات الاجتماعية و تدمر الموارد الاقتصادية تفقد الحياة فيه لونها و طعمها الخاص بحيث لا يمكن اعادة الحياة الطبيعية فيه الى ما كانت عليه سابقا.

4)الابادة الاقتصادية:

يشكل الاقتصاد اهم مصادر الحياة الانسانية و ان تدمير الموارد الاقتصادية في كردستان العراق كان

هدفا رئيساً مرسوما للجيش العراقي, و قد صدر قرار رسمي قبل بدء عمليات الانفال بمنع وصول المواد الغذائية و الوقود و مستلزمات الحياة اليومية من المدن الى القرى و الارياف و ذلك لاشاعة الجوع و المرض و الفوضى و قد قال علي حسن المجيد الذي اشرف على هجمات الانفال في اجتماع له مع المسؤولين في 1988/4/15 "سأقطع منذ الآن الطحين و السكر و الوقود و الماء و الكهرباء عن السكان في القرى"[20] و نفذ عمليا قراره هذا قبل بدء الهجمات و خلالها, و بتدمير القرى و تخريب المزارع و الحقول و تهجير سكانها اضافة الى عمليات السلب و النهب و تغيير التوازن الاقتصادي بين المدن و القرى و الارياف تتجسد لنا بصورة واضحة ما تعنيه الابادة الاقتصادية.

هكذا تم التخطيط و الاعداد لعمليات هجمات الانفال لتحقيق هدف الابادة الشاملة للشعب الكردي و لاقتلاع كل جذور الحياة في كردستان العراق.

الانفال و معاهدة منع الابادة الجماعية

لقد اعلنت الامم المتحدة معاهدة منع الابادة الجماعية و معاقبة مرتكبيها في 1948/12/9, و هي معاهدة اتفقت كل الدول على الالتزام بها, و لهذا فقد اصبحت احد مصادر القانون الدولي.

ان موضوع المعاهدة هو منع جرائم الابادة و التدمير و التعذيب المادي و المعنوي لأية جماعة انسانية معينة في العالم, اي انه يشمل الانسانية باكملها.

و نظرا لكون المجتمعات الانسانية في حوار دائم فيما بينها و مع ما يحيطها في العالم فإن أية جريمة ترتكب ضد أية مجموعة انسانية تعني ارتكابها ضد الانسانية.

يتالف نص المعاهدة من مقدمة و تسع عشرة مادة و ملحق. تؤكد المادة الاولى بالتحديد على ان تلك الجرائم تسبب ابادة الجنس البشري في الحرب و السلم, و ان هذه الجرائم تعتبر في القانون الدولي جرائم يتعهد المشاركون بالعمل على منعها و معاقبة مرتكبيها[21].

و قد جاء في المادة الاولى ان جرائم الابادة الجماعية لا تنفذ بالاساليب و الوسائل العسكرية و اثناء الحروب حسب بل ترتكب في السلم ايضاً و حين لا تكون هناك حروب قائمة, و هذا يعني تعدد وسائل الجريمة و هي لا تقتصر على القتل المباشر.

لقد تم التخطيط و الاعداد لعمليات هجمات الانفال قبل البدء بها بمدة طويلة و تم التمهيد لها بقطع الاتصال بين القرى و المدن و المرور من كل منهما الى الاخرى, و غلق المدارس و المستوصفات و نقلها الى المدن. و قطع التيار الكهربائي عنها و منع وصول المواد الغذائية و الوقود و المواد الزراعية و وسائلها من المدن الى القرى. و اتبعت سياسة الارهاب و الاعتقال الكيفي و الاعدامات و عمليات الترحيل قبل بدء العمليات و اثنائها. و في فقرة من الميثاق جاء (ان المقصود بالابادة الجماعية هو كل عمل يكون الغرض منه افناء جزئي او كلي لجماعة انسانية معينة بسبب الانتماء الوطني او الاثنوغرافي

او العنصري او الديني) و في هذا النص نرى التاكيد على وجود هدف الابادة الجزئية او الكلية للجماعة الانسانية المستهدفة كدليل لاثبات الجريمة و وقوعها. و من الاعمال الموصوفة باعمال ابادة جماعية كما جاء في المادة الثانية من المعاهدة اعلاه:

1-قتل افراد الجماعة الانسانية المستهدفة.

2-الحاق الاذى الجسدي بافراد الجماعة الانسانية المستهدفة و احداث التشويه الفكري لديها.

3-تعمد ابقاء الجماعة الانسانية في ظروف حياتية صعبة تمهيدا لابادتها جزئيا او كليا.

4-وضع العراقيل امام النمو السكاني الطبيعي و السعي لتحديد النسل باساليب متعمدة قسرية.

5-الترحيل القسري لاطفال تلك الجماعة الانسانية الى مجتمعات اخرى.

عند التمعن بدقة في الاعمال المحددة كاعمال ابادة جماعية و مقارنتها بما حدث في جرائم الانفال نجد ان ما ارتكب في هذه الجرائم كان سعيا لتحقيق الابادة الجماعية و بلوغها من خلال طريقتين:

ا-المادي: القتل و التعذيب و التسبب بالعقم و الامراض القاتلة.

ب-المعنوي: خلق الظروف الحياتية الصعبة بحيث تؤدي على المدى البعيد الى الابادة الجماعية من خلال تخريب البنى الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و الروحية و النفسية[22].

و قد تم التمهيد لعمليات الانفال و تنفيذها باساليب مختلفة استهدفت الكرد افرادا و جماعات, حيث قام الجيش العراقي باقتلاع القرويين الكرد من قراهم ومزارعهم و تدميرها على مرأى منهم ثم نقلهم بالعربات العسكرية الى مجمعات قسرية تم تجميعهم و اسكانهم فيها, حيث عاشوا مكرهين في ظروف حياتية صعبة جرى خلالها تخريب العلاقات الاجتماعية الاسرية و تدمير الموارد الاقتصادية, و خلال عمليات الانفال انتزع الاطفال عن اسرهم و ذويهم ولا احد يعلم شيئا عن مصيرهم و ما حل بهم.

تتحدث السيدة (نبات فائق رحمان) من مواليد 1961م منطقة (جباري) عما جرى لاسرتها خلال عمليات الانفال و اعتقالهم في مجمع (طوبزاوه) قائلة: (لقد شحبت وجوه كل الاطفال من الخوف, كان لي طفلان هما (شارو) و (ديار) و حتى هناك اي مجمع طوبزاوه - كان أبوهم معنا. كان الجو شديد الحرارة على الرغم من ان الفصل كان ربيعا و ان كثرة الناس المحشورين في القاعة جعلت الجو جحيما لا يطاق. (و في الوقت نفسه كانوا يمدون انابيب المياه المطاطية الى القاعات الاخرى لتعريضهم للبرد). كانت ابواب القاعات و نوافذها مغلقة. لم يدعوا لنا منفذا لدخول الهواء. في الليل و نحن في هذه الحالة من معاناة الحر و الخوف و القلق و العطش. دخلوا علينا و اخذوا كل الاطفال - لا ادري كيف ارويها لكم - دخل الظالمون القساة و اخذوا الاطفال, كل الاطفال. كان فيهم من يلتصق بشدة بنا و كأنه يريد الاختباء في بطوننا. لقد انزعوا من بين ايدينا الاطفال. طفلا طفلا. كان فيهم رضيع لم يتجاوز عمره العشرين يوما, امسكوه

و قـد تـدلت اطرافـه كالسـنونو, اخـذوهم و هـم يصـرخون و يبكـون, كـان بكـاؤهم يجعـل الكـافر مؤمنا[23].

و واضح هنا ان هذا كان نوعا من القتل المباشر و ذلك بجعل الضحايا في حالة صعبة يعـانون فيها الحرمـان و التجويـع و فقـدان الحاجـات الضـرورية تنتهي بهم الى موت بطـيء, و هـذا مـا يجعلها عملا اجراميا, حيـث ان الجريمـة هـي عبـارة عـن (القيـام بفعل) كالقتل او (الامتناع عن الفعل) كمنـع الطعـام و الضرورات الحياتية.

ان المادة الثالثة من المعاهدة لا تعاقب على القتل المباشر وحده بل تعاقب على ارتكاب ما يأتي:

1-الابادة الجماعية.

2-التآمر بهدف الابادة الجماعية.

3-التحـريض المباشـر و الصـريح علـى ارتكـاب الابادة الجماعية.

4-محاولة تنفيذ عملية الابادة الجماعية.

5-الاشتراك في تنفيذ عملية الابادة الجماعية.

لقـد ارتكبـت في هجمـات عمليـات الانفـال كـل هـذه الافعـال, و بـأوامر رسميـة مـن الحكومـة العراقية, القتـل المباشر و غير المباشر للافـراد و الجماعات, و التحريض علـى القيـام بها و محاولـة تنفيـذها و الاشـتراك فيهـا, و ان اجهـزة الاعـلام الرسميـة للنظـام خـلال تحريضـها علـى ارتكـاب الجرائم كانت تدعي انها واجبات وطنية ضرورية لحمايـة الـوطن. و تشـيد بمـرتكبي الجـرائم و تكافئهم عليها.

من خلال هذا التحليـل نصل الى نتيجة مفادها ان بنـود معاهـدة منـع الابـادة الجماعيـة و معاقبـة مرتكبيهـا لعـام 1948 قـد حـددت تعريـف الابـادة الجماعيـة و سماتهـا, و هـي مطابقـة لكـل انـواع الجرائم المرتكبة خلال هجمات الانفال بحيث يمكننا القول ان هجمات الانفال كانت تنفيذا لسياسة الابادة الجماعيـة و الـتي تسـمى في القـانون الـدولي العـام بالجينوسايد.

الخاتمة

لقد حللنا في هذه الدراسة كيفيـة وقـوع جـرائم الانفال في نطاق جرائم الابـادة الجماعيـة, و توصلنا الى نتيجة مفادها ان جرائم الانفال تنطوي في سياق مفاهيم جرائم الابادة الجماعية الدوليـة و معانيها, حيث انها استهدفت جماعة انسانية محددة و معينة هـي الكـرد. و ان تعـرض اي فـرد لاحـدى جـرائم الانفال لم يكن بالصدفة بـل كـان لكونـه كرديا و ان هذه الجرائم لم تميز بين مقاتلي الحركة الكرديـة و المدنيين العزل, ذكوراً او اناثا و في اية مرحلة العمـر سواء كانوا اطفالا او شبابا او شيوخا.

و عنـد الحـديث عـن انـواع الابـادة الجماعيـة اوضحنا ان الشعب الكردي قد تعـرض خـلال جـرائم الانفـال الى كـل انـواع الابـادة الجماعيـة ابتـداءً مـن الابادة الجسدية و انتهاءً بالابادة الثقافية.

و قد بينا في القسم الاخير من الدراسة ان سمات الابـادة الجماعيـة المـذكورة في (معاهـدة منـع الابـادة الجماعية و معاقبـة مرتكبيهـا 1948 تنطبـق علـى

جرائم عمليات الانفال و يمكن تحديدها كجريمة دولية.

و نظرا لكون الابادة الجماعية تشكل تهديدا لكل الانسانية فإنه يجب ان تصبح ارضية و دافعا لحل المسألة الكردية و تعويض الشعب الكردي عن كل الاضرار التي لحقت به من جراء كارثة الانفال.

و من كل هذا ننتهي الى ان جرائم عمليات الانفال كانت جرائم ابادة جماعية خططت لها الحكومة العراقية و وفرت لها وسائل التنفيذ و ادواته و حددت لها الاهداف و نفذها الجيش العراقي بالتعاون مع كل اجهزة الدولة الرسمية الاخرى ذات العلاقة.

المصادر و الهوامش:

1-هنا لكي لا تكون بعض الجوانب من دراستنا تكرارا مملا و لاطلاع اكثر على معنى الابادة الجماعية انظر كتابنا المعنون/ ابادة الشعب الكردي في ضوء القانون الدولي المعاصر, امستردام - 1997 (باللغة الكردية).

2-الدكتور عبد الوهاب حومد - الاجرام الدولي - الطبعة الاولى مطبوعات جامعة الكويت 1987 ص 238 و كذلك اميرى حسن پور/ نحو فهم و مقاومة الانفال / مجلة (الانفال) العدد (1) السليمانية سنة 2000 الصفحة/10 (باللغة الكردية).

3-الدكتور عبد الوهاب حومد: الاجرام الدولي - ص. 239.

4-عند الحديث عن الانفال و لكي لا اكرر الاعمال السابقة فقد حددت الاهداف الرئيسة و للاطلاع بصورة اوسع على جرائم الانفال انظر كتابنا المعنون (ابادة الشعب الكردي في ضوء القانون الدولي الجديد) و كذلك (الابادة الجماعية في العراق) و (حملات الانفال ضد الشعب الكردي) اعداد / ميدل ايست ووچ - ترجمه من الانكليزية الى الكردية / سيامند مفتى زاده / منشورات (خاك) السليمانية 1999 و كذلك يوسف دزەيی/ الانفال - الكارثة, النتائج, الابعاد/ اربيل.

5-د. معروف عمر گول/ ابادة الشعب الكردي في ضوء القانون الدولي الجديد/ امستردام 1997 ص 46. (باللغة الكردية).

6-ستيفان بروشفيلد وبول أ. ليفين: كتاب الابادة في اوروبا في الأعوام 1933-1945. ستوكهولم، 1998، ص 46.

7-زياد عبد الرحمن / محرقة الموت / الطبعة الاولى / اربيل 1995 ص 38.

8-انظر/ خالد صالح / الانفال - الابادة الجماعية للكرد في العراق - ترجمه الى اللغة الكردية: كاوه جمال/ مجلة (رهند) العدد (7) ستوكهولم 1999 ص 93-99. (باللغة الكردية).

9-نفس المصدر السابق المرقم (6) ص 50.

10-مقابلة تيمور - كنعان مكية, ترجمه عن العربية الى الكردية: فائق رحيم - مجلة (الانفال) العدد (1) السليمانية الصفحات من 117 الى 131.

11-ميدل است ووچ: الابادة الجماعية في العراق و حملات الانفال ضد الكرد/ ترجمه عن الانگليزية الى الكردية/ سيامند مفتى زاده/ السليمانية/ 1999 ص 470.

12-قتل امة/ مذكرات هنري مورغنطاو, السفير الامريكي في تركيا (1913-1916) عن المذابح الارمنية في تركيا/ ترجمة: الكسندر كشيشان. حلب 1990 ص 33.

13-الدكتور نعيم اليافي/ مجازر الارمن/ الطبعة الاولى/ اللاذقية 1992 ص 41.

14-وثائق الامم المتحدة/ اللجنة الاقتصادية و الاجتماعية العدد E/CN 4/1993/4 ص 80 (النص الروسي) و لاطلاع اكثر على قرار الحكومة العراقية انظر: معروف عمر گول, الانفال مرحلة من تطبيق الابادة الجماعية/ مجلة (رهند) العدد (7) ستوكهولم 1999 ص 56. (باللغة الكردية).

15-حول انواع الابادة الجماعية انظر: ابادة الشعب الكردي في ضوء القانون الدولي الجديد. من منشورات نادي (ميديا) الكردي/ امستردام 1997 ص 9 الى 17 او مفهوم الابادة الجماعية كجريمة وحشية ضد الانسانية/ مجلة (ياسا پاريزى) العدد (1) اربيل 1996 ص 19 و كذلك انظر: گوبيّن: ڤ. ف: التفرقة العنصرية - مضمون رجعي ضد القانون الدولي / موسكو 1979 ص 50 و 51 (باللغة الروسية).

-اندريوخين م.ن: الابادة الجماعية اشد الجرائم وحشية ضد الانسانية - موسكو 1961 ص 8 باللغة الروسية.

-اندريوخين م. ن: الابادة الجماعية في سياسة الدول الامبريالية - موسكو 1967 ص 5 و 6 (باللغة الروسية).

-الدكتور عبد الوهاب حومد/ الاجرام الدولي/ الطبعة الاولى/ مطبوعات جامعة الكويت 1978 ص 229 الى 242. تجب الاشارة هنا الى ان السيد (عباس همزة خدر) الحقوقي قد استقى كثيرا من المعلومات من دراسة لنا عن تصنيف انواع الابادة الجماعية و خصائصها و نشرت في العدد (1) من مجلة (ياسا پاريزى) سنة 1996 ص 19 من غير ان يشير بصورة علمية الى المصدر و كدليل على صحة مانذكره انظر: عباس همزة خدر/ الابادة الجماعية كارثة الكرد و الجرائم الدولية/ مجلة (ياسا پاريزى) العدد (4) 1999 ص 230 الى 234.

16-وثائق الامم المتحدة/ اللجنة الاقتصادية و الاجتماعية, العدد (E/CN.4/1992/31, P,72) و كذلك وثيقة الامم المتحدة مجلس الامن العدد S/23685/Add,1, 9 March 1992. P75 (النص الروسي).

17-عارف قورباني/ شهود عيان على الانفال / الجزء الاول/ السليمانية 2002/ ص 178و 179 باللغة الكردية.

18-شهادة الدكتور كرستن م. گوسدين, ترجمة كمال حسن محمد الى اللغة الكردية/ مجلة (الانفال) العدد (1) السليمانية 2000 ص 57-.67

19-حوار مع النووي العراقي حسين شهرستاني/ مجلة الانفال (القسم العربي) العدد (1) السليمانية 2000 ص 192-.195

20-التسجيلات الصوتية لاحاديث علي حسن المجيد/ اعداد: دلاوەر عثمان مجلة (الانفال) القسم العربي/ العدد (1) السليمانية 2000 ص 168.

21-نص معاهدة منع جرائم الابادة الجماعية و معاقبة مرتكبيها سنة 1948م.

22-الدكتور محمد سليم محمد غزوي/ جريمة ابادة الجنس البشري/ الطبعة الثانية / الاسكندرية 1982 ص 16.

23-عارف قورباني/ شهود عيان على الانفال / الجزء الاول السليمانية 2002 ص 195.

*****

*د. معروف عمر گول: استاذ في كلية القانون - جامعة السليمانية

كارثة الأنفال وانعكاساتها النفسية على المجتمع الكردي

• مهاباد قرداغي
➢ ترجمة: دانا أحمد

فاتحة:

سنة 1988 شهد الجزء الجنوبي من كردستان سلسلة من الهجمات المتتالية شنها النظام الدكتاتوري الذي يحتل هذا الجزء من كردستان, وذلك ضمن خطة للتطهير العرقي والابادة الشاملة بحق الكرد, وكخطوة اولية حقق النظام جزءا من خطته.

في عمليات الانفال هناك اشارة الى 182 الفا من الضحايا بين نساء واطفال ورجال, ومن مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية, وهؤلاء كانوا مع مجمل الناجين من العمليات والمفروج عنهم لاحقا ضمن زهاء مليون نسمة هم سكان منطقة گرميان (المناطق الدافئة من هذا الجزء من كردستان) وقد شملتهم العمليات وتأثيراتها المباشرة.

الانفال هي احدى العمليات الفريدة من نوعها التي لا توجد شبيهة لها في تاريخ المنطقة, وعلى الصعيد العالمي يمكن تشبيهها بالـ(هولوكوست) المتبع بحق الالمان اليهود في عهد النازية, هتلر امتلك الوقت للقضاء على 6 ملايين يهودي, وكان صدام يأمل ايضا القضاء على 6 ملايين كردي في كردستان الجنوبية, وكخطوة اولية خطا بهذه السياسة خطوات مخيفة وبقيت خطوات اخرى اكثر رعبا في خطته لم يلحق ان يتقدم بها بسبب احتلاله للكويت, ومن تلك الخطوات التي تقدم بها:

1-هجماته الكيمياوية على كردستان تحت اسم الانفال.

2-رش مدينة حلبجة بالغازات الكيمياوية بذريعة الحرب العراقية-الايرانية.

3-تدمير جميع القرى والارياف في كردستان.

4-حرق الغابات والحدائق.

5-تلغيم الاراضي الزراعية.

6-الاستحواذ على الثروة الحيوانية كاملة وابادتها.

7-تهجير سكان الارياف الكردستانية صوب المجمعات السكنية القسرية.

8-السيطرة الكاملة على التجمعات السكانية الكبيرة بقبضة حديدية من العنف والتعسف.

9-اهانة عادات وتقاليد الكرد ولغتهم وتراثهم الثقافي عن طريق المؤسسات الاعلامية البعثية و..الخ.

الخطوات التي تمت واصابت اهدافها, اكثرها تأثيرا والتي اريد منها ترهيب امة برمتها, كان قصف حلبجة بالغازات السامة وحملات الانفال, وهما اصبحا بداية مأساة كبيرة يمكن تشبيههما بـ(الهولوكوست). بحسب تقييمات منظمة (ميدل ايست ووچ) التي تتحدث بالوثائق, سياسة البعث وصدام في الانفال هي نفس سياسة النازيين وهتلر في (الهولوكوست).

يمكن النظر الى كارثة الانفال من زوايا عدة, ويحمل الموضوع المئات من الابحاث العلمية, من الجوانب التي بالامكان ان تصبح اسسا للتحقيقات العلمية الخاصة بكارثة الانفال, عدا جانب العلوم السياسية, هي جوانب التاريخ والجغرافيا ومجال علم الاجتماع, علم النفس, علم النفس الاجتماعي, علم الثقافات والاديان, وحتى مجالات البايولوجيا والعلوم الطبيعية.

كارثة الانفال لها انعكاساتها على التكوين الجغرافي والتاريخي لكردستان, على التكوين النفسي والاجتماعي للمجتمع الكردي, على البنية الثقافية وحتى التكوين العقلي والعصبي للانسان الكردي والمجتمع الكردي وستبقى تأثيراتها لفترة طويلة, فكما ان كارثة الهولوكوست وبعد اكثر من نصف قرن تظهر آثارها وتصدر عشرات الكتب والافلام الوثائقية التي تتحدث عنها, لكارثة الانفال بالنسبة للكرد نفس المغزى, وستظهر تأثيراتها في وقت متأخر.

في هذا البحث سأعمل على ايجاد علاقة وتأثيرات كارثة الانفال في الوضع النفسي للمجتمع, أي سأتبع مقاييس علم النفس الاجتماعي في التحاليل, بالانطلاق من ان الظواهر الاجتماعية تؤثر بعضها في البعض في علم النفس الاجتماعي, ويمكن القول ان كارثة الانفال القاسية قد تكون تركت آثارها المتنوعة, سياسيا, اجتماعيا, نفسيا وثقافيا على الانسان الكردي والمجتمع الكردي في جنوب كردستان, حيث سأخصص هذا البحث للتأثيرات النفسية (الكاتاستروفية) للأنفال في المجتمع الكردي من خلال افراد هذا المجتمع, أي بقياس التأثيرات الواقعة في عينات مختلفة من المجتمع من الذين لم تشملهم العمليات مباشرة, نصل الى حقيقة تأثيرات العملية في المجتمع, اسئلة هذا التحقيق هي:

1-لماذا سميت عملية الابادة الشاملة وهجمات البعث على الكرد بـ(الانفال), ما هو هدف البعث ومنطقه في انفلة الشعب الكردي؟ وما علاقة هذا بسورة (الانفال)؟

2-ما هو التأثير النفسي لكارثة الانفال في الانسان الكردي والمجتمع الكردي في جنوب كردستان؟

3-كيف اثرت كارثة الانفال في هوية الفرد الكردي والمجتمع الكردي؟

مسار العمل: بهدف قياس تلك التأثيرات في افراد المجتمع الكردي تم اتخاذ هذه الخطوات:

اولا: توجيه الاسئلة الى اناس مختلفين, من النساء والرجال ومن اعمار مختلفة, شريطة ان يكون المشمولون بالاسئلة الاستبيانية لم يفقدوا ايا من ذويهم في عمليات الانفال, كي نتأكد من ان التأثير ليس ذا علاقة بمسألة صلة الدم والقرابة, بل بالانتماء القومي والوضع الاجتماعي العام, لاشك في ان المؤنفلين هم المتأثرون بالدرجة الاولى, الهدف من هذا البحث هو معرفة مدى انعكاس الانفال على افراد المجتمع الكردي, واوجه الشبه والاختلاف بين تلك الانعكاسات من شخص الى آخر, حيث ان مجموع هؤلاء يساوي مجموع المجتمع الكردي, يقوم 50 شخصا, كل من وجهة نظره الخاصة بتعريف عملية الانفال, يعبر عن شعوره امام المؤنفلين ومن قاموا بعملية الانفال, ومن خلال الاجوبة نحاول التوصل الى الانعكاسات النفسية التي تهمنا في هذا البحث, الافراد هم من اعمار مختلفة, ومن الجنسين, والاسئلة هي استبيانية, أي وجهنا نفس السؤال الى الجميع.

ثانيا: تمت الاستفادة من اللقاءات مع الناجين من الانفال, سواء عبر التلفزيون او الصحف.

ثالثا: تمت الاستفادة من كل موضوع آخر ذي صلة بالانفال, من حديث عادي لصبي, الى ملاحظة تصرفات وانفعالات الذين وجهت اليهم الاسئلة بصدد الانفال, وكذلك من الكتب والمصادر التي تبحث في الانفال.

النظريات النفسية وربطها بكارثة الانفال

يمكن ربط كارثة الانفال بالكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية, لابد ان يكون عمل الباحثين في مجال علم النفس وعلم الاجتماع بهذا المنحى مستقبلا, النقطة الرئيسة في التحقيق التجريبي في مجال علم النفس هي ايجاد تاثيرات عامل في عامل آخر, أي ما الذي يؤثر في الآخر؟ في هذا التحقيق نقيس تأثيرات الانفال في شخصية الانسان الكردي خصوصا والمجتمع الكردي عموما, ونعتمد في هذا الصدد على نظريتين, اولاهما نظرية آلية الدفاع التي لها اهمية قصوى في علم النفس ولها علاقة مباشرة بموضوع هذا التحقيق, وثانيتهما هي نظرية الاحتياجات النفسية, وهي النظرية المهمة للعالم النفسي الاميركي الشهير ابراهام مايسلو والتي تستخدم كثيرا في الابحاث الخاصة في مجال علم النفس الاجتماعي.

ان جسم الانسان عبارة عن مجموعة من الاعضاء والوحدات (الانظمة) والاجهزة الفيزياوية, وكل جهاز يؤدي عمله للحفاظ على سلامة الجسم والوضع الفيزياوي له وديمومة الحياة, وعلى نفس الشاكلة البنية النفسية للانسان تتألف من اجهزة مختلفة وكل واحدة من تلك الاجهزة تؤدي واجبا

محــددا, للحفــاظ علــى الوضــع النفســي للانســان, الاختلاف بين الانظمة الفيزياوية والنفسية هو ان الاولى اجهزة كونكريتية مرئية وكل واحدة منها ترتبط بواحدة او اكثر من الحواس الخمس, بينما الثانية غير مرئية وغير ملموسة, وغير مرتبطة بالحواس الخمس, انما فقط تمتلك خريطة داخل التكوين الحسي الباطني, وانفرد الباحثون في مجال علم النفس يبحثون في مهام واعمال تلك الاجهزة لتأسيس النظريات النفسية حولها.

للانسان جهاز دفاعي نفسي يحاول بآليات متعددة مواجهة المخاطر التي يواجهها الانسان خلال حياته, تلك الآليات تسمى آلية الدفاع النفسي وهي عبارة عن (الاهمال, الانكار, الانضواء, المعاكسة, التأخير, التمرد على الذات, ترهيب الذات, الانتقال والخ).

الانسان يعمل من خلال أية من هذه الآليات ابعاد المخاطر عن نفسه, ولكن هذه الآليات في الحقيقة دفاعات مموهة فحسب, ولا تبعد المخاطر عن الذات, بل ان استخدام كل آلية منها تترك آثارا سلبية في نفسية وشخصية الانسان, الاهمال على سبيل المثال, وهو اكثر الآليات الدفاعية النفسية استخداما من قبل الافراد, يخفف من وطأة التأثيرات الناجمة عن الظلم والاعتداء لفترة محددة في الوضع النفسي للانسان, ولكنه في النهاية يرسخه في اللاشعور, ترسب تأثيرات حالات الاهمال في اللاشعور هو في حد ذاته حالة مرضية ويسبب في النهاية بنتائج غير طبيعية في سلوك الانسان, الآليات الدفاعية الاخرى ايضا وبنفس الشاكلة تؤدي مهمة دفاعات مؤقتة ولها تأثيرات سلبية مزمنة, كما سنؤكد ذلك بالدلائل خلال البحث.

النظرية الثانية, هي هرم الاحتياجات النفسية لأبراهام ماسلو, ولها علاقة مباشرة هي الاخرى بنتائج تأثيرات كارثة الانفال في الفرد الكردي.

في هذه النظرية يرسم ماسلو هرما للاحتياجات الفيزياوية النفسية للانسان, وهو يتكون من خمس درجات متتالية, نمو شخصية الانسان مرهون بكيفية ومدى اشباع تلك الاحتياجات, بحسب ماسلو لا يمكن للانسان ان يجتاز الى الدرجة الثانية قبل اشباع كل الاحتياجات الخاصة بالدرجة الاولى وتتوقف شخصيته في الدرجة التي لم تكتمل اساسياتها او لم تشبع احتياجاتها, وتلك الدرجات تتدرج من الادنى الى الاعلى كما يأتي:

اولا: الاحتياجات الفيزياوية, وهي عبارة عن الاكل و الشرب و النوم والراحة والجنس, وهي ما تسمى الضرورات الاولية.

ثانيا: الحاجة الى الامن, وتشمل الطمأنينة والاستقرار.

ثالثا: الحاجات الاجتماعية, الحب والحياة الهانئة والمرتبة الاجتماعية.

رابعا: الحاجة الى التنفيذ, وتشمل التقرير والانتخاب والاحترام والاعتراف, والحاجة الى استحصال المعلومات.

خامسا: الحاجة الى اثبات الوجود والابداع في الحياة.

عـدم اشـباع الاحتياجـات الخاصـة بالـدرجات الـثلاث الاولى يبقـي الانسـان في حالـة العـوز نفسـيا وعدم الاكتمال, اما عدم اشباع الاحتياجات الخاصة بالـدرجتين الاخيرتـين فيوقـف الانسـان عـن النمـو ويولـد نـواقص في التكـوين النفسـي, كارثـة الانفـال وبربطها بتينك النظريتين تولد لدينا احتمالين:

اولا: حملات الانفال والابادة الشاملة المتبعة بحق الكرد, سواء اثناء حدوثها او خلال المراحل اللاحقة, ينبغـي ان تكـون لهـا تـأثيرات نفسـية عميقـة في التكـوين النفسـي للمجتمـع الكـردي, اذن فالانسـان الكـردي قـد اسـتخدم الآليـات الدفاعيـة النفسـية المـذكورة ضـد تلـك الكارثـة, وتلـك الآليـات ولكونهـا دفاعات مموهة كما سبقت الاشـارة, تـترك انعكاسات سلبية على الانسان الكردي.

ثانيـا: كارثـة الانفـال تسـببت في عـدم اشـباع الاحتياجـات الاوليـة للانسـان الكـردي في كردسـتان الجنوبيـة, وبالتـالي ان يفقـد الامـن, اذن فالانفـال اثـرت سـلبا في شخصـية الانسـان الكـردي وبنائـه النفسي .

من خلال اجوبة الذين اعطوا المعلومات سنحاول ايجاد برهان لاثبات او دحض الاحتمالين, ولاشك في ان الوثائق والدلائل الواردة في المصادر المشار اليها هي مواد ذات اهمية لهذه الاثباتات.

تـأمل في مفهوم ومضمون وظاهرة الانفال

ان قتل وتخويف المجتمع عام 1988 مـن قبـل نظام بغداد ضد الانسان الكردي والمجتمع الكـردي، تسـميتها بالانفـال ليسـت سـدى، ان سـورة الانفـال ثماني سور القرآن، التي تكونت من 72 آية، نزلت في المدينة المنورة في شهر رمضان للسنة الثانية للهجرة، تتضمن غزو بدر، كما يـذكر نصـر المسلمين في هـذا الغـزو علـى الكفـار، وكيفيـة تقسـيم الغنـائم علـى المسلمين المنتصرين في الحرب، وبعضا مـن متطلبـات هـذه الحالـة، لكـي لا يقـع المسلمون في الصـراع علـى الغنائم، فنزلت هذه السورة.

في اطروحـة الماجسـتير الـتي تقـدم بهـا يوسـف دزيـي في جامعـة صـلاح الـدين، اسـتند الباحـث في اطروحتـه الى عـدة مصـادر اسـلامية مثـل القـرآن الكـريم وبعـض الكتـب الاسـلامية الاخـرى، توصـل الباحث الى نتيجة ان: (عمليات الانفال الـتي قامـت بهـا الحكومـة العراقيـة علـى القـرى الكردسـتانية، تختلف عن الانفال في الاسلام).

وكـان دليـل الباحـث لتوصـله الى هـذه النتيجـة ثلاث نقاط، فحسب سـورة الانفـال يشـترط ان يكـون المجتمـع الـذي يُهـاجم كـافرا، كمـا يشـترط ان تكـون الغنائم منالة من الحرب، وهذه الغنـائم عبـارة عـن: المال والثروة والذخيرة والنعم والاسرى.

لاشـك ان سـلوك النظـام البعثـي بالضـد مـن جميـع قوانين الارض والسماء لذا فاذا كان هذا النظام يلتجئ الى آية قرآنيـة لغـرض في نفسـه، فـلا يشـترط ان يسـتخدمها بالمنطق الـذي هـو الغـرض الحقيقـي للآيـة القرآنيـة، بـل يعكس معنـى الآيـة الى المعنـى الـذي يريـده البعـث. عنـد قـراءة آيـات سـورة الانفـال قـراءة سوسـيولوجية وقـراءة كيفية تعامـل اعضـاء حـزب البعـث مـع الكـرد وثـرواتهم قـراءة سوسـيوبولتيكية يظهـر ان تسـمية الانفـال بهـذا

الاسم لم تكن صدفة بل القصد هو سورة الانفال ذاتها، ولكن ليس بالاشارات التي هي موجودة في القرآن، بل صيغت هذه السورة من جديد بعقلية بعثية، فقط تختلف الاشارات التي سأحاول ان اشرح بعضا منها:

1-في منطق القرآن: الكافر هو الذي لم يؤمن بإله واحد ولم يعتنق الاسلام. اما في منطق البعث: فالكافر هو الذي لم يؤمن بحزب البعث وشخص صدام حسين.

2-في منطق القرآن: المؤمن الحقيقي هو الذي يؤدي الفرائض الخمس. اما في منطق البعث: فالمؤمنون هم الذين يخضعون للأوامر التي تصدر من قبل رؤوس البعث وينفذونها.

3-في منطق القرآن: ثواب المؤمنين هو الجنة، وجزاء الكافرين هو النار. اما في منطق البعث: فثواب البعثيين هو المال والسلطة وكل شيء تشتهيه الانفس في الدنيا، وجزاء الكافرين (ضد البعثيين) هو السجن والتعذيب والتعليق والقتل والنهب.

4-في منطق القرآن: يجوز للمسلمين ان يقتلوا الكفار، ويستغنموا اموالهم وثرواتهم، شرط عدم انقيادهم للاسلام ولم يكفوا عن صدهم عن سبيل لله والنبي والمسلمين. اما في منطق البعث: فيجوز للبعثيين ان يقتلوا غيرهم (من غير البعثيين)، شرط عدم خضوعهم لسبيل صدام ولم يكفوا عن عداوتهم له.

جاء في سورة الانفال ما معناه: (لما اوحى الهك الى الملائكة، بانني معكم، فالذين آمنوا بحق اثبتوا ايمانهم، ونحن سنلقي الرعب في قلوب الذين كفروا، فاضربوا رؤوسهم واضربوا كل بنان..)[8]. الآية 12

(ذلك بأنهم صدوا عن سبيل الله ورسوله، ومن يصد عن سبيل الله ورسوله فأولئك سيعذبون وان عذاب الله اليم). الآية 13

فالتعذيب الذي ذاقه الكرد المؤنفلون في سجون جنوبي العراق وخصوصا في (نقرة السلمان) كان تطبيقا للآية 12، ولكن بمنطق البعث، ففي عمليات الانفال عم الفزع والرعب في قلوب الكرد لكن ليس وقت الهجوم فحسب، بل الى امد بعيد. صحيح ان الكرد كانوا شعبا مسلما بدين الاسلام، وكان اغلبهم مسلمين وفق منطق القرآن، لكنهم كافرون بمنطق البعث اذ هم لم يؤمنوا بنهج البعث بل كانوا عدوانا لهم، صدام كان الها في مخيلته ورويدا رويدا يفرض هذه الصور على البعثيين خصوصا والعراقيين بشكل عام.

جاء في سورة الانفال ما معناه: (الذين كفروا يصرفون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسيصرفونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يهزمون، والذين كفروا الى جهنم يحشرون) الآية36

(ليميز الله الخبيث من الطيب والنزيهين ويركم الخبيث متواليا في جهنم اولئك هم الخاسرون) الآية 37

بمنطق البعث كان پيشمرگه الكرد كافرين، ومقر استراحة أولئك البيشمرگه القرى، واهلها، فإن اهالي تلك القرى بمنطق البعث كافرون، لأنهم ينفقون اموالهم للبيشمرگه، والبيشمرگه كانوا

يصدون عن سبيل البعث، لذا فانهم يجب ان يقتلوا وتنهب اموالهم، ويطرحوا في عذاب جهنم.

سجن نقرة السلمان هو الجحيم الذي طرح فيه المؤنفلون فهم يصفون فزاعته. ذكر شيخ كردي (من مواليد 1912) ونجا من سجن نقرة السلمان: (ان طرقت آذانكم على الجحيم، فالذي رأيناه هو الجحيم)(9)، لذا فأنفَلَةَ قرى كردستان عموما واهالي تلك القرى المساندين للبيشمركه كانت تطبيقا للآية 36 من سورة الانفال ولكن بمنطقها البعثي.

فصل الشاب من الشيب، الذكر والانثى، بلورتهم ومن ثم طرحهم في نقرة السلمان وبعد ذلك وأدهم، كان تطبيقا للآية 37 بالمنطق البعثي، لاشك نستطيع ان نورد آيات اخرى كثيرة من سورة الانفال التي فسرت بالمنطق البعثي وطبقت على الكرد، بمنطق الاسلام:

⋆المؤمن: مسلم

⋆الكافر: ضد الاسلام

⋆الدين: تطبيق مبادئ الاسلام التي وردت في القرآن

⋆الاله: خالق وبارئ السماوات والارض

⋆الكتاب المقدس: القرآن المنزل من عند الله

فنظام البعث بنفس المنطق الذي فسرَ به سورة الانفال وطبقها على الكرد، ايضا غير رموزها لمصلحة شخص صدام وحزب البعث، ومن ثم طبق مضمون الآيات، فبمنطق البعث تصير الرموز كما يأتي:

⋆المؤمن: هو البعثي

⋆الكافر: شعب مسلم وهو الكرد، او أي جماعة ضد البعث

⋆الدين: حزب البعث

⋆الاله: هو صدام

وفي نفس المرحلة كتب صدام على راية العراق (الله اكبر)، اذ قصده ليس (الله) الذي يعبده الناس، بل قصده في هذا الموقع هو صدام، وذلك تشويه لرموز الكتاب المقدس، وحسب منطق ومبادئ القرآن والقوانين الاسلامية هذا الفعل كفر وفاعلوه هم الكافرون.

نتيجة هذا التفسير توصلنا الى عكس النتائج التي وصل اليها يوسف دزيي الذي يعتقد ان عملية الانفال لدى البعثيين لا تمت بصلة مع سورة الانفال في القرآن.

في هذا البحث يتضح ان عملية الانفال ضد الكرد وسورة الانفال التي نزلت لتقسيم الغنائم المنالة في غزو (بدر) كانتا متماثلتين في التطبيق، وفي النظرية فقد غير منطق البعث رموز سورة الانفال لمصالحه، أي: رغم ان الكرد شعب مسلم وسورة الانفال جاءت لنهب الكفار، ورغم ان سورة الانفال قيلت لحين الحرب وان اهالي القرى الكردية لم يؤنفلوا في حالة الحرب، ورغم ان سورة الانفال جاءت لنهب اموال مقاتلي الكفار في الحرب ولهذا الغرض ارشد بها المسلمون، الا ان البعث فسر هذه السورة كما اشرنا اعلاه بأنه كيف فسر ظواهر الكافر الاله والدين الخ.. وترجمه الى لغة بعثية التي هي لهجة التعذيب ويكون الكافر فيها هو الذي ضد

البعثيين، والاله هو صدام، والدين هو حزب البعث، حينذاك نصل الى هذه النقاط كنتائج طبيعية للبحث:

1-ان مفهوم الانفال استخدم بنفس معنى ومضمون سورة الانفال، في عمليات ابادة الكرد عام 1988 من قبل النظام البعثي، وليس صدفة.

2-ان للبعث لغته الخاصة، والظواهر بتلك اللغة كانت لها دلالات اخرى، حيث فسر كثيرا من آيات سورة الانفال الى لغته، أي: فسره بمنطق البعث، وبالطريقة نفسها يستفيد من بعض من آيات السور الاخرى.

3-في انفال البعث: الكرد كافرون لأنهم ضد البعثيين، وپيشمرگه الكرد حاربهم، فاهالي القرى الذين آزروا الپيشمرگه كانوا محاربين ايضا ضد البعثيين، فيجب ان يؤنفلوا و يسلبوا و ينهبوا اوموالهم واولادهم.

4-كل الرموز التي تشير في سورة الانفال الى التعذيب، استخدمت ضد الكرد في عمليات الانفال بحق الكرد.

ومن الغايات الاخرى في اعارة اسماء ومصطلحات القرآن من قبل البعث، اولاً: كي يظهر صدام نفسه كرجل متدين، ثانياً: ان يعرف الكرد كشعب كافر الى الدول العربية والاسلامية المحيطة به، ثالثاً: ليسكت العالم الاسلامي والجماعات الاسلامية ازاء هذه الجريمة، وقد حقق ذلك الهدف تماما.

مفهوم الانفال في قاموس اللغة وضمن المجتمع

في عام 1988 وما بعده، دخل لفظ في اللغة الكردية وهو لفظ (الانفال)، الا ان هذه اللفظة لها ابعاد مفزعة ووقع مخيف في عمق شعور ومحيط كل انسا ن كردي سوي. فمنذ ان دخل هذا المصطلح في قاموس اللغة الكردية، اصبح يجدد الموت والخوف والنهب والاملاق والخنق.. الخ.. ذاته. هذه الجريمة التي سجلت في ذهن الانسان الكردي اصبحت تحتل مساحة واسعة في نفوس المجتمع الكردي. فبمجرد سماع هذا اللفظ تخلق حالة نفسية سيئة لدى الانسان السوي وان لم يشمل هذه العمليات، بعد مرور 15 عاما على عمليات الانفال، بمجرد سماع هذا اللفظ نلفي مثل هذه الردود النفسية:

⋆(عندما اسمع كلمة الانفال اغضب كثيرا، بشكل اصبح في هذا الوقت لا افكر الا في انتقام، اود حينذاك ان اقتل بيدي الذين فعلوا بنا الانفال). رجل 40 سنة.

⋆(حينما اسمع كلمة الانفال انفعل الى درجة السخط، اود الانتقام، وحينما ارى شخصا مؤنفلا في التلفزة افقد السيطرة على نفسي، وابدأ بالبكاء). رجل 38 سنة.

⋆(حين اسمع كلمة الانفال اغضب، افقد السيطرة على نفسي وابكي وان لم تسيل العبرات على مقلتي، ليس بكاء مقلتي فحسب، بل كل اعضاء جسمي يصيح، وروحي تئن!). رجل 34سنة.

⋆(بسماع كلمة الانفال اشعر بالضعف، اشعر بأنني اضعف انسان في الكون) امرأة 40 سنة.

★(عندما يحكي مؤنفل قصته، اشعر انني كنت قد اصابتني الانفال في كابوس بحلم مخيف). امرأة 41 سنة.

★(حينما اسمع كلمة الانفال، اشعر بوحدانية مميتة، وحدانيتي ووحدانية شعبي، في سماع هذه الكلمة اشعر حتى الجبال لا تساندنا). رجل 42 سنة.

★(حين يفكر الانسان في الانفال حينذاك يغضب، والآن، بعد مرور 15 عاما على الانفال عندما ترى امرأة گرميانية فقدت اولادها واولاد اولادها وبكاؤها مفعم بالعطف والحنان، يفقد الانسان سيطرته على نفسه وتسقط العبرات على وجنتيه، يشعر الانسان بخيبة الامل، وفي الوقت نفسه يتأمل ويسأل: من هم هؤلاء الذين فعلوا بنا هذه الجريمة، هم في هذه الدرجة من اللاانسانية، المرض..). رجل 33 سنة.

★(اشعر اننا منكوبون، اشعر بالظلم الغزير تجاهنا ولا احد يسمعنا ولا يرانا!). امرأة 39 سنة.

★(وقت سماعي كلمة الانفال ارتعش، اشعر بالسخط الكثير). رجل 30 سنة.

★(اشعر بالظلام، وفي ذلك الظلام اسمع صيحات وادعية وتضرع آلاف من الناس). رجل 38 سنة.

★(بسماع كلمة الانفال اتذكر الحفرة، اشعر كأن الدنيا حفرة كبيرة). امرأة 37 سنة.

★(اشعر بحزن كبير). امرأة 45 سنة.

في هذه العبارات السابقة الذكر تتبلور عدة حالات نفسية لدى اصحابها وقت سماع كلمة الانفال، ومن ابرزها: الغضب، الحزن، البكاء، خيبة الامل. وردود افعال كل من هذه الحالات هي: حالة الغضب و روح الانتقام، حالة الحزن والبكاء و الكآبة، وينتج عن حالة الوحدانية والشعور بخيبة الامل نوع من الاهمال واللامبالاة تجاه المقابل، وحسب الفروق بين الرجل والمرأة في المجتمع الكردي، وكما يتضح من اجوبتهم، نرى بأن الرجال تسيطر عليهم حالة السخط فتنمو فيهم روح الانتقام تجاه عملية الانفال، اما النساء فتسيطر عليهن حالة الخوف والشعور بالوحدانية واليأس، فتنتج عنها الكآبة وخيبة الامل. كما نسمع الشعور بالوحدانية والظلام كعقدة نفسية، الذي ربما ينتج عن تشاؤمهم بالمستقبل، او الخوف من احداث كارثة اخرى، او تكرار تلك الكارثة التي بمجرد سماعها يرتعش الانسان الكردي.

ان كارثة الانفال اصبحت دافعا لخلق روح العدائية لدى البعض وخيبة الامل لدى البعض الآخر. توجد في نظرية فرويد ثلاثة دوافع لعدائية الانسان، الاول: العدائية كافراز الغريزة الجنسية، الثاني: العدائية كتعبير للدفاع عن النفس، الثالث: العدائية كتعبير عن غريزة الموت، أي حب النهب والابادة[10]. ففي الحالة النفسية للانسان الكردي ومن خلال التعابير التي تومئ الى الثأر والقتل والسخط، بمعنى حالة من العدائية نتجت من الانفال كتعبير عن غريزة الموت، وتعبير للدفاع عن ذات الانسان الكردي. بمجرد تسمية هذا المفهوم ما يعبُر بمخيلة الانسان وينشط مدركاته، هو الاسلوب التعذيبي للذين قاموا بعمليات الانفال من خلال سيرة المؤنفلين، حيث يظهر الموت والقتل والوأد

كثلاثة مرادفات رئيسة ازاء مفهوم الانفال، ان الانفال توقع الانسان الكردي في حالة توتر مفعم بالشك، ليس تجاه الذين قاموا بالانفال فحسب، بل تجاه الانسانية كلها:

(ان الانفال توقعني في الشك تجاه كل شيء، مادامت كارثة الانفال ماثلة، واوقعت شعبي في مأزق, فمن الصعب روايته، لذا لا اؤمن بأي شيء) امرأة 40 سنة.

(اشعر ككرد لا يحسب لي حتى حساب النعم، اشعر انني مهمل كثيرا). رجل 35 سنة.

(ان كلمة الانفال تذكرني السلب والنهب، ليس نهب المال، بل نهب انسانية الانسان الكردي). امرأة 38 سنة.

هذه الحالة النفسية التي أوقعت الانسان الكردي في الشك تجاه كل شيء، فكل شيء هنا هو الانسانية كلها، هذه الحالة لم تخلقها كلمة الانفال فحسب، بل خلقها تأريخ الكرد في الاضطهاد، فالانسان الكردي ينظر الى الانفال كنتيجة لانقسام كردستان والشعب الكردي، فهم الذين قاموا بتقسيمهم على الشعوب الاخرى ومن ثم اصبحوا مضطهدين بينهم، هم الذين سببوا في جعل الكرد مادة خام بين ايدي الانظمة كنظام البعث، وهذا النظام جعلهم من عنده مواد للتجربة في مختبر الاسلحة الكيمياوية والبيولوجية، بعد مذاق الكوارث طوال ثمانين سنة الماضية ايضا هم الذين سكتوا ازاء هذه الجرائم، هذه الاشياء تمر بذاكرة الانسان الكردي، لذلك يعبر عن شك حقيقي تجاه انسانيتهم وانسانيته في الوقت نفسه، كما اتضح في المقولتين اعلاه.

تخلق كلمة الانفال احوالا مختلفة عند كل فرد وقت سماعها، هذه الاحوال لا تظهر التأثيرات النفسية فحسب، بل تخلق كذلك تأثيرا فيزيائيا.

(اشعر بالانهيار والخمول، بسماع كلمة الانفال تتقلص كل شراييني ومن ثم اتعرق) رجل 29 سنة.

(ابكي، افقد السيطرة على نفسي عندما ارى امرأة تروي حالتها، حتى اكاد ان احتف). رجل 39 سنة.

(ان كلمة الانفال تصيبني بالخمول، لا اشعر بوجود اية قوة في جسمي حتى اكاد ان اصيب بالاغماء). امرأة 37 سنة.

كل الحالات التي ذكرت من: التقلص، الخمول، الصداع، البكاء، التعرق.. الخ. تأثيرات سوماتيكية وتخلق نتيجة الحالات السايكولوجية، كما ان كل هذه الاشياء حالات ميكانيزمية للدفاع عن الازمة النفسية، التي ربما تخلق نتيجة الكآبة والضعف والغضب.. ومن الطبيعي ان يختلف رد الفعل من شخص الى آخر، وذلك بسبب اختلاف تجارب الحياة عند كل انسان من جهة ومن جهة اخرى مدى حضوره بين ايدي البعثيين ومذاقه تعذيبهم، يقل ان نجد رجلا كرديا لم يسجن و لم يعذب من قبل البعثيين، كما يقل ان نجد امرأة لم تلق نوعا من الاستهانة من قبل البعثيين، فنوع ومدى هذه التجارب المريرة يولد ردودا مختلفة عند ذكر كلمة الانفال.

ان ذكـر كلمـة الانفـال يخلـق لـدى الـبعض مـن الناس حالة نفسية شاذة كما يتضح في هذا التعبير:

(عندما اسمع هذه الكلمة اكاد اجن، يألم كل جسمي، وتكون الدنيا ظلمة امام عيني). رجل 40 سنة.

و عند بعض آخر مـن النـاس تخلق هـذه الكلمـة حالة روحية بحيث انهـم يريـدون ان يخلقوا المحال ويبعدوا ومحيطهم الى مكان لم تصلهم يد احد.

(عنـدما اسمـع كلمـة الانفـال احبـذ ان تحـدث معجزة بحيث ينتقل الكرد مـن منطقـتهم ويسكنوا في كوكب آخر). رجل 55 سنة.

ان كارثـة الانفـال تخلـق جـوا مفعمـا بـالفزع، خاصـة عنـدما تـروي الضـحايا وضـعهم، وخاصـة حينما يذكرون كيفية موتهم، التي هي ابشع نوعيـة للمـوت، وخصوصـا عنـدما تـذكر النسـوة مـوت ارضعتهم والكلمة المفزعة التي تليها وهي ان الكلاب اكلت جثثهم، فكيف لا يخلق الصداع والسهر..!

(كلمـا ارى شخصـا مـؤنفلا في التلفـزة فيرقـني النوم، واصبح افكر في ضحية الانفال طوال الليل). امرأة 46 سنة.

المؤنفلون يتساوون الشهداء الحية

الـذين فقـدوا في الانفـال يقـدرون بــ 182 الـف انسان، وهنـاك مـن يقـدرهم بـأكثر مـن 200 الـف انسان، ان الفزع الـذي خلفتـه الانفـال لـيس حاصـلا من نوعية القتل ومكان قتلهم، بقدر ما كان مجسدا في قصص وروايـات الـذين نجـوا مـن هـذا الجحـيم، الذين نجوا، كما يروونه وقـد يسمونه بيـوم الحشر، هم الذين يوميا يقصون حيـاتهم المأسـاوية، وآلامهـم تنتج آلاما أخرى.

عنـد غالبيـة الامـم يقـال للـذين يستشـهدون في سـبيل الاسـتقلال شـهداء، وفي المجتمـع الكـردي مـنح اعلى المراتب للشهيد بينما هذا المعنى لا يعطي دلالـة انهم احياء، اما حالة النـاجين مـن المـؤنفلين الـذين عــبرهم المــوت بانواعــه ولم يموتــوا، وعـــادوا الى مجتمعهم فهم يوميا يملأون ذاكـرة الانسـان الكـردي بقصص التعـذيب والمـوت، هـؤلاء الـذين هـم الشـهداء الاحيـاء جعلـوا خلـود الشـهيد حقيقـة، هـذه العبـارة العجيبة جاءت على لسان رجل، حين قال:

(حينمـا يتحـدث مؤنفـل في التلفـزة فـإنني ارى شهيدا حيا).

رجل آخر يكرر هذه العبـارة بشكل غـير مباشـر للناجين من عمليـات الانفـال، والـذين يسمون بقايـا الانفال، حين يعبر عن شعوره بسطر واحد ازاءهم:

(ايها المؤنفلون: انتم في ذاكرتنا، مع كل انفاسـنا، وكل ضربة قلوبنا، انتم معنا).

هـذه العبـارة تتكـرر طـوال ثـورة الكـرد، وقيلـت للشهداء في الخطب والكتابات والاذاعات، كما قيلـت في نشـيد (ئـەی شـەهيـدان-ايهـا الشـهداء) الشـهير بصـوت الفنـان (ناصـر رزازي)، يطعـي نفـس القصـد ونفـس الـدور للشهداء.

مرة اخرى يقول رجل آخر بحق المؤنفلين:

(هم عبرات وهموم جميع الكرد، هم صيحات كل نسـاء واطفـال ورجـال الكـرد، يقولـون: نحـن شـعب فخـور ولا نـرضى بكـل هـذا التعـذيب، هـم اعيننـا،

منهم نرى وضوحا في آفاق مستقبلنا) رجل 32 سنة.

على الرغم من تصور البعض بأن عمليات الانفال تذكر الانسان الضعف والوحدانية.. الا ان بعضا آخر يرى مستقبله فيها، يرون من خلالها نورا، ذلك نور تحريرهم من ايدي اصحاب الانفال.

في انتظار الماضي

الانتظار هو تلك الحالة النفسية المفترة التي يعيشها الكرد جميعا في كردستان الجنوبية. مورست سياسة الاخفاء في عمليات الانفال، وذلك عبر اخفاء ووأد جثث الضحايا في الصحارى الجنوبية وعدم اعادتهم الى ذويهم الكرد، هذه الحالة خلقت تصورا لدى الانسان الكردي وهو انه لم يبق من المؤنفلين احد، فهو يبحث عنهم وينتظرهم دوما، على الرغم من ان الحجج تكذب هذا الشك الا انها تؤكد فناءهم، فإن هذا الانتظار يبقى ليس في ذاكرة ذوي المؤنفلين فحسب بل لدى جميع الكرد:

(شعوري كشعور المرأة التي تنتظر زوجها واطفالها مدة 15 سنة، وقد عميت).رجل.

ان كارثة الانفال اوقفت كل الحركات قبل بدو صلاحها، وقطعت كل المشاعر المتصلة ببعضها، علاقة الام بولدها، الاخت بالاخ، الزوج والزوجة، العشاق، الاصدقاء، الاقرباء.. وابقتها في حيز الانتظار.

(حينما افكر في الانفال اذكر ابتسامة طفل من اقربائي كان عمره ست سنوات، عندما تذهب امه الى السوق لشراء رغيف، هذا الطفل مع ابيه في البيت يفرك عينيه، ينتظر الرغيف، وقتذاك هجمت مفرزة من رجال الامن بيتهم، فنهبوا بيتهم بالبلدوزر و أتوا بهما الى السيارة، فالمؤنفلون موت 182 الف ابتسامة وانتظار رحيل في ريعان شبابه، كما هم قلب هذه الام الذليلة التي ماتت في الانتظار). امرأة شاعرة[12].

من يرى او يسمع خبر هذا الفراق فسيسجل في ذهنه، ويراقب مصير المؤنفلين حتى يطمئن من وصول الام بطفلها، او الزوج بزوجته، او اي فراق أخر، هذا الفراق تماما هو الذي تعبر عنه المرأة الشاعرة الكردية، انتظار ابدي.

التأمل في الذات

ان كارثة الانفال خلقت حالة نفسية اخرى، هي حالة التأمل في الذات كفرد كردي ومن نوعه كانسان، كما خلقت حالة الشك في انسانية الانسان كما اشرنا الى هذه النقطة اعلاه، وهكذا فإن هذه الحالة تضعه في الشك من انسانية ذاتها، ففي ذكر احوال المؤنفلين يخلق عقدة نفسية وهماً وحزنا في نفسية الانسان الكردي، عقدة تجعله يشك في كرديتها، ونتيجة لخيبة الامل تجره الى التفكير في المحال، او ينقل الكرد في مخيلته الى كوكب آخر، او يسأل بغم كبير:

(افكر بالتعمق في القضية الكردية فكلي هم، في بعض المرات اقول يا الهي لمَ يجب ان يكون هكذا؟ فإذا كنا شعبا بلا ملجأ الى هذه الدرجة فلماذا لم يكن لدينا مستعمر واحد حتى تسهل امورنا بعض الشيء، ابنتي التي عمرها 8 سنوات حينما ترى في

التلفزة ضحايا حلبجة تسألني: امي لماذا هم ماتوا؟ محياهم عجيب، من فعل بهم هكذا؟ لا اعرف ماذا اقول لهذا الطفل، وهو كردي ومنتم الى هذا الشعب، ولو ولد في السويد، لماذا قضيتنا مضطربة الى هذا الحد؟ كيف نفهم اطفالنا؟ اية كارثة نذكر لهم؟ حلبجة، الانفال، اصيب بغم لا يوصف!) امرأة 37 سنة.

هذه الحالة لامرأة كردية تبعد آلاف كيلومتر من كردستان، وبعد الحادثة بخمس عشرة سنة، فهي تظهر نموذجا نفسيا لانسان كردي لا يمت الى المكان والزمان بصلة، امرأة كردية من السويد، التي هي مدينة تعيش بسلام منذ 200 سنة، لم يظلم آمر مواطنه نقيرا، بل عم فيها اطمئنان من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد تقع امرأة كردية كردية في بلد كهذا حالة نفسية صعبة لايمكن وصفها، هذه المرأة لا تعبر عن نفسها فقط بل عن كثير من الرجال والنساء في كردستان وتتعدى الى الاطفال، حينما يولد الطفل في بلد مثل السويد، واشنطن، برلين، او اية دولة اخرى من ابوين كرديين، ومن ثم يبحث عن هويته فيعرف انه كردي، حينذاك يواجه نفس العقبة التي والداه يواجهانها، والتي هي أزمة الهوية، بالاحرى عدم الهوية، (الانفال كارثة انستني الضحك) هذا التعبير كان لرجل من شرقي كردستان، وهو يسكن الآن في دولة اوربية ويقول(ان اطفالنا يسألون دوما عن نسبهم، في يوم حلبجة يسألوننا لماذا يفعلون بنا هكذا) هذه اسئلة لاطفال يعيشون في الخارج، ليس اطفال كردستان فقط، آرا طفل عمره سبع سنوات ولد في السويد عندما يذهب مع امه في يوم حلبجة ويرى الصور بعد ذلك يبدأ بالتساؤل عن هويته، فيحدث هذا الحوار بينه وبين امه:

-آرا : ماذا نفعل لكي لا يقتل اطفال كردستان بالغاز الكيمياوي بعد الآن؟

امه: هنا ليس باستطاعتنا فعل أي شيء، اما في كردستان فالبيشمركه يقاتلون مع الدكتاتور، فهم يفعلون شيئا.

آرا: لا، نحن نستطيع فعل شيء.

امه: ماذا نفعل؟

آرا: غدا اجمع تواقيع اصدقائي الاطفال ومن ثم نرسلها الى منظمة حقوق الانسان.

هذا الطفل في السن السابعة، يكتب نصا باللغة السويدية ومن ثم يجمع تواقيع اصدقائه ومعلميه. وهذا نص رسالته:

(نحن نأمل السلام للاطفال في العراق وكردستان الآن وبعد نظام صدام، نأمل ان يعيش الاطفال في الاطمئنان، كما نأمل ان يذهب اطفال كردستان والعراق الى المدرسة مثلنا، ويلعبوا ويمارسوا الكومبيوتر، كاطفال السويد).

فكارثة الانفال وحلبجة خلفت آثارا سلبية على شخصية الطفل الكردي، قضية الكرد اثارت مشكلة الهوية لدى اجيال قبل وبعد كارثة الانفال وحلبجة.

كارثة الانفال وآلية الدفاع

كما اشرنا في الفصل النظري لهذا البحث، ان الانسان يحاول استبعاد تأثيرات السب والحزن ومن

اجل ذلك يلجأ الى عديد من آليات دفاعية نفسية، تلك العبارات التي استشهدنا بها ومن خلالها حددنا عدة حالات نفسية يواجهها الانسان الكردي، حددنا فرضية ان الانسان الكردي للدفاع عن تأثيرات الانفال على صحته يلجأ الى عدة من آليات دفاعية نفسية، نحن نحاول ان نحدد بعضا من هذه الآليات من خلال العبارات السابقة، اكثرها استعمالا هو تثبيت آلامها في النفس، لكن هذا التثبيت يكون مع الاستذكار المباشر كسماع كلمة الانفال، او سماع شكاوى مؤنفل وذويه عبر التلفزة او اية قناة اخرى.

بعض الناطقين حينما سئل في الوقت الذي يذكر مؤنفل احواله، ليرصد في نفس الوقت حالته النفسية واسلوب تعبيره وتأثيراته، في هذه النظرة يتضح ان هذا الشخص اصاب بحالة نفسية صعبة، وتظهر هذه الحالة في تجاعيد غممه، ويغشي محياه بغم عميق، وعبراته في قفص مقلتيه، وحركاته غير الطبيعية. احد الناطقين كان رجلا 39 سنة بكى وقت اجابته، ولا يستطيع ان يجيب طبيعيا، وآخر كان رجلا 33 سنة حينما رأى مؤنفلا شرع بحركات غير طبيعية التي تعبر حالة مزرية، وقال: عندما ارى تلك الضحايا يألم جسدي كله، بعض الناطقين ذكروا الصداع، او التعرق، او تقلص الشرايين، هذه الاشياء كانت رد فعل الحالات النفسية على الحالة الفيزكية.

الاهمال هو آلية اخرى من وسائل الدفاع، بعض الناس يبدونه في شكل استهزائي، فامرأة كردية تشتري الجلاتين بما لديها من نقود وتشد به ابواب وشبابيك بيتها، هذه المسكينة تقول بكل براءة: (صرفت كل نقودي واشتريت بها الجلاتين وشددت به الابواب والشبابيك، اخاف بعد كل هذا العناء لا يستخدم صدام السلاح الكيمياوي)[13] في هذا التعبير تقرأ حالتان، حالة الفقر، فإن الكرد يعيشون على ارض مليئة بالثروات الطبيعية، ولكنهم محرومون منها، حالة الخوف من الاسلحة الكيمياوية الى حد تصرف نقود الرغيف بدلا منه لشراء الجلاتين للتصدي عن الموت بالاسلحة الكيمياوية، وحالة الاهمال والبراءة كآلية للدفاع النفسي للوعيد المخيف بواسطة الاسلحة الكيمياوية التي قتلت وشردت منهم آلافا. ان ترهيب الذات آلية اخرى التي يلجأ اليها الانسان الكردي، يمكن ان نضمن الهجرة المليونية في عام 1991 بعد الانتفاضة والهجرة الجماعية في العام الحالي 2003 حين اعلنت اميركا حربها ضد صدام، في هذا الطراز وذلك نتيجة الفزع من كارثة الانفال وحلبجة.

تأثير الانفال في نمو الفرد الكردي

ما يتضح من هذه المعلومات، ان عملية الانفال بعد مرور15 سنة على وقوعها، انعكست تأثيراتها السلبية في افراد المجتمع الكردي، وشوهت اطمئنان الفرد الكردي، وخلقت أنواع الحالات النفسية السيئة مثل الكآبة وخيبة الامل والاهمال. يقول طفل في فضائية كردسات، وكان عمره اربع سنوات وقد ولد 11 سنة بعد كارثة الانفال وقصف مدينة حلبجة بالاسلحة الكيمياوية، (اخاف، اخاف من الكيمياوي،

اخاف ان نؤنفل، ليمض، ليتركنا صدام)[14]، كانت كارثة الانفال سببت مخاوف طويلة الامد، ليس في قلوب الذين رأوا الانفال، وكانوا في هذه المرحلة ناضجين، بل في قلوب الذين ولدوا بعد عمليات الانفال بمدة، مخاوف مستمرة، اثرت في نوعية تفكير الفرد الكردي، (من كان يعيش في فزع دائم، لا يمكن ان يكون تفكيره طبيعيا)[15]هذه المخاوف ادت الى ان يوعز الدماغ بالحذر عن هذا الخطر قصير الامد، لكن الخطر الكبير الذي يؤدي الى خلق خوف مستمر وطويل يسبب عدم توازن أفعال الدماغ ووظائفه، مع عدم توازن الحالة النفسية والتفكير لدى انسان خائف، خلقت مأساة الأنفال الخوف من التفرقة والتمزق بين أعضاء الأسرة، يقول رجل كبير السن من قناة (كردسات) الفضائية: "كنا 30 فرداً من عائلة واحدة، 28 منا أصبحوا من المؤنفلين، ففقدناهم". هذا ما أربك اطمئنان العوائل الكردية، والسبب في ذلك هو ان الأسر تترك مواقعها أثناء اقتراب مأساة شبيهة بـ(الأنفال)، الابتعاد هو احدى الوسائل التي ليست دفاعاً نفسياً عن الذين قاموا بعمليات الأنفال فحسب، بل هو دفاع فيزيائي عنهم.

عدا 182 الف من المؤنفلين الذين لايزال اقرباؤهم في انتظارهم، هناك عشرات آلاف من الضحايا حيث تشير المعلومات المتوفرة الى ذلك، اذ انشأوا مجتمعاً باسم الأنفال، هذا المجتمع يتألف من الرجال والنساء الذين نجوا من بعد ان سجنوا في سجن أو أكثر من (دبس) و(حويجة) و(نقرة السلمان)، اذ اجبروا على الإقامة في مجمع تنقصه كل الخدمات وحاجات الانسان منذ اكثر من 15 سنة.

ما يعتبره (ابراهام ماسلو) الحاجات الفيزيائية من: الأكل، الشرب، الراحة، الدفء، والجنس.. لايصل الى حد الاشباع لدى المجتمع المؤنفل بعد مرور (15) عاماً، لذلك يقف النمو النفسي عند المرتبة الاولى في هرم الحاجات النفسية دون ان يتصاعد. فالخوف من تكرار المآسي عند المؤنفلين أقوى مما لدى المجتمع الكردي بشكل عام، فاذا ما اشبعت المرتبة الاولى من الحاجات النفسية لدى المجتمع الكردي بشكل عام، فان حاجة الاطمئنان التي هي المرتبة الثانية تقف من النمو، لأن مأساة الأنفال لم تترك مكاناً للطمأنينة في قلوب افراد المجتمع الكردي، اذا ماصح تقسيم المجتمع الكردي الى المؤنفلين وغير المؤنفلين فنستطيع أن نعرض الاستنتاج هكذا: ان نمو مجتمع المؤنفلين الكرد يقف عند المرتبة الأولى من هرم الحاجات النفسية، لكن أغلبية افراد المجتمع الكردي غير المؤنفلين تقف عند المرتبة الثانية من الهرم. ما لوحظ هو أن المجتمع الكردي المؤنفل له التأثير في المجتمع الكردي غير المؤنفل وذلك بسبب الحس القومي الشديد، ذلك الحس الذي ربما له التأثير في مأساة الأنفال و نتائجها.

النتائج:

في نهاية هذا البحث الميداني الذي يعتمد على المعلومات الشفهية من أفراد المجتمع الكردي، نصل الى حقيقة أن الفرضيتين اللتين وضعناهما في جزء من هذا البحث حول الانسان الكردي، هما:

اولاً: ان عمليـة الأنفـال كمأسـاة مرعبـة، توقـف النمو النفسي لدى الفرد الكردي والمجتمع الكردي في مرتبتين، فالقسم المؤنفل من المجتمع الكـردي يقـف عنـد المرتبـة الأولى مـن هـرم الحاجـات النفسـية، والقسم غير المؤنفل يقف عند المرتبة الثانية.

ثانياً:ان جهاز المناعة النفسية لـدى الفـرد الكـردي نشيط على الدوام وذلك بسبب مأساة الأنفال، فـالفرد الكردي يتخذ أنواعاً شتى من آليات المناعة بغيـة دفـع الأحاسيس التي فرضتها مأساة الأنفال. لاشـك أن هـذه المناعـة النفسـية ليسـت مناعـة حقيقيـة للـنفس، ولاتطول مدة فعاليتها، وفي النهاية تنعكس على شـكل الكآبة وعدم الاستقرار النفسي والعقد النفسية.

ثالثاً: ان كارثة الانفال اوقعت الانسان الكـردي في حالة تأمل ذاتي، حيث تخلق له في هذه الحالـة أزمـة الهوية، فيظهر تساؤل البحث عن الهوية لدى الاطفال الكـرد في الـداخل والخـارج. رابعـاً: كمـا توصـلنا الى نتيجة ان الانفال احلت بالكرد ولكن بقـراءة بعثيـة بنية الابـادة الجماعيـة، فتقـع الرموز في لغة البعـث ازاء وقوعها في دائرة الكفر بمنطق القرآن.

الكلمة الاخيرة:

ان كارثة الانفال فريدة من نوعها وستبقى فريدة. ان المـؤنفلين بسـبب كـون مـوتهم طارئـا فـإن عددهم يزداد دوما، لا يمكن ان نقول بـأن عـددهم 182 الـف انسـان، لأن عـدد الانسان يـزداد بشـكل مستمر، اذا لم يقتل هـذا العدد (182) الـف كـردي حتـى الآن فكـم يصـبح عـددهم؟ فيجـب ان يـزداد عددهم سنويا.

الـذين قـاموا بالانفـال لم يتركـوا صـدعا لرؤيـة الجمـال في الحيـاة. هـم صـانعو حفـر المـوت وهـدامو صرح الحياة.

المصادر:

المصادر الكردية والعربية

1-القـرآن الكـريـم، ترجمـة: محمـد صـالح ابراهيمـي، ط1، مطبعة قران كريم، ايران

2-ميـدل ايسـت ووچ: الابـادة الجماعيـة في العـراق وحملـة الانفـال علـى الكـرد، ترجمـه مـن الانكليزيـة: سـيامند مفـتي زاده، ط1، السـليمانية، 1999، مطبعـة (خاك).

3-يوسـف دزيـي: الانفـال، الكارثـة، النتـائج والابعـاد، اربيل 2001، ط1، مطبعة موكرياني.

المصادر الانكليزية:

1-Thomas Brante, Heine Andersen & Olav Korsnes (red) (2001): Sociologiskt lexikon. Stockholm: Natur och Kultur.

2-Olofsson & Sjostrom (1993): Existens och sociala relationer. Lund Studentlitteratur.

3-Schultz Larssen Ole (1997): Psykologiska perspektive. Arhus: Danmark.

4-Dozier Rush (2000): Radsla. Kanslan som genomsyrar. Och praglar vara liv och var varld. Oversattning: Gun Zetterstrom. Finland: W&W.

5-Sandstrom Stefan (1996): Vald & Hot. Falkoping: Liber.

6-Jeffmar Chirster (1987): Socialpsykologi-Manniskor i samspel. Lund: Studentlitteratur.

***

الهوامش:

1-ميدل ايست ووچ (الابادة الجماعية في العراق وحملة الانفال على الكرد، ص155 بالاعتماد على الكتاب التأريخي الشهير لـ(راول هيليبرك) المختص بـ(الهولوكوست) يقيم كارثة الانفال ويشبهها بـ(الهولوكوست)، وعلى هذا فقد اتبعت ثلاث خطوات في كارثتي (الهولوكوست والانفال) الاولى: التحديد، الثانية: التجميع والقبض، الثالثة: الابادة.

2-Jeffmar, Ch (1987), P11.

3-جاءت نظرية آلية الدفاع كنظرية اساسية في كثير من الكتب النفسية، مصدري هو:

Olofsson & Sjostrom)1993): Existens och sociala relationer. Lund Studentlitteratur. P. 84-85.

4-مثال وظائف الآليات الاخرى التي هي بتصوري انعكست في عمليات الانفال:

الحجود: يضأل الانسان ازاء مخاوف الكوارث، يجحد من ان تكون للكوارث عواقب وخيمة.

الرهبانية: ينعكف الانسان عن ذكر مصادر الخوف لامن قريب ولا من بعيد.

الانعكاس: يهاجم الانسان المخاوف لينتقم منها.

التمرد على الذات: يدين الانسان نفسه ويحسب نفسه سببا.

ترهيب الذات: الخوف من تكرار نفس الكارثة ويحاول الانقاذ منها.

5-انظر ص87 في:

Schultz Larssen Ole (1997): Psykologiska Perspekitve. Arhus.

6-يوسف دزيي: مذكور في المصادر اعلاه، ص28

7-المصدر السابق ص27

8-القرآن الكريم: مذكور في المصادر اعلاه, ص178

9-الابادة الجماعية في العراق وحملة الانفال على الكرد ص388

10-Sandstrom,S (1996): p.33.

11-الرجل الذي اجاب عن سؤالنا هو الشاعر (پـۆلا صديق)

12-يذكر (نزند بگيخانى) يروي هذه القصة حين اجاب عن السؤال الموجه اليه.

13-هذه العبارة، للسيد (مام جلال) في ندوة بحضور زالماي خليل زاد في السليمانية قبيل بدء الحرب على العراق، فذكر حالة هذه المرأة.

14-في مقابلة مع المؤنفلين بفضائية كردسات، انا ذكرت اثنتين منها. جدير ذكره هناك برنامج في فضائية كردسات باسم (الانفال) بحجج وبراهين حية.

15-Dozier, Rush (2000): P 37.

و يسألونك عن الأنفال...!

الأنفال في حوار مع يوست هلترمان..

- اجراء: آراس فتاح

➢ ترجمة: كامل محمد قرداغي

مجلة (رهند): يمكن اعتبار عمليات الأنفال نظاماً للقتل و تركيبة مخططة منظمة من قبل النظام العراقي لقتل الكرد جماعياً, هلا تفضلتم بالحديث عنها و لو بشكل مختصر؟

هلترمان: الأنفال عبارة عن عدة عمليات عسكرية نفذت من قبل بضع فرق و وحدات تابعة للنظام البعثي و الوحدات العسكرية و إستخبارات الأمن العسكري, و تشكيلات حزب البعث و بعض وحدات خاصة, شاركت كلها في اعداد و تنفيذ هذه الإبادة الجماعية, و الأحداث دارت رحاها كالآتي:

تم استخدام الأسلحة الكيمياوية في ثماني مراحل منها لضرب القرى الواقعة ضمن الحزام المحرم. و هكذا تم اجبار سكان القرى الواقعة في تلكم المناطق على ترك قراهم و اللجوء الى المدن و الحضريات تحت ضغوط شديدة. هناك تم لم شملهم و وضعهم في مراكز مطوقة مهيئة للترحيل. و من ثم ترحيلهم الى مراكز الجيش الشعبي في كركوك, و من هناك اشرفت وحدات خاصة على نقلهم في سيارات و حافلات محكمة الإغلاق و التي لا تسمح برؤية ما في داخلها الى غرب العراق, من شمال المنطقة الصحراوية الى جنوبها. و هناك قتلوا الرجال و اكثرية النساء و الأطفال. و استخدمت المجنزرات لإخفاء جثثهم في قبور جماعية. حسب تقديراتنا يصل عدد الذين قتلوا من الرجال و النساء و الأطفال من المدنيين بشكل منتظم الى حوالي (100000) شخص.

رهند: انكم تعملون من خلال منظمتكم (Human Rights watch HRW) على تقديم صدام حسين كمجرم متهم بالإبادة الجماعية الى المحكمة, و على حد علمي انكم تحتاجون في ذلك الى

مساندة دولة اوعدة دول كي يكون باستطاعتكم تقديم شكوى ضد النظام العراقي او الدولة العراقية. هل من الممكن اخبارنا عما وصلتم اليه في ذلك؟

هلترمان: نحن اجرينا حوارات جديدة مع حكومات لهذا الغرض. اي من اجل وضع مسألة الأنفال بين ملفات المحكمة الدولية. و من خلال محاولاتنا اتضح لنا انه ما من دولة مستعدة لتحمل هذه المسؤولية. كانت كلها تستحسن ان تكون طرفاً في هيئة اكبر من دولة, لا ان تكون هي وحدها معنية بالأمر, لتقل وطأة المجازفة الكامنة في الموضوع على نفسها و تقاسم المصاريف المالية للأمر مع الآخرين. و عليه حاولنا تشكيل تحالف قادر على تحمل مسؤولية امر كهذا. و لكن الأطراف اشترطوا مشاركة دولة اوروبية في هذا التحالف. لكننا لم نجد تلك الدولة المستعدة للمشاركة في هذا العمل. و بجانب الحجج السياسية لا تستطيع بسببها تحمل مسؤولية هذا الأمر, لكنها تستطيع ابداء المساعدة. نحن نحتفظ بموافقتها الشفهية, لكن هذه الموافقة لم توضع موضع التنفيذ العملي حتى الآن.

رهند: هل يعني ان محاولاتكم لم تأت بالنتائج المرجوة منها نوعاً ما, بسبب عدم وجود رغبة سياسية أو إرادة سياسية؟

هلترمان: هذا صحيح الى حدٍ ما. لكنني لا اشاطرك الرأي حول فشل محاولاتنا كلياً. نحن نظل مواظبين في عملنا الى ان نحقق غايتنا. صحيح اننا لم نحرز اي نصر جدير بالذكر بسبب عدم وجود دافع سياسي أو رغبة سياسية في الأمر, لكن علينا ان نبذل جهوداً أكثر مما بذلنا لتكوين إرادة سياسية. إنني أرى وجود إحتمالين أمامنا:

الإحتمال الأول هو ان الظروف السياسية تتغير في الداخل. هذا التغيير يفسح المجال امامنا لنجمع أكثر ما يمكن جمعه من الأدلة للإستفادة منها لتوضيح الرؤية أمام العالم على المسألة و هذا ما يسهل علينا العمل على تقديم الشكوى ضد المنفذين للعدالة ليتم تقديمهم الى العدالة لينالوا جزاءهم.

الإحتمال الثاني هو تغيير الوضع السياسي الدولي بإتجاه يساعد على ان تهتم دولة أو عدة دول أوروبية بهذه المسألة و تعمل على تقديمها الى العدالة. يمكن لأمريكا في العمليات خياراً جيداً لإستخدامه لمارسة ضغوطات على صدام حسين و وضعه في موضع دفاعي. لأنه في ظل وجود معارضة كبيرة في العالم على قصف مواقع صدام يصعب عليها القصف. عليه يمكن استخدام تهمة ضلوع العراق بالقتل الجماعي و تقديم الشكوى ضده كورقة ضغط كبيرة.

رهند: (إندايت) مشروع معد من قبل عدة شخصيات و حركات معارضة, يهدف الى تقديم صدام حسين الى العدالة كمجرم حرب. يبدو أن هذا المشروع تلقى المساندة و القبول لدى كل من اميركا و بريطانيا بنسبة أو بأخرى. ما رأيكم أنتم حول هذا المشروع, الاترون فيه انه مشروع رمزي أكثر من أن يكون واقعياً؟

هلترمان: اود ان اعلن هنا عن مساندتنا لمشروع (انـدايت) بكـل وضـوح. نحـن في الحقيقـة نسـاند مشـروع (انـدايت), لكننـا لا نقـوم بمتابعتـه لأنـه يتضمن دعـوة لتشـكيل (تربيونـال) محكمـة دوليـة لإصـدار الحكـم علـى (صـدام) و محكمـة مـن هـذا القبيل يجب ان تقرها (منظمـة الأمـم المتحـدة) اولاً, ثـم تبـدأ بتشـكيلها ثانيـاً. و لكـن هـذا مـا يسـتحال حدوثـه لأن بعضـاً مـن اعضـاء مجلـس الأمـن لا يصادقون على مشـروع كهذا, ربما يوافق عليه كل مـن اميركـا و بريطانيـا و لكـن لاشـك في ان كلاً مـن فرنسـا و روسـيا و الصـين يقفـون بالضـد منـه و يستخدمون حق النقض (الفيتو) لإبطاله. فقط لهذا السبب نحن قررنا من جانبنا (من جانب منظمتنـا) أن يكون تخطيطنا لبعض مطالب و أهداف محدودة و لكـن واقعيـة. لأن تحقيـق اهـداف كتلـك الـتي يتضمنها (إندايت) اكثر صعوبة من الناحية العمليـة مما يعمل من اجلها (إندايت).

لـذا نحـن نطمـح في ان نقـدم شـكوانا علـى الجينوسـايد الى المحكمـة الدوليـة. و نهـتم ايضـاً بالأنواع الأخرى من الجرائم (كجـرائم الحـرب مـثلاً) و لكننا نعتقد ان جهودنا بشأن اهتمامنا هذا لا تأتي بالنتيجة.

اذا اردت ان تقـدم شـكواك الى محكمـة دوليـة, لاتحتاج الى مصادقة (مجلس الأمن) بل تكفيك دولـة واحدة لتقوم مقام المدعي في تقديم الشكوى. و لكن في الحقيقة تأكد لنـا اننـا نكـون في حاجـة الى وجـود اكثر من دولة واحدة, بل علينا ان نشكل اتحـاداً مـن عدة دول. و هذا مـا لم نـتمكن منـه الى الآن, بمعنـى آخر ليس مـن السـهل جلـب صـدام الى محكمـة مـا, لا بالنسبة الى (إندايت) فقط بل بالنسبة الينا ايضاً.

و اريـد أن اشـدد مـرة أخـرى علـى مسـاندتنا لتشكيل هيئة اممية, و نساند مشروع (إندايت) لكن هذا المشروع الأخير مداه محدود حتـى اليـوم. حظـي بالتعاون من جانب بريطانيا و أمريكا, لكنـه رمـزي بالأساس.

رهنـد: هنـاك مجموعـة مفـاهيم مثـل السـلام و الديمقراطية و الحريـة تحولت الى مطالب امميـة في الخطاب السياسي بعد انهيار نظام المعسكر الشـرقي. و بعـد احـتلال الكويـت مـن قبـل الماكنـة العسـكرية لصـدام حسـين كـان الحـديث يـدور حـول مسـؤولية اخلاقية اممية جديدة من الناحية العملية.

الآن و بعد التجارب المريرة التي عاشتها المنطقـة, هل من الممكن أن نقـول بـأن عقليـة مـا قبـل الحـرب البارد لاتزال في حيويتها؟

هلترمان: لاشك في ذلك, هـذا سـؤال مهـم للغايـة. قبل خمسين عامـاً مـن الآن, اي بعـد الحـرب العالميـة الثانية و الهلوكوست اصدرت (عصـبة الأمـم) بعـض قـرارات امميـة, مـن بينهـا قـرارات جنيـف و أخـرى خاصة بالجينوسايد, تم تطبيق هذه القـرارات, و تم اختراقها في بعض المرات.

الكل يعلم بأن هناك عدة قـرارات بإسـم قـرارات جنيــف, و هنــاك اشــخاص محكومــون لإتهــامهم بإختراقهم لها. لكن القرارات الخاصة بالجينوسايد لم توضـع موضـع التنفيـذ و التطبيـق, بـالرغم مـن ان

السنوات الـ(15) الماضية شهدت عدة جرائم الجينوسايد في بلدان مختلفة. شهد العقد الماضي ثلاث حالات حدوث الجينوسايد, العراق و البوسنة و يوغسلافيا 1988, و رواندا في (1994).

انه شيء مزعج تماماً أن لا نرى اية خطوة عملية لوضع القرارات الخاصة بالقتل الجماعي موضع التنفيذ, و أية خطوة لمطاردة و معاقبة المسؤولين عن هذه الجرائم حسب القرارات الخاصة بها.

أنا أعتقد ان حالة كهذه تعني سحب الشرعية و الثقة عن تلكم الهيئات و المؤسسات اذا لم يتم العمل بالقرارات الصادرة عنها. من هنا يبدأ قلقي و يأسي و غضبي عن ضعفنا في كسب الحضور السياسي لحالة كالحالة الكردية على طاولة محكمة دولية.

نحن نريد إرساء قناعة لدى الحكومات بأننا لا نريد معاقبة العراق. ربما هذا يصب في مصلحة تلك الحكومات. ليس من مصلحتنا أن نعاقب العراق لأن حكومته حكومة سيئة, ما نحن بصددها هي محاكمة القيادات العراقية و عقوبتهم بما تستحقون من المعاقبة القانونية. لأنهم قاموا بتنفيذ عمليات الجينوسايد حسب اعتقادنا هذا ما نريده نحن, نريد التعويض عن خسائر الضحايا, نريد أن يتضح المصير الذي آلت اليه الضحايا. و نطمع قبل كل ذلك في أن نمنع إعادة حدوث جينوسايد أخرى في المستقبل, فإذا لم نتمكن من مواجهة حالة مثل حالة الكرد و حالات أخرى مثل البوسنة و رواندا و نمنع حدوثها و نقول (كلا) بوجهها, فإننا لا نتمكن أن نضمن عدم حدوث كوارث أخرى من هذا القبيل في مكان آخر. على سبيل المثال أقول من الممكن أن تحدث في كوسوفا و في بوروندي و دول و أماكن أخرى, أهذا هو العالم الذي نريد أن نعيش فيه حقاً؟

رهند: يبذل النظام العراقي جهوداً من أجل عودته الى المجتمع الدولي و الى الشرعية التي كان يتمتع بها كيفما كان و عليه عاود المسؤولون العراقيون جولاتهم المكوكية بين البلدان. إذا تمخض واقعاً سياسياً جديداً عن هذه الخطوات في المستقبل, هل بإمكاننا أن نعد الأنفال كمشروع موت غير مكتمل؟

هلترمان: الأنفال عمليات عسكرية تمت ممارستها في الحرب العراقية الايرانية – اي هي مرتبطة بهذه الحرب بشكل أو بآخر و لاشك في كونها جزءاً من سياسة شمولية واسعة للبعث تجاه كل الكرد.

ان سياسة تدمير القرى و تعريب المناطق الكردية تدخل في خانة السياسات التي مارسها هذا النظام قبل الحرب. و لكن الحرب العراقية الايرانية اعطت دفعة سريعة لسياسة هجمات عمليات الأنفال. كان الكرد يلعبون دوراً بارزاً في اضعاف قدرات الحكومة المركزية ايام الحرب. وقتها قررت الحكومة ان تجد حلاً قطعياً للمسألة الكردية, و جسد هذا الحل في عمليات الأنفال.

و ما نصبو في الوصول اليه من خلال شكوانا هو غايتنا في الحصول على ضمانات للكرد. لأن هذا

النظام لا يتوانى في محاولاته من أجل إعطاء ديمومة لمخططاته و مواصلة عملياته تلك, طالما بقي محتفظاً بسلطاتهِ. هذا يعني أن النظام العراقي يستخدم سياسات مختلفة و دائمة لمحاربة القومية الكردية. و هذا النوع من السياسة غير قابل للقبول في المعايير الأممية.

و من الممكن أن يقوم بتنفيذ عملية إبادة جماعية أخرى, أم يستخدم الأسلحة الكيمياوية مرة أخرى إذا كانت في متناول ايديه. لأن النظام العراقي يستخدم اعتى السياسات و اشرسها, فإذا تسنى له أن يعود الى المجتمع الدولي – كما حدث مع بول بوت مثلاً – فإن احتمال شن الهجمات على الكرد يعود من جديد, هذه المخاوف تتربص بالمجموعات الأخرى ايضاً. في الحقيقة التفكير في هذا الأمر يزعجني كثيراً.

رهند: هل هناك منظمة أو هيئة أو حزب تحاول تقديم شكواها ضد النظام العراقي, عدا مشروع (إندايت)؟

هلترمان: كما قلت سابقاً يعد مشروع إندايت الذي تعمل من أجله أطراف معارضة, مبادرة مهمة جداً. و لكن نظراً لإختلاف التركيبات و المصالح السياسية المتواجدة داخل (مجلس الأمن) يكاد ان يكون حظ تحقيق هذا المشروع غير متواجد. ارى ان الوضع كله يتغير حالما وافق (مجلس الأمن) على إجراء محاكمة على هذا المنوال.

من جانب آخر لم تقم القيادات الكردية بأية خطوة تذكر, من أجل جعل عمليات الأنفال موضوعاً خاصاً. ليست لديهم اية خطوة جديرة بالذكر على المستوى الدبلوماسي من أجل دفع قضية الأنفال خطوة الى الأمام. أنا أعتقد أن القيادات الكردية تنتظر من المجتمع الدولي أن يقوم بإجراء ضد الحكومة العراقية, ليس من مصلحة المجتمع الدولي أن يقوم بعمل ضد هذا النظام عقاباً له على قيامه بعمليات الإبادة الجماعية. أنا أرى و كأن ليس لدى القيادات الكردية وضوح الرؤية حول الثقل الأممي الذي يؤخذ به شكواهم ضد النظام على أساس اتهامه بالإبادة الجماعية. هذا في وقت كلنا رأينا المعاني المستنتجة من شكوى كهذه قدمت على اساس (تجربة اليهود) في الحرب العالمية الثانية.

لو علمت هذه القيادات بكنه المعاني الكامنة في كسب شيء ما على المستوى الدولي لقضية الأنفال لبدأوا بالحديث و التصريح عن الماهية الفعلية لـ(الأنفال).

نحن من جانبنا نهتم كثيراً بالنقاش على هذه المسألة. أنا أستطيع أن اقصد حكومة ما, أزورها و أسألها: ماذا تستطيعون أن تقدموا لقضية الأنفال؟ لكنهم يقولون في الرد على سؤالي: علام تتحدث أنت؟ فعندما أقول لهم ماذا تستطيعون أن تفعلوا أنتم من أجل وقف الإبادة الجماعية التي تعرض و يتعرض لها الكرد؟ انهم يتصورون الأمر و كأنه دعاية و لا غير. لذا أنا أرى عدة أمور بدائية و أساسية على القيادات الكردية العمل على تحقيقها. عليهم أن يبدأوا بتوضيح ماهية الأنفال.

و كما أشرت اليه في مجرى حوار الأمس (حوار الكونفرانس) كان كونفرانس الأمس الأول من نوعه

أنـا أشـارك فيـه و تكون أعمالـه مكرسـة للأنفـال و ليست لإحيـاء ذكرى حلبجـة. هـذا أول (كنفـرانس - مؤتمر) يختص بموضوعة الأنفال.

أنا شخصياً مسرور جداً لعمل مـن هـذا النـوع. ان لـدى الكـرد السـاكنين في خـارج كردسـتان و لـدى المنظمات المتخصصة في مجال حقوق الإنسان معلومات جيدة عن الأنفال, لذا كلاهما يعتبران مسؤولين عـن نشـر تلـك المعلومـات المتـوفرة بحوزتهمـا, علـى الحـد الممكن, ليتم ايصال المعلومات الى حيث يجب ايصالها. إن أهميـة الأمـر لا تقتصـر فقـط علـى الكتابـة عنـه باللغة الكردية, بل من المهم أن يتكفـل الكـرد أنفسهم الأمر, و من المهم أن يتم نشر تلكم المعلومات في تلكم البلـدان الـتي يعـيش فيهـا الكـرد المغتربـون أولـديهم ممثلون فيها. عليهم ايصال تلكم المعلومـات الى قنـوات النشر هناك و مخاطبة مسؤولي الحكومات فيها.

مـا يجـدر ذكـره هنـا هـو ان احضـان تلكـم الحكومات غير مفتوحـة لإسـتقبال هـذه المسألة, لـذا على الكرد التعامل مع الأمر بكل حذر.

رهند: من الواضح ان الحكومة العراقية لم تخف مسألة الأنفال كحدث و لكن حكايتها عن الانفال مـن نـوع آخـر. إنها تعـترف بمطاردتها و احتجازهـا آلاف الأشخاص. لكنها لا تعطي توضيحاً عـن المصير الـذي آل اليه هذا الناس, فكيف السبيل الى إجبار الحكومة على أن تحدد مصيرهم للحصول علـى التأكيـد علـى تعرض الكرد للإبادة الجماعية؟

هلترمـان: أنـا أعتقـد أن الحكومـة العراقيـة لا تعترف بجريمتها هذه بأي شكل مـن الأشـكال. أو انها لا تفعل ذلك أمام الـرأي العـام العـالمي في الأقـل. ربمـا تقول للكـرد (إنسوا أمـر المـؤنفلين. إنهـم لـن يعـودوا الـيكم مـرة أخـرى) لكنهـا لا تعـترف بجريمتها أمـام محكمة دولية, أو في (دنهاخ) أو اية هيئة دوليـة بـأي شكل من الأشكال. نحن مطالبون بإثبـات ذلـك. نحـن القادرون على تأكيـد الأمـر بالإعتمـاد علـى إسـتخدام الوثائق و إظهار القبور الجماعية. و ذلك يـتم طبعـاً عند تغيير الوضع في العراق. بعد التغيير نـتمكن مـن البحث عـن تلكـم المقـابر و ايجادهـا و فحـص الرفـات المدفونة فيها.

كمـا و يمكـن الإسـتفادة مـن شـهادة النـاجين مـن العملية. طبعاً من غير الممكن أن ننتظر من (صـدام) أن يعترف لكم و يقول (أنا من فعل هذا) علينا إبراز و تجسيد هذه الأدلة.

رهند: هل تؤمنون بوجود الوسائل بالكمية التي يمكـن الإعتمـاد عليهـا للتثبـت مـن حـدوث عمليـة الإبادة الجماعية (الجينوسايد)؟

هلترمان: نعم. لدينا قناعة تامـة بأننـا نسـتطيع إثبات حدوث ذلـك. ليسـت الجثـث في متنـاول أيـدينا بطبيعة الحال و لكن نعلم بأماكن دفنهم نوعاً مـا. و في ظـــروف خاصـــة يمكـــن إســـتخدام تكنولوجيـــا الستلايت لتحديـد أمـاكن القبـور. لـدينا اعـداد مـن شهود العيان للحوادث في الأنفـال و لـدينا الآلاف مـن الوثائق, و نعلم بأمر عدة قبور لا تحتوي كلها علـى رفات المؤنفلين و لكن واحداً منهم يحتويها.

رهند: ما هو الشيء الممكن اجراؤه للكـرد النـاجين من الأنفال و الباقين منهم على قيد الحياة؟

هلترمان: الشيء الأساسي الذي تم إهماله حتى الآن هو ضرورة قيام القيادات الكردية بإبلاغ الناجين بأن العراق أبلغهم بأن المؤنفلين لن يعودوا مرة أخرى, أي انهم قتلوا. هذا هو الأهم. أهميتها بالغة من الناحية السياسية. لنأخذ على سبيل المثال إمرأة ضاع زوجها في الأنفال, و لا تعرف شيئاً عنه, هل هو ميت أم حي؟ و لا تستطيع أن تتزوج مرة أخرى.

لذا على القيادات الكردية أن تقوم بتوضيح المسألة من وجهتها القانونية و إصدار قرار سياسي عنها. لديك جمع من النساء من هذا القبيل إذا بلغن بموت أزواجهن فإنهن يتمكن من إستعادة الحيوية الى جزء من حياتهن, أي يستطعن التفكير في الزواج و في رزق الأطفال من جديد. يستطعن اتخاذ القرار بشأن تركة أزواجهن من الميراث. هذا أمر مهم جداً لإنهاء إنتظار هؤلاء النساء, لأن إنتظارهن لاهواة فيه. جانب آخر هو إرساء قناعة لدى ذوي المؤنفلين على عدم عودة أهلهم المفقودين في العملية في يوم من الأيام. هؤلاء الناس بحاجة الى التشجع لينبتوا في اعماقهم القدرة على فتح صفحة جديدة في حياتهم الخاصة.

إن ايمانهم بعودة ذويهم لايدعهم أن يقوموا بإجراء مراسيم التعازي لوفاتهم و البكاء على مصيبتهم, في وقت كان الأصح هو أن تساعدهم على ذلك, هذا اجدر من أن تبقيهم في تعزية و بكاء دائمين. هذا عمل يجب القيام به بدون نقاش.

هناك شيء آخر يستطيع الكرد القيام به و هو طلب التعويضات من العراق. أي طلب تعويضات مالية من العراق الى ذوي الضحايا. هناك أموال طائلة تخصص لشؤون الإصلاحات و أشياء أخرى في سياق برنامج النفط مقابل الغذاء. يمكن صرف جزء من هذه الأموال الى ذوي المؤنفلين.

رهند: هل يكون بإمكان شخص مثل (تيمور) أن يؤثر في الموضوع؟

هلترمان: نعم.. يمكن إستخدامه كشاهد على الأنفال.

رهند: هل يمكن تقديم شكوى ضد العراق الى المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان؟

هلترمان: كلا. و لكن لوكان مواطنا تركيا, أي لو كان كردياً منتمياً الى تركيا, كان من حقه أن يقدم شكواه الى المحكمة الاوروبية إعتراضاً على عدم تمتعه بحقوقه الشرعية. في موقف كهذا تنظر هذه المحكمة في شكواه و يمكن القبول به. كانت لدينا عدة حالات من هذا القبيل في السنوات الأخيرة و عليها قررت هذه المحكمة أن تدفع الدولة التركية تعويضات لمصلحة الكرد. هذا شيء وارد. و لكن لا يتمتع المواطن الكردي العراقي بهذا الحق لأن الدولة العراقية غير منتمية الى المنظمة الأوروبية.

رهند: و هل من الممكن أن تتبنى محكمة دولية مسألة الأنفال؟

هلترمان: هذا ايضاً غير وارد. لا توجد الآن هيئة من هذا القبيل. و لكن إذا تشكلت محكمة دولية, و هناك احتمال لإصدار قرار بشأن تشكيلها في (روما) هذا الشهر. فإذا تشكلت يمكن أخذها بنظر الإعتبار. و لكن المشكلة تكمن في أن مسؤولية هذه المحكمة

تقتصر على القضايا التي تلي تشكيل المحكمة و ليست تلك التي سبقتها, أي تخصص أعمالها للمستقبل. و هذا يعني إن إحتمال مساعدتها لنا غير وارد.

رهند: ماذا يحل بالوثائق التي تحتفظ بها (HRW) حتى الآن؟

هلترمان: تم نقل هذه الوثائق الى الولايات المتحدة عامي (1992 و 1993) و درست (HRW) كلها بين عامي (1992 و 1994) و طبعتها على الأقراص الليزرية (CD) و كل الأعمال الخاصة بها ستنتهي هذا العام. نحن طبعنا حتى الآن (76) قرصاً. و أعطت الأحزاب الكردية النسخ الأصلية للوثائق الى جامعة كولورادو/ بولدر في بداية العام (أي عام 1999 – المترجم) لأن لدى هذه الجامعة أرشيفاً ممتازاً بإمكانها أن تحتفظ بالوثائق بشكل لائق, و تقوم بالبحث في فحواها و ترجمتها. و من ثم توضع في متناول الجميع لإعلانها.

لاشك في أن هذه الوثائق تعد مشروعاً كبيراً للتقصي و البحث. نحن ايضاً أعطينا دزينة من الأقراص الى الجامعة المذكورة و هي تنوي عرضها في مواقع على الشبكة المعلوماتية لتصبح في متناول أيدي أي راغب في الحصول على معلومات حول الأنفال. هذا تحول مهم جداً. و أعطيت نماذج من الأقراص الى الحزبين الكرديين الـ(أ.و.ك) و الـ(ح.د.ك), قام الـ(أ.و.ك) بإيصال الأقراص الى السليمانية, و لا معلومات لدي عن الـ(ح.د.ك) حول ذلك. نستطيع أن نجزم بأن هذه المعلومات سوف تصل الى الرأي العام بالهداوة. و هذا شيء ممتاز. لأننا لا نملك حتى الآن جميع تلكم الأشياء التي تقوي موقفنا في شكوانا.

تحتوي الوثائق على أشياء يجب أن تصبح موضع الملاحظة و التأمل و خاصة لدى الكرد. طبعاً تحتوي على كم هائل من المعلومات و نحن لم ندرس كلها بطبيعة الحال. مثل معلومات على حالات إعدام الأفراد في سجون مثل أبي غريب و أربيل و عدة أماكن أخرى.

لسنوات عديدة كان الناس يعدمون في العراق و لا يعرف ذويهم شيئاً عن مصيرهم. لذا يعتبر حصول الكرد على هذه المعلومات مهمة جداً.

يمكن جعل جامعة أربيل مركزاً لهذه الأرشيفات و تشكل الجامعة فريق بحث ليتقصى في الوثائق و ينشر إستنتاجاته في الجرائد. و يكون بإستطاعة أي متتبع أن يقصد الجامعة و يقوم بالبحث في الوثائق. هذا عمل يمكن القيام به. من جانب آخر هناك مواد كثيرة ذات الأهمية تتضمنها الوثائق و يستطيع الباحث العلمي الإستفادة منها, لأنه بواسطتها يتمكن الباحث من إظهار كيفية عمل دولة بوليسية مثل العراق من الناحية الإدارية و البيروقراطية. في الحقيقة تتضمن الوثائق مواد مهمة و مفيدة يمكن إستخدامها علمياً.

رهند: هل من أدلة على جرائم أخرى عدا الأنفال في هذه الوثائق؟

هلترمان: ماذا يمكن أن تجد عند زيارتك لأرشيف (FBI). ماذا يمكن أن تقع عيناك عليه؟
لاشك في انك تجد وثائق تخص فعاليات هذه المؤسسة, مثل حسابات الرواتب, يمكن أن ترى عشرات الوثائق على الرواتب و الإجازات, و مذكرات أخرى حول كيفية سير الشؤون الداخلية للإدارات. يرى المرء أعداداً من الوثائق على نشاطات المسؤولين و الأشياء التي تقتنيها دوائر الشرطة. ربما إختلف أمر أمريكا عن أمر العراق و لكن هناك توافقات كثيرة بينهما. لاشك في أن هذه الأمور في العراق أكثر إتساعاً, لأن هذه الوثائق تتحدث عن أحداث إنتهكت فيها حقوق الإنسان بكل وضوح, مثلاً فيها ما تتحدث عن تدمير القرى بالدقة و الوضوح و التفصيل. فيها معلومات عن مرتزقة و جواسيس عملوا لحساب دوائر الأمن و جمعوا المعلومات الاستخباراتية عن المجتمع الكردي, و خاصة عن الافراد المعدودين على حساب المناهضين للنظام.

في الحقيقة هناك ملف لكل فرد, لأنهم كانوا ينظرون الى كل فرد كعدو مستقبلي للنظام. بعض هذه الوثائق عبارة عن ورقة واحدة و عدة تساؤلات, و بعض آخر تتكون من أوراق متراكمة غليظة جداً.

و فيها ما ترى أن نهاية التحقيق وصلت الى إعدام الشخص المعني. و هناك الكثير من الإشارات في العديد من الوثائق الى استخدام الأسلحة الكيمياوية. أقول بإختصار إن محتوياتها غنية عن الحديث عنها لكثرة إتساعها و غزارتها.

رهند: هل تعرضت الى أية مشاكل أو تهديد؟

هلترمان: كلا لم أتعرض الى أي تهديد حتى الآن.

رهند: لا يقتصر تعاملكم مع موضوع الأنفال على هذه الملايين من الوثائق. هناك عدة ادلة حية على الموت في العملية تظهر خلف هذه الاوراق الميتة. ما هو شعوركم الشخصي تجاه الأنفال؟

هلترمان: من البديهي ان علاقتي الشخصية مرتبطة بهذه الوثائق من جانب و بالأنفال نفسها من جانب آخر. تكمن مخاوف الوثائق في انها مكتوبة بلغة بيروقراطية جامدة. هذا النوع من الكتابة وحشية جداً في جوهرها. تكمن وحشيتها في أن هذا الجمع من البشر يكتبون عن الأحداث دون أن تثار عندهم المشاعر, في وقت كانوا أنفسهم جزءاً من الأحداث و كانوا من المشاركين فيها. فعندما تقرأ هذه الوثائق تصاب بالصدمة من وطأة البيروقراطية التي كتبت بها عن الأحداث و من سعة المسافة التي يضعها المجرمون المنفذون للعملية بينهم و بين الضحايا.

و مايثير شعوري و عواطفي اكثر, هو الشهادة التي يدلي بها الناس الناجون من العمليات, لأنهم كانوا أنفسهم ضحية لهذه العملية الوحشية, انهم يتحدثون عن جهنم انت تراها بشكل غير مباشر.

ان ما قام به النظام من أعمال في هذه العمليات وحشية للغاية. الأمر لا يقتصر في ان إنساناً يقتل أو يجرح, بل في الطريقة الوحشية التي يقتل بها. إن الإستماع الى سرد أحداث هذه

الكوارث صعب, و لكن التعامل و التعايش في واقعها, شيء لا يطاق.

رهند: كم شاهداً لديكم حتى الآن؟

هلترمان: لا أعرف بالضبط. و لكننا تحدثنا و نتحدث دائماً عن (350) شاهد عيان من مختلف المشارب و الانتماءات. أكثريتهم من الناجين من الأنفال و بينهم الأنصار (البيشمركه). و لدينا لقاءات مع بعض من القادة العسكريين إستقينا معلومات منهم حول كيفية تنفيذ العمليات. يمكننا أن نعزم اننا لدينا (350) شاهد عيان.

رهند: هل أجريتم لقاءات مع المشاركين في تنفيذ عمليات الأنفال؟

هلترمان: نعم تحدثنا الى مجموعة منهم. على سبيل المثال أنا تحدثت الى بعض من المستشارين (يقصد مستشاري الأفواج المسلحة الكردية المتعاونة مع النظام – المترجم) لكنهم لم يطلعوني على الحقيقة الكاملة. الإثنان أو الثلاثة من الذين تحدثت معهم كانوا يقولون لي إنهم لم يكونوا في المنطقة وقت تنفيذ الأنفال. لم يكن لدي الوقت الكافي لأتمكن من التأكد من صحة إدعاءاتهم من خطئها. حصلت على معلومات من خلالهم, لكن المعلومات لم تكن مفيدة بشكل عام. كما أجريت لقاءً مع (وفيق السامرائي) في لندن. و كما تعلمون عن وفيق انه كان رئيس هيئة الإستخبارات العسكرية وقت حدوث الأنفال. أعطاني بعض معلومات مثيرة عن الأنفال, كنت في حاجة ماسة اليها و لكنني و كما كنت أتصور شعرت انه يخفي عني الكثير عن دوره في الأنفال. لأنه لا يريد أن يثير شكوكاً حول نفسه كي لا يتم وصمه بـ(مجرم الحرب) من خلال الشكوك.

رهند: أي تصور تشكل لديكم عن الدولة العراقية من خلال عملكم في هذه الوثائق مدة هذه السنوات؟

هلترمان: تصوري هو ان الدولة العراقية دولة بوليسية. و لكن هذا لا يمثل مفاجئة الينا. لأننا كنا على علم بهذه الحقيقة قبل عملنا في الوثائق. اي نحن لسنا في حاجة الى الوثائق لنبرهن ذلك. و لكن ما تظهره هذه الوثائق بجلاء هو الكيفية التي تحافظ بها دولة بوليسية على كيانها من خلال بث الذعر. كان هذا ما جعل من كتاب (كنعان مكية) أن يحمل هذا العنوان المثير (جمهورية الخوف) لأن تلك الدولة تعمل من خلال (الخوف) فقط. و الطريقة الوحيدة للنجاة بحياتك هناك هي أن تصبح داخل اللعبة هذه يجب أن يظهر انك تنفذ أي أمر تتلقاه دون نقاش,فإذا لم تقم بذلك يصبح إحتمال تحولك الى الضحية إحتمالاً قوياً. إذا كلفوك بقتل أعداء الدولة, فلا يبقى مجال أمامك سوى التنفيذ, حتى إذا كنت غير راغب في قتل البشر, عليك أن تكون منصاعاً للأوامر و يجب أن تكتب تقريراً عن كيفية تنفيذك لها. و تصبح في عداد الموتى إن لم تقم بذلك.

إنك تستطيع أن تقرأ هذه الأشياء بكل وضوح.

مثلاً يمكن أن تقع عيناك على تقارير على هذا المنوال:

تنفيـــذا لأمـــركم الصـــادر في يـــوم........ بـــالرقم........... قمنـــا بإعـــدام............. واحـــــد.......إثنين.......... ثلاثـــــة.......... أربعـــة.........الخ. و دفـــن جثـــثهم في............. التوقيع..............

هذا نموذج كتاب يرفع الى الجهات العليا يـبلغهم بأن أوامرهم نفذت....و هـذه الجهات يرفعـون أيضاً تقارير أخرى حول كيفية مكافحة العصاة. علـى كل طـرف مـنهم أن يعـبروا عـن درجـة إخلاصـهم مـن خلال كثرة أعـداد الـذين أنـزل القصاص بهـم. علـى كل من هذه المفاصل أن يرفع تقارير عن إخلاصه و يبرهن في تقاريره إنه منشغل بهذه المشاكل. هذه هي الطريقـة البيروقراطيـة الـتي تعمـل بهـا أيـة دولـة بوليسية و هي نفسها برهان على كيفيـة عمـل مثـل هذه الدولة.

رهند: هل من شيء آخر تود الإشارة اليه؟

هلترمـــان: آه... كثـــرت مـــن الكـــلام في الأيـــام الأخيرة.. من كثرة ما حكيت لا أعرف ماذا قلت لـن و أين و متى!.

رهند: بالأمس تبادلنا أطراف الحديث عـن فكـرة بنـــاء متحـــف بالأنفـــال, للحفـــاظ علـــى الوثـــائق و الشهادات و الأشياء الأخرى الخاصة بها.

هلترمان: إنها فكرة ممتازة. هذه الأفكار يجب أن يتم العمل على تنفيذها في ظل كل الأجواء. و لكن يجب أن يكـون الكـرد هـم المبـادرين للفكـرة. و نحـن كالـ(HRW) نسـتطيع أن نسـاند الخطـوة. يجـب أن يكـون الكـرد الجانـب الـذي يفـاتح الحكومـات بهـذا الشأن. و بامكان المـرء أن يتصـل بمتحـف هلوكوسـت, لأنهـم بـلا شـك يملكـون الفكـرة حـول كيفيـة إنشـاء متحف من هذا القبيل. أعود و أقول مرة أخرى بـأن الكتابة في المجلات الكردية وحدها لاتفي بالغرض. و فكرة بناء متحف للأنفـال (مـثلاً) فكـرة لائقـة جـداً كي تبقى على ذكرى الأنفال حية في الأذهان.

ملاحظة:

نظراً لضيق الوقت بين أعمـال مـؤتمر الأنفـال في أمستردام. اضطررنا الى إجراء هذا اللقاء مـع (يوسـت هلترمان) خلال يومين فقط. في اليوم الأول كنت أنـا وحدي (آراس فتاح) مـع السـيد (يوسـت هلترمـان) و في اليـوم الثـاني شـاركنا في توجيـه الأسـئلة كـل مـن الصحفية (إنغاروغ) و السيد (مريوان وريا قانع) أجرينا اللقـاء بالإنجليزيـة و قمنـا أنـا و إنغـاروغ بترجمته الى الكردية.

****

تمـت ترجمتـه عـن الكرديـة مـن مجلـة (رهنـد – البعد/ العدد 7/ 1999/ ص 241-250).

المقابر الجماعية في العراق

• محمد حمه صالح توفيق

منذ سقوط الطاغية صدام حسين في التاسع من نيسان 2003 يكتشف الناس كلّ يوم قبرا جماعيا او اكثر من المقابر التي تتكوم فيها رفات الضحايا من شعب العراق الذي عانى على أيدي الطاغية وأزلامه وأجهزته ما لم يعانيه أي شعب آخرعلى وجه البسيطة في التاريخ الحديث. ويقف العالم الآن مشدوها إزاء ما حدث للناس الأبرياء في العقود الثلاثة الأخيرة وما ارتكبه قتلة البشر هؤلاء بحق الأطفال والنساء والشيوخ, بحيث صارت أرض عراق اليوم مقابر سرّية تحوي رفات أحبّتنا وبقاياهم, حيث أينما ذهبت وأينما وطأت قدماك قد تكون واقفا على جمجمة شقيق او قريب او صديق لك وقد بلغ الأمر بالناس ان يكونوا حذرين عند كل خطوة يخطونها خوفا من ان يدوسوا على جماجم وعظام بشرية تملأ بها ارض العراق طولا وعرضا.

هنا تجد الناس المفجوعين والفاقدين لأحبتهم منذ سنين طويلة يهرعون إلى أي مكان يشتبهون بكونه مقبرة جماعية أخفيت أثرها ليبدأوا بالحفر العشوائي سواء كان بالبلدوزرات أم بالمعاول والأيدي لعلّ واحدا منهم قد يعثر على بقايا أو رفات عزيز مفقود مستدلا من هوية أو قطعة باقية من ملابسه, ململما بذلك جمجمة وبقايا عظام أطراف وأضلع في كيس, هو كل ما تبقى منه, ليذهب به إلى البيت و يعيد دفنه بعد ان تذرف عليه العائلة أو من تبقى منها دموعا ساخنة كانت قد نضبت وجفت منذ عهد طويل يأسا وقنوطا.

من الناحية العاطفية والاجتماعية يحقّ للمغدور به أن يعاد له " حقوقه! " ويدفن بمراسيم لائقة بالكائن الأنساني كل حسب العرف الاجتماعي والديني المتبع وبهذا يكون الأهل قد استرجعوا نوعا من العزاء والسلوان, هذا إذا تمّ معرفة الرفات من هوية او شيء دالّ. لكنّه ومن خلال بشاعة الجريمة المرتكبة والخسة في طرق تنفيذها, حيث ان الجثث قد تراكمت على بعضها في الحفر واختلطت عظام الضحايا ببعضها

لدرجة يصعب فصلها بدقة. وفي هذه الحالة ما الداعي من فصل العظام وهي رميم كأن تضع جمجمة لشخص وعظام الاطراف لآخر معا وتضعها فى تابوت لإعادة الدفن, فالعظام والبقايا الانسانية حتى تلك التي لا يعرف هوياتها, لها في نظر الاحياء, سواء كانوا من ذوي المفقودين ام غيرهم, احترام وتوقير مستمر من وقار الجنس الانساني ورهبة هي رهبة الموت والخشوع ازاءه. اذن فكيف برفات وبقايا آدمية لضحايا ابشع طاغية وجلاد على وجه الارض. صحيح ان ذوي الضحايا المفجوعين هم الاولى بضحاياهم ومن الناحية الدينية والاجتماعية لايليق لاحد ان يعرقل جهودهم من اجل ايجاد اثر لاحبتهم غير انه من الناحية الاخرى فان ذوي الضحايا في مقبرة جماعية ما هم كل شعب العراق النازف من جرح عميق قد تستغرق مداواته دهورا, وهم كل البشرية المشدوهة الفاغرة فاها حين تحدق بهول الجرائم التي ارتكبت.

إننا الان ازاء جريمة مروعة ارتكبت على مدى اكثر من ثلاثة عقود في تاريخ العراق المظلم وان معظم المجرمين هم الآن طليقون بين ظهرانينا وجزء كبير من ملفاتهم الاجرامية قد وقعت بيد الشعب وكل الشرائع والقيم الانسانية, الدينية والدنيوية, تستدعي محاكمتهم ومقاضاتهم على الجريمة التي ارتكبوها وعظام الضحايا المختلطة ببعضها وجماجمهم المهشمة تنادي الضمير الانساني كي لا تدع المجرمين يفلتون من الجزاء العادل.

تشير التقديرات بان هناك ما لايقل عن مليون شخص تم تصفيتهم من قبل النظام العراقي المقبور على مدى العقود الثلاثة الاخيرة, منهم ما لا يقلَ عن مئتي الف من الضحايا الكرد في عمليات الانفال السيئة الصيت عام 1988، حيث اغلبهم من النساء والاطفال والشيوخ طوقتهم قوات النظام في ذلك العام ملقية القبض عليهم في القرى الكردية الوديعة الخالية من السلاح والمسلحين اصلا, ليصبحوا اثرا بعد عين, و منهم كذلك الآلاف من شباب الكرد الفيليين في 1980 والرجال البارزانيين في 1983 وعشرات بل مئات الآلاف من ضحايا انتفاضة جنوب العراق الباسلة, حين ولت لهم قوات التحالف ظهر المجن واسقط في ايدهم واصبحوا بعدها فريسة سهلة لكلاب النظام المسعورة تنهش في أجسادهم وتدفن معظمهم احياء في هذه المقابر. ومن هؤلاء أيضا الآلاف المؤلفة من المعتقلين السياسيين في سجون النظام تجري تصفيتهم و دفنهم على وجبات متلاحقة تحت يافطة " تنظيف السجون". ومن أولئك أيضا الأسرى الكويتيون والايرانيون وأناس من مصر والأردن ودول عربية أخرى القي القبض عليهم وأودعوا الحفر الجماعية للابد. ولم يسلم من سلسلة المذابح حتى افراد وجماعات حزب السلطة الفاشية حين كانت الدائرة المحيطة بالدكتاتور تظل تضيق وتضيق وتفرز بالكثيرين منهم خارجها الى المقصلة وبالتالي لان يستقروا في القبور الجماعية.

نحن الآن إزاء كيفية التعامل مع المقابر الجماعية، حيث انه من الناحية العلمية يجب عدم المساس بها وتركها لخبراء معنيين بنبش القبور أو خبراء الطب العدلي لاجراء عمليات الفحص والتدقيق على الرفات

والبقايا الآدمية في المقبرة الجماعية لتثبيت الادلة الجنائية ضد المجرمين, حيث هنالك حالات متعددة للقتل يمكن الاستدلال به من الرفات وتحديد سبب الموت كأن تكون الضحية مدفونة حيا, أو مقتولة بالوسائل المتعددة المستعملة من قبل النظام وأزلامه الأعدام شنقا أو رميا بالرصاص, قطع الأعناق, استعمال الغازات السامة أو المواد البيولوجية, الاذابة في الأحماض ومن ثم دفن الهيكل العظمي ...الخ. ويتمكن الخبراء من التعرف على الضحية من خلال الهوية أو الملابس أو النقود أو أيّ شيء آخر يستدل به ذويه, كذلك يمكنهم تحديد تاريخ الموت من خلال الفحوصات المختبرية على العظام. وهناك طريقة مختبرية للتعرف على هويّات الضحايا عن طريق المورّثات الجينية DNA ومقارنتها بافراد آخرين في العائلة.

في العام 1992 قام فريق مكوّن من خبراء منظمة مراقبة حقوق الانسان (هيومان رايتس ووتش) قسم الشرق الأوسط بالتعاون مع منظمة أطباء حقوق الإنسان PHR بنبش المقبرة الجماعية في قرية كوريمي بمحافظة دهوك في كردستان العراق, حيث أقدمت قوّات النظام العراقي على قتل 36 مواطنا من القرية المذكورة في عمليات الأنفال عام 1988 ومن ثم دفنهم في حفرة جماعية قرب القرية. لقد قامت هيئة من الخبراء يرأسهم كلايد كولن سنو الخبير في أمور الطب العدلي ونبش القبور ببلدان أمريكا اللاتينية وكانت الهيئة مؤلفة من أطباء ومحامين وخبراء أنثروبولوجيا وآركيولوجيا, قد قامت بدراسة تاريخ المنطقة والقرية المذكورة من جوانب عدة وإعادة رسم خريطة القرية قبل التدمير وبعدها بناء على استنباط المعلومات من أهالي القرية المتبقين ومن ثم بدأت بنبش القبر الجماعي ومحاولة ترتيب بقايا رفات الضحايا بحذر ودقة متناهيتين كالمنقب في المواقع الأثرية ومن ثم حدّدوا الوسائل التي قتل بها الضحايا والرجوع إلى مستشفى الطب العدلي في دهوك لتجميع معلومات ممكنة عن الضحايا, بعد أن تم تحديد تاريخ الموت وإعمار الضحايا.

قامت اللجنة بأعمال مماثلة في مقابر بمحافظتي اربيل والسليمانية ووثقت نتائجها في تقرير مشترك لمنظمة ميدل إيست ووتش لمراقبة الشرق الأوسط أو أطبّاء حقوق الإنسان باسم (تدمير قرية كوريمي في العام 1992), والغرض الأساسي من اتباع النهج العلمي لنبش القبور الجماعية هو توفير الأدلّة الجرمية لمحاكمة المرتكبين لهذه الجرائم سواء في المحاكم المحلية او الدولية. والأدلة هذه تبدأ من جمع المعلومات عن الرفات, حيث يعاد ترتيبها ويتم تسجيل سبب الموت, كل المواد المدفونة مع الرفات من هويّات ونقود وملابس ومقتنيات شخصية فان كانت مجهولة الهوية يجرى لها فحص الحامض النووي DNA لمقارنته مع فحوصات الحامض النووي للأقارب الذين يشتبه بأنّهم من ذوي الرفات وكذلك مقارنة الأسنان مع المعلومات والسجلاّت المتوفرة عن حالة الأسنان, ثم تقارن المعلومات المتوفرة عن الضحية أو الضحايا في المستشفيات بما فيها مستشفى الطبّ العدلي إن توفرت المعلومات عن الضحيّة من ناحية تشريح الجثة, ثم تجري دراسة المعلومات المتوفرة من

الناحية القانونية وترفع القضية إلى المحاكم المختصة لدراستها والبت بها والقضايا هذه تستغرق مددا طويلة في المحاكم نظرا لتعقيدها ومجهوليّة مرتكبي الجرائم في أغلب الأحيان.

غير أنّه في حالة المقابر الجماعية في العراق والكم الهائل من العظام والبقايا البشرية المتكدسة على بعضها, فان مرتكب الجريمة هو النظام وأدواته القمعية من أمن ومخابرات واستخبارات وأجهزة حزبية أفرادها طليقون لحد الآن وليست هناك ملاحقات قضائية بحقهم, وان أدلّة إدانتهم قد تعقّدت كثيرا نظرا لإحراق العديد من ملفات الجريمة . وان جمع الأدلّة القانونية على مرتكبي الجريمة هو من المستلزمات الأساسية لملف الجريمة هذه.

وعليه فان هنالك أموراً كثيراً يجب إن تؤخذ بعين الاعتبار في حالة المقابر الجماعية وكذلك فهنالك أفكار عامة يمكن دراستها ومناقشتها بخصوص استبقاء آثار الجريمة في ذاكرة الأجيال القادمة منها:

1 - الإبقاء على حالة أيّ قبر جماعي يكتشف دون المس بالبقايا والرفات إلى أن يتم دراستها من قبل خبراء مختصّين لدراسة الأدلة المختلفة.

2 – الإبقاء على المقابر الجماعية في أماكنها دون المساس بالرفات لتبقى على حالها للتحليل والدراسة مستقبلا وإنشاء حدائق ومتنزهات ونصب متاحف ومنشآت تليق بقدسية المكان وهيبته يكون مزارا للناس ولضيوف البلد ودرج اسماء الضحايا ان عرفوا, مسجلا العمر والجنس وتاريخ القتل على جدارية فنية باللغتين العربية والانكليزية في الأقل.

3- تنظيم زيارات منتظمة للناس بمن فيهم طلاب المدارس والجامعات وكذلك الوفود آلتي تزور البلد إلى مواقع المقابر الجماعية بمراسم خاصة تليق بجلال المكان وهيبته, من الحفاظ على الهدوء ورصّ الصفوف ووضع أكاليل الزهور على منصة معدّة للغرض المذكور. أن تعيين هيئة موظفين ومنتسبين للعناية بالموقع , بمن فيهم دليل أو ساند لتعريف الزوّار بالموقع وبالضحايا من وجهة نظر علمية وموضوعية وجعله تقليدا ثابتا , هو من مستلزمات العناية بالمكان والحفاظ على قدسيته من جانب و"ردّ الاعتبار" في دواخل ووجدان الاجيال اللاحقة إلى الضحايا الذين قضوا ظلما وغدرا دون أن يوفر لهم حتى قبرا منفردا تهدأ فيه أجسادهم المغربلة برصاص القتلة.

4 – إنشاء متحف وطني كبير يخلد ذكرى ضحايا الإبادة الجماعية " الجينوسايد" على ايدي النظام الفاشي متضمنا قاعات لحفظ الجماجم يتم جلبها من المقابر التي لايعرف فيها هوية الضحايا, على غرار متحف حفظ الجماجم من ضحايا بول بوت في كمبوديا إبّان السبعينيات من القرن الماضي. وليتضمن المتحف هذا قاعات لحفظ الهويات والملابس والمقتنيات الشخصية للضحايا, مكتبة كبيرة تضم مختلف الكتب والدوريات والمصادر عن الجينوسايد والأنفال, بانوراما او سايكلوراما عن مقارعة الشعب العراقي للنظام في إنتفاضاته وثوراته, معارض دائمة لعرض لوحات كبار الفنانين في العالم والعراق من تلك التي لها علاقة بجرائم النظام العراقي المقبور, قاعة كبيرة لعرض الأفلام التي تخص جرائم الإبادة الجماعية في العراق

والعالم على مدى التاريخ على غرار المتاحف والقاعات والمنشآت القائمة في ضاحية مدينة أطلنطا بالولايات المتحدة لتخليد وقائع الحرب الأهلية الأمريكية في الأعوام 1861 – 1865 وعلى غرار متاحف ضحايا محرقة الموت" الهولوكوست" من قبل ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية.

ويمكن استخدام قاعات هذا المتحف مستقبلا لعقد المؤتمرات والحلقات الدراسية والندوات الوطنية والعالمية الهامّة فيما يتعلق بقضايا الكفاح ضدّ الإرهاب والتطرّف ومناهضة جميع أشكال التمييز الطائفي والعنصري. كذلك يمكن استخدام موقع أكبر مقبرة جماعية مكتشفة كمكان معنوي للسلام والمصالحة بين أحزاب وجماعات متصارعة قد لا تخلو منها الساحة السياسية والإجتماعية في العراق المستقبلي نتيجة للإرث الثقيل والهائل في هذا المجال وذلك على غرار تلك الكنيسة القديمة في السويد المسماة " بيت السلاح "، حيث كانت قبائل الفايكينك الأسكندنافية القديمة تلجأ إليها للتصالح فيما بينها بعد طول الحروب والصراعات لتودع فيها سيوفها ورماحها كي تقطع الطريق على الحرب ثانية فيما بينها وكانت كلّ الأطراف المتصالحة تحترم تلك التقاليد والأعراف ولا تحيد عنها.

4 – التركيز على تعريف العالم المتمدن بما حدث في العراق ابان العهد البعثي من قتل جماعي، من خلال تكنولوجيا الإتصال المعاصر كمواقع الانترنيت والفضائيات وغيرها, وإجراء مسوحات ودراسات رصينة وعلمية عن الضحايا و دوافع ارتكاب الجريمة الرهيبة كي تبقى البشرية على علم ودراية بها وكي تتضامن وتتظافر جهودها بوجه فئات وجماعات تحاول مستقبلا استغلال السلطة وأدواتها لإعادة ارتكاب هذه الجرائم وبالأخص فان العراق هو أرض خصبة لإنتاج مثل هذه الجماعات بالنظر للتعقيدات القومية والمذهبية والطائفية القائمة فيها وبالنظر للتربية السياسية والآيديولوجية المشوهة على مدى عقود كثيرة وان إرساء دولة مؤسسات ديمقراطية هو كفيلة بتحدي هذه الصعاب وماعداها فان الأرضية السياسية والاجتماعية لبروز مخاطر من هذا النوع, ولاسيّما ان الضبابية وانعدام الوضوح من جانب ممثلي الإدارة الأمريكية في العراق هي السمة السائدة وهي بالتالي توفر الأرضية الخصبة لتحالفات سياسية مستقبلا ولحركات متطرفة تجهض على أيّ أمل بإعادة إعمار العراق وإشاعة الأمن والاستقرار فيه.

ملاحظة: بعض جوانب هذا المقال مستوحاة من المصادر أدناه:

1-الجينوسايد فى العراق وحملة الأنفال على الكرد / تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان- الشرق الأوسط 1993(ترجمه سيامند مفتي زاده إلى اللغة الكردية – 600 صفحة)

2-حملة الأنفال فى كردستان العراق - تدمير قربة كوريمى / تقرير مشترك لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان- الشرق الأوسط وأطباء من أجل حقوق الإنسان 1992- ترجمه إلى اللغة العربية د. رزكار)

قبور غير هادئة- البحث عن المفقودين في كردستان العراق / تقرير مشترك منظمة مراقبة حقوق الإنسان- الشرق الأوسط وأطباء من أجل حقوق الإنسان 1992 (باللغة الإنكليزية)

قصة حفر الأنفال الضائعة

• إعداد: عبدالله كريم محمود

➢ ترجمة: هاوری محمد امين

بعد إنتفاضة عام 1991، كان البحث عن الأسرار الكامنة للمؤنفلين الكورد هو شغلي الشاغل. وقد أكدت سنة 1993 في كتابي (مصير مجهول) على ضرورة إيجاد شخص شهد عن قرب مأساة القتل الجماعي لهؤلاء المؤنفلين.

عند السابعة صباحاً توجهت بصحبة (بختيار ملا عزت) يرافقنا ولدي (سنگر) حاملاً آلة التصوير إلى مديرية أمن المنصور في مدينة كركوك، و عند لقائنا (حسن نوري) المعروف (بوەستا حسن) ممثل الأمن العام أبدى تفهماً لما أنا متلهف لأيجاده و قال لي الآن سوف أدلك على شخص يحل لك عقدة الأنفال.

11 ضابطاً خاصاً

عرّفني هناك على مفوض الأمن (ع.م.م.م) السائق الميكانيكي. ولد سنة 1961 في قضاء (الحي) التابعة لمحافظة الكوت، نقل في 988/7/26 من مديرية أمن الكوت إلى (مكتب تنظيم الشمال). في ذلك الحين قاموا بجمع حوالي 95 رجل أمن برتبة ضابط و رتب أخرى مختارين من محافظات (تكريت، رمادي، ديالى) في مدينة كركوك، و كانوا يجتمعون تحت إشراف الرائد (نزهت توغان) مسؤول الحرس الشخصي لـ(علي حسن المجيد). و قد أكد لهم بقوله (أنتم جميعاً سوف تبقون هنا لتنفيذ عملية خاصة و سرية، و لا يسمح لأي واحد منكم بالنزول إلى داخل مدينة كركوك).

وفي 1988/8/11 أي بعد مدة وجيزة من إنتهاء الحرب العراقية الإيرانية وصل الرائد (نزهت) راكباً سيارة لاندكروز بيضاء إلى مكتب تنظيم الشمال بصحبة الرائد (عبد). و قد أمر كلاً من (ع.م.م.م) و (فرحان) باحضار حفارتيهما إلى الموقع الذي سوف يحدده لهما.

قال المفوض (ع.م.م.م): حسب تعليمات الرائد (نزهت) فقد توجهنا إلى شمال (تويزاوا) قرب

مقبرة قديمة، و قد ترجل أيضاً الرائد (نزهت) مع الرائد (عبد) من سيارتهما، و بعد نقاش طويل فيما بينهما, توصل الاثنين إلى ضرورة أن تكون الحفرة على شكل بئر، لكنهما غيرّا رأيهما فيما بعد و طلبا منا اعداد الحفرة على شكل جدول طويل. بعدها أخرج (الرائد طه) قضيباً حديدياً طويلاً من سيارته و رسم الأماكن التي يجب أن يشق فيها الحفر بين الهضاب الصغيرة. وقالوا: أحفروا لنا في هذا المكان بطول (25م) و عمق (2-3)م و أن لا تزيد العرض عن (80سم).

بعد ذلك قمنا بحفر أربع حفر حسب المواصفات من الساعة 9 صباحاً و حتى (5) مساء يوم 1988/8/11، قمت بحفر حفرتين و قام فرحان بحفر الآخريات.

و في الساعة (10) من ليلة 1988/8/12 قام الرائد (نزهت) بزيارتنا و قال للرائد (عبد): جهّز قواتك.

بعد ذلك أوكلوا عملية قتل المؤنفلين إلى (11) ضابطاً منهم (ملازم أول مسعود العزاوي، ملازم أول صائب التكريتي (والذي صار فيما بعد عقيداً عند (علي حسن المجيد)، ملازم أول حاتم الأنباري، و بعض الضباط الآخرين). وهؤلاء كانوا ضباط أمن سابقين في المدن الكوردستانية و كانت لهم خبرة و تجربة في عمليات التعذيب و القتل الجماعي.

وتم تقسيم القوة الخاصة المكونة من (95) شخصاً إلى قسمين، أرسلوا قسماً منهم لاحضار المؤنفلين الذين لم يكن أحد يعرف هوياتهم أو أماكن أحتجازهم، و القسم الثاني أخذوا مواقعهم بمحاذاة الحفر، و كلهم كانوا يحملون المسدسات، بعد ذلك طلبوا مني و من (فرحان) و (جابر النجفي) بإحضار حفارة والاقتراب من الحفر، كانت المنطقة خالية تماماً، لم يكن فيها أحد، حيث كانوا قد دمروا القرى الموجودة في تلك المنطقة سابقاً، و قاموا بترحيل سكانها و كانت المنطقة محاطة بقواتهم الخاصة.

و في الساعة (12) ليلاً وصلت السيارات الخاصة إلى المنطقة، كل سيارة تحمل (45شخصاً) باشراف العقيد (طاهر خليل الحبوش) الذي كان مديراً لمكتب علي حسن المجيد، ثم صار (مديراً للمخابرات العامة) و بقي وفياً لصدام حسين إلى اللحظة الأخيرة.

كانت الدنيا صامتة في تلك الليلة. و كان الرائد (نزهت) جالساً على كرسي فوق تلة، ثم نزل الضباط الخاصين و أنزلوا صندوقين من سيارتهم أحدهما كان مليئاً بالمسدسات من (عيار7ملم) ذات مقابض حمراء مزودة بكواتم للصوت سوداء اللون. و الصندوق الآخر كان مليئاً بالعتاد. بعد ذلك قام كل من الضباط الأحد عشر بملء أمشاط مسدساتهم بالرصاص و طلبوا من سائقي السيارات رفع أصوات سياراتهم ثم نزل الحراس من السيارات و أصطفوا بجانب السيارات، عند ذلك قاموا بفتح باب السيارة الأولى، كل ضابط كان يقوم بانزال أحد المؤنفلين من السيارة مكتوف اليدين معصوب العينين و يقتاده إلى حافة الحفرة ثم كان يمدده على الأرض و يضع

رجله على ظهره و يطلق رصاصة على رأسه من الخلف ثم يقوم بركله إلى داخل الحفرة، و لم تكن تسمع أصوات الطلقات لأن المسدسات كان مزوداً بالكواتم، و بسبب إرتفاع أصوات السيارات فلم نكن نسمع صراخ و بكاء و آهات المؤنفلين و بهذه الطريقة فقد كانت الجثث تتكدس بعضها على بعض داخل الحفر، كل حفرة كانت تلقى فيها حوالي 65 جثة من الجثث التي كانت أكثرها لم تفارق الحياة بعد عند البدأ بطمر التراب عليهم.

القتل الجماعي

عملية القتل الجماعي تلك كانت هي المرة الأولى بالنسبة (للملازم أول حازم) فقد كانت يده ترتجف وهو يحمل المسدس، عندها قال له الرائد (نزهت) مغاضباً: (أقتلهم جيداً، وإلا سيكون مصيرك مصيرهم) و هكذا فقد إمتلأت الحفرة الأولى، أعمار أكثرهم كانت تتراوح بين (18-50) عاماً و كان واضحاً من زيهم و سراويلهم أنهم من الكورد.

بعدها أمر الرائد (نزهت) سائق الحفارة (فرحان) (بطمر التراب عليهم وملء الحفرة), و كنت أنا مصدوماً من هول ما رأيت و غارقاً في الصمت فكنت أحس بأني في وسط مذبحة بشرية لا أملك فيها غير الصمت.

بعدها و في غضون دقائق قاموا بقتل حوالي (100-120) شخص آخرين أمام الحفرة الثانية ثم قاموا بالقائهم داخل الحفرة.

عند ذلك قام (العقيد طاهر و الرائد نزهت) بجمع قواتهما أمام الحفر ثم تكلم الرائد نزهت قائلاً: (لقد رأيتم بأم أعينكم كيف قتلنا هؤلاء، و كل من يتحدث عن هذا أو يكشف هذا السر فسوف يكون مصيره مصير هؤلاء) ثم قال لهم: إرجعوا إلى أماكنكم. ثم قال لنا (أرجعوا الحفارات إلى أماكنها), و عند الرجوع كنا نحس أنا و فرحان النجفي الذي كان سائقاً في مديرية أمن النجف بأننا قد أجبرنا قسراً على المشاركة في هذه الجريمة الوحشية فقد كنا نحس بألم و عذاب نفسي طوال الأيام القادمة.

ست مقابر جماعية أخرى

في تلك الأثناء تعرض شقيق المفوض (ع.م.م.م) لإنفجار لغم قرب الحدود العراقية-الإيرانية، فأعطى إجازة لمدة ثلاثة أيام. و عند عودته، أخبره (فرحان)! في تلك الأيام الثلاثة تكررت عمليات القتل الجماعي، حفرنا لهم مقابر جماعية بالشفلات ثم غمرناهم بها و في هذه المرة كان معنا في العملية إثنين آخرين من سائقي الشفلات (علي الديواني و سعد البغدادي)، و كان المؤنفلون يقتلون على شكل مجموعات و في أماكن مختلفة ثم يتم إخفاء الموقع و طمره, و في اليوم الذي رجعت فيه إلى المخزن أمرنا الرائد عبد و الذي كان آمراً للقوة الخاصة بنقل الحفارات على ظهر الشاحنات و التوجه بها بسرعة إلى طريق (طوزخورماتو) و كان هو نفسه يرافقنا و يتقدمنا راكباً سيارة لاندكروزر.

و كان الرائدان (عبد و نزهت) قد حددا سابقاً مكان الحفر في تلك المنطقة بعدها رقي الرائد

(نزهت) إلى (مدير شعبة المراقبة في مديرية الأمن العامة).

سرنا حوالي (45-55)كم في طريق المفرق الواصل بين (طوز و الدورة) و قبل أن نصل إلى سلسلة (جبل حمرين) توقفنا يميناً، كان مكاناً متموجاً (مرتفعات و منخفضات) ابتعدنا عن الطريق بحدود كيلومتر واحد، كنا نستطيع رؤية طريق (طوز-الدورة)، و كانوا قد نصبوا خيمة هنالك، و أحضروا تنكراً مملوءاً بالماء.

و عند الساعة (2) ظهراً ركبنا سيارة لاندكروزر مع (فرحان و أحمد و أسماعيل) كنا نحن الأربعة سواق (الحفارة و الشوفل و البلدوزر) ووصلنا باللاندكروزر إلى مكان منخفض، نزل (الرائد عبد)، حدد لنا بعض المواقع لحفرها وفي وقت وجيز قمنا باعداد ست حفر على شاكلة الحفر الأخرى و بعد الانتهاء من حفرها أعلمونا بوجوب إعادة الحفارات على متن الشاحنات إلى المخزن و إحضار الشفلات معنا هذه المرة. وقد أحضرنا الشفلات إلى مواقع الحفر و بقينا هناك (15) يوماً و نحن ننتظر، بعدها أحضروا المؤنفلين من (توپزاوا و دبس) على متن السيارات المقبطة السابقة و لكنهم هذه المرة جاءوا بهم عن طريق تكريت، كان المكان قفراً، ثم أخذ الحراس أماكنهم هناك و في الساعة (6) مساء قام الضباط الأحد عشر السابقين بقتل المؤنفلين واحداً واحداً بواسطة مسدساتهم، حتى إمتلأت الحفر الأربع بجثامين المؤنفلين.

قتل طفل رضيع

كانت الحفرة الأولى للرجال المسنين، رأيت شيخاً يناهز عمره (70)سنة ذا لحية بيضاء و على رأسه كلاو أبيض, و الحفرتان الثانية و الثالثة كانتا لشباب ما بين (12-18) سنة و الحفرة الثالثة للنساء و الأطفال من الجنسين ممن كانوا تحت عمر (12سنة)، و لم يقوموا بربط أيدي هؤلاء أو عصب أعينهم و كانوا يطلقون النار عليهم بسلاح الكلاشنكوف، و كانت أصوات صراخهم و عويلهم تملأ أرجاء المنطقة، و إحدى تلك المناظر التي لا أستطيع نسيانها إلى آخر نفس من عمري، كان منظر طفل رضيع ذات شهرين من العمر في حضن والدتها و كانت بكاء و صراخ الأم و رضيعها تمتزج و تختلط بشبح الخوف المرتسم على وجوه الحراس و الضباط المشرفين على ملحمة الإبادة الجماعية تلك، عندها تهيأت لي فرصة و تحدثت خلسة مع تلك الأم التي كانت تحمل رضيعها و كانت تجيد التكلم بالعربية، و كنت أريد أخذ الرضيع منها لنفسي في محاولة لانقاذه، و لكن عيني (الرائد نزهت) كانتا لي بالمرصاد فصاح عليَ بصوت كالرعد و في حالة من الهستريا قائلاً: (أترك الرضيع و إلا قتلتك مثله). ثم هجم على الأم و انتزع الرضيع من حضنها ثم رفعه بإحدى يديه إلى السماء و أطلق عليه رصاصة من مسدسه ثم قذفه إلى الحفرة. بعدها أطلق على الأم صلية من الكلاشنكوف و قذفتها إلى الحفرة. و عرفت من بين المؤنفلين أيضاً فتاة عربية كانت طبيبة، و كانت مسؤولة بارزة في

الحزب الشيوعي، كانت من أهالي (الحلة)، كانت تلبس قاطاً من الكابوي الازرق و قميصاً أحمر، وكان شعرها شقراء، فقتلوها أيضاً.

بعد تصفية هذه المجموعات الأربع عن طريق القتل الجماعي وصلت ثلاث سيارات أخرى محملة بالمؤنفلين إلى نفس المكان و كانت قد تبقت حفرتان فقط، لكن في ذلك الوقت تلقى الرائد نزهت إتصالاً عن طريق الجهاز اللاسلكي كان واضحاً أنه أمر من علي حسن المجيد بارجاع السيارات الثلاث الأخيرة المحملة بالمؤنفلين إلى أماكن إعتقالهم عن طريق (الدورة-طوزخورماتو)، ثم رجعنا نحن أيضاً إلى أماكننا.

لم يستمع إلي أحد

هذا السائق أراد الفرار من قبضة البعث سنة 1998 و التوجه إلى كوردستان محاولاً إيصال هذه الحقائق و المعلومات إلى منظمات حقوق الانسان و مؤسسات حكومة الأقليم، و لكن في تلك الأثناء توجه صديقه (سعيد حميد بنيان) إلى كوردستان فألقي القبض على زوجته و عائلته من قبل أجهزة الأمن و كانت الزوجة حاملاً ووضعت مولودها في السجن و عند الأفراج عنها كانت عمر طفلها سنة و نصف هذه الحادثة أثرت كثيراً في السائق (عبد) و أثناه عما إعتزمه سابقاً من الهرب من قبضة النظام.

و بعد عملية تحرير العراق حاول هذا الرجل بشتى الوسائل إبلاغ المسؤولين و خاصة في محافظة كركوك عن مصير المؤنفلين و عمليات الإبادة الجماعية و أماكن تلك المقابر، وهو يبذل الآن جهداً كبيراً مع ممثل الأمن العام في كركوك لإيجاد تلك القبور الجماعية التي عند العثور عليها فإنها تحتاج إلى وجود ممثلين من منظمة الأمم المتحدة و أطباء متخصصين في الطب العدلي و منظمات حقوق الانسان لكي تحظى تلك المقابر الجماعية بتحقيق و بحث علمي دقيق حتى نقدر على إماطة اللثام عن خفايا أكبر عملية إبادة جماعية بعد الحرب العالمية الثانية لأطفال و نساء و شيوخ عزل من غير ذنب أو جريرة جنوه و حتى لا تضيع آثار تلك الجرائم و حتى لا يستطيع هؤلاء الجناة النجاة بفعلتهم بل يقدموا الى المحاكم ويلقوا جزاءهم العادل.

****

ملاحظة:

هذا الموضوع كان قد نشر في العدد 123 باللغة الكوردية ولكن نظرا لاهمية هذا البحث والسبق الصحفي الذي قام به الكاتب فقد ارتأينا ترجمته الى اللغة العربية لكي يكون القاريء العربي مطلعا على حقيقة هذه الجريمة البشعة بحق الانسانية.

عن العدد (125)من صحيفة(هاولاتى-أي المواطن)

التراث الكردي

- الأرقام السحرية في الأساطير وفي الفولكلور الكردي (دراسة) — د. عزالدين مصطفى رسول
- السلطان محمود ووزيره هياس (حكاية شعبية) — اعداد و ترجمة: محمد حمه صالح توفيق

الأرقام السحرية في الأساطير و العقائد و الأفكار البشرية و في الفولكلور الكردي

• د. عزالدين مصطفى رسول*

تندمج الأرقام منذ عصور سحيقة من نشوء الانسان و وعيه و فكره بحياته و بما حوله من مكونات و ما توصل اليه من تفسير عبر تطور نظرية المعرفة, و اذا كان الحرف من بدايات اكتشافات الانسان للتعبير عن المعرفة, فإن الرقم يقترب منه في النشأة الأولى و يضاهيه في القدرة على التفسير و التعبير احياناً و يندمج معه في تصوير الواقع المحسوس او تفسير الفكر او العقيدة الطوطمية او الدخول في عالم الميتافيزيقا عقيدة و تفسيراً, فيقابل الرقم الحرف احياناً و يقابلان منفردين او متحدين صورة من عقيدة.

ان اقدم ما وصلنا من مظاهر هذه الظاهرة المعرفية, هو ما وجد في الآثار السومرية و غيرها من سكان ما بين النهرين, و قد قيل عن هذه الظاهرة عند هؤلاء القوم:

"يعتبر سلطان الآعداد نتيجة طبيعية لسلطان الاسم. و كانت الاعداد تعتبر وسيلة من وسائل التعبير فتضفي صفاتها الخاصة بها على الشيء الذي ترتبط به. و بسبب من خاصية الاعداد الملازمة لها, و التي تؤلف مجموعة متنوعة غير منتهية, و بسبب من امكانية الوصول الى نتيجة عددية واحدة بطرائق حسابية مختلفة, نقول بسبب ذلك كله كادت الأعداد ان تكتسب الصفة المقدسة التي ادت الى اعتبارها احد انواع اللغة القادرة على التعبير عن كل فكرة"(284/1).

و ارتبطت قدسية الأرقام عندهم بقدسية الالهة و تطورت الى معانٍ اخرى(284/1). و (قد شاع استعمال هذه الطريقة بين الرومانيين و اليونانيين الذين اسموها ايسويسفيا و قد كان هؤلاء قادرين على ايصال هذه الطريقة الى درجة الكمال بما كان عندهم من كتابة ابجدية استعملت بعض احرفها كأعداد و ساعد هذا بالتالي على اضفاء قيمة لكل حرف)(385/1).

و لسنا هنا في مبحث الحرف و ما يستخرج منه بالتناسب مع الأرقام, اذ ينقلنا ذلك الى الأدب المدون و الى استخراج التواريخ ارقاماً في الشعر تقابلها معانٍ و دلالات و تنبوءات, بل نتطرق في بحثنا هذا الى الأرقام و دلالاتها و نحصر شواهدنا بإقتضاء المقام في المورث الشعبي, غير المدون. و علينا ان نذكر في هذا التمهيد الاصرار على هذا التناسب بين الحرف و الرقم عند بعض المتصوفة و عند الفلكيين القدامى فمنهم من قال:

"و اعلـم ان سـر الله تعـالى في العـوالم اللطيفـة و الكثيفـة و العلويـة و السـفلية و الملكيـة و الملكوتيـة يقع على نسبتين و هـي الأعـداد و الحـروف. فأسـرار الحـــروف في الأعـــداد و انـــواع الأعـــداد في الحـــروف فالأعـداد العلويـات الروحانيـات و الملكوتيـات سـرّ الأقوال. و الحروف من الأفعال. فعالم العرش (أعداد) و عالم الكرسي (حروف). فنسبة الحروف الى الأعداد كنسبة الكرسي الى العرش. فآخر مرتبة الحروف اول مرتبـة الأعـداد و آخـر مرتبـة الأعـداد أول مرتبـة الحـروف. فبسـر الأعـداد فهـم سـرّ العقـل الربـاني و بسرّ الحروف فهم سرّ الروح الروحاني. و من اشرف العلوم علم الحساب بعد علم السنة و الكتاب, قال الله تعالى: (و لتعلموا عدد السنين و الحساب). و قال الله تعالى: (فاسأل العادين). و قال الله تعالى (و كفى بنا حاسـبين). و قـال الله تعـالى: (و الشـمس و القمـر يحسبان)(5/2).

يقتصر بحثنا هذا على الأعداد او الأرقام المقدسـة, او المتداولة كثيراً في الموروث الشعبي الكردي. و قـد تختلف هـذه الأرقـام مـن امـة الى اخـرى, و تتخـذ امـم في ارقـام معينة, حسب وحدة و تباين منشئها و بيئتها القطرية و عقائدها.

ابان الباحثون شواهدهم عن الأرقام في موروثات الأمـم القديمـة, المدونـة و المنقولـة, و تتبعـوا مـداها التـأريخي في المعتقدات الباقية, و الحكايات المتداولة. و رغـم الترابـط بـين ثمـار و مراحـل الفكـر الانسـاني و اعتبـار تطـور نظريـة المعرفـة حلقـات متتاليـة متصلـة, يمكننـا الـزعم ان معظـم الأرقـام المقدسـة و المتداولـة في المـوروث الشـعبي لأيـة الأمـم الاسلامية تعود الى معتقدات تلك الأمم قبـل اسلامها, بما في ذلك الأرقـام الـتي نجـدها في آراء و معتقـدات المتصـوفين(3-4). و يمكننـا ان نسـتثني الأرقـام الـتي اقـرت في العقيـدة الإسـلامية و نصت عليها القـرآن الكـريم كمـا يـرد ذلـك في البحث.

ان منشأ هـذا الـزعم هـو الايمـان عنـد الموحـدين كلهم بالوحدانيـة و خـروج الكثـرة مـن الوحـدة. و رغـم اعتقـاد معظـم الوحـدانيين بكـون الواحـد لـيس عـدداً الا انهـم يؤمنون ان الأعداد كلها مندرجة (في الواحد العددي) الذي تنشأ من الكثرة, و ان كل فـرد منها هـو عـين ذلك الواحد تجلى و انكشف في مرتبة اعتبارية.

فإذا كان (التعداد و التعدد اعتباريا)(132/3), فأين القدسـية في هـذه الكثـرة المنضـوية تحت جنـاح الواحـد, غير الإعتباري؟

يمكـن ربـط هـذه الفكـرة عنـد فلاسـفة المسـلمين في مجرى تلك الحلقات المتتالية المتصلة مـن الفكـر الإنسـاني بـإفلاطون الـذي قـال بوحـدة الـنفس, فـالنفس عنـده واحدة اصلاً, لكنها تنقسم و تتكثر بسبب الأبدان(6), و تعـود لتتحـد بعـد الغنـاء و في ذلـك يقـول الغزالـي: "ان النفس قديمة و هي واحدة و انما تنقسم في الأبدان, فـإذا فارقتها عادت الى اصلها و اتحدت"(100/5).

من هذه الوحدة تنطلق الأمـم الموحـدة الى الـرقم (3) و الرقمـان الأخـيران تـؤولان بـالأول في رأي بعـض المتصـوفة(4). و الأقنومـان الأخـيران (الإبـن و الـروح القدس) تخرجان من الأول (الأب) في رأي الآخرين. ان ارتبـاط افلاطـون بـالرقم ثلاثـة لـيس امـراً عفويـاً او اعتباطياً فللنفس عنده قوى ثلاث او للإنسان ثلاثـة نفـوس تقابلـها ثـلاث درجـات مـن الفضـائل علـى التنـــاظر(96/48). و حجـــج افلاطـــون في محـــاورة فيدون عن النفس هي حجج ثلاث(143/48).

و من الاديان ممكن ان نقول ان الكريتي كـان يعبـد الجبال و العدد ثلاثة. اما عند الصابئة فهم يغطسون في الماء عنـد التعميـد ثـلاث مـرات(5/51), و الصلاة ثـلاث مـــرات يوميـــا(21/51), و رســـم الجـــبين ثـــلاث مرات(23/51), و كل مسائل الوضوء (الرشامة) ثلاث مرات(24,25/51).

اما في الإنجيل فيرد الـرقم ثلاثـة في مواضع عديـدة: ".. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة ايام و ثلاث ليالٍ هكذا يكون ابن الانسان في قلب الأرض ثلاثـة ايـام و ثلاث ليالٍ.." (إنجيل متي – الاصحاح 12).

و تخفي امرأة الخميرة في ثلاثة اكيال دقيق "انجيل متي.. الاصحاح 13", و المسيح يقوم في اليوم الثالث, "انجيل متي – الإصحاح 16, 17", و ورد فيه: "فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال. لك واحدة و لموسى واحدة و لإيليا واحدة" "انجيل متى – الاصحاح 16, 17"

و الوحدانية واضحة في الإنجيل و لكن خروج الكثرة من الواحد صريح ايضاً: "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب و الكلمة و الروح القدس و هؤلاء الثلاثة واحد" (رسالة يوحنا الرسول الأولى – الاصحاح 5). او "الذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح و الماء و الدم و الثلاثة هم في الواحد" (الرسالة و الاصحاح نفسهما)

و اذا كنا نعود الى الاثار المدونة, المكتشفة بالنسبة للأمم البائدة, او المندثرة, او المتحولة, و نبحث في الموروثات الباقية, الراسخة, في التداول الشعبي عند شعوب اخرى, لنستدل على عقائدها القديمة, و ارتباط تلك العقائد بالعمل و الطبيعة و غيرهما, فإن الفولكلور (من عادات و نتاج ادبي, هو خيرما نستخرج منه بغيتنا بالنسبة للشعب الكردي, و اذا كنا الآن في مبحث الأرقام المقدسة و المتداولة, فإن النماذج الفولكلورية (في الأساطير و الحكايات و الملاحم) لتعيننا على تثبيت مثل هذه الأرقام.

الرقم (3)

درس الدكتور عمر محمد الطالب الحكاية الشعبية العراقية(7) (العربية – ع.م.ر) و اشار الى الأرقام التي تصادفنا في هذه الحكايات, و هي الأرقام (3, 7, 40) نفسها التي نجدها في الفولكلور الكردي و يرى تلك المصادفة ليس "اعجاباً بهذه الأرقام بل يستند بالحقيقة الى مجموعة من المعتقدات و التصورات التي يرجع بعضها الى اصول بدائية قديمة.."(45/7). و بالنسبة للرقم (3) يدون قوله "اما رقم ثلاثة فيتردد في معظم القصص كتحديد لعدد الأبناء, و يكون الإبن الثالث هو افضل الأبناء دائماً. و يمثل رقم ثلاثة مكانة خاصة في الأديان السماوية كالتثليث المسيحي و الشهادة الإسلامية. (و ان محمداً عبده و رسوله) هذا بالإضافة الى ان العزاء الذي يقام على روح الميت ثلاثة ايام ايضاً[1] و يعتقد ان روح الإنسان بعد موته تبقى على الأرض ثلاثة ايام ثم تصعد الى بارئها..(47/6)"

و يرد الرقم (ثلاثة) في الآثار السومرية, اذ تقول عشتار لگالگامش: "وسيقدمون لك الأتاوة من نتاج الجبل و السهل و ستلد عنزاتك (ثلاثاً ثلاثاً), و تلد نعاجك التوائم"(100/8) و قبل ان نورد امثلة عن هذا الرقم في الموروث الكردي, علينا ان نشير الى ان الفلاسفة حددوا المواليد بثلاثة هي (المعدن, النبات, الحيوان), و نجد معادلة ثلاثية هي (الماء و الأرض و النبات) في منطوق الآية الكريمة: (و لما انزل الماء على الأرض اهتزت و ربت و انبتت من كل زوج بهيج) (الحج/5). كما ان فلاسفة اليونان الذين جاءوا قبل سقراط و افلاطون و ارسطو اعتبروا الإنسان قطعة من الكون و ذلك بإرجاعه كلياً الى الماء او الهواء او النار(70/8).

و اذا كان انبادوقليس هو اول من قال بالعناصر الأربعة (الماء, التراب, الهواء, النار), و هناك فلاسفة اضافوا عنصر (الأكاسيا) فصارت خمسة. فإن الحقيقة الثلاثية للعناصر امر يمكن التوقف عندها. فالعلم الحديث يثبت ان النار ليست عنصراً, بل هي ظاهرة تتكون من احتكاك مادتين, و ليست مادة مستقلة كائنة بنفسها. اما التناول الإسلامي للعناصر فيحصرنا دوماً عند معادلة ثلاثية:

1-(يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالاً كثيراً و نساء) (1/4) هنا تأكيد على خروج الكثرة من الواحد و معادلة ثلاثية ايضاً (الخالق + النفس الواحدة + زوجها) = (الخالق + آدم + حواء).

2-(و من كل شيء خلقنا زوجين) (80/51) (الخالق + زوجين).

3-(و جاءت كل نفس معها سائق و شهيد)

4-(و من يعش عن ذكر الرحمن نقيظ له شيطاناً فهو له قرين)

(الرحمن – الشيطان - القرين)

5-(يوم تشهد عليهم السنتهم و ايديهم و ارجلهم بما كانوا يعملون) (الألسنة + الأيدي + الأرجل)

6-(شهد عليهم سمعهم و ابصارهم و جلودهم)

(السمع + الأبصار + الجلود)

7-و اذا كان الماء اول العناصر فهو خارج من الأول ايضاً (و خلقنا الإنسان من ماء مهين) (الأول + الماء + الانسان)

8-(و جعلنا من الماء كل شيء حيَ) (الأول + الماء + المخلوق الحيَ)

9-و اذا كان التراب منشأ الخلق فلا تخرج المعادلة من هذا الثلاثي ايضاً: (لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين)

(الأول + الطين + الإنسان)

10-و لا يخرج خلق الملائكة و ابليس بالذات من النار من هذه المعادلة ايضاً (خلقتني من نار و خلقته من طين)

اذن فإن الرقم (ثلاثة) قديم و مرتبط بالخلق و الطبيعة و العناصر و له اساس في عقائد الناس و شمولية في العقيدة الاسلامية, و من هنا نجد الموروث الكردي يعيد هذا الرقم بكثرة و في مواضع مختلفة.

فمن تعاليم الشيخ فخر بن ايزدين امير الشمسانيين الذي عاش في لالش[2] في القرن السادس الهجري[3].

قال: فرض على امير المجلس

جائز له ان يسأل في ديوانه ثلاث مرات كل يوم

ترى من الذي اكل و من الذي ظل جائعاً

جائز له ان يسأل الجماعة ثلاث مرات كل يوم

ترى من الذي اكل و من بقيَ و من الذي لم يأتِ (94/9)

و يجمع الشيخ فخر في تعاليمه معادلات ثلاثية ممن لايحبهم او لا يرأف بهم:

امرؤ ميسور يعيش عيشة سيئة

امرؤ اعمى يخضب يديه بالحناء

رجل شيخ يجلس امام داره يغتاب الناس (94/9)

أو:

عجوز ترسل ضفائرها ئەز نەبینم كالّى بە كەزى

و فتاة تنتقل بين السطوح

و كەچكابان ب بان ببەزى

و امرأة مهرأة الأكمام(94/9)

حەرمە تا درنگ و داماں درى

او كالّى بكەت عنۆش

صۆ لا بە بشكۆژ

حورمە تا بنقت ب رۆژ (94/9)

و يطيل في هذه المعادلات الثلاثية التي لسنا بصددها اتنوغرافياً الآن(94,95/9).

و في قصة او تعاليم پيرداود يتكرر الرقم (ثلاثة) في صورة ثلاثة ايام بلياليها:

پيرداود شيخ ذو اركان

ظل ثلاثة ايام بلياليها

يجول في جيش السلطان الزنگى دون نطق و لسان

لم يكن لديه لسان, فنطق بيديه (113/10)

و في قصة او تعاليم الدرويش ادم يتكرر الرقم على هذه الصورة:

و من كان هناك من خلق

قصدوا البحر

و عادوا و في فم كل واحد درة

جاء هؤلاء الخلق بالدرر

و وضعوها امام انظار الخواص

و اختار الدرويش ادم بينها ثلاث درر

يا درويشي التائه

قصدت بحراً تحت الريح

قەسدكرن جۆتە بەحرا باى دينبانە

جاءت درر ذلك البحر بالشك

دورێد وێ بەحرێ شك ئينانە

يا درويشي الآتي بالدرر

حمل معه تلك الدرر ثلاثاً

و اعطــاه لأمـــير خورســـتان حـــائراً (150/10)
داته دەستێ میرێ خۆرستانێ ب سۆرا
و في قصة النبي اسماعيل يغـرز السكين ثـلاث مـرات في رقبة اسماعيل و لكنه لا ينال منه و تكرر الصورة و العبارة عدة مرات (105/9).
اما في قصة – او قول – الأمير ابراهيم فيرد الـرقم على لسان غزالة:
تقول الغزالة:

يا ابراهيم انا ارضع ظبياناً ثلاثة اربيها بثمار اشائي
و لن اصحبها معي خشية صيادي الأمير
ارضع ثلاثة ظبيان
اخفيها تحت الأرض
و لن اصاحبها في تجوالي
خشية صيادي الأمير
يا ابراهيم يا آدمي
دعني ارضع ظبياني الثلاثة
عهداً علي ان اكون انا فريستك
بعد هذا (153/9)

و في ملحمــة مــيرزا الداســني ينشــد مــيرزا بثلاثــة اصوات لينادي الفرسان الأثني عشر (171/9), و يقال في مدينة بغداد ثلاث ساعات. (172/9) اما في قصة (لا ڤژى پيرێ) فيتكرر الرقم في صورة اخرى:

يا لاڤژ بن الپير
تعال لنذهب مع مجموعة الشيخ و الپير
والنقيبالى قمة جبل مشت
و لنرقص ثلاث دورات (177/9)

و تكون خاتمة القصة:

قولوا ان قبره في الصرود العليا في مدخل مضيق التخوم
صرت في قرية ابي اسماعيل في الأعالي
هناك يغرد البلابل و السنجاب ثلاث مرات
حق مـوت العجائز, و مـوت الشبان حسـرة و جور (178/9)

و يستمر ذكر الرقم ثلاثة – بحكم الارتباط العميق باركانــه او بحكـم العـادة الجاريـة في الحكايـات و غيرهـا. فعنـدما يحسن بطل الحكايـة للنسـر[4] "يستفسـر منـه: ماذا تريد ثوابا. فأجاب لاشيء غير سلامتك. فسأله مـرة اخـرى: مـاذا تطلـب؟ فقـال: سـلامتك وحـدها. فسـألته للمـرة الثالثـة و الأخـيرة – سـل مـا تريـد؟. فأجـاب[5]: ارجعني الى سطح الأرض.. الخ (109/11)

و كـثيراً مـا يكـون عـدد شـخوص الحكايــة ثلاثــة (95/11) و في "ممـــي آلان" نجــد ثــلاث حوريـــات (114-81/12) و في معظم الروايـات الفولكلوريـة لمـي آلان او مم و زين نجد ثلاثـة اخوة يستقبلون هـم على ابواب الجزيرة (13). و الاخوة الأمراء ثلاثة ايضاً(13), و يكـون الشـخوص ثلاثـة في حكايـة, مـع ثلاثـة مهـور و ثلاثة خناجر و ثلاثة سيوف (75/11).

هناك ثلاث حوريات في السموات
تتجولن في كل مكان
تعالوا وحدثونا
هناك ثلاث حوريات حسان
تسرن في البيد احياناً
هن يجمعن القلبين

و في كل روايات "مم و زين" الفولكلورية و المدونـة, يلعب الأمير الشطرنج مع مم ثلاث مرات او دورات. اهذا مـن قواعـد اللعبـة او اسـتمرار في ذكر الـرقم ثلاثـة. و يستمر هذا السؤال مشروعاً في حالات اخرى ايضاً.

بك استغيث
استغيث بالله
و بالفلك ثانياً
و به سبحانه ثالثا (108/14)

و عندما يبحث راوي الملحمة عن رقم كثيراً مـا يلجأ بحكم العادة الى واحد من الأرقـام المتداولـة. فعـدد الخيـام في قصــة دمــدم ثلاثــة. (145/15) و ســاعات الحكـم ثلاثــة. (40/16) و يكــون عــدد الاســطبلات ثلاثــة (22/28).

و ننتقل الى الآغاني, و نطرح السؤال نفسه حول الرقم ثلاثة:

اذا لم ارحبيبة قلبي ثلاث مرات في اليوم
فيلهمني السمار و الرفاق صبراً (88/17)

قد يقارن هذا بالأوقات الثلاثة في النهار او الوجبات الثلاث, و لكن ايام البعاد ثلاثة ايضاً:

ها قد مرت ثلاثة ايام, و لم القاك
ففي قلبي الم, و في غصة (123/17)

و اركان عين الماء ثلاثة, في ازمان سبعة, (222/17) و البيوت ثلاثة (272/17), و سيرة العشق تطول ثلاثة ايام بلياليها (274/17). و ترك الحبيبة يستمر ثلاث سنوات (305/17). و طلب الرحمة على الراحلين ثلاث مرات في اليوم (323/17). و يكون اللقاء ثلاث مرات (21/19) في نصوص اخرى (21/18, 46), و البعاد ثلاثة اشهر (93/18). و الزواج منذ ثلاث سنوات.

و تحكم العادة استخدام هذه الأرقام دون غيرها دليلاً على طول المدة مثلاً:

لم تظهر قطرة عرق تحت اذنيك مرة
ها قد مرت ثلاثة ايام, و قطرة عرق تظهر تحت اذنيك
انها مصيبة تواجهني حقا (91/18).

و في اكثر من ملحمة تكون هناك اصوات ثلاثة. فها هو چتو ينادي بأصوات ثلاثة (29/19). ويهتف ثلاث مرات جريحاً على صهوة فرسه (34/19) و يبقى جسد (عيشان) ثلاث سنوات (35/19). و تنادي بحاراً ثلاثة (42/19). و في اغنية نجد ثلاث سنوات تمضي و على عاتق المحب ثلاثة وعود امام الله تثقل روحه و جسده.(19/ 74,162,163). و يجلب المحب ثلاث خرز من الشرق و ثلاثة من الغرب و ثلاثة من جهة الشيخ عدي في اغنية اخرى (215/19) و تكون الزيارة و تقبيل ايادي الأخيار ثلاث مرات ايضا (203/13)

و لا يندر ان نجد القسم ثلاثا (108/20), او تذكر بيوت ثلاثة متراصفة او اشهر الشتاء الثلاثة (22/11). و رغم ان المسلم يتزوج مثنى و ثلاث و رباع ان اعدل, فإن الأغنية الكردية تأتي بزوجات ثلاث دليلاً على الكثرة:

انها ليلة, و اي ليلة قارصة البرد
مفاتيح الأبواب كلها من خشب
ان كانت للمرء ثلاث زوجات
فهو الصديق, هو الحبيب (168/21)

و ما ابدع جمع الثلاثيات في هذه الأبيات:

تسامقت ثلاث شجرات في فناء بيت ابي
واحدة صفصاف, و واحدة حور, و اخرى سفرجل
حطت ثلاثة طيور على تلك الأشجار
احدهم شحرور, احدهم باز, و الأخر حمامة
ما اتعس قلبي, لقد شخت
الآتشيخين انت زماناً
خرجت ثلاث حسان من دار اب الأمير سيفدين
رفيقة احداهن, حبيبة احداهن, و الأخرى ابنة امير بهدينان (20/21)
ذهب الحسان الثلاثة الى استاذ الصنعة
و صنع الأستاذ ثلاث قلادات للحسان الثلاثة
بانت قلادة الرفيقة فضة, و قلادة الحبيبة ذهباً
و لسوء الطالع كانت قلادة الخنثى مزيفة (90/21)

و عندما يجد المسلم صلاة المغرب ثلاث ركعات و ايام عيد الفطر ثلاثة ايام يتحول هذا الرقم الى بيت اغنية:

و حتى في ايام العيد الثلاثة اتجرع الهموم
جاء احباء الناس, فأين حبيبتي (108/22)

و ما اروع ما نجده في قصة عن ايوب اذ يقول:

لم يبق لى سوى ثلاثة
تحتي الأرض و فوقي السماء
و لكن هناك كرسي الرحمن (53/23).

كنت ابحث في النصوص المسجلة عن الأرقام. فتوقفت في صفحة واحدة عند الرقم ثلاثة ثلاث مرات – فصدر الحبيبة مزينة بثلاث سلاسل من الحلي مرة (21/24). و العهد ثلاث مرات هي اشهر الشتاء الثلاثة (21/26). و يتيه المغني فيذهب الى اعين الماء الثلاث في خوشاو

(21/24). و يعلن في مكان آخر انتهاء العهد بانتهاء اشهر الشتاء الثلاثة (25/24). و ما اجمل هذه الأمنية.

اه لوزال ثلاثة اشياء في هذه الدنيا: الشيخوخة و الفقر و الموت (88/20) و يمكن ان نبهت عندما نرى استمرار هذا الرقم في ملاحم مقتبسة من الوقائع و التأريخ بينها ما ينسب الى القرنين الأخيرين, و يمكن ان نعيد السؤال: هل هو استمرار للإعتقاد او العادة؟

ان نظرة واحدة الى ما جمعه الباحث و الجامع الفولكلوري الدكتور اورديخان جليل من ملاحم و اغانٍ كردية تأريخية تضعنا امام هذه الحقيقة عن هذا الرقم و الرقمين الآخرين اللذين نبحث عنهما.

فالنداء بأصوات ثلاثة يتكرر (25)[6], و تحديد المدة بثلاثة ايام بلياليها يتناثر في النصوص (52,384/25), (113/10), و تحدد مدة ما بثلاث ساعات, و يصاب بشار چتو بثلاث طلقات, و تستمر مصائب قوم ثلاث سنوات (324/25), و يعاد القول فائدة ثلاث مرات في اليوم (332/25), و يحدد عدد الصناديد بثلاثة احياناً[7], او يقتل ثلاثة امراء معروفين (428/25), او ثلاثة رجال, (467/25) او تقابل ثلاثة سيوف افواه مدافع الروم (468/25).

ان استمرار استخدام هذه الأرقام لا تأخذ المدى التأريخي وحده, بل تأخذ المدى الرقمي ايضاً, فعندما يحتاج الراوي او ناسج الحكاية او الملحمة عدداً كبيراً فهو يأخذ مداه من هذه الأرقام ذاتها, فثلاثمئة من الرجال يجتمعون في حكاية مرادي ايو (420/25), و خان دمدم يطلب من الشاه اعطاءه ثلاثمئة عامل كي يبني ثلاثاً من الدور (192/11), و عدد الفرسان ثلاثمئة يأتون مع البطل (240/17) كانبي, و لا يجد الداعي غير رقم ثلثمئة ليطلب دفع بلائه (13/22), و يعلو من فم الآخر ثلثمئة اهة لموت البطل (26/26). و ثمن سيف ما في قصة دمدم ثلثمئة قطعة من ذهب (130/15).

الرقم 7

و قصة هذا الرقم قديم و طويل و واسع ايضاً, يقول الدكتور عز الدين اسماعيل عن هذا الرقم "ان رقم 7 (سبعة).. قديم في اساطير الشعوب البدائية و تدل على اسطورة خلق العالم.. و لكن رقم سبعة يتمثل كذلك في البيئات الحضارية فأيام الأسبوع سبعة و الأفلاك السماوية سبعة و الألوان الأساسية سبعة و المعادن سبعة و نغمات السلم الموسيقي سبعة.. و في العقيدة الإسلامية ان الله خلق العالم في ستة ايام ثم استوى في اليوم السابع على العرش و السموات سبع و الأرضين سبع كذلك. و كذلك كان اهل الكهف سبعة.. و في كل هذه الحالات يشير الرقم سبعة الى حقيقتين متكاملتين الأولى هي دورة الحياة و الثانية هي معنى التكامل و دورة الحياة تتدرج في سبع مراحل تصل نهايتها الى حالة التكامل. ان الرقم سبعة يشير الى التدرج و الدوران ثم العودة الى البداية او الميلاد من جديد, و لأمر ما كان احتفالنا بالطفل الوليد في اليوم السابع من ولادته" (205,204/46), و يضيف الدكتور عمر محمد الطالب الى ذلك قوله: "و تأبيننا للميت في اليوم السابع من موته و تذهب النفساء الى الحمام في اليوم السابع من الولادة و احتفالنا بالعروس، حيث تذهب الى الحمام في مراسيم خاصة في اليوم السابع من زواجها (46/7)" و يأتي الدكتور الطالب بأمثلة من القصص العراقية حول ذلك. و يمكنني ان اوسع و اوضح هذه الأفكار و اضيف اليها عامة بما يلي:

ورد في القرآن الكريم: "الله الذي خلق سبع سماوات و من الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير و ان الله قد احاط بكل شيء علماً".

و ورد فيه:

"هو الذي خلق السموات و الأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش, يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها و هو معكم اينما كنتم, و الله بما تعملون بصير.. (الحديد 4:57) و ورد فيه في قصة يوسف:

"يوسف ايها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر و اخر يابسات لعلي ارجع الى الناس لعلهم يعلمون. قال تزرعون سبع سنين دابا فما حصدتم فذروه في سنبلة الا قليلا مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون.. (يوسف 12 : 46, 47, 48) اما عن عدد اصحاب الكهف فورد فيه:

"سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم و يقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب و يقولون سبعة و ثامنهم كلبهم, قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراءً ظاهراً و لا تستفت فيهم منهم احداً.. (الكهف 18 : 21).

و في الآية: "و لقد اتيناك سبعاً من المثاني و القرآن العظيم" (الحجرة: 87)

و الآية "و بنينا فوقكم سبعاً شداداً.. (النبأ 12/78)

و ورد فيه: " و ان جهنم لموعدهم اجمعين. لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم" (الحجرة 15 : 43, 44)

و حدد الصيام في الحج بثلاثة ايام او سبعة ايام في قوله تعالى: "فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام في الحج و سبعة اذا رجعتم (البقرة 2 : 192)

و اما في العهد الجديد فقد ورد الرقم سبعة في ما يقارب عشرين موضعاً نقتبس منه ما يلي:

"ثم يذهب و يأخذ معه سبع ارواح اخر اشر منه فتدخل و تسكن هناك.. (انجيل متي: الاصحاح الثاني عشر)

و عندما يسأل المسيح القوم عن الأكل يجد لديهم سبعة من الخبز (انجيل متي – الاصحاح 15) و انجيل مرقس: الاصحاح 8) و من مريم المجدلية اخرج سبعة شياطين (انجيل مرقس: الاصحاح 16)

"و ان اخطأ اليك سبع مرات في اليوم قائلا انا تائب فاغفر له" (انجيل لوقا: الاصحاح 17)

و ان كانت هذه الأرقام قد ذكرت في مواقع سلبية فإن الرقم سبعة يستعيد زهوه فالتلاميذ او الحواريون الاثنى عشر ينتخبون منهم سبعة رجال منهم" مشهوداً لهم و مملوين من الروح القدس و حكمة" (اعمال الرسل: الاصحاح 6)

"يوحنا الى السبع الكنائس التي في اسيا نعمة لكم و سلام من الكائن و الذي يأتي و من السبعة الأرواح التي امام عرشه" (رؤيا يوحنا اللاهوتي: الاصحاح الأول) و المنابر سبعة هناك ايضاً, (و معه في يده اليمنى سبعة كواكب) و هي الملائكة السبع.

"ورأيت على يمين الجالس على العرش سفراً مكتوباً من داخل و من وراءٍ مختوماً بسبعة ختوم" (رؤيا يوحنا اللاهوتي – الاصحاح 5) و تلقى الختوم السبعة من يفتح السفر و يفكها - .. و رأيت فإذا في وسط العرش و الحيوانات الأربعة و في وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون و سبع اعين هي سبعة ارواح الله المرسلة الى كل الأرض" (رؤيا يوحنا اللاهوتي – الاصحاح الخامس). و تفتح الختوم السبعة ختماً مختماً: "و لما فتح الختم السابع حدث سكوت في السماء نحو نصف ساعة, و رأيت السبعة الملائكة الذين يقفون امام الله و قد اعطوا سبعة ابواق.. (الرؤيا: الإصحاح 8) و تنطق الرعود السبعة بأصواتها و ينهى يوحنا عن الكتابة

"فسمعت صوتاً من السماء قائلاً لي اختم على ما تكلمت به الرعود السبعة و لاتكتبه .. (الرؤيا – الاصحاح 10)

ان في الكتمان لسراً: "بل في ايام صوت الملاك السابع متى ازمع ان يبوق يتم ايضاً سر الله كما يبشر عبيده الأنبياء" (الرؤيا: الاصحاح 10)

و الوحش الذي يراه يوحنا اللاهوتي له سبعة رؤوس (الاصحاح 13), و يرى سبعة ملائكة معهم السبع الضربات الأخيرة لأن بها اكمل غضب الله, و يحمل الملائكة السبعة في ايديهم سبعة جامات من ذهب (الاصحاح 15), و الرؤوس السبعة هي سبعة جبال (الاصحاح 17) "ثم سكب الملاك السابع جامة على الهواء مخرج صوت عظيم من هيكل السماء من العرش قائلاً قد تم" (الاصحاح: 16)

و قبـل ان نـدخل خضـم النصـوص الفولكلوريـة الكردية علينا ان نبين ما يهمنا من امر هذا الرقم عند المتصوفة و الفرق الأسلامية فالمقامات عند بعض المتصوفة و منهم الطوسي سبعة – التوبة, الورع, الزهد, الفقر, الصبر, التوكل, الرضا. و بين رتب المتصوفة يرى ابن عربي ان البدلاء سبعة (4/44). يرد الرقم عندهم في قصة الاسراء كثيراً و مثالاً نذكر: "قال السالك: فرجع البراق, و خرج عن السبع الطباق, و القي الرسول عصى التسيار , بسدرة الانوار"(33,34/45). و تسمى بعض الفرق بالسبعية الى جانب اسمائها الآخرى لأن من يسمونهم بذلك يروون انهم يعتبرون الكواكب السبعة مدبرة للعالم السفلى في حين يورد الغزالي سبباً آخر لهذه التسمية و هو اعتقادهم ان ادوار الإمامة سبعة, و ان الإنتهاء الى السابع هو آخر الدور, و تعاقب الأفكار لا آخر لها قط (50/47).

يدخل هذا الرقم بزخم كبير في المورث الشعبي الكردي و رغم عدم تطابق اعتبارات اليوم السابع في العادات الكردية مع الامم الأخرى تماماً. فإن الموروث الأدبي طافح بهذا الرقم. و نجد ذلك اول ما نجده في آثار اهل الحق[8] فالملك يعتبر السماوات طبقات سبع (115/27), و هو السابع بين الأصحاب او الحواريين (140/27), و جاء و رمزه الطير سابعاً الى ميدان الطراد (140/27).

اما في الآثار الايزيدية فالسماوات سبع (54/10), و يدور الفلك سبع دورات بعد سبعمئة سنة, (55,56/10) و طبقات السموات و الأرضين اربع عشر طبفة (59/10), اي (7 + 7), و تمر على الشيخ سبعة اعوام (151/10), و يتراكم انحراج سبع سنوات (54/10), و يستمر الراعي مع قطيعه سبع سنوات ايضاً (155/10), و هناك سبع طواحين في بعشيقة و بحزاني يخشى الميرزا الداسني ان تقع في ايدي غير اهلها (172/10),

فالملك عندهم سبعة هم: عزرائيل و جبرائيل و ميكائيل و دردائيل و شمقائيل و عزازيل و اسرافيل (27/9), و اخرج عزازيل من بينهم كما نعلم.

و تحدث ملكي بكلام مليح

اذ جلسوا في محبة

كانت الملائكة ستاً فأصبحوا سبعاً (100/9)

و في قصة النبي اسماعيل نرى الكبش الذي يفدى به قد رعاه جبريل في الجنة سبع سنوات او اربعين سنة (153/9), و رعاه الحور سبع سنوات في الجنة (107/9)

اما النصوص الفولكلورية من ملاحم بطولية و غرامية و من اغان فهي تعج ايضاً بالأرقام و بهذا الرقم بالذات, بحكم القدسية و تواصل العقيدة و العادة معاً.

ففي ملحمة دمدم نسمع:

كافر يأتي من الغرب

يطلق سيول مدفعة

سبع ليالٍ و سبعة ايام

لم ترقلعة الخان نوراً (99/15) (108/25) – (23/28)

و يأتي هذا الكافر من البحر, حيث اقام فيه سبع سنوات و معه ذخيرة لسبع سنوات[9], او يكون قادماً في الحال نفسه من الصين (99/29), و تكون سبع طواحين هدية و بشارة[10], و يخدم عودال بگ سبع سنوات (128/25), و في رواية اخرى للملحمة ذاتها نجد السماوات الزرق سبعة (21/28), و التجوال سبع سنوات (21/28), و الوهاد سبعة (21/28), و يطلب الخان مهلة امدها سبعة ايام (27,28,66/25), و تفتح على العشائر سبعة ابواب (28/25) و الفصائل سبع في رواية اخرى لها (48/29), و يكون القتال في سبعة اطراف (50/29), او يقتل سبعة رجال (144,777/25).

و في ملحمة خج و سيامند يكون اخوة خج سبعة (86,87/30) يقتلون حيناً (440/25), و تكون ايام العرس سبعة (130/30), و يطلب مم من حبيبه ان تجمع جبال سبعة بيوت و ضفائر سبع حسان كي تسحبه من الجبل و تنقذه (166,167/30). و في ملحمة (لاس و خزال) تطلب خزال من درويش ان يخبر

لاس ان عليه انجادها, و ما لم يأت في سبعة ايام فستأخذ مقابل دم سبعة رجال (17/31) (124/25).

و تشبه الخدود في ملحمة مهرو وفا بالشمام ذي الألوان السبعة الرائعة (32/ 104). و تجد التشبيه نفسه في ملحمة شور محمود (36/18).

و القتال يستمر سبعة ايام بلياليها في رواية اخرى.. للمحمة (لاس و خزال) و يكون عهد لاس العودة بعد سبعة ايام بلياليها (91/18), و تمضي ثلاثة اشهر و لم يره بعد (93/18) و كان هناك عرس دام سبعة ايام و لياليها ايضاً (51/18) (65/34).

و في ملحمة چتو يقول الكريف الايزيدي انه خدم في ديوان ابيه سبع سنوات (28/19). و يكون الثأر بين چتو و حكيم عن قتل سبعة من ابناء اخوته (38/19), و كان فرحو قد ضبط ايام الجندية سبعة وديان, و سبعة وهاد و سبعة سفوح و جبال (38/19) او تحترق سعرت فانظر اليها و في قصة بشار ينادى:

كان لي سبع قطعان من الخرفان عند الراعي, و كان لي سبع قطعان عند راعي الثيران و حملتها جميعاً الى سوق حلب, الى سوق السلطان (148/25). و نرى في اغنية الغسيل بسبع قطع من صابون حلب (377 ,374/165/25).

و كم من عاشق يبكي حبيبته التي ماتت منذ سبع سنين و ينثر التراب على دار ابيها.

هناك من ينتظرها سبع سنوات و هي ريحانة (20/20) او يقول:

ان منحتني قبلة من فمك

فلن يدخل اجدادك السبعة الكفار الجحيم (16/17). و لكنها ان رفضت فتصاب بسبع مصائب (25/17), (296/35) كل في مدينة (26/17). انه بعيد عن حبيبته منذ سبعة ايام فهو كالأرض في الخريف يعشق المطر (32/17). و يرد اسم النجوم السبع كثيراً في الفولكور الكردي:

قسماً بهذه النجوم السبع و هي جميلة

و سبعتها تحرس القبلة الشريفة (50/35, 240)

او تتحول النجوم الى قمر:

قسماً بذلك البدر ذي الهالة

لم امنح حبك لأحد (114/35)

ما هذا التعلق بالرقم سبعة في كثير من الأشياء؟

ان لم ينسه خنجر دبان حياتي

فأنا امل فيك, لو كنت اماً لسبعة اولاد (85/35), (243/17, 315)

و هناك صورة عكسية فهي تريد الزواج به و لو كانت ضرة لسبع زوجات[12]. ثم التعجب لجمع هذه الأرقام في هذه الأبيات:

ايتها الفتاة المجنونة

دارنا عالية, فوق الرابية

لن اقبلك, و لكنني اجلس

سبع ليال من الخريف

و سبعة ايام من الربيع

و ابكي من اجلك (22/17)

و كثيراً ما تكرر لفظة (الأزمنة السبعة) و هناك قسم بالأجزاء السبعة[13]. و تتحدد السنوات مراراً في اغراض شتى بسبع[14]. تكون القوافل سبعاً (251/53) و الهموم تصاحب العاشق سبع سنوات (282/53).

هل نتبع الرواة في ارقامهم؟ فالخرفان التي تنحر هي سبعة (96/11), و تسحب المياه الى قلعة دمدم سبعة ايام (192/25), و عمل العمال سبع سنوات في القلعة للخان حلالاً (195/25), و كان للخان سبعة عنابر من الرزق نفذ واحد منها في سبع سنوات من القتال (209/25), و كان لخان مكري سبعة ابناء (296/25) حمل جميعهم السلاح (218/25). او يستمر الغلاء سبع سنوات عجاف.

و في حكاية "ناصر و مال مال" يكون الإغتراب في الجروم[15] سبع سنوات (39/13, 47). و في حكاية "شيخ فرخ و خاتون ستى" تعلو الطيور الى السماء السابع (55/13), و يقيم احد شخوصها سبع سنوات

(127/13, 128), و في حكاية "محمل و ابراهيم دشتيان" يجري الطلب على درع داودي معدنه من سبع قبب (166/13, 167), اما بطل حكاية "قوچ عثمان" فيتوجه الى الاستانة, و ينتظر سبعة ايام حتى يأذن له السلطان بالمثول, بعد ان عصى عليه سبع سنوات (214/13), اما جولندي فلا يترك صهوة فرسه سبعة ايام بلياليها حتى يبلغ المدينة, اما في حكاية خزيم فإن الأمر يتعلق بالتحضير للعرس و الفتاة تملك سبعة اردية لا ترضى عنها (254/13), و هي تنثر تراب سبع قرى و لا تلبس أي رداء منها, و في هذا النص طلب لإقامة عزاء بدل العرس امده سبع سنوات (255/13, 262). و في نص عن ايوب تحدد جروحه بسبعة و صبره مقيماً في الدنيا بسبع سنوات (59/23), و يرد الرقم في اغنية ساذجة, عميقة بشكل طريف:

اخبروا اهل خوشناو

كي لا يصنعوا الدبس سبع سنوات[16]

اذ ضاعت خزيم من ايدي الشباب (22/22)

و عندما يشبه النهد بالشمام, فقد تمتع به المغني سبع سنوات طعاماً (46/22), اهو تعشق للرقم سبعة ام تعشق مبكر للعشق كي يقول المغني:

لن تكون الوديان و الوهاد دون ماء و البنت في دار ابيها

لن تكون دون حبيب بعد سن السابعة (13/21).

و لنقف عند هذا التشبيه و هذا الاستخدام العجيب للرقم:

لم يكن صدر الحسناء الرائعة لي

فسبع دول تقاتل

من اجل عرش السلطان عبد الحميد (87/21).

و اخيراً, لنقف عند حكاية "سيمرغ" التي مر ذكرها فعندما يطالب البطل الطير الأسطوري كي يعيده الى سطح الأرض, يقول الطائر:

"كنت اتمنى لو ان فراخي تأكل سبع سنوات اخرى, و لم تطلب هذا الطلب, و لكن عليَ ان اجزيك عن جميلك اذهب و اتِ بسبعة جراب من الماء, و سبعة اجساد لحم و سبعة طسوت من الماء (54).. و هكذا تبدأ رحلتها في سبع مراحل.

و يأخذ الرقم سبعة ايضاً مداه الرقمي في عشراته و مئاته و الوفه ايضاً, ففي قول او تعاليم البائس مكسور عند الايزيدية يروى شيء عن قصة الخليقة: و بعد سبعمئة سنة, دار الكأس سبع دورات و بعد سبعمئة سنة, دارت دورات سبع و ظل القالب حائراً و قال للروح لماذا لا تتقحمين (55/10, 56)

و قد تصبح الأزمان السبعة سبعة و سبعين زمناً (244/17). و في قلعة دمدم يتكرر الرقم 700.

و يصبح عدد العمال سبعمئة, و الخيام سبعمئة, و القتلى سبعمائة عامل, و تجلب سبعمئة مدفع في روايات للملحمة (60/29), (40/16), و جنود سبعمئة في ملحمة درويش عبدى (376/25). و تمنح الفتاة في قصة شعرية بسبعمئة قطعة ذهب (95/21).

و اخيراً – اجدني انا المتلهف للواقع و الصراع و الإنسان مندفعاً للحظات لنقل عبارات عن هذا الرقم بعيدة عن عالم الميثولوجيا, نابعة من عالمنا اليوم. فعندما يبدأ الدكتور غالي شكري كتابه المعنون "محاورات اليوم السابع" و يخوض مبحثاً ما سماه الصهاينة بحرب الأيام الستة – و يؤكد بحق تأسيس الفكر و الكيان الصهيونيين العنصريين المتدين ايديولوجياً على التوراة, يبدأ بنقل كلمة الأديب الأمريكي مارك توين اذ يقول: "ايا كان الأمر, و سواء صحت حكاية التوراة او لم تصح فإنه اذا كان الرب قد خلق العالم في ستة ايام و استراح في اليوم السابع, و بالتالي فإنه مازال مستريحاً الى الآن, فإن ذلك اليوم هو بداية متاعب البشرية منذ خروج ادم من الفردوس و منذ ان داهمت حواء آلام الولادة و منذ أن قتل قابيل اخاه هابيل.

و ايا كان الأمر كذلك, و سواء صحت حكاية الإنجيل او لم تصح, فإنه اذا كان الرب قد اراد ان يخلص البشرية من الامها بصلب المسيح, فإنه منذ ذلك

اليوم و البشرية تصلب كل لحظة, و احياناً بإسم المسيح.. فاليوم السابع لم ينته بعد (5/49)".
و على غلاف الكتاب المذكور تدون هذه الكلمات التي تليق بالذكر و الإعادة:

("اليوم السابع" هو يوم المحاورات الكبرى و الصغرى في تأريخ الامم و الأفراد و المجتمعات, هو ملحمة الصراع التي لا تنتهي. هو صراع الفكر كما انه صراع الفن. و لكنه قبل هذا و ذاك هو صراع الحياة ذاتها, من ادق تفاصيلها الصغرى الى كلياتها الفلسفية الكبرى) (5/49).

الرقم 40

عن هذا الرقم كتبت بعض الأسطر في كتاب عن الشاعر الكردي احمدي خاني 1650-1707 قبل سنين, اذ قلت: "ان اكثر الدراسات حول الايزيدية تنفي مطابقة النصوص المنشورة من كتاب "جلوة" و (مصحفي رش) للأصل الايزيدي. كما ينفي اكثر الايزيديين الذين اتصلت بهم شخصياً و اباحوا لي ببعض ما لم يبح لغيري ذلك, و لكننا قارنا ذلك النص مع ما اعاده خاني من افكار يونانية و اسلامية لوجدنا تطابقاً بين ما اورده و ما ورد في كتاب الجلوة حول كشف الكنز من خلق العالم, و نظام العلم, و العناصر الأربعة و الذات و الصورة و مسألة النور. و ان كان تقديس رقم معين (MAGIECHE) من الأمور الواردة في بعض المذاهب و الأديان فإن خاني يتفق مع الايزيدية في تقديس الرقم (اربعين), حيث نجد عنده ذلك في مواضع عديدة, كما نجده عند الايزيدية" (257/4) (141/3, 142)

و اذا بحثنا عن الرقم اربعين في العادات و الطبيعة و الموروثات الشعبية و في المصادر يمكن ان نقول: ان هناك اربعين الشتاء و اربعين الصيف و هناك اربعينية الميت عند بعض الأمم, و لكن الطابع الديني او العقائدي يغلب على هذا الرقم: فاليسوع يصوم اربعين نهاراً و اربعين ليلة (انجيل متي – الاصحاح 4), و ترد قصة موسى في الكتب المقدسة و يكرر فيها الرقم 40: "و لما كملت اربعون سنة ظهر له ملاك الرب في برية جبل سيناء في لهيب نار عليقة" (اعمال الرسل. الاصحاح 7). و اليهود الذين اتفقوا على قتل بولص اربعين (اعمال الرسل: الاصحاح 23) اما في القرآن الكريم فيتكرر ذلك الرقم في قصة موسى ايضاً:

"و اذا واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده و انتم ظالمون" (البقرة/ 48)

"قال فإنها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأت على القوم الفاسقين" (المائدة/ 29)

"و واعدنا موسى ثلثين ليلة و اتمناها بعشرٍ فتم ميقات ربه اربعين ليلة و قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي و اصلح و لا تتبع سبيل المفسدين" (الأعراف/ 138)

و ورد هذا الرقم في الكتاب الكريم في موضع آخر:

"حتى اذا بلغ اشده و بلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليَ و على والدي" (الاحقاف/ 14).

و ان اوحي الى الرسول الكريم و هو في الأربعين من عمره فإن هذا الرقم و ما سبق يوحي بأشياء للمتصوفة:

يقول ابن عربي: "و رأيت مقامات الخفاء, و مصابيح الظلماء, فوجدتها ثمانية و عشرين, و حضراتهم اثنتا عشرة للتتميم الأربعين. فقيل لي هذه منازل السالكين, و ينابيع المخلصين, ثم لحظت السبعة الخلفاء في الأفلاك يسبحون, فحملتها على السبعة المودعة في الفلك المشحون. فنظرت في الجدي و الفرقدين, فإذا هم الأئمة في العالمين (51/45). و يرتبط ابن عربي بالرقم نفسه في اشاراته الموسوية في الإسراء فيقول: "و سلم الداعي من مقام الأرواح, في تخلقهم بالأربعين صباح, و هو ميقات الوارثين. فشرف بذلك كليم رب العالمين" (51/45).

و بين رتب المتصوفة يعتبر النجباء اربعين "فهم اربعون و هم المشغولون بحمل اثقال الخلق فلا يتصرفون الا في حق الغير" (4/405)

و يمكن ان نذكر ان ايام الإعتكاف عند بعض الصوفية اربعون يوماً, و اذا كان الناس يؤمنون بوجود سبعة اولياء تائهين (عـهودالان) في جبل گوسالان بهورامان فإن الآخرين يعتقدون بإجتماع الأربعين في كهف بأعالي قاسيون يسمى بالأربعين, و حيث يمتد في اسفله حيَ الأكراد منذ قرون.

اما في المورثات الكردية فنجد في قصة جندي و هي من المقدسات المروية عند الايزيدية" أن خضر الياس هو النقيب و هو سيد الأربعين" (68/10), اما پيرداود فهو پير ذو اركان و هو يصاحب اربعين پيراً" (115/10) و تمكث الأرض مبهوتة اربعين عاماً (55/10).

اما في الآثار الفولكلورية, فنجد اربعين عفريتاً هنا يبارزون اربعين عفريتاً هناك (54). و هناك شخصية طوله شبر و لحيته اربعون ذراعاً او: "كان الملك يملك اربعين غرفة اعطى لإبنه مفاتيح تسع و ثلاثين و حجب عنه مفتاح الغرفة الأخيرة" (54).

و عندما يتوجه بطل الحكاية هنا الى جزيرة (واق واق) لكشف السر يسأل عن طول الدرب فيجيبه رجل شيخ: "امامك طريقان: واحده يطول اربعين ليلة و اربعين يوماً و ليس فيه من خطر. و الثانيه يطول سبع ليالٍ و سبعة ايام و ولكنه مليئ بالجن و العفاريت و يحاط بالخطر و ما من احد سار فيه و عاد" (54).

و كثيراً ما نسمع في الحكايات الكردية: "كان ما كان كان هناك ملك انجب اربعين ولداً", و ليس بعجيب ان تردف العبارة بـ"و كان مقطوع النسل" ثم تبدأ العقدة.

اما في المسجلات الفولكلورية, فنجد السيف يشحذ اربعين مرة في ملحمة دمدم (118/15, 119). و الجواري في مم و زين اربعون و يسجن مم اربعين يوماً؛ و في ملحمة (مهر) و (وفا) تدعو العجوز للبطل ان يصاحبه في سفرته اربعون فارساً من الغيب (91/72). و يعاد الدعاء نفسه في ملحمة "شور محمود" (18/18) و هنا ايضاً ادخر لعودة البطل مئة قطعة ذهب و اربعون قطعة (ابو الطوب) و اربعون مجيدياً (31/18). و تكون ضفائر الحسناء في قصة سيامند و خجى اربعين ضفيرة (67/30). و في حكاية "ناصر و مال مال" يطلب اربعون كبشاً هدية للسيد الرومي (47/13). و في رواية اخرى من خج و سيامند تكون جروح سيامند اربعين جرحاً (34/39) و يصطدم بأربعين من اغصان الشجر (34/39)

و ما اجمل هذا الإستخدام الغزلي:

هات يافتاة كي اقبل جيدك و هو حمامة جبلية

لن يحجنها اربعون فقي[17], و لكنني ادجنها (265/35)

و اخيراً – هل يمكن ان اضيف الى مقدمة بحث هذا الرقم حقيقة ان الطب القديم اعتبر سكون الأمراض في الجنين اربعين يوماً و حركة و ولادة و تغذية الجنين بعد الولادة اربعين يوماً لكل واحد و خلقه في اربعين يوماً.. الخ.بل ان المصدر هذا قسم مراحل الطفل على عدة اربعينيات (32/50).

ارقام اخرى:

هناك ارقام اخرى قد تكون مرتبطة بشيء او معبرة عن شيء, و قد لا تكون, و هي تذكر مجرد رقم دالٍ على التعدد او الكثرة مثلاً, و مع ذلك فإن تلك الأرقام قليلة الإستخدام و ليست بالزخم الهائل الذي نجد عليه الأرقام السابقة. و من اكثر الأرقام الأخرى التي يجب علينا التوقف عنده – الرقم 12. فأشهر السنة 12, و البروج 12, و حواريو المسيح 12, و الائمة عند الإثنا عشرية 12.. الخ. و حواريو حمه سور عند فئة من (الحقة) الكرد اثنا عشر (انظر: انجيل متى: الاصحاح 10, انجيل مرقس, الاصحاح 3) و الاسباط 12 (رسالة يعقوب الاصحاح 1), و عدد المختومين من الاسباط 44, ينقسمون على 10آلاف لكل سبط (رؤيا يوحنا اللاهوتي, الاصحاح 7) و يرى الناس بهذا العدد ايضاً (الرؤيا. الاصحاح 14). و قد يضاعف الرقم 12, فيخر 24 شيخاً قدام الجالس على العرش (الرؤيا. الاصحاح 4, الاصحاح 19).

يكون عـدد الجـيش المكـون لمصاحبة مـم في احـدى روايات الملحمة 12 الفاً, يقطع 12 منـزلاً, يعود في كل منزل الف منهم. و يبتعد مم عن ابيه 12 شهراً و 24 يوماً. و في المسجد 12 اعمى يحفظون القرآن.

و في ملحمة "شور محمود" تسلم الفتاة بطله امانة و هو يسافر الى الامام موسى الكاظم و ويس القرني, ثم الى (12) اماماً في سـهل بغـداد (18/18). و يضاعف العدد بشكل بعيد عن ذلك فيصبح الرداء 24 ذراعاً (32/18) و القبل 24 قبلة (90/18). و في ملحمة چتو تغدو العشائر 12 عشيرة (17/19). و الخيول اثنا عشر حصاناً (66/19). و في ملحمة "جولندي"فالشهداء هم 12 صحابياً (24/19) اما في غناء لمقام حيران فيكون القسم بضريح الشيخ علي و 12 اماما (17/24). (و يكون القصد هنا الامام علي -ر-/2-4.م). و هناك مواضع اخرى لا ارى للرقم دلالة معبرة سوى ذكر رقم مجرداً (5/25, 260, 304).

و هناك ارقام اخرى تلقاها نادراً, و قد تصل الى تفسير او تعتبره مجرد رقم. فإذا كانت الأفلاك او طبقات السماء عند الفيثاغورسيين و اخوان الصفا تسع طبقات (بدلاً عن سبع عند غيرهم) فقد نجد الرقم 9 احياناً, و الطبقات التسع للسماء ايضاً, و للحمل النادر. اما ارقام مثل 366, 6656, 666, فلا ارى فيها غير مضاعفات للأرقام الأثيرة السابقة و قد يكون الرقم الأول قريباً من عدد ايام السنة.

و من بين المصادر الفولكلورية اقف لحظة عند كتاب (الحب و الحياة) جمع و تقديم محمد امين عثمان. بغداد, 1986. فقد وجدت في نصوصه تنوعاً و تعدداً للأرقام المختلفة, الغريبة, عصى عندي على التفسير, و لا ادري هل هي نصوص متداولة حقاً, ام ان حب صديقي محمد امين عثمان للغريب و التنوع كان له اثره في ذلك عند التسجيل؟.

عندما انجزت البحث تفضل عليَ صديقي الباحث و الجامع الفولكلوري السيد طارق جمباز فزودني ببعض المصادر عن الموضوع اولها مقاله المعنون (العدد في الحياة و الأدب)(55) و هو محرر باللغة الكردية, يستهله بشيء عن اهمية الأرقام عموماً و تداولها بين الناس, و ارقام الفأل و الشؤم, ثم ينعطف على الأرقام فيعدد امثلة عن الرقم سبعة في الأمثال و المصطلحات الكردية "سار سبعة فراسخ, قطة بسبع ارواح.. الخ" ثم يذكر قدسية الرقم سبعة في المعتقدات و الحوادث القديمة (دون ذكر مصادر), و اذ يرى تغلب هذا الرقم على الأرقام الأخرى, فيسجل امثلة من الحكاية الكردية, و الأمثال, و الأحاجي و الأغاني (من ملحمة دمدم مثلاً) ورد فيها هذا الرقم.

اما المصدر الثاني فهو كتاب لودفيغ بانيث عن الأعداد في الأحلام (56). و اذا كان هناك ما يوقفني عند هذا المصدر ارتباطاً بموضوع البحث.. فهو التوقف عند الرقم 5, الذي يعتبره المؤلف العدد المقدس لعشتار, افروديت, و يذكر المؤلف اول تداع له يتعلق بالرقم و هو اصابع اليد الخمسة (53/59). و يمكن ان اضيف الى ذلك التداعي, الكليات الخمس في المنطق, و المقولات العشر (5 + 5). كما و اوقفتني تداعيات اخرى و هي فلكية عن الرقم سبعة و ربطها بالفكر البابلي (205/56, 206) و اذا يخرج المؤلف على الفكر الافلاطوني عن العدد فقد تخطى ذلك الى الفيثاغورسي فيلولاوس الذي ينقل الرقم من الفكر الى الحياة, او لنقل بتعبير لنا من الميتافيزيق الى الواقع (234/56). و اذ يربط المؤلف العدد بالوهم حيناً و بالعقل احياناً, و يربطه بالموسيقى و اللون ايضاً. و يستشهد بمقولة لطيفة لغوته في صراعه مع نيوتن في (احاديث مع اكرمان, 19 شباط 1829) اذ يقول: "انني لا آبه كثيراً بنتاجي الشعري. فقد عاصرني شعراء ممتازون, و جاء من قبلي شعراء افضل مني, و سوف يأتي ايضاً من بعدي من هم افضل مني, بيد أني بالمقابل فخور بكوني المطلع الوحيد في عصري على علم الألوان الصعب و من هذا المنظور, كأني اشعر بتفوقي على الكثيرين" (238/56).

هذا هو العدد في تراثنا, و كان من الممكن التوسع في البدايات, في الأساطير الانسانية و العقائد و الفكر, و التوسع ادبياً بالأمثلة الكثيرة من التراث الكردي, و ذلك مشروع كتاب ضخم, لعل من يأتي و يوسع به هذا البحث المتواضع, و انما اردت ان ابين موضع قدمنا بما اوردت من ارتباطنا بالأساطير و العقائد و الفكر, عبر نماذج, لتكن اكثرها فولكلورية, فهي وافية بالقصد, و مقدمة للمدون من الأمثلة, فهل افلحت؟

(ملحوظة: الأرقام الأولى تدل على رقم المصدر في الملحق, و الأرقام الثانية على الصفحات في تلك المصادر).

الهوامش:

1-اختصرت في مدينة السليمانية منذ السبعينيات الى يومين.

2-قرية لالش بجوار عين سفني بمنطقة شيخان.

3-بما ان التعاليم هذه تروى شفاهاً, فيمكن ضمها الى التراث الفولكلوري.

4-حرفياً: سيمرغ و هو النسر, و يمكن ترجمته الحرفية بالطائر الثلاثين او ثلاثين طائراً.

5-لديّ صيغة اخرى مدونة لهذه الحكاية.

6-الصفحات 121, 125, 126, 127-48, 58, 59, 74, 99, 447.

7- (25/427, 429, 448, 454)

8- اعامل هذه النصوص الشفاهية معاملة الفولكلور ايضاً.

9-(29/ 48, 52, 60)

10-(29/130) (28/26) (16/14).

11-نلقى امثلة لذلك في (33/50), (17/180, 82) (21/88) او للملك سبعة اولاد (41/53).

12-(17/204, 205), (21/35).

13-(17/262, 184, 222, 316).

14-(17/277, 280, 289, 296, 308).

15-الجروم المكان الحار.

16-في (19/55) الثوب بسبعة الوان و في (37/40) علبة الأصباغ بسبعة الوان.

17-(فقي) طالب العلم, و هو مقتبس من (فقيه)

المصادر:

1-(جورج)كونتينو, الحياة اليومية في بلاد بابل و اشور. ترجمة و تعليق سليم طه التكريتي و برهان عبد التكريتي. بغداد, 1979.

2-الضمائر الخفية في القوانين الحرفية. ابن صلاح الحلبي . الكليات الخمس. بغداد, 1938.

3-احمدي خاني: مم و زين. موسكو, 1963.

4-وكتابنا/ احمدي خاني شاعراً و مفكراً, بغداد 1979.

5-الغزالي. تهافت الفلاسفة. ط5, القاهرة (طبعه مصطفى البابي الحلبي) 1321.

6-د. محمد ويس عربي. تكافؤ ازلية العالم و حدوثه, مجلة الحكمة ليبيا اكتوبر 1979.

7-د. عمر محمد الطالب. اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية بغداد, 1981.

8-د. يوسف حبي, الانسان في وادي الرافدين, بغداد, 1983.

9-گوندياتى. دراسة انثروبولوجية. جمع و شرح خدر سليمان. بغداد, 1985 (باللغة الكردية).

10-ئێزدياتى. جمع و اعداد خدر سليمان و خليل جندي, بغداد, 1979.

11-فنـاتى كوردو (كورديف) مجموعة نصوص فولكلورية كردية. بغداد, 1976.

12-ملحمة ممى الان. (چیرۆك نفيس). بغداد, 1977.

13-التحفة المظفرية في اللغة الكردية المكرية. جمع اوسكارمان. طبعة بغداد, 1975.

14-منتخبات من الشعر الفولكلوري الكردي. اعداد و جمع فاروق حفيد زاده. ج2. السليمانية, 1983.

15-ثورة دمدم. اعداد جميل احمد زيروهركي. بغداد, 1983

16-ملحمة دمدم. اعداد عبد الحميد حسيني. المانيا, 1981.

17-حيرانوك في التراث الكري. جمع و شرح حجي جعفر. اربيل 1989.

18-ليرەيەك لە گەنجينەى نەتەوەى كورد. اعداد اسعد عدو, بغداد, 1984.

19-اغاني المجالس, جمع و اعداد مصطفى نوري بامرني, بغداد, 1986.

20-باقة من خشخاشة شارەزور. جمع و اعداد و تقديم علي شارزووری. م1, بغداد, 1982.

21-الأغنية العاطفية حيرانوك, جمع و اعداد و تقديم احمد عبدالله زرو. بغداد 1987.

22-الفولكلور الكردي. سعد الله اسماعيل شيخاني. بغداد, 1985.

23-مدخل الى الفولكلور الكردي. خالد حسين؛ بغداد, 1985.

24-ديوانى حەيران بێژان جمع و اعداد احمد حيران, بغداد, 1988.

25-الأغاني الكردية التأريخية, اورديخان جليل, بغداد, 1977.

26-فولكلوری كوردی. محمد توفيق وردي. ج 1. بغداد 1961.

27-صيادي الهي و شاهبازى ازلى. نشرو معاجم د. محمد مكري ديسبادن, 1967.

28-الملاحم و الأغاني في الفولكلور الكردي. عمر شيخ الله دشتەكى. اربيل 1978.

29-قەلاى دمدم و خانى لەپ زێرین. عەزیزی ئیبراهیمی, مهاباد, 1969.

30-سیابەندۆ سەمەند. سیابەندو خەجێ. بغداد, 1980.

31-سێ بەیتی فۆلكلۆری كوردی, جمع و اعداد جلال ملا حسن خوشناو, السليمانية, 1984.

32-مهر و وفا. جمع و تقديم قادر فتاح قاضي. تبريز, 1961.

33-نخبة من القصائد الفولكلورية الكردية لمنطقة گرميان, جمع و تقديم هردويل كاكائي. بغداد, 1985.

34-مجموعة من اللاوك و الحيران. جمع محمد الملا عبد الكريم, بغداد, 1968.

35-حزمة من بيدر الفولكلور الكردي, جمع جعفر حسين البرزنجي. بغداد, 1986.

36-اغاني الطحن على الرحى. جمع و اعداد حجي جعفر. بغداد 1987.

37-الحب و الحياة. جمع و تقديم محمد امين عثمان. بغداد, 1986.

38-ديوان صيدى هورامى.

39-خج و سيامند. جمع و تحقيق عبيد الله ايوبيان. تبريز, 1956.

40-مقالات مكري. ج2. باريس, 1969. (نصوص مع تعليقات فارسية و تراجم فرنسية).

41-فولكلور, مجموعة نتاجات فولكلورية. ج2. اربيل, 1985.

42-القرآن الكريم.

43-العهد الجديد.

44-ابن عربي. كتاب اصطلاح الصوفية, ط 1. حيدر اباد الدكن, 1948.

45-ابن عربي. كتاب الأسرى الى مقام الاسرى. ط1. حيدر اباد الدكن, 1948.

46-د. عز الدين اسماعيل. القصصي الشعبي في السودان. القاهرة, 1971.

47-ابن الجوزي, القرامطة, تحقيق محمد الصباغ. ط3 بيروت, 1970.

48-د. حسام محي الدين الآلوسي. من الميثولوجيا الى الفلسفة عند اليونان. ط 2. بيروت, 1981.

49-د. غالي شكري. محاورات اليوم السابع, بيروت, 1980.

50-حنين بن اسحاق. كتاب المولدين. تحقيق. د. يوسف حبي. بغداد, 1978.

51-تعاليم دينية لأبناء الصابئة. غضبان رومي الناشي. بغداد, 1972.

52-Dy Maximilian Bittner. Die Meiligen bucher Der Jeziden oder Teuf –LS- An beter (kuroisch And Arabisch) eien, 1913.

53-اغاني محمد ماملي.

54-مجموعتي الفولكلورية غير المنشورة.

55-جريدة هاوكارى العدد 827. بغداد, 1980/2/12 مقال "العدد بين الحياة و الأدب" لطارق جمباز.

56-لودفيغ بانيث. رمزية الأعداد في الأحلام. ت: هنرييت عبودي, بيروت, 1986.

57-مجلة "التراث الشعبي" العدد 5, 6 السنة 14, بغداد, 1983.

حكايـة شعبـية كردية

السلطان محمود ووزيره هياس

• اعداد و ترجمة: محمد حمه صالح توفيق

يروى بأن السلطان محمود ووزيره هياس يخرجون ذات مرّة فى سفر الى مكان ما . يتراءى للسلطان على قارعة الطريق جوهرة و يخبر وزيره بها، حيث يلقى بنفسه من على حصانه و يلتقط الجوهرة . وحين يطلب السلطان الجوهرة يقول الوزير بأنه التقطها و يمتنع عن اعطائها للسلطان متحججا بشتى الحجج، حيث يحدث مشادة كلامية بينهما . والخلاصة يقول الوزير دع كل واحد منا يسرد قصة حياته فأي مناً كانت قصته مليئة أكثر بالفواجع و المرارة تكون الجوهرة له . فأومأ السلطان برأسه علامة الرضا و قال نعم الرأي فلأبدأ أنا الآن بسرد قصة حياتي :

أيها الوزير هيّاس لقد ابتدأت طفولة بائسة تعيسة مثلها تعاسة , لقد فقدت والدي وأنا في السابعة من العمر و لم يكن لدي أحد يعيلني غير والدتي العجوز التي لم تكن تمتلك في هذه الدنيا غيري، لا أهل و لا أقارب نتجرع بؤس العيش و ضنكه و كنت أعمل جاهداً كي أضمن لي و لأمي أدامة الحياة و غالباً ماكان الناس يتعافون متي بسبب قرعي وقذارتي و لا يستأجرونني لأي عمل، حيث كانت والدتى تضطر لطلب الدين و المساعدة من بعض معارفنا . ذات يوم خرجت مبكرا الى ميدان العمال فى المدينة و رأيت شخصاً يذرع الميدان يمنة ويسرة وينادي: أريد عاملاً نشطا ، أريد عاملاً جريئاً, فاقتربت منه و قلت له أنى ذلك العامل فحدَق بى وبدا الاشمئزاز على محياه ولكن يبدو أنه كان مضطراً فسألني: ما أسمك يابني ؟ قلت محمود .

وقال عزيزى محمود أنا أطلبك فى عمل مدة شهر خارج المدينة فقلت أنا حاضر سيدي فلتكن ، أنا عامل و على استعداد للعمل حيثما يكون ، لكن يجب أن أخبر أمي الوحيدة بذلك فهزّ الرجل لي بكيس يحوي ألف ليرة و قال سأعطيك هذه النقود تأخذه الى والدتك العجوز الفقيرة كي تدبر أمور عيشها هذه المدة و بعد انتهاء العمل سأعطيك مبلغاً مماثلا اخر . قلت فى قرارة نفسي ياويلي فإن هذا هو ثمن دمي ويبدو بأن الرجل يضمر لي سوءً . عندها ذهبت الى أمي و انبأتها بالأمر، حيث أخذت بالصراخ و العويل قائلة حذار يا محمود لا تفعل فمن يدري ماذا يضمرلك هذا الرجل وقد يقتلك . لكنني لم آخذ بنصيحة

الأم وعـدت الى ميـدان العمـال ووجـدت الرجـل ينتظرنـي، أخذت منه كيس الليرات و ذهبنا معاً حيث اعطيته لأمي و خرجنا من المدينة، حيث قطعنا بعض الفراسخ ووصلنا الى أرض جبليـة وعـرة ملؤهـا الوهـاد و الكهـوف . ثـمَ أخـذني الرجل الى كهف و نـادى : يـا ابنتـى فاطمـة افتحي البـاب ، و بعد هنيهة جاءت امرأة و فتحت الباب ، قال لها الرجـل ، يـا فاطمة أخدميه جيداً الى أن أرجع، حينها أخـذتني المرأة الى داخل الكهف وقدَمت لي طعاماً لذيذاً ثـم قـادتني الى الحمَام فاستحممت و ساعدتني هـي في ذلك واحضـرت لـي ملابـس فاخرة ثمَ قامت بمداواة جروح القرع فى رأسي. وعلى هـذه الشاكلة فانها كانـت تقـدم لـي يوميـاً ثـلاث وجبـات شـهية و تقـودني الى الحمَـام تغسـلني و تسـتبدل ملابسـي بملابـس جديـدة و تـداوي جـروح رأسـي فانتشـيت وانتعشـت وامـتلأ جسـمي وشـفى رأسـي مـن القـرع . يـا هيـاس لقـد أخـذني الرجـل كـي انجـز لـه عمـلا غـير أنـه خـدمني وأسـمنني كمـا يسمن الغنم ، غير أنه فى قرارة نفسـي كنـت أشـعر بـالخوف من كل هذه العنايـة . وحـين اتممـت تسـعة و عشـرين يومـاً فرحت و قلت في نفسي ربما غداً أو بعد غد سـأعود الى أمـي ، غير أنه و في الليلة الثلاثين حين كنت ممددا علـى السـرير و أخذ النعاس طريقه الى عينى وكدت أنـام وجـاء الى سمعـي طرق الباب فانقبض صدري و قلت في نفسـي هـا هـو اليـوم الـذي كنـت انتظـره . و قـد فتحـت فاطمـة البـاب و دلـف الرجل الى الداخل ووخزنـي في خاصـرتي و قـال : أنهض يـا محمـود فأنـا أريـدك هـذه الليلـة فانتفضـت مـن مكـاني و خرجـت معـه و أذا بـي أرى عشـرة بغـال واقفـات و علـيهن جوالات الحمـل وقلت الى أيـن نـذهب ؟ قـال لاعليـك اتـبعني .وقد سرنا شطراً من الليـل الى أن وصلنا مكانـاً مـا وأخـذني الى بئر عليـه صخرة كبيرة. قـال لـي الرجـل : محمـود هـذا البئـر مملـوء بالـذهب والمجوهرات فأنـا أدليـك بحبـل الى قـاع البئـر و في كـل مـرَة حـين تمـلأ جـوالاً بهـا فأنـا أصـعدها الى أعلـى . و بهـذه الصـورة الى أن تفـرغ مـن حمـل تسـعة بغـال والحمل العاشر هـو لـك و بعـد ذلـك أرفعـك بالحبـل ذاتـه الى أعلى البئـر و تصـبح مالكـاً لثـروة تكفيـك و تكفـي ابنائـك و احفـادك .و لمّـا امتنعـت متحججـاً بـأنني لا أقـدر علـى عمـل كهذا لم يقبل قائلاً بأنّي استأجرتك و قـدّمت لـك كـل هـذه الخدمة و طوال هذه الفـترة لعمـل كهـذا . فاضـطررت لـذلك وقبلت عرضه صاغراً ، عندها ربطني بحبل متين وأنـزلني الى البئـر ، فكـان يـدلي بـي الى أسـفل ولا أصـل ، يـدلي بـي عميقاً ولا أصل ، و في النهاية و بعد جهيـد جهـد هبطـت الى قاع البئر و رأيت حوالَيَ جماجم و عظام آدمية كثيرة فـدبَ اليـأس الى نفسـي و فقـدت الأمـل بالحيـاة و قلـت في قـرارة نفسي: لن يكون مصيرى أحسـن مـن مصـير هـؤلاء . بعـدها كـان الرجـل يلقـي لـي بـالجوالات تباعـاً، حيـث أملؤهـا لـه بالذهب و المجوهرات و يرفعها هـو الى أعلـى البئـر ، وعنـدما فرغ من حمل البغل العاشر أنزل لي الحبل و نـادى : محمـود أربط نفسك بالحبـل كـي أرفعـك وهنـا فرحـت كـثيراً وقلـت لنفسي: لقد نجوت من الموت ، ثـم ربطـت الحبـل بوسـطي و رفعني هو الى الأعلى وكـدت أن أصـل الى فوهـة البئـر لـولا أن أخـرج سـكيناً و قطـع الحبـل فجـأة فتهاديـت الى قعـر البئـر وفقدت وعي. لا أدري كم استغرق من الوقت حـين اسـتعدت وعي ووجدت جسدي المدمى وقد امتلأ جروحـاً ورضوضـاً . و هنا وجـدت بـأن هـذه الجمـاجم جميعهـا هـي ضـحايا هـذا الرجل اذ أغواهم جميعاً ، على شاكلتي، و قضى علـيهم كـي يبقى أمر الكنز الدفين سراً لا يعرفه أحد غيره .

فيا هيّاس أنّي ابتليت بهذه المحنة أفلا أستحق الجوهرة ؟ و أجابه هيّاس: ياحضرة السلطان لقـد رأيـت مـا هـو اسوأ من ذلك ، تفضل الآن واكمل ما جرى لك.

عاد السلطان محمود ثانيـة ليكمـل مـا جـرى لـه مـن أحداث و مآس و قال : يا هيّاس لقد قضيت عدة أيام فى قعر البئـر العميق و أنا اكاد أمـوت جوعـاً وعطشـاً و أخـذ الوهن يدبّ الى جسمي و أنا أدعو اللّه أن يـزهقني الـروح سـريعاً و أمـدّ يـداي حـوالي فـلا ألمـس غـير الجمـاجم و

العظام الآدمية و أرفع رأسي الى أعلى فلا أجد غير الظلام الدامس ، اذ أن الرجل قد أعاد الصخرة الى فوهة البئـر . و فجأة وجدت شيئاً مـايتحرك فانـدفعت نحوه ووجدتـه ثعلبـاً و قـد دلـف الى جحـر وبـدأت أوسـع فوهـة الجحـر بيدي وبقطع عظام الموتى المرمية ثـم أدخلت نفسـي الى الجحر زاحفاً وبصعوبة جمّة الى أن وجـدت ضـوءً باهتـا من الطرف الآخـر للجحـر، وهنـا تنفست الصعداء وقلت فى قرارة نفسي لقد نجوت ،و بدأت أغذّ السيـر زاحفـاً الى أن خرجـت من الطرف الآخر للحجرالـذى كـان يطـل مـن جرف عال على واد سحيق فى العمـق وكنـت أقتـات علـى الحشائش وثمار الأشجار الى أن اسـتعدت شيئاًمن عـافيتي وقوتي الجسدية بعدها توجهت نحو مـدينتي و بعـد أيـام وليال من المسير وصلت بيتنا ووجدت والدتي تملأ الـدنيا بكاءً و نحيباً وكانت لا تصدق بأنها سوف تراني ثانية.

و استمر السلطان في سرد قصة حياته و ما جرى له من محن و كوارث قائلاً : أيها الوزير هيّاس لقـد قضيـت مع والدتي بعـض الوقـت فـى بحبوحـة مـن العـيش الى أن نفذ المال الذي تسلمته من الرجل ثـم بـدأ الفقـر سـبيله الينـا مجدداً واخـذت الجـروح الـتي لم تنـدمل ولم تشـف نهائياً في الكهف تعاود تقيحها فرع رأسـى وكانـت تمنعنـى من الاستمرار فى العمـل اليـومي، حيـث اذهـب الى العمـل بشكل متقطع و لا يكفى اجره مايسـد الرمـق. وتراكمـت علينـا ديـون المعـارف والمحسـنين ورجعنـا كمـا كنـا سـابقاً نعاني الفقر المدقع والحرمـان . و ذات يـومٍ وبينمـا كنـت انتظر في ميدان العمال بالمدينة انتظر مـن يمـنّ علي بـأي عمل لقاء أجر طفيـف واذا بـي أرى نفـس الشـخص مجـدّداً وهو ينادي: من لي بعامل نشط ، و أقتربت منه و قلت لـه يا عمّ أنا العامل الذي تريد ، فاندهش الرجل كثيراً و قـال : يا محمود كيف ومتى رجعت الى هنـا ؟ اجبتـه بانـدهاش كبير : مـن هـو محمـود يـا عـمّ ؟ أنـا اسمـي أحمـد ولم أرك قط فى حياتي. ثـم حـدّق بـي الرجـل مجـدَداً و قـال بـين مصـدّق و مكـذب : ألست أنـت محمـود و تعـيش مـع أمـك العجوز ؟ قلت كلاّ فأنا اسمي أحمد وقد توفت والدتي منـذ زمـن بعيـد و أنـا الآن في كنـف والـد عجـوز.ثم تفحّصـني بالنظر مرّة أخرى و قال اذهب فأنا لا أريـدك وبـدأ ثانيـة بالمناداة في السوق وفي ميدان العمال غـير أنـه لم يجـد أحـداً يقبل بعرضه وعاد أدراجه اليّ قائلاً : تعال يا أحمد فأنني أريدك لمدة شهر كامل خارج المدينة فهل ترضى ؟ قلت يـا عمّي أنا أبحث عن أي عمل وفي أي مكـان فلمـاذا لا أرضـى . و بعد ان اتفقنـا أعطـاني ألـف لـيرة وقـال خـذه الى والـدك الشيخ وقل له بأنك ذاهب الى عمل يستغرق شهراً خـارج المدينة وقد أخذت الألف ليرة الى والدتي قائلاً لها سـأذهب الى عمل و أعود بعد شهر.

وبدأت الوالدة بالعويل والبكاء قائلة: حذار يا محمود لا تـذهب هـذه المـرة سـوف يقتلـك لامحالـة. لم أصـغ الى نصائح والتماسات أمي، ودّعتها وقفلت راجعـاً الى الرجـل وتبعته الى الجبال الوعرة الى أن وصلنا الكهف ونادى : يـا فاطمـة افتحـي البـاب، هـذه المـرّة جلبـت لـك أحمـد, قـال الرجـل هـذا وغـاب عـن المكـان. وحينمـا دخلـت البيـت عرفتني فاطمة على الفور وقالت: أهذا أنـت يـا محمـود؟ هل بقيت على قيد الحيـاة ؟ فأجبتهـا أنـا أسمـى أحمـد لا أعرفك وهذه أول مرة ألتقي بك. فغضبت فاطمة وقـالت لماذا تتنكر لي أنا على يقين مـن أنـك محمـود و أن تنكـر ذلك سأخبر أبـى كـي يقطّعـك أربـاً أربـا . وهنـا أسـقط في يدي وبدأ اليأس يـدبّ الـيّ وبـدأت أرتجـف وقلـت لا أدرى بمـاذا أخـبرك ، فـإنّنى لا أجـرؤ علـى قـول شـيء. وقالـت فاطمة : لا تخف فأنا سـندلك ، قـل لـي كيـف نجـوت مـن الموت المحتم ؟ لم يبـق لـي أي مجـال للإنكـار وسـردت لهـا القصـة مـن أوّلهـا الى آخرهـا . حينهـا قالـت : اسمـع يـا محمود أن والدي هذا هو يهودي و أنا أسلمت سـراَ ، تعـال نتدبّر أمراً كي نقضي على والدي و أنا أعد بالزواج منك و أن أضـع تحـت تصـرّفك كـلّ الكنـز الـذي أخرجـه مـن

البئر وكدّسه فى هذا الكهف . قلت كيف يمكن ذلك قالت أنا أضع لك الخطة لاحقاً وعليك أن لاتحيد عنها . لقد اتفقنا وبدأت الفتاة تقوم على خدمتى ليل نهارَ تغسلنى في الحمّام و تلبسني أحسن الثياب و تعدّ لي مالذّ وطاب من الطعام وتداوي جروح رأسي و تقيحاته أحسن من ذى قبل، حيث انتعشت و انتشيت وشفى القرع و استعاد رأسي شعره و غديت شاباً بديناً بهيّ الطلعة . و في الليلة التاسعة و العشرين قالت لي الفتاة : اسمع يا محمود تعال أدبّر لك خطة يجب أن لا تحيدعنها قيد شعرة . قلت : تفضلي فأنا مستعد لأطاعة ما تأمرين به , قالت : منتصف ليلة غد سيأتي والدي بالبغال و يأخذك معه الى مكان الكنز . يجب عليك أن تتصنّع مرضاً شديداً وتتأوّه باستمرار من الألم ، بدأ لا يفيدك هذا في شيء وسيأخذك والدي الى موقع البئر وهناك ابق مصراً بأنك لا تستطيع النزول الى البئر ولا تقتنع بأي من حججه ، حينها يضطر هو نفسه للنزول الى البئر و عليك بمسك الحبل وانزاله الى القاع السحيق ثم جهّز حمولة البغال العشر من الذهب و المجوهرات وفي الأخير حين ترفعه الى الأعلى أقطع الحبل كي يتهاوى هو الى القاع وبدلاً من أن تسّد فوهة البئر مجدداً الق بالصخرة الكبيرة الى القاع وبذلك نضمن موته ولن يكون هناك منجى.

و على هذه الشاكلة فأنني قد نفذت ما خططت لي فاطمة بدقة و قتلت والدها وبعدها نقلت كل ما كان يملك من ثروات الى بيتي و تزوجت من ابنته .و بعدما حصل استبدل بي الحال و بعد فترة أصبحت السلطان محمود كما تراني.

أنظر أيها الوزير هيّاس كم من المحن و المصائب كابدت ، أفلا استحق الجوهرة ؟ فأجابه هيّاس : ماذا كابدت ؟ اذ أنّ ما كابدته انقلب عليك خيراً و اصبحت بفضله سلطاناً . اسمع الى ماكابدته أنا من المحن و المصائب .

و بدأ هيّاس الوزير يسرد على السلطان مالاقاه من المحن و الأهوال قائلاً: يا حضرة السلطان ، كنت في سالف الأيام التاجر الأول في مدينتي لاينافسنى في التجارة أحد ، كنت أملك مئتى بغل لنقل البضائع بين المدن و البلدان ،كنت أملك من الخدم و الحشم و الجواري والغلمان ما لا يعد ولا يحصى. كان لى أفخم قصر لم يكن يمتلك مثله لا السلاطين ولا الوزراء وكانت زوجتي على حسن و جمال لايضاهيها فيه أية امرأة أخرى ، و الخلاصة كنت امتلك ثروة هائلة طائلة.

حضرة السلطان ذات مرّة كنت أجلب من بلاد بعيدة بضائع من شتى الصنوف و الأنواع وحين اقتربنا من مدينتنا بمسافة عدة فراسخ كنت قد استبقت القافلة على حصان أصيل و دلفت خلسة الى الحريم فرأيت خادماً من خدمي العديدين يضاجع زوجتي، وفي هذه اللحظة استلت الخنجر كي أقتلها غير أنها أسحرتنى وضربتني بعضاً قائلة : فليتحول الى كلب أسود وفجأة تحولت كلباً اسوداً ، حيث لم أكن أدري بأن زوجتى ساحرة . حينها صرخت زوجتي ونهرت الخدم قائلة : كيف سمحتم بدخول هذا الكلب اللعين الى غرفتي؟ أطردوه و اشبعوه ضرباً . وقد ضربني الخدم كثيراً و ادموا جسدي بالعصى و الحجارة ثم ربطوا حبلاً في عنقي وسحبوني الى خارج الدار مغمى علي ظناً منهم بأنني قد فطست .

فتأمل يا حضرة السلطان أنا التاجر ذو المنزلة الرفيعة تلك أنقلب فجأة الى كلب أسود يجلد بالسياط والعصى، أفلا أستحق الجوهرة؟ فأجابه السلطان : ويحك يا هيّاس ، فما كابدته أنت من أهوال لم يكابدوه أحد ، فأنت أولى اذن بالجوهرة .

فردّ عليه هيّاس الوزير: أصغ اليّ يا حضرة السلطان، لم أنته فهنالك الكثير الكثير من المرارة التي ألمت بي.

بعد الضرب المبرح حين استعدت الوعي رأيت جسمي وقد تكسر و أدمى بالكامل فاضطررت أن ألجأ الى الضواحي كي أستريح قليلاً في الليل وفي النهار أجوب الأزقة و الدرابين آكل كسرات الخبز اليابس و ألحس العظام . ذات مرّة وقفت عند دكان للجزارة فرمى لي القصاب ببعض العظام و الشحم فاعتدت الذهاب اليه يومياً وكان القصاب لا يبخل عليَ بالعظام وفضلات الدكان. ذات يوم جاءت زوجتي الى ذلك القصاب لشراء اللحم فرأتني هناك و عرفتني فوراً و استغلت نفوذها كزوجة تاجر مشهور وغضبت على القصّاب : أطرد هذا الكلب القذر ولاتدعه يأتي الى هنا مرّة أخرى . و هكذا فقد تسببت هذه المرأة في طردي من هناك أيضاً و أنا المبتلي بمصيبتي هذه أحس وأشعر بأنني هيّاس التاجر وقد أصبحت على هذه الحال لكنني لا أعرف كيف أجد وسيلة للخلاص من هذا السحر و زوجتي لاترثي لحالي أبداً و ما أن تراني أو تسمع بمكانى حتى تأمر بضربي و ايذائي.

كانت لزوجتي شقيقة تعيش في مدينة أخرى بعيدة وكانت هي ساحرة أيضاً .فأضطررت أخيرا كى ألجأ اليها ، عسى أن تجد حلاً لمصيبتي هذه، فقطعت المسافات الطويلة عدّة أيام و ليال ووصلت دارها و استطعت فتح الباب بمخالبى و دخلت ، فاقتربت مني أخت زوجتى وحدّقت في للحظات و عرفتني, ثم جلبت عصاً وضربتني بها فشفيت للحال و استعدت آدميتي. ثم سألتني لم حدث لك هذا يا هيّاس ؟ فأخبرتها بأمر خيانة أختها لي و ما جرى بعد ذلك فحزنت كثيراً و قالت مادامت أختي قد فعلت فعلتها الشنيعة هذه فأنا أعطيك عصاً سحرية أضربها بها واجعلها ما شئت بشرط أن لا تقتلها.

وقد شكرتها كثيرا وحملت العصا و بعد عدّة أيام وصلت الى مدينتي وقد استقبلني الخدم والحشم و كانوا يتصورون بأنني كنت في التجارة وها أنا أعود اليوم .

وقد دخلت على الفور غرفة زوجتي و عرفت رأساً بأنّ السحر قد زال عنّي و أنوي الأنتقام منها فالتسمت منّي الصفح و الغفران . قلت أيتها السافلة أتدرين أيّة خيانة ارتكبتها بحقّي؟ ثم جلدتها بعصاي و قلت فلتتحول بغلة انثى فتحولت على الفور . ثم ناديت على الخدم وقلت غاضباً : أطردوا هذه البغلة و اشبعوها ضرباً بالسياط .وقد رجتني المرأة كثيراً دون نفع . ثم أوصيت مجموعة عمّال بجلب أحجار البناء من على ظهر البغلة دون أن يعطوها من العلف ما يسد الرمق، حيث اخبرتهم بأنها بغلة عنيدة يجب أن يعاقب و أنني أنوى بناء دار ضخمة من هذه الأحجار التى يجب أن تجلب على ظهر هذه البغلة وحدها . وبذلك فقد أنهكت من التعب و الأرهاق وأصاب ظهرها الجروح والقيح المستمرين ، بعدها أمرت الخدم أن يلقوا بها في حفرة عميقة بحجّة أنها قد كبرت وعجزت عن أداء العمل النافع حيث يستوجب الوأد حياً في الحفرة العميقة و لم ينفعها تضرعها و التماسها .

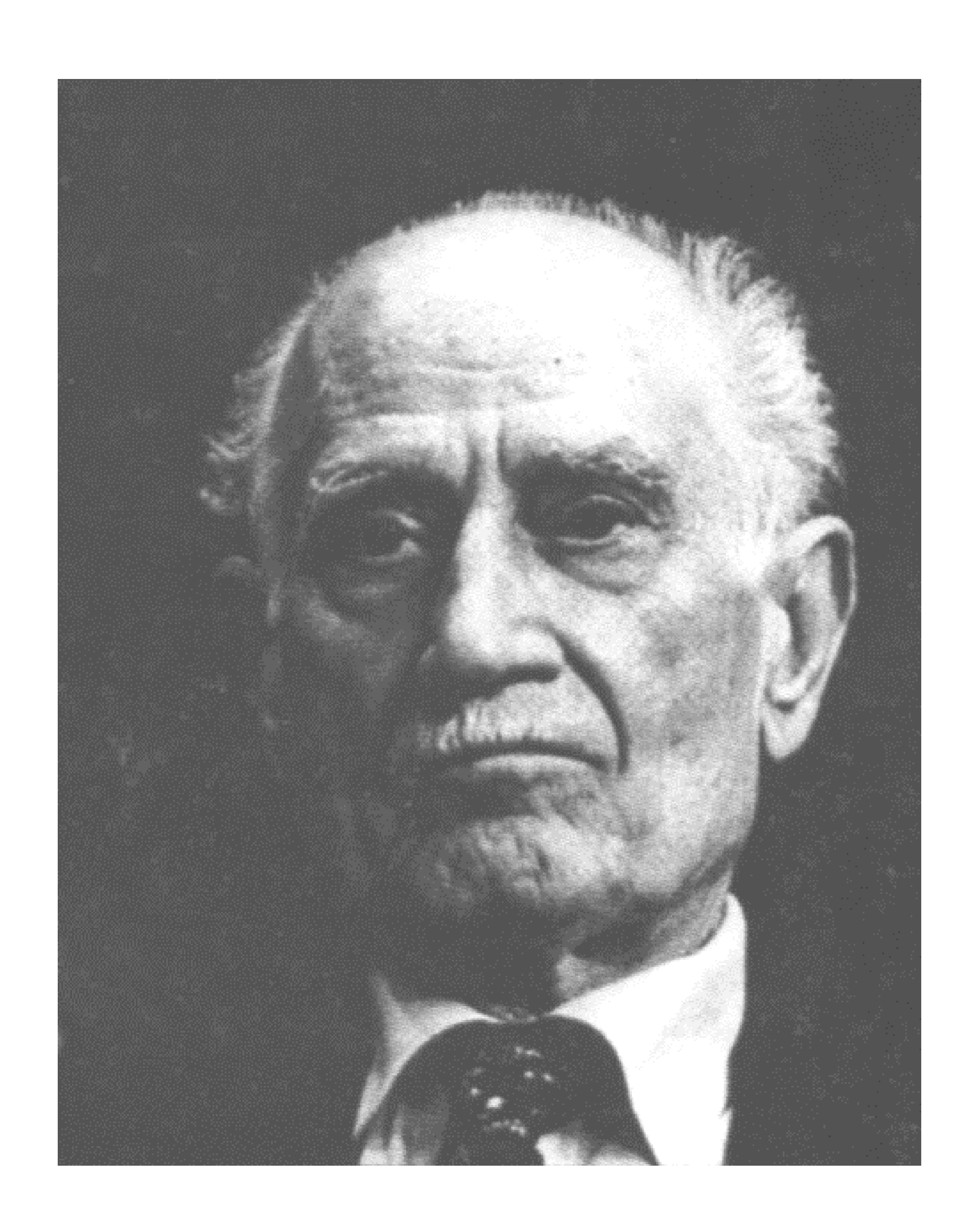
اذن فمن هو الأولى بحيازة الجوهرة يا حضرة السلطان؟ و أقرّ السلطان بحق الوزير في الجوهرة لما أصابه من حيف و بلاء.

المصدر

أشعار وأقاصيص فولكلورية كردية، المجلد الأول جمع و اعداد الباحث: محمد حمه صالح توفيق.

شخصيات كردية

الروائي والصحافي ابراهيم احمد



الروائي والصحافي
ابراهيم احمد (بله)

*ولد في السليمانية عام 1914

*قضى جزءا من حياته في محلة دركزين وجزءا آخر في محلة صابونكران.

*اكمل كلية الحقوق بجامعة بغداد عام 1937، وهو حاكم بين 1942-1944. في العام الذي اكمل فيه كلية الحقوق صدر كراسا عنوانه (الاكراد والعرب) يذكر فيه العلاقة بين الشعبين العربي والكردي وآفاق تعاونهما.

*اصدر عام 1939-1949 وبالتعاون مع المرحوم علاء الدين سجادي مجلة (گلاويژ) في بغداد. هذه المجلة اهدت عصرا ذهبيا للصحافة والادب الكردي كما انقت اللغة الكردية من الشوائب والألفاظ المتنافرة لغويا، ويتضح ذلك بالمقارنة بين الفترتين، فترة صدور گلاويژ، وفترة الشيخ محمود من حيث الاملاء والصياغة.

هذه المجلة رغم كونها وسعت المجال امام المبدعين لنشر نتاجاتهم وايصالها الى الآخرين، الا انها جسر محكم ليطلع الكرد على النتاجات الغربية عن طريق الترجمة، التي كان ابراهيم احمد رائدا في هذه التجربة. وقد نشر فيها، الى جانب اسمه الحقيقي، تحت اسماء مستعارة مثل(بله، ب، هـ ل، ن، ا).

*كان ابراهيم احمد من الناشرين البارزين الكرد، حيث جعل من المصائب الداخلية، نضال الفقراء، الداء البيروكراتي، الوضع السياسي السيئ، حياة المرأة الكردية، سمات بارزة لقصصه ورواياته.

وهناك في قصائده نمط شفاف من الرومانسية وهذا ما نراه واضحا في (يادگارو هيوا-الذكرى والامل) وبعض من قصائده الاخرى.

*اعتقل عام 1949 وسيق الى ابي غريب وفترت ضياء مجلة (گلاويژ) وفي طريقه الى السجن نظم قصيدة (دوا تيرى كەوان).

*كونه مشتغلاً في العمل السياسي قلل من ابداعاته الادبية، وخصوصا عندما كان امينا عاماً للحزب الديمقراطي الكردستاني، لذا بعد ان كتب رواية (ژانى گەل-مخاض الشعب) فقد قلل من ايجاداته. حيث كتبها عام 1956 بعد 17 عاما من كتابتها طبعت.

*كان ابراهيم احمد رغم كونه شاعرا وقاصا وناثرا بارزا ومترجما، صحفيا كفوءا حيث كان صاحب امتياز (گلاويژ) وفي سنة 1958 اصبح صاحب امتياز جريدة (خبات)، واصدر في بغداد، مدة اعوام، جريدة (كردستان).

*نشر اول نتاجاته الادبية في صحيفة (ژيان) سنة 1932 واخيرا نشر (چريكەى كوردستان-) في لندن.

*روايته الاخيرة المنشورة كانت (درك و گول - الشوكة والوردة).

*توفي بتأريخ 2000/4/8 في لندن.

****


سردم العربي
كتب ومجلات
رەشەبای
زەهر و ئەنفال
شيركو بيكه س
بره نگدان
أو
إناء الألوان
ديفيد ماكداول
ميژووی هاوچەرخی کورد
2001
45
2003
رەهەند
سەردەم
27

تأريخ الكرد المعاصر

عنوان الكتاب/ تأريخ الكرد المعاصر

تأليف: ديفيد ماكداول

الترجمة من الفارسية: ابوبكر خوشناو

قراءة: نوزاد احمد



"تأريخ الكرد المعاصر" عنوان الكتاب الذي الفه الكاتب البريطاني (ديفيد ماكداول) ترجم الى اللغة الفارسية سنة 2001 من قبل ابراهيم اليونسي, و من ثم ترجمه الكاتب ابوبكر خوشناو من الفارسية الى الكردية و طبع بجزأين ضمن سلسلة (كتاب التنوير) التي يصدرها مكتب تنظيم الاتحاد الوطني الكردستاني, صدر الجزء الاول عام 2002 في (477) صفحة و الجزء الثاني عام 2003 بـ(462) صفحة, أي مجموع صفحات الكتاب (937) صفحة باللغة الكردية.

"تأريخ الكرد المعاصر" كتب بوجهة نظر كاتب اجنبي, اذ تعمق بنظرة ثاقبة في أحداث قرنين من تأريخ كردستان (القرن التاسع عشر و العشرين), و يعتبر الكتاب جزءاً من تأريخ شعبنا المكتوب بأقلام الكرد و الاجانب من داخل كردستان و خارجها.

يتألف الكتاب من خمسة فصول رئيسة اضافة الى مدخل و مقدمة عامة بعنوان "الهوية الكردية و تركيبتها الاجتماعية" يتناول فيها التركيبة الاجتماعية للمجتمع الكردي و هويته المتميزة, حيث يرى الكاتب ان هناك اكثر من 27 مليون كردي في عموم الشرق الاوسط و يعيش نصف هذا العدد في كردستان تركيا, تعرضوا طوال عدة قرون الى الاضطهاد و سلب اراضيهم و طمس هويتهم خاصة في القرنين التاسع عشر و العشرين, رغم محاولات الكرد في الدفاع عن اراضيهم و خصوصيتهم من خلال مقاومة الاحتلال الاجنبي و الاضطهاد العرقي, الا انهم –كما يرى الكاتب- بدأوا بالعمل كمجموعة اثنية – قومية سنة 1918. و استعملت كلمة "كردستان" لأول مرة في القرن الثاني عشر من قبل السلجوقيين كمنطقة جغرافية واسعة للكرد.

الفصل الاول – او الكتاب الاول كما يسميه المؤلف – (الكرد في عصر القبائل و الامبراطوريات) يتكون من ستة اجزاء, يتحدث الكاتب في الجزء الاول (كردستان قبل القرن التاسع عشر) عن تاريخ كردستان القديم, حيث يبدأ من عهد الفتوحات الاسلامية التي اجتاحت بلاد الفارس و كردستان, مروراً بعهدالصفويين و بعده العثمانيين, و علاقة الكرد بالامبراطوريتين الصفوية و العثمانية و حرب چالديران مع ملوك اردلان, و بعد ذلك تأسيس امارتي بهدينان و بابان.

نقرأ في الجزء الثاني (كردستان في عهد الامبراطورية العثمانية بين سنوات 1800-1850) تأريخ معاناة الكرد في النصف الاول من القرن التاسع عشر و يشرح فيه اسباب ضعف الامبراطورية العثمانية التي كانت مهددة من قبل الامبراطورية الروسية بالدرجة الاولى و خاصة في بدايات القرن التاسع عشر, و لكنها عنيفة في اخماد الثورات و الانتفاضات الكردية. و يتناول في الجزء الرابع تاريخ كردستان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لغاية نشوب الحرب العالمية الاولى سنة 1914, حيث بدأت الامبراطورية بالتفكك و الانحلال تدريجياً مع ظهور حركات شعبية و دينية و قومية التي حاولت الانفصال من الامبراطورية التركية, و يسرد دور الشيخ عبيد الله النهري في افهام الاوروبيين بأن للكرد خاصية متميزة و مختلفة من الفرس و الترك و العرب لذلك يتوجب عليهم النظر الى الكرد نظرة مختلفة. و في الجزء الخامس نقرأ كيفية تولي امراء القاجاريين السلطة في ايران سنة 1794 و دور القبائل الكردية في اضعافهم فيما بعد. و بعد ذلك يتطرف الى احوال قاطني المناطق الكردية في آذربيجان و مشاكلهم مع الارمنيين. و كان لـ(ثورة المشروطة) في ايران عام 1906 دور ملحوظ في منح الثقة بالمدن الكردية كمهاباد و ارومية و سقز و كرماشان, خاصة الكرد في كرماشان الذين هم من اتباع الشيعة الإمامية او من اتباع (اهل الحق). و في الجزء السادس (الثورة و النزعة القومية و الحرب 1908-1918) يؤكد الكاتب ان النزعة القومية و العمل من اجل ترسيخها بدأت عند الكرد قبيل انتفاضتهم ضد السلطان عبد الحميد.

الكتاب الثاني الذي يحمل عنوان: اندماج الكرد او انصهارهم من بين القوميات الاخرى – يتألف من اربعة اجزاء, نقرأ منها: الخطط الجديدة لخارطة الشرق الاوسط و انقسام كردستان العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى و ايجاد حدود استراتيجية في كردستان و المنافسة التي كانت تجري بين بريطانيا و تركيا لجذب الكرد نحو

صـفوفها و دور شـريف باشـا المـؤثر في اشـاعة و ارسـاء الوعي القومي بين المناضلين الكرد و وقوفه ضد انقسام كردستان و السعي مـن اجل الحصول على الحكم الذاتي للمناطق الكردية القابعـة تحت نـير الامبراطوريـة العثمانيـة نتجت عنـه معاهدة (سيفر) عـام 1920 و الـتي بموجبها يتمتع الكرد بالحكم الذاتي و حقهم المشروع بإنشاء دولـتهم المستقلة, و لكن دول الحلفاء تراجعت فيما بعد عـن المعاهدة المذكورة و خاصة من بندي (62 - 64) المتعلقتين بتشكيل دولة كرديـة ضمن حـدود كردستان تركيا اذ ادت الى عقد اجتماع خـاص بـين دول الحلفاء و تركيا الفتيـة في مدينـة لـوزان بفرنسـا, تمخضـت عنــه معاهـدة (لـوزان) بتـأريخ 1923/7/24 الغيـت بموجبهـا معاهـدة سـيفر, و الحقـت فيمـا بعـد ولايـة الموصـل (أو كردسـتان الجنوبيـة) بالدولـة العراقية الحديثة العهد. و في الجزء التالي يتطرق الكاتب الى احـداث و تـأريخ كردسـتان العـراق و ثـورة الشـيخ محمـود الحفيـد في السـليمانية عـام 1920 و ثـورة الشـيخ احمـد البـارزاني في منطقــة بهـدينان, و ينتقـل مـرة اخـرى الى الحديث عن دولة تركيا الحديثـة و مؤامراتها الخبيثـة ضد الكـرد و إخمـاد الثـورات و الانتفاضـات الكرديـة الـتي كانـت تسـتهدف انشاء كيـان مسـتقل, و بعـد ذلـك يتطـرق الى دور الشيخ سعيد پيران و ثورته ضد كمال اتـاتورك عـام 1925 و تشـكيل حـزب (خويبـون) في تركيـا عـام 1927 و ثـورة احسان نوري باشا في جبال ئـاگرى داغ (آرارات) عـام 1928 و اخمـاد ثـورة درسـيم 1935-1938. و في الجـزء الاخـير مـن الكتـاب الثـاني يتنـاول الكاتـب الثـورات الـتي انـدلعت في كردستان ايران بعد الحرب العالمية الاولى حيث يتوقف عنـد ثورة سمكو شكاك ضد رضا شاه عام 1920.

و في الكتاب الثالث نقـرأ عـدة مواضـيع حـول انبـثـاق النزعـة القوميـة في كردسـتان ايـران و انشـاء احـزاب و تنظيمات قومية عديدة, خاصة حـزب (ژ.ك) او جمعيـة انبعاث كردستان بقيادة عبـد الـرحمن زبيحـي, و اعـلان جمهورية مهاباد او دولة كردسـتان الشـعبية عـام 1946 من قبل الزعيم (قاضي محمد) و التي شملت عـدة مـدن من كردسـتان ايـران كمهابـاد و بوكـان و نغـدة و شـنو, و اصـبح القاضـي محمـد رئيسـاً لجمهوريـة مهابـاد, و الـتي سقطت بعد اقل من عام. و في جزء آخر يتطرق الكاتب الى الفترة الزمنية التي ركـدت فيهـا النشـاطات الحزبيـة و الثورية خاصة ما بين اعوام 1947-1978 الى ان قامت الثورة الايرانيـة و تأسـيس جمهوريـة اسلامية شـيعية في ايـران و موقفهـا ازاء الكـرد و انـدلاع الثـورات الكرديـة و الحركات التحررية فيها و تأججها فيما بعد.

يخصـص الكاتـب الفصـل الرابـع –او الكتـاب الرابـع- للثـورات الكرديــة في العـراق في عهـد الحكومــة الملكيــة الهاشمية و الحكومات المتتالية, و يقـف طـويلاً عنـد فـترة حكم حزب البعث العراقي و ماعاناه الكـرد مـن الظلـم و الاضطهاد و الابادة الجماعية و عمليات الانفال و القصـف الكيميـاوي و تعرضـهم لشـتى انـواع الظلـم مـن جـراء وحشية هذا النظام. و اخـيراً مـا نجـم عـن حـرب تحريـر الكويـت مـن انتفاضـات شـعبية عارمـة اجتاحـت عمـوم العراق و انسحاب الدوائر الحكومية من كردستان و انشاء حكومة اقليمية كردية في ثلاث محافظات محـررة و هـي اربيل و السليمانية و دهوك بعد اجراء انتخابات حـرة و تشكيل المجلس الوطني لكردستان العراق.

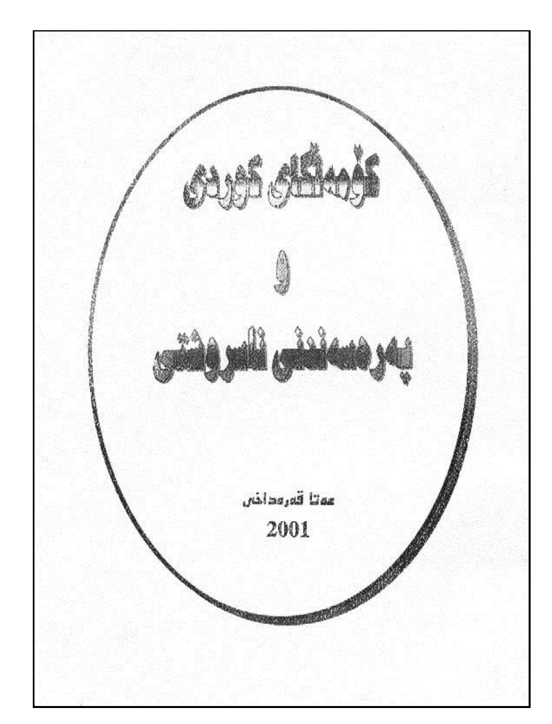
اما الكتاب الخامس و الاخير فهو مخصص لتـوهج النزعـة القوميــة في كردســتان تركيــا و الاحــداث الــتي ادت الى ممارسة اعمال العنف من قبل كلا الجانبين, و دور حزب العمـال الكردسـتاني الفعـال بقيـادة عبـدالله اوجـلان في الثـورة الكرديــة و تعبئـة الجمـاهير الكرديـة و ترسـيخ

الوعي القومي فيها. و اخيراً خصص الكاتب الجزء الاخير للكرد المنفيين الذين هربوا من جحيم البلاد اذ صنفهم الى مجموعتين, المجموعة الاولى اولئك الذين هاجروا الوطن منذ بداية القرن العشرين لغاية عام 1945, و المجموعة الثانية ممن هاجروا منذ بداية الحرب العراقية الايرانية عام 1980 لغاية عام 2000 من جراء الحروب و الاضطهاد و الاعتقالات و الاعدامات التي واجهوها.

****

المجتمع الكردي والتطور اللاطبيعي

- تأليف: عطا قرداغي
- قراءة: دانا أحمد



صدر عن منتدى گلاويژ الادبي والثقافي سنة 2001 كتاب (المجتمع الكردي والتطور اللاطبيعي) للكاتب (عطا قرداغي)، حيث ان الكتاب تكون من ثلاثة فصول:

الفصل الاول عنوانه: دور طوبوغرافيا في تشويه النمو الاجتماعي الطبيعي للمجتمع الكردي)، في هذا الفصل يتحدث الكاتب عن التكوين الجغرافي والطوبوغرافي لكردستان، من حيث كونها تقع بين جغرافيا ثلاثة شعوب اخرى، وهي جغرافيا الوطن العربي والفرس والترك، في وقت توجد في هذه الدول حكومات وادارات بينما بقيت كردستان في فضاء لا اداري، حينذاك استطاعت تلك الدول الثلاث ان تجلب لنفسها المخزون الاقتصادي لكردستان الى بلادهم، ولم تدع ان تكون كردستان ذات مخزون اقتصادي بل حاولت اضعافها على مر السنين، لذلك لم يلعب اقتصاد كردستان أي دور في التنظيم الاجتماعي في هذا البلد.

وفي الفصل نفسه يتحدث عن طوبوغرافية كردستان من حيث تتكون من سلسلة من الجبال المتتالية التي تشبه قلعة في وسط كردستان وباتجاه حدود كردستان هناك نوع من الانحدار بشكل ان دائرة حدود كردستان ارض مسطحة وسهلة للزرع، وهذا ما ادى الى ازدياد عدد السكان في مناطق حدود كردستان منذ امد بعيد، وظهرت المدن في المناطق الحدودية، هذه النقطة من اسباب ضعف الخط الدفاعي في كردستان، فحينما يهاجم جيش منطقة كردستان مهمته قطع الحدود ذلك لتمركز السكان في المناطق الحدودية، فوسط كردستان رغم كونه منطقة جبلية الا انه فضاء فارغ من أي دفاع.

كما يذكر دور الطوبوغرافيا الكردستانية في تقسيم العشائر والقبائل الكردية حيث اوقعت كل واحدة منها

في منطقة منعزلة اخرى وبذلك عرقلت التساوي الاجتماعي. نتيجة هذه العزلة بين العشائر لم يرتق الكرد الى مستوى تكوين دولة عشائرية كما حصل في بعض المجتمعات الاخرى. ولكن على العكس فان طوبوغرافيا كردستان هيأت العشائر الكردية ان تبقى منعزلة عن بعضها. وهذا سبب رئيس لبقاء المجتمع الكردي مغلقا، في وقت كانت المجتمعات العشائرية كونت دولا قبائلية، مقارنة بهذا فان المجتمع القبلي الكردي لم يستطع ان يخلق الدولة القبلية، وهذا نتيجة نمو غير طبيعي.

الفصل الثاني عنوانه: (القبائلية الكردية والعراقيل التي اعاقت تكوين الدولة المؤسساتية)، يتحدث الكاتب في هذا الفصل عن البنية التكوينية للمجتمع الكردي، حيث ان المجتمع الكردي يتكون من القبيلة، العشيرة، ومن ثم يذكر خصائص كل منهما، ويوضح الايديولوجيا والاستراتيجية القبيلة وكيف انها استراتيجية تحافظ على الحدود الجغرافية والمادية والمعنوية بل تضحي بكل ما تملك من اجل قبيلتها ولاتحسب أي حساب للآخر وهذا ما ادى الى خلق المؤسسة القبلية الكردية.

كما يذكر ان الدولة الميدية في التأريخ الكردي القديم تأسست على مبدأ المؤسسة القبلية الكردية، فبعد هذه التجربة لم تستطع القبائل الكردية ان تكون المؤسسات، ويرجع هذا الى وجود حالة غير طبيعية في علاقات الدم والعصب لدى القبلية والعشيرة في المجتمع الكردي، هذه الحالة اللاطبيعية لعبت دورا مؤثرا في بقاء القبائل والعشائر الكردية كوحدة مستقلة مغلقة، حيث تبقى كل فعالياتها في اطارها الذاتي، منعزلة عن القبائل الاخرى فاعاقت وحدتها التي هي ركن اساس لتكوين المؤسسات، فتلك الشرازم القبلية ضعفت الحالة الاجتماعية، تأثير هذه الحالة اللاطبيعية حتى الآن باقٍ في الاحزاب والمنظمات السياسية الكردية التي كل واحدة منها متعلقة ببقعة جغرافية معينة وآفاق ضيقة، تعادل استراتيجية القبيلة ولم تصل الى استراتيجية الوطني. في وقت يجب ان يحمل الحزب في رحمه جنين الدولة، اذ ان الاحزاب الكردية عجزت عن هذا الاداء، بل على العكس هي طامحة الى صون الحدود المعينة والمكاسب المادية والمعنوية.

وفي الفصل الثالث المعنون (اعادة تكوين الوسط الاقتصادي في كردستان)، يتحدث الكاتب عن الطبيعة الاقتصادية، علاقات الانتاج، واسباب الانتاج والتمليك في كردستان، حيث يذكر انه لم يؤسس نظام ذو هوية اقتصادية في كردستان حسب هذا المنطلق فان التكوين الطبقي الاجتماعي تكوين مختلط. ان اقتصاد كردستان كان اقتصادا زراعيا وحيوانيا، الذي كان مبدأ الاكتفاء الذاتي فيه مبدأ ذا صدارة، يكتفي العمل لنيل ضرورات الحياة.

ومن المعروف ان طوبوغرافيا كردستان يتكون من صيف حار وشتاء قارس وعدم الاستفادة الكافية من المياه في كردستان سببت في ضعف الانتاج. عموما فإن الاجواء غير الطبيعية سببت في تكوين التنظيم الاجتماعي غير الطبيعي في كردستان. وفي هذا الفصل يتحدث الكاتب عن ضعف دور الاقتصاد في تكوين الدولة الكردية.

****

ديوان "إناء الألوان" ينطق بلسان الطبيعة الملونة

شيركو بيكەس... سارحاً تحت سماء كردستان

ابراهيم حاج عبدي

بنبرة توشك أن تكون رثاء أو بكاء خافتاً يمضي الشاعر الكردي شيركو بيكەس وحيداً, بالقصيدة و معها الى أقاصي الحزن ولديه ما يقتات به في وحدته تلك. "بيكەس" تعني "الوحيد" بالعربية و هذا ما تنبه اليه الجواهري حين كتب عن والده الشاعر الراحل فائق بيكەس قصيدة قال في احد ابياتها: "بلا احد غير خضر الجبال / و وحي الخيال و صمت الأبد".

لعل بيكەس الابن ادرك هذه الحقيقة باكراً فغمس قلمه في مداد الطبيعة و راح يخط ما تجود به صفحات الوهاد و ضفاف الحياة و حفيف الشجر لتكون هذه هوية لشعره و عنواناً مألوفاً لكل قارئ يطرق باب قصيدة بيكەس البسيطة و العميقة في آن. و على رغم ان القصيدة المترجمة هي "فاكهة مجففة" كما يقول الشيخ عفيف الحسيني, لكن لبيكەس طريقته الخاصة في الحفاظ على القصيدة طازجة و مقروءة في كل حين.

يواصل بيكەس في مطولته الشعرية "إناء الألوان", (دار الآداب, بيروت – 2002) مشروعه الشعري الذي بدأه في نهاية الستينيات مع ديوانه الأول "ضياء القصائد" فمنذ ذلك الحين وقد تجاوز عدد دواوينه الآن عشرين ديواناً يسعى الشاعر الى التقاط اللحظة الشعرية من خلال تجربته الفردية التي اكتسبت مساراً متفرداً بحكم انتمائه الى ارض مثخنة بالجراح و مفعمة – على رغم ذلك – بأمل لا يني يولد من رحم المأساة و ينمو على اغصان اليأس.

إن قصيدة بيكەس بهذا المعنى هي في بنيتها احتفاء بالطبيعة الساحرة المتنوعة و هي في جوهرها نتاج لجغرافية قلقة و تواريخ دامية. و هو اذ يراقب كل هذه الأهوال و يعيشها لا يجد سبيلاً اخر الى التغلب عليها او تجاوزها الا بالشعر الذي يأتي اشبه ببوح حزين, و اقرب الى نشيج متواصل لا ينقطع مثلما لم تنقطع مأساة شعبه الكردي, فراح الشاعر يوظف هذا الغبن او الظلم الذي لحق به و بشعبه "ليرتقي" بالمأساة شعرياً عبر نزعة انسانية تتجاوز حدود معاناته الفردية و معاناة ابناء شعبه لتحتضن الألم الإنساني في جميع الأزمنة و الأمكنة. و من هنا, علاوة على اسلوبه الرقيق و صورته الشعرية المتألقة احتل بيكەس مكانة بارزة في خريطة الشعر العالمي المعاصر فترجم شعره الى مختلف اللغات, منها الإنكليزية و الفرنسية و الألمانية و السويدية و النرويجية و الدانمركية و المجرية و الفارسية و التركية, فضلاً عن العربية حيث ترجم له اليها خمسة دواوين هي: "مرايا صغيرة, و مضيق الفراشات, و ساعات من قصب, و نغمة حجرية, و سفر الروائح", و كذلك ديوانه الأخير "اناء الألوان" الذي نحن في صدده. و على رغم اتقان الشاعر العربية و نهله من الثقافة العربية و تراثها الزاخر لكنه يؤثر الكتابة بالكردية تحديداً.

يأخذ الشاعر على عاتقه في هذا الديوان الجديد مهمة عزف الألوان فيدخل قاموس اللون و يسرد في ما يشبه الرواية الشعرية مزايا اللون و سجاياه و مثالبه. فمثلما للأشجار و الأطيار و الأنهار و الورود و المدن و القرى و وجوه البشر الوانها المادية المحسوسة, كذلك فإن للموت و الحب و المأساة و الغربة و الحنين و الفراق و الفرح و البكاء و العزلة. الوانها المجازية التي تستقر في صفحة الذهن و الخيال لتتحول في لحظات وحي نادرة الى صور شعرية آسرة, لابل ان معرفة اللون الحقيقي للأشياء المادية المحسوسة تأتي في اعتقاد الشاعر بالمران و الخبرة و التجربة. فاللون لا يعرف الحياد او في الأقل هذا ما يراه الشاعر من ان لكل لون ايحاء معيناً و دلالة محددة: "ليس في مقدورك ان تعرف الأحمر و ان تدرك اسراره / او ان تقرأ الدماء ان لم تعرف ارض بلادي! / و لن يكون في مقدورك التعرف على لون الوحدة و لون الكرد / او ان تقرأ التجليات الإلهية / إن لم تدرك الغربة و العزلة و غروب الألوان".

و حين نقول ان بيكەس يتمتع باسلوب متفرد في الكتابة, فذلك مرده الى لغته المتدفقة الهادرة حيناً و الهادئة احياناً, لكنها و في جميع الأحيان تشبه اللوحة التشكيلية, فقوامها الكلمة المكتوبة التي تكاد تنطق بصخب الطبيعة و فورانها. فهي تخبئ في ظلال مفرداتها طبيعة كردستان المزركشة و الموشاة بعبق الحياة بكل ما تحفل به هذه الحياة من المرح و الرحيل و المعاناة و الأمل و الحب و لا يقف الأمر عند هذا الحد, بل ان الشاعر يسبغ على كل ذلك وشاح المخيلة الخصبة و رهافة الحلم المشتهاة لتأتي القصيدة مزيجةً من هذا و ذاك تروض الأمل المؤجل و تخفف في الآن ذاته من سطوة الموت و القتل المباح "سوف ابقى في النهارات المشمسة و الصافية / شاخصاً حتى زمن بعيد / تمثالا على شارع المستقبل / اتابط حقيبتي و اوجه بسمتي الى الجبال.

و على رغم ان مناخات القصيدة تتشابه و تتقارب, تلك المناخات التي لا تستطيع مبارحة ما يعتمل في نفس الشاعر كذات تعاني العزلة و الم الفقد و تتوق الى الحرية, لكن قصيدته على رغم هذه السمة الذاتية الوجدانية تنقل ما في الذاكرة الجمعية للكرد و تراثهم الغني بالأساطير و الحكايات و الميثولوجيا مع كل ما يحفل به هذا التراث من الثراء و الزخم, و كذلك يتكئ الشاعر على شذرات من ثقافات الشعوب كتأكيد لنزعته الإنسانية التي تقود الشاعر الى البحث و تقصي الهواجس في تجربة المبدعين من امثال لوركا, و بوشكين, و نجيب محفوظ و ديستوفسكي وجان جينيه و سواهم: "كم نحن من بعض دناة/ يرتعد لون جان جينيه برداً/ في احد شوارع باريس / و معطفي هنا يشعر به ويرتجف / في ضفاف النيل / تطعن احدى السكاكين / رقبة رواية اولاد حارتنا / و هنا يرتجف محمد الصغير صباغ الأحذية /في مقطع من مقاطع اشعاري" ان قصيدته تسيل كجدول ماء رقراق تشيع في النفس حبورا لكنها تترك خيطاً رفيعاً من الالم و تقلب صفحات الخيبة و ما اكثرها, لتفتح امام الذاكرة قلقاً مقيماً و اسئلة موجعة لا تتلاشى طالما كان في الارض طغاة يبنون صروح المجد الزائف بدموع الجياع و آلام المضطهدين "اذا انتحب طفل بين الوان الجوع / في اي زاوية من الدنيا / فان احد براعمي يبحث عن لقمة بفمه هنا / و تبتل وجناته بالدموع/ و اذا قتل احدهم بين الوان المظالم/ في اي زاوية من الدنيا / فان حديقتي البيضاء تشهق نفس التحسر/ و تغمس قامتها في الاحمرار".

بيكەس هو "لسان الطبيعة الكردستانية في حال تفجرها و تفتحها و تماهيها مع التأريخ" كما شاء ان يصفه مترجم الديوان (شاهو سعيد) و هو وصف دقيق يفصح عن سيماء شاعر استطاع المواءمة بين القول و الممارسة, بمعنى ان بيكەس في كل ما كتب و دوّن ينطلق من خصوصية الأرض المترعة بالآلام التي وجد نفسه بين تضاريسها, و ما اصعب مهمة الشاعر وسط الحرب! لا سيما اذا كان هذا الشاعر يمتلك حساً عميقاً يمنعه من تجاهل ما يري بأم عينه وهو يقترب في هذا المنحى من شعراء كبار مثل ناظم حكمت و محمود درويش و السياب و بابلو نيرودا و الشاعرة غابرييلا ميسترال و سواهم. و ربما لهذا السبب و لإرتباطه العميق بالجذور و الأرض و التأريخ تمكن من ان يجد قراء لقصيدته في كل بقاع الأرض.

*جريدة (الحياة), العدد (14681) - 2003/6/4.

****

رياح
السموم والأنفال

اسم الكتاب: رياح السموم والأنفال

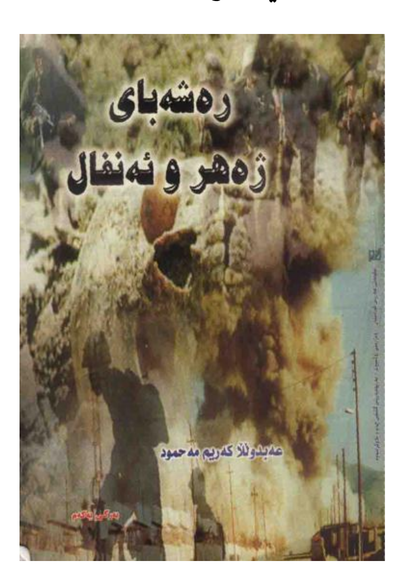
المؤلف- عبدالله كريم محمود

اصدار- المديرية العامة للطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة في اقليم كردستان العراق/السليمانية

سنة النشر: 2002

قراءة: كاروان أنور

المأساة.. جزء من تاريخ الكرد, والكوارث الكبرى تحتل جزءا آخر من تاريخ هذا الشعب الذي طالما عاش تحت وطأة حكم المعتدي والاجانب الذين لم يرحموا ولم يتوانوا يوما ما في قتله ونهبه وايجاد السبل التي تقتلع جذوره.. لكن بصلابة جباله



وقسوة طبيعته استطاع الكرد ان يقاوموا هذه الريح الصفراء ويبقوا كشوكة في عيون محتليهم..

حيث لم يساندهم سوى العزيمة الشماء والقدرة اللامتناهية على تواصل النضال والاستمرار في ثورة عمرها اكثر من نصف قرن.. مع هذا لم يبخل الشعب الكردي في الفداء والتضحية مما أثار الدهشة والحيرة لدى اعدائه الذين استخدموا ضده أرقى أنواع التكنولوجيا لإبادته, وأشرس الحروب, من بينها الحروب النفسية.. هذا ناهيك عن حملات التطهير العرقي منذ عقود من الزمن والابادة الجماعية المتمثلة في(الجينوسايد) والأسلحة التي حرمت دوليا.. مع هذا وذاك بقي الشعب الكردي في أرضه وبدأ اليوم يعمر ما دمرته تلك الحملات والحروب اللاإنسانية..

هذا الكتاب الذي نحن بصدد قراءته اليوم لمؤلفه او بالاحرى فلنقل لمعده السيد عبد الله كريم محمود, كتاب وثائقي تاريخي يدون حقبة سوداء ومأساوية من عمر

هذا الشعب, يبدأ الكتاب بتعريف شامل لعمليات الأنفال والغاية من هذه الحملات.. ثم يأتي الكاتب على ذكر مراحل الأنفال ومواقعها منذ العام 1963 والمجازر البشرية والاعدامات الجماعية, كما ذكر الكتاب حملات الترحيل الجارية بحق الكرد الفيليين والبارزانيين وتدمير القرى والمدن والقصبات الكردية منذ بدء الثورة الكردية المسلحة وهكذا خلال سرد تاريخي سريع وصل الى قمة المآسي الكردية المتمثلة في قصف مدينة حلبجة بالأسلحة الكيمياوية اضافة الى القرى والقصبات الأخرى التي تعرضت الى الغازات الكيمياوية, استشهد الكاتب في موضوعاته بوثائق وخرائط وعدد الألوية والمفارز المشاركة في تلك العمليات مما يثبت تاريخيا هول الجريمة من حملات الأنفال الأولى والى نهايتها-الثامنة-، حيث يصور الكاتب تلك الحملات بلغة قصصية مليئة بالفواجع ومدعمة بالأرقام والاحصاءات والوثائق بحيث يجعل من القارئ ان يتابع تلك الأحداث بشغف.. لان لغة السرد دامغة وتجعل القارئ يتصور بأن كردستان في تلك الحقبة كانت كتلة من النار واللهيب ومر الكرد فيها بأخطر مراحلهم التاريخية..

يبدأ الكاتب في الصفحة 25 بعرض جدول للقرى وعدد الضحايا التي شملتهم حملة الأنفال الثامنة في منطقة بهدينان وعددهم 13 ألف شخص وتدمير 775 قرية مع ارقام واحصاءات قديمة وحديثة لتلك المناطق. خصص الكاتب فصلا للحالة التي يمر بها بقايا المؤنفلين.. ثم يأتي على فاجعة حلبجة في 1988/3/16 ويبدأ بعرض تاريخي لتلك المدينة المفجوعة وما جاورها من هورامان وشهرزور ويأخذ من اقوال من رأى الفاجعة هول تلك الكارثة اللاإنسانية معتمدا على تلك الوثائق التي استولي عليها بعد الانتفاضة واثنائها. ويدخل الكاتب في تفاصيل تلك العمليات والغاية الاستراتيجية البعيدة المدى منها وانواع الغازات المستخدمة في حينها وبقايا تأثيراتها الى اليوم..

هذا الكتاب يسلط الضوء على صناعة الاسلحة الكيمياوية في العراق والانواع التي انتجتها مصانع الاسلحة العراقية والدراسة التي اجريت فيما بعد على المصابين بتلك الاسلحة.. وظهرت في الكتاب وثيقة بإسم الخبراء الاجانب الذين شاركوا العراق في تصنيع تلك الاسلحة الفتاكة, وفي المقابل ذكر القصص التي حدثت اثناء الفاجعة الكيمياوية لحلبجة وعرض صورا دامغة تثبت حقيقة تلك المأساة والحالة الهستيرية التي احدثتها هذه الغازات الكيمياوية وتلك الغازات التي كان لكل واحد منها تأثير بحيث يختلف عن تأثير غاز آخر وتلك الحقائق مأخوذة من أقوال الشهود الذين نجوا بأعجوبة من تلك الكارثة التي اصبحت مفتاحا لفضح تلك الجرائم المرتكبة بحق الكرد. وذكر في الكتاب اقوال الصحف والوكالات العالمية في تلك الفترة عن هذه الكارثة. بعد ان يكشف الكتاب فاجعة حلبجة ومآسيها يعود الكاتب في الصفحة 90 الى المفارز التي بقيت في كردستان اثناء حملات الأنفال وبعض القادة من بيشمركة الاتحاد الوطني الكردستاني منهم الشهيد آزاد هورامي والشهيد محمود مامه عهزه، حيث كانت تلك الحقبة تاريخية وبطولية في تاريخ الحركة الكردية بأكملها, وهناك مقتطفات وقصص واقعية يقشعر لها البدن, استخدمها الكاتب من مقابلات صحفية مع من عاشوا تلك الفترة المظلمة ودونوا أحداثها اما بالصور او في مذكراتهم اليومية.. ورد في الكتاب قصص الشهداء الذين ضحوا بأغلى ما عندهم ومنهم الشهيد حسن كويستاني والشهيد حمه رش وغيرهما من الشهداء الأبطال. هذا

الفصل المختص بالمفارز التي بقيت تناضل وتحارب العدو فيه الكثير مما يثبت صلابته وعزم الكرد على مقاومة الغزاة والطامعين في حين كان العدو وجيشه يعدان من اقوى انظمة العالم المدعمة من قبل الشرق والغرب وجيشا من افتك جيوش العصر الحديث ولكن هؤلاء الرجال ضربوا بتلك الحقائق عرض الحائط وحاربوا بسلاح افتك واقوى الا وهو سلاح الايمان والعقيدة وهذا لا يوصف بالكتابة وانما بالقراءة المتأنية لهذا الفصل يجعل من قارئه ان يتيقن بأن الكرد لهم عزيمة لا تلين وخير شاهد على ما اقول هو هذا الفصل الذي لم أقرأه في كتب الثورات والحركات للشعوب الاخرى, هذه المقاومة لم تكن أقل شأنا من مقاومة الفيتناميين واهل كوبا وشيكاغو ولكن مع الأسف لم تدون تلك الاحداث بالشكل المطلوب. واصبحت الحقائق مدونة فقط في صدور وذاكرة من عايش تلك الحقبة, فأسطورة الشهيد ريباز ورفاقه البيشمركة تكمن في طياتها مئات القصص البطولية التي رفع عنها الستار الكاتب عبدالله كريم محمود من خلال البحث والمتابعة المتأنية عن الحقائق فقدم خدمة للتاريخ الكردي بكشف النقاب عن تلك البطولات الفذة.. وفي سرد حقائق تلك الفترة ايضا سلط الاضواء على جوانب مهمة من حياة الشهيد غريب هلدني الاسطورة الاخرى من اساطير الاتحاد الوطني الكردستاني وملاحمه البطولية التي يقف التاريخ حائرا امام ما قدمه هذا البطل ورفاقه..

لم اتصور من قبل بأن الطاقة البشرية بمقدورها ان تقدم كل هذه العجائب والفداء في سبيل انجاز الواجب الوطني.. ولكن في متون هذا الكتاب(رياح السموم والأنفال) يحصل المرء على عظمة الانسان الكردي وكبريائه وتضحياته ودناءة اعدائه وجبروتهم على الشعب الآمن والنساء والأطفال, فهذا الكتاب شبيه بفيلم تاريخي حقيقي يكشف النقاب عن مقاومة شعب مظلوم لأشرس أنواع الشر وألد أعداء الانسانية.. فمن لا يقرأ هذا الكتاب لا يصل الى الحقيقة التي اريد البوح بها.

لا يبقي الكتاب أدنى شك لاثبات الحقائق التي وردت في متنه وذلك من خلال الوثائق والافلام والصور التي حصلت عليها قوات البيشمركة اثناء الانتفاضة الخالدة منها الكاسيتات التي سجلت اثناء اجتماعات قادة حزب البعث واعترافات علي حسن المجيد بإستخدامهم للأسلحة الكيمياوية وحملات الأنفال بالتاريخ والصوت والصورة.. حيث يتلمس القارئ من تلك التهديدات ما كان ينتظر الشعب الكردي من قبل جلاوزة وسفاحي العصر الحديث..

حصل الكاتب على العديد من صور الشهداء واسماء العديد من الضحايا، حيث دونها كوثيقة تاريخية لا تقبل الشك والريبة.

اختتم هذا الجزء من كتابه بفصل عن الأنفال ومأساة الكرد باللغة الانجليزية كمصدر مهم لمتابعي وباحثي الأنفال ممن لا يجيدون اللغتين الكردية والعربية.. خصص نصف كتابه هذا للوثائق والكتيبات الرسمية لرؤوس النظام واسماء الشركات الاجنبية التي ساعدت النظام, فالوثائق تنطق وحدها كدليل دامغ على صحة ما قيل في متن الكتاب. هذا الكتاب جدير بالقراءة للباحث والقارئ، وهو تدوين جزء من تاريخ الكرد بشكل وثقائقي, حيث يظهر من خلال ما جاء فيه بأن المعد عبدالله كريم محمود جمع من خلال البحث وتقصي الحقائق وبالتالي انتج شيئا مليئا بالحقائق والوثائق واغنى

به المكتبات الكردية الفقيرة.. أرجو التوفيق والنجاح للكاتب عبدالله كريم محمود ونحن بإنتظار نتاجاته الاخرى والمضي في سبيل اظهار كلمة الحق وكشف تلك الحقائق التي بقيت كامنة في الصدور..

****

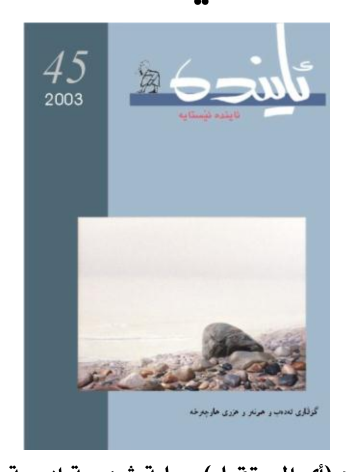
رهند



صدر مؤخراً العدد المزدوج (14-15) من مجلة (ڕەهەند) وهي مجلة فصلية فكرية تصدر عن مركز "رهند" للدراسات الكردية في اوروبا وكردستان في وقت واحد, تنصب اهتماماتها بالدرجة الأساس على الدراسات الفكرية والفلسفية والسوسيولوجية والتاريخية والنقدية بالمناهج العلمية الحديثة من خلال قراءتها للواقع الثقافي الكردي. تتألف هيئة تحريرها من نخبة من المفكرين الجادين ويهتم كل من جانبه بحقل أو أكثر من الحقول المعرفية.

يحتوي هذا العدد المزدوج على المواضيع الآتية: المعاني السوسيولوجية والسياسية للإنترنيت للكاتب آراس فتاح, الجزء الثاني من دراسة مطولة بعنوان (الهجرة نحو اللامكان) للكاتب بختيار علي, العلمانية والدين بقلم الكاتب مريوان وريا قانع, الهرمينوتيكا و ممارسة القرءاة والكتابة بقلم دارا محمود, بعض من لحظات الواقع – للمسرحي دانا رؤوف, حوار مع الدكتور يوسف سلامة اجراه صلاح احمد, حوار مع الدكتور محمد اركون اجراه هاشم صالح ترجمه نوزاد احمد اسود, لقاء مع الدكتور فالح عبدالجبار اجراه آرام سعيد, مقال بعنوان - قراءة للأقنعة الفلسفية للاسلام السياسي- بقلم بختيار علي . وفي باب (المرايا الصغيرة) كتب آرام كاكي فلاح عن رواية (مرابي الغزلان المقتولة) للقاص والروائي شيرزاد حسن, وكتب دلزار حسن انطباعاته حول (سفرنامه) للشاعر والروائي هيوا قادر, وثمة دراسة عن واقع المرأة الكردية بقلم روناك فرج إضافة الى مواضيع اخرى.

آينده

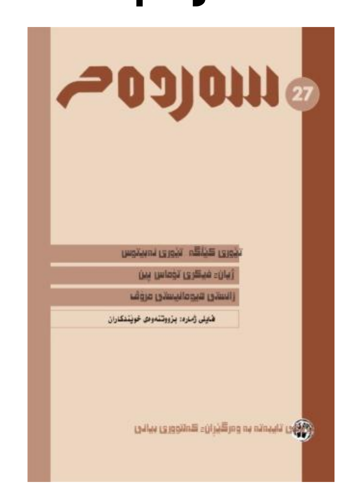


آينده (أي المستقبل) مجلة شهرية ادبية وثقافية عامة تصدر عن دار سردم للطباعة والنشر, رئيس تحريرها الشاعر دلشاد عبدالله, صدر مؤخراً العدد(45) من المجلة وتحتوي على المواضيع الآتية: العلمانية وأزمة

مجلة سەردەم (أي: العصر) وهي مجلة مختصة بالدراسات الفكرية والفلسفية والسوسيولوجية والادبية المترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة الكردية, يرأس تحريرها القاص رؤوف بيگرد وتصدر كل شهرين مرة عن دار سردم للطباعة والنشر , صدر مؤخراً عددها الـ(27) وتتضمن المواد الاتية: سقوط القيم: مقدمة بقلم رئيس التحرير, وفي باب الفكر والفلسفة نقرأ: مقدمة حول حياة وفكر توماس بين ترجمه شوان احمد, نظرية الحقول نظرية أبيتيوس ترجمة عادل باخوان, جدلية المجتمع والفرد للكاتب الدكتور فيصل سعد ترجمتها من العربيةالآنسة روشنا احمد. وفي باب النقد والدراسات: الهجرة والتسامح و عدم التسامح للكاتب الايطالي امبرتو ايكو ترجمه عن اللغة الايطالية ياسين فقي سعي, حول علم الانسان لأريك فروم ترجمه عن اللغة الانكليزية عبدالله سيويلي, حوار مع الروائي الياباني هاروكي موراكامي ترجمه شيدا صلاح, وفى باب ادب الشعوب نقرأ قصة بعنوان- ذات الشعر الطويل- لهاينرش بول ترجمها رؤوف بيگرد , وقصيدة بعنوان- منذ الآن لست وحيداً- للشاعر الايراني أحمد شاملو ترجمها فريدون بيوار, وقصة –الصدمة الثانية- للقاصة الهندية زكية بلكرامي ترجمها هورامان وريا قانع. وثمة ملف خاص حول الحركة الطلابية يحتوي على ست مقالات منها : مسألة العنف والعصيان الراديكالي لهربرت ماركوز ترجمة ريبين هردي , ثوري متطرف يراجع فكرة الثورة نادماً عنها لجورج طرابيشي ترجمة رؤوف بيگرد ثورة ايار 1968 شهر الثورة في فرنسا ترجمة عن الانگليزيه آوات احمد, ماركوز والثورة للكاتب الدكتور فؤاد زكريا..

القدسية أو المقدس بقلم آزاد قزاز , نظرة حول شكل الانسان في اللوحات التي رسمها الطفل بقلم فرزاد حسن زاده ترجمة شهلا حسن زاده, سفر العشق سفر الجنون دراسة نقدية تطبيقية للناقد نوروز شوكت , برقية من ره شه البوليس للمخرج المسرحي الكردي حسين ميسري, ونقرأ أيضاً قصتين الاولى للشاعرة والقاصة نجيبة احمد والثانية لكراهام كرين ترجمها عن الانكليزية علي عثمان يعقوب , ومسرحية بعنوان (حرب الغرف) للمسرحية گزيزه عمر علي, حوار مع الشاعر الايراني رضا جايجي , قصائد للشعراء : د.فرهاد بيربال, كريم دشتي , عبدالمطلب عبدالله, روژ هلبجيي, دانا عسكر, خليل حسن. وهناك مقال بعنوان (الشعر أبداً) للشاعر العراقي المعروف سعدي يوسف كتبه عن شعر الشاعر الكردي شيركو بيكەس ترجمه حسن ياسين, وحوار مع المخرج الكردي العالمي الشهير (بهمن قبادي) حول السينما الكردية اجراه آكو كريم و سلام مصطفى, وفي باب عرض الكتب وابواب اخرى نقرأ مواضيع ادبية وثقافية عديدة.

سردم



الديمقراطيـة والحركـة الطلابيـة حـوار مـع اليسـاريين ترجمة من الفارسية ريبين هردي.

وفي باب محطات سردم ثمة مقالات قصيرة مترجمة كـ" السقوط الاخير لجان دمو" بقلم عبده وازن ترجمة نوزاد احمد, نيتشة والفاشية ترجمة شوان احمد، قـراءة كتاب الديمقراطية من الجانب التـاريخي والنظـري, مـهم بورهان قانع، حلم للشاعر فرنانـدو بيسوا وحلم للقاص انطـون تشـيخوف, كيـف انحرفـت الحداثـة عـن مسـارها بقلم هاشم صالح، ترجمة احمد فاتح محمد.

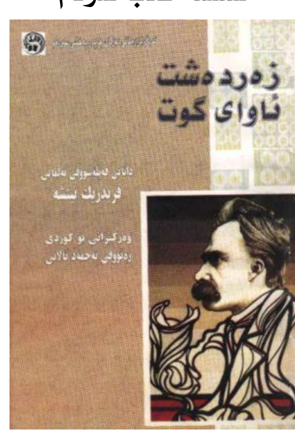
****

من اصدارات دار سردم للطباعة والنشر

سلسلة كتب سردم

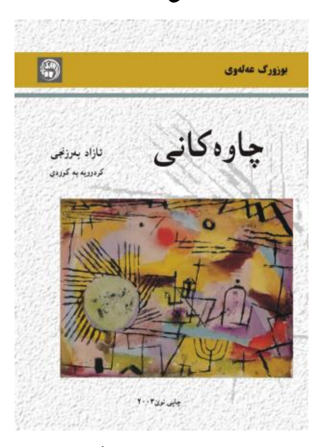


حوار مع ادونيس

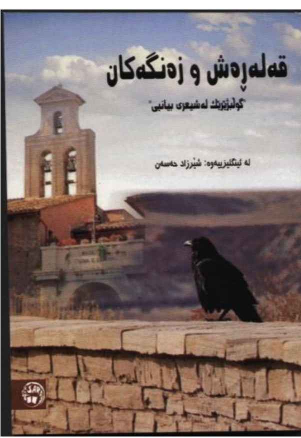


هكذا تكلم زرادشت– نيتشه

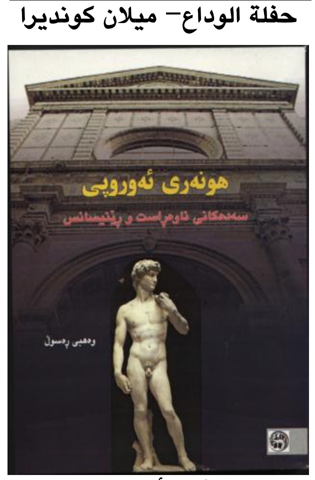
حفلة الوداع– ميلان كونديرا



عيونها– للروائي بزرگ علوي



مختارات من الشعر الانكليزي



الفن الأوروبي

محطات ثقافية

- من سذاجة الأشياء الى الحكمة– حول معرض اسماعيل خياط
- نافذة للمشاهدة– حول فيلم (اغنية الوطن الأم) للسينمائي الكردي (بهمن قوبادي)
- (مروا من هنا) عرض مسرحي لفرقة (ناجين)
- اكراد العراق ليسوا "مكسر عصا" لأحد.
- البنية التشكيلية للصور الشعرية عند الشاعر (بلند الحيدري)
- رسالة من كاتب امازيغي



من سذاجة الأشياء الى الحكمة

(حول معرض للفنان اسماعيل خياط)

الفنان منهمك في عمله, يريد ان يرسم شكلاً يشبهنا تماماً, فهو يرسم نموذجاً مصغراً, لمأساة الكورد في الأنفال, و هو احساس لذيذ دافئ يمتلكه لينقل الينا الصورة المعاشة, انه المسؤول الأول و الأخير لعملية الابداع في وجوهنا, التي لم نعقد ان نراها الا في المرآة, و بقدر ما تكون الروح متشظية, تبقى الصورة أوضح, داخل النفس.

يرصد الفنان (اسماعيل خياط) كل ما هو هامشي و ينقل الينا من خلال هذه الأشياء العديمة الفائدة, وجوه تبرر وجودها, التي تحتل معرضه الأخير في (متحف السليمانية) الوان دكناء لم أعرف كنهها, ولأنه يلتقط الجمال من الهامشي, و تكمن في القبح لديه "الاستاتيكيا" و بهذا يؤدي رسالته.

كل الألوان تشير الى المأساة, كل الوجوه تؤدي تدحرجها, و تذهب الى نفس النقطة العدم, و كأننا آتون من فراغ و ذاهبون الى الفراغ, و بما ان السيرورة هي نقطة الصفر, نتعرف اليها في شكل من الأشكال الهندسية, و هي الدائرة, نقطة البداية هي النهاية, و لأن العدم هو الحياة, و الحياة تنتهي في حاجز العدم, فالأشياء متداخلة و متشابكة, و عبر مراحل استدارة الوجه و تعرجاتها يضيق الجسد من حز الروح.

ضيوف المعرض, بكرة خيطان استهلكت ارتباطها و تواصلها و توزعت على الوجوه لتطرز الكثير من العيون, أكياس نايلون مختلفة الأحجام و المقايس, ضلت الطريق الى القمامة, فوجدت نفسها, وجوه تحاكي نزف الألم المتواصل, البلاهة و التسطح يتحول الى تنوءات نافرة بين يدي الخياط اللتين تمتازان بالنشاط و الذكاء, الكثير من التعابير و الدلالات الحية, ترمز بالدرجة الأولى الى وجودنا المتوارث.

جرائد ممزقة لم تلق العناية من القراء, فاحتكلت هنا رؤية بصرية بدلاً منا, قطع بلاستيكية, أكياس خيش, ابر انهت عملها في الخياطة و لم تحضر المراسيم, قرطاسية, اكياس اسمنت كل هذه الأشياء التافهة تحولت الى انفعالات, لإبراز الوجه الجميل, للأشياء و في ارتقاء هذه العناصر البسيطة, تظهر بوضوح الألفة و التناسق بين الوجوه, و الفنان وحده يعي هذه الأشياء, و من السذاجة الى الحكمة.

علماً ان المعرض افتتح بتأريخ 2003/5/12 في قاعة (متحف السليمانية) من قبل دار سردم للطباعة و النشر.

جان بابير

نافذة للمشاهدة

بعــد فيلمــه الأول "الخيـــول المخمورة" تم عـرض فـيلم "أغنيـة الوطن الأم" في السليمانية في سينما سيروان و حضره جمهور كبير مـن المهـتمين بـالأدب و الفـن, و بحضـور المخرج (بهمن قبادي).

تفتتح شاشة العرض, على وجه رجـل ينـاهز الأربعـين مـن العمـر, ملامحه القاسـية و تقاسـيمه, تشـير الى الجبال, التي ينتمي اليها, و تظهر مـن فـوق الرجـل, الجبـال وجهـه الثاني و انعكاسه الحقيقي للإنتماء, انتمـاء الصـخر الى احضـان الجبـل, يرتدي الرجل نظارة لافتـه بألوانها و شـكلها المميـز. يقـود دراجـة ذات ثلاث عجلات. نافخ المزمار "المغني", له ارتباط حميم مع تلك النظارة, و احيانـاً يسـتبدلها بـأخرى سـوداء, و تظهر في الشاشة الحياة الريفية بكل قسـاوتها, و تنتقـل الكـاميرا بشـكل سـريع بـين اعمـالهم اليوميـة, و هـم يقطعون "اللبن" و يسكبون الوحل في القوالب الخشبية, و الحركة شبه آلية و الناس في الأرياف بسطاء و هم يتقنـون كـل ذلـك بسـرعة, اعـادة الترميم, تحضير مواد البناء و تنتقل المشـاهد, تتحـرك زاوية الكاميرا مـن مكان لآخر لترصد كــل حركـــة, في النهايـــة تشـــكل لوحـــة "اغنيـــة الـوطن الأم", هــذا الرصـد و المراقبـة الدقيقة مرسوم و مخطط له بعناية فائقة.



الــزمن, الحـــرب العراقيـــة – الايرانية, المكان كردستان مخيمات اللاجـئين, المشـاركون في التمثيـل.. ليسوا ممثلين, الكومبـارس غالبيتـه نساء و أطفال و إضاءة بعيـدة عـن الأستوديوهات, و الديكور – طبيعـة, ندخل اطار لوحة الله البيضاء, البقع السـوداء الـتي تتحـرك في وسـط البيـاض, و الشخوص, مـداد انسكب عمداً, ليميز اللوحة و يحدد ابعادها, الاتجاهــات مفتوحــة كلــها علــى البياض, اسقط المخرج بهمن قبـادي الرمز اكثر من مرة, في هذه الـدراما الموجعـة, قـرى مهجـورة, انقـاض, مقـابر.. مقـابر.. نـواح نسـائي, انعكاس مـرآة الدراجـة علـى وجـه الفتـاة, و رسـم القلـب بشـكل في الانعكـاس الضـوئي, يظهـر بوضـوح الحـب علـى وجهها, ربمـا يفسـره مشـاهد آخـر, بطريقـة مختلفـة, الطـائرات الورقيـة, الـتي ترمـز الى الطـائرات الحقيقيـة, الـتي دمـرت قراهم و شـردتهم, حـوار المغني مع ظل انثى, الفناء الذي يفوح بالحزن.

حيـث زمـن الحـرب, الأمـن و الاستقرار منعدمان, و يرمـي الامـن بختمـه المعمـول الى اقـرب مزبلـه, فتكون الفوضى سيدة الموقف, و هي الـتي تقـود دفـة الأمـور, فيتعـرض الثلاثي الموسيقي, قارع الدف, الزمار "المغني" صاحب الكمنجة, للصوص و قطاع الطرق, يفقدون فيه وسيلة النقل –الدراجة- و لا ينتهي الأمـر هكـذا, بـل يصـل بهـم ان يأخـذوا

الأسنان من فم المغني, مساحات شاسعة من الثلج, الأرض و السماء متحدتان في البياض, صفير الهواء يتلو الترقين, على اجساد الضحايا, وسائل نقل محترقة, قافلة من البغال و الأحصنة, تنقل المواد عبر الحدود, كأن المخرج يطل علينا من خلال الصور, او يدعونا الى معرضه, و ينتهي الفيلم بحمل المسن صاحب الكمنجة, الطفلة الضائعة على ظهره و اجتياز الأسلاك الشائكة, (الحدود) و كأنهما وجدا خطأ هناك ليشوها لوحة الله الخالدة البياض و تنطفئ الأنوار و تضيء على صخب الجمهور.

جان بابير

مروا من هنا

-عرض مسرحي في السليمانية-

قدمت جمعية "الناجين "مسرحية بعنوان "مروا من هنا" و ذلك بتأريخ 2003/5/20 على قاعة السليمانية, و الجدير بالذكر ان المجموعة قامت بعرض هذه المسرحية "البانوراما" مثلما يؤكد علي رستم, و هو من الذين شاركوا في كتابة النص, و قدمت هذه البانوراما, على اطلال مسرح الرشيد في بغداد. تسير الحوارات على رؤوسها في نزهة لا تتصف بالحياء بدءاً من الالهة, وصولاً الى مساء يوم القيامة, و لأن المسرح مات, و الحياة نحرت, فشوهت الوجوه, و وصل الدم الى كل شيء, و الإنجاب مستحيل, و الأوطان تحولت الى سجون كبيرة, يكمن الخطر, في عتبة المقهى, و حرمة الشارع, و السلالم الزرق, التي تؤدي الى سلالم, و لاله الذي انجب بولدين, انكمدو, دوموزي الراعي و المزارع, و كلاهما يتسابق بتقديم هدية, لكسب قلب عشتار, هاين و قاين و الأرض التي تلوث بالدماء, وخرجت عن ظهر عذريتها, و تنقلب المفاهيم, هكذا التأريخ يرجع الى امام.. الى امام, بخطوات موزونة, او المراوحة في المكان, مصابيح تنير الرؤية بحثاً عن.. ربما الذات المفقودة, عنقود من الخوذ العسكرية. اكوام من شرائط الأفلام المستهلكة, حوض حمام, اطفاء يستعمل لأغراض عديدة, منها للمخابرات الهاتفية بين الجندي و نعم سيدي.. حاضر سيدي؟! و... و.. نحات, فنان تشكيلي, موسيقي مغن شخصان يؤديان حركات ايحائية, راقصة.. صامتة كأنهم يشيرون الى الجهات الست, التي انعدمت فيها الرؤية, عدم انصياع الممثلين او الممثلة اليتيمة, لأية قاعدة, و الأداء مباح مثلما الموت مباح, في كل الجهات, في الزاوية, اليمنى و اليسرى, و المركز, و الانهزام و عبروا الجمهور بلسان خشبي, يمتد الى عماء الماء, او ان يخرج الممثل من بين الجمهور, او ان يلقي بحواره و يدخل الى عتمة الجمهور امتداد جسر خشبي يسقط الجندي في النهاية عليه و كان من الأفضل, ان يقذف بالجندي الى جمهور العماء المائي, لتكون نهايته شبيهة بالأفلام غير المكتملة الجريمة, لوحات متداخلة, و متشابكة, تجمع بين روما, و حريق بغداد, نيرون و ابن العوجة, وكأن هذا العمل حنين الى مسرح الثمانينيات في العراق, و هي

هـواجس الفـارين "الفـراري" مـن "السفر بيرلك" تكون هذه اللوحات, احيانآ لا يربطها شيء بـالآخر, لكن في النهاية كل لوحة لها لونها و كل حـوار ينطـق بشـيء, و الاسـقاط الرمـزي, الاسـتعراض اخـذ حيـزآ لابأس به من العرض, و مياه الفرات و الدجلة و غناء القبانجي و شجون الجنوب, و قبج الشمال, هل بإمكانها ان تطهر انساننا العراقي, مـن اقام طاغيـة تثـر علينـا الـدم كقذائف حروبه النبية؟!

و بقي ان نـذكر ان النص يعود للوتريـا مـون – هنـري ميلـر – البيركامو, علي رستم, فارس حـرام, كـورش قـادر, و مـن اخـراج باسـم حجار.

المثلـون: باسـم حجـار, سمـر قحطان, شهرزاد شاكر, باسم الطيب, مهند رشيد, حيدر حلو, انمار طه, علـي صـغير, مـراد عطشـان, فـادي فاضـل كمـا انهـم قـدموا في اليـوم الثـاني امسـية شـعرية بمشـاركة الأسـاتذة كـورش قـادر, علـي رسـتم, فـارس حـرام و تمـت مناقشـتها, و مناقشة العرض البانورامي..

سنوغرافيا:

باسم حمد, ضرغام عبدالواحد, غنـاء باسـر هاشـم, موسـيقى: عـدي رشيد, ادارة فنية: سلام السكيني.

جان بايير

البنية التشكيلية للصور الشعرية عند الشاعر (بلند الحيدري)

في رسالة ماجستير للطالب: نوروز شوكت

الشاعر (بلنـد الحيـدري) كـردي الأصـل وعربـي الشـعر، وهـو أحـد أركـان الريـادة الشـعرية الحديثـة في الأدب العربـي، وهـو ناقـد تشـكيلي معـروف، لـه العديـد مـن الدراسـات والمقـالات وكتــاب واحـد في النقـد التشكيلي، إذ انه يمتلك ثقافة واسعة في مجال الفـن التشـكيلي، وكانـت لـه موهبـة الرسـم، الا انـه لم يحـترف في هـذا المجـال بـل انعكسـت ثقافتـه التشـكيلية في قصـائده، وجعـل مـن صـوره الشـعرية لوحـات تشـكيلية فنيـة، وجعـل مـن دواوينـه معرضـاً لهذه اللوحات الشعرية.

هذه الحقيقـة جعلت مـن رسام تشكيلي وطالب لدراسة الماجستير في قسـم اللغـة العربيـة -كليـة اللغـات بجامعة السليمانية، أن يختـار البنيـة التشكيلية للصـور الشعرية في شـعر هـذا الشـاعر موضـوعاً لكتابـة بحثـه المقدم لنيل شهادة الماجستير في النقد الأدبي الحديث، والطالب هو (نـوروز شـوكت محمـد) الـذي ولـد سـنة 1973 بمدينة حلبجة، وتخرج من قسـم اللغـة العربيـة - كليـة اللغـات بجامعـة السـليمانية بتقـدير (جيـد جداً).

حـاول نـوروز اقتحـام عـالم التجربة الشعرية للشاعر من خلال مدخل رئيس, الا وهو مدخل صوره الشـعرية الـتي تشـكّل مـرآةً لأفكـاره وحالاتـه النفسـية وكـذلك لثقافتـه التشـكيلية الـتي اكتسـبها خـلال اطلاعه الواسع على الفن التشكيلي وعلاقتــه بالفنــانين التشــكيليين العــراقيين مــن جيــل الــرواد، وفي

مقدمتهم الفنان المبدع (جواد سليم)، فدرس الطالب الانعكاس الواضح لهذه الثقافة في أسلوب الشاعر لتشكيل صوره الشعرية، ويصرح (بلند الحيدري) نفسه بذلك بقوله:"لعلاقتي بـ(جواد سليم) ما حفزني للإفادة من الأبعاد الجديدة في الرسم والنحت والنظر في إمكانية توظيفها في القصيدة، حاولت أن أتلمس أسلوبي الخاص بي, وذلك من خلال بعض المعطيات التشكيلية.." وتقول زوجته الفنانة التشكيلية (دلال المفتي):"أحبَّ بلند الفنون كلها، وفتنته بالفنون التشكيلية بخاصة، فكانت قصيدته مرآة لهذا الافتتان وقطعة من ذلك الغنى المعرفي والفكري، فعنده أن الموهبة وحدها لا تكفي".

يقول نوروز شوكت في مقدمة رسالته:" إن كوني رساماً واهتمامي الكبير بالفن التشكيلي ومعلوماتي المتواضعة في هذا المجال, يشكّل الدافعَ الأول لأخطو أولى خطواتي باتجاه هذه الدراسة التي كانت تتطلب إيجاد خيط يربط ما بين الفن التشكيلي والموضوع الذي أختاره للبحث, فرأيت أن حقل الأدب هو الأقرب إلى الفن, ومن



ضمن الأدب الشعر الذي تربطه علاقات وشيجة بالفن التشكيلي وخصوصاً في بعده التصويري, لذا اخترت الصورة الشعرية ضمن العناصر الفنية للشعر, ومن ضمن الصورة الشعرية اخترت البُنية التشكيلية لها.

وقد سلكت منهجاً نقدياً تحليلياً, لأن هذا المنهج مشترك بين الدراسات النقدية الشعرية والدراسات النقدية التشكيلية, فطريقة تحليلي للصور التشكيلية في شعر (بلند الحيدري) تشبه طريقة تحليل اللوحات والوقوف على البُنى التشكيلية لها وعناصر تكوينها".

اما حول فصول رسالته ومباحثها فيقول:"استقرت هذه الدراسة على ثلاثة فصول, وكل فصل يضم ثلاثة مباحث, هذا بالإضافة إلى مبحث تمهيدي تناولت فيه تجربتي (بلند الحيدري) الشعرية والتشكيلية, فبدأت بنبذة عن حياته, وأصله الكردي وموقفه من الشعب الكردي, ومن ثم تحدثت عن تجربته الصحافية التي مهدت الطريق أمامه في الخوض في تجربتيه الشعرية والتشكيلية, واللتين تحدثت عنهما بعد ذلك، لذلك سمَّينا هذا المبحث التمهيدي بـ(بلند الحيدري بين الشعر والفن التشكيلي).

أما الفصل الأول فعنوانه هو (الصورة بين الشعر والفن التشكيلي), وذلك للوقوف على حقيقة وجود الصور التشكيلية بعناصرها وبنيتها في الشعر, وقسّمته إلى ثلاثة مباحث, الأول للوقوف على العلاقة العضوية بين الشعر والفن التشكيلي, والثاني لبيان علاقة التأثير والتأثر فيما بينهما, وأما الثالث فدرست فيه الصورة التشكيلية كجزء من بُنية القصيدة..

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة العناصر التكوينية التشكيلية في الصور الشعرية لدى الشاعر, كما يتضح في عنوانه: (العناصر التشكيلية في شعر بلند

الحيـدري), وتلـك العناصـر تنـدرج تحت ثلاثـة أنـواع رئيسـة، خصصت لكل نوع مبحثاً كاملاً, فالمبحث الأول للعناصر التشكيلية المكانيـة, والثـاني للعناصــر التشــكيلية الزمانيــة, والثالث للتشكيل الحركي في الصور الشعرية للشاعر.

وأما الفصل الثالث فقد خصصته لدراســة البِنيــة التشــكيلية للصــور الشعرية لـدى الشاعر, كما يتضح في عنوانــه: (البِنيــة التشــكيلية للصــور التشكيلية عند بلند الحيـدري), وفيه ثلاثـة مباحـث, فالمبحث الأول للبحث عن البِنية التشكيلية في الصور المفردة, والمبحـث الثـاني للبِنيـة التشـكيلية في الصــور المركبــة, والثالــث للبِنيــة التشكيلية في الصور الكلية.

وأنهيت الدراسـة بعـرض للنتـائج الـتي توصـلت إليهـا خـلال البحـث.. وكذلك بقائمة المصادر والـــمراجع التي اعتمدت عليها، وفي كل خطوة خطوتها في هذا البحث أدين لمشرفـي الفاضـل الأسـتاذ الـدكتور ظـاهر لطيــف كــريم, فلــم يتخــلَ عــن توجيهي صوب الصواب بملاحظاته الدقيقة طوال مدة دراستي, وكل ما أملكه لتسديد هذا الـدَّين هو كلمة الشكر مع هذه الأطروحة.

وفي العشرين مـن شهر آيار أجريت المناقشة علـى الاطروحـة مـن قبـل لجنـة المناقشـة الـتي شـكلت مـن : البروفيسـور الـدكتور عــز الــدين مصطفى رسول – رئيساً, والـدكتور حامــد مزعــل الــراوي –عضــواً, والدكتور علاء الدين محمد رشيد – عضواً، والبروفيسور الـدكتور ظاهر لطيـف كـريم –عضواً ومشرفاً على الرسالة، وبعـد مناقشة دامـت أكثـر مـن أربـع سـاعات حصـل الطالـب (نـوروز شـوكت محمـد) علـى شـهادة الماجستير في النقـد الأدبـي الحـديث بتقدير (جيد جداً عال).

اكراد العراق ليسوا "مكسر عصا" لأحد,

و علينا نحن العرب ان نخجل من مجازرنا بحقهم

حسين كركوش

كتـب الأسـتاذ (حسـين كركـوش) في موقع ايلاف – الأنترنيت بتـأريخ 2003/5/3 مقـالاً بعنـوان ((اكـراد العراق ليسوا "مكسر عصا" لأحد, و علينـا نحـن العـرب ان نخجـل مـن مجازرنـــا بحقهـــم)) نـــورد هنـــا مقتطفات من المقال:

كـرد العـراق دخلوا منـذ الاف السنين, تماما مثلما دخـل العـرب الشيعة و السنة و التركمان و الاشوريون والصابئة و كل اقوام و شـيع و طوائـف العــراق الأخــرى, لكـن الـبعض يصـر اصـرارا علـى اخـراج الكـرد وحدهم من دون اقوام العراق الاخرى.

زعماء الكرد عند هولاء الـبعض, (عملاء للموساد الإسرائيلي و مطايا للولايات المتحدة). مشاريع الكـرد, في يقين هولاء, (عنصرية و انفصالية). اهدافهم هي, (الاستيلاء على كل شمال العـراق, الموصـل و كركـوك و ديـالى, و العبث بمستقبل العـراق). سـواد الكـرد الأعظـم, في تعريـف هـؤلاء الـبعض, (خنــاجر مســمومة تطعــن خاصــرة الأمة العربية).

اما مـؤامرة كـرد العـراق الكبرى الــتي بــدأ (يحــذر) منهــا بعــض العــراقيين و كــثير مــن العــرب في ارجاء العالم العربي, هذه الأيام, فهي

(الاجتياح الكردي لبغداد نفسها و للدولة العراقية القادمة).

هذه الاتهامات ضد كرد العراق, ليست جديدة, بالطبع. و في مقدمة مـن روج لها هـي التنظيمـات السياسـية العراقيـة ذات الاتجاهات القوميـة العربيـة المتطرفـة, كحركـة القـوميين العـرب, الناشـطة سـابقاً داخل العراق, و حزب البعث العربي الاشـتراكي, و كـذلك شخصـيات عراقية مستقلة, سياسية و اكاديمية و اعلاميـة و قـادة كبـار في الجـيش العراقي, لا يبتعد تفكيرها كثيرا عن تفكير هذه التنظيمات السياسية. ثم تبنـت قـوى سياسـية و شخصيات و جهات رسمية في العالم العربي هذه الاتهامات (الانفصالية التخريبية), و راحت تشكل وعي الشارع العربي في البلـدان العربيـة, وفقـا لهـذه الاطروحـات, حتى اصبح (الكـردي) في ذهـن الكـثير مـن سـكان البلـدان العربيـة, رديفـا للغـدر و الخسـة و الخيانة و مساندة اسرائيل و الإساءة لقضايا العرب المصيرية.

و بالمقابل, ثابر اليسار العراقـي, بكل اطيافه و مواقعه و منذ عـدة عقود, على تثقيف الشارع العراقي بمشروعية المطامح القومية للكرد, و على رفض محاولات تهميشهم, او اقصـائهم مـن خارطـة النشـاط السياسـي في العـراق. و نجحت هـذه المحاولات نجاحا كبيرا.

و على العموم, فان العـراقيين لا تمـتلكهم تلك الحساسـية (المفرطـة) الموجودة عند الكثير من سكان العالم العربـي, في التعامـل مـع الكـرد و قضيتهم. و ليس من النـادر ان تجد في قرية عراقية نائية تماما, فلاحـا اميـا يعلن عـن تفهمـه و تضامنه و تأييده لمطالب الكرد العراقيين.

و رغم تعقيدات الموقف المستجد و حساسيته البالغة, و عبء الماضي الدموي الذي اثقل كاهل الكرد, فان الأمـور مـرت بسـلام. و لم تسـجل, علـى حـد علمنـا, عمليـة انتقـام واحدة (منظمة) قام بها الكـرد ضد العـراقيين مـن غـير الكـرد, في مـدن الموصل و كركوك.

فـأين هـي تلـك (المجـازر) الـتي يقـول الـبعض ان كـرد العـراق ارتكبوهـا, بعـد سـقوط نظـام صدام حسين؟

واين هي حملات الملاحقة ضد العـرب, في الموصـل و كركـوك الـتي اوجـع رؤوسـنا بهـا, هـؤلاء الـبعض؟ ليـت هـولاء يكشـفون عنهـا, حتـى يعرفها الجميـع, و نسـاهم جميعـاً في تعريتها و فضحها و إدانتها.

نعم, حدث عمليات نهب و سلب في هـاتين المـدينتين, لكـن هـذه العمليـات ليسـت اقـل مـن تلـك الـتي شـهدتها بغـداد, او البصـرة, او بقيـة المدن العراقية.

فلماذا هذا الغضب و الكراهيـة و التحذير من تصرفات الكرد؟

الأنهـم اسـتقبلوا جـاي گـارنر؟

الأنهم (دخلوا) الموصل و كركوك و ديـالى و بغـداد؟ الأنهـم اصـدروا صحفهم في عاصمة العـراق؟ الأنهـم اسـتولوا علـى بنايـات بعثيـة, او حكومية؟

الا يدعو للفرح ان يدخل كرد العراق لعاصمة بلدهم, و يصدروا منهـا صـحفهم المركزيـة؟ الا ينـاقض دخـولهم هـذا مـا يقولـه خصـومهم بشـأن (المشـاريع العنصرية و الانفصالية)؟

مـاذا فعلنـا, نحـن العـرب لكـرد العراق؟

ابيـدوا بغـاز الخـردل, مـرة, و بالأنفـال ثانيـة, و بالتعريـب مـرة ثالثـة, و بـالتهجير, و بـالتطهير العرقـي, و باغتصـاب نسـائهم, و بـرميهم وراء الحـدود, و بنـزع الجنسـية عـنهم, و بالسـخرية و التحقير من ارثهم الحضاري, حتى اذا عضـوا علـى جـراحهم و تناسـوا

جرائمنا التي ارتكبناها بحقهم, و ساهموا في رسم مستقبل العراق, صحنا: خونة, يريدون تقطيع اوصال العراق.

منذ بداية ستينيات القرن الماضي, و كرد العراق ينزفون دما. فما هي الأعمال الإبداعية في الرواية و المسرح و الفنون التي كتبناها نحن العرب, في العراق او خارجه, شجبا لحمامات الدم تلك؟

احداث و معارك سياسية صغيرة كتب حولها بعض الروائيين العرب (و خيرا فعلوا), اعمالا روائية مهمة, افلا تستحق حمامات الدم التي سبح بها كرد العراق, رواية واحدة, او عملا مسرحياً, مهما كان بسيطا, او قطعة موسيقية, او لوحة تشكيلية, او فيلما سينمائيا, او مجموعة شعرية؟

و الكرد في طبعهم طيبون, يردون التحية بأحسن منها الف مرة.

كتب لهم الجواهري سطورا قليلة من قصائده, فأقاموا له تمثالا في ميادينهم العامة, و نظموا له مهرجانا, حرصوا ان يدعوا له الكثير, ليس من مثقفي العراق, فحسب, و إنما من مثقفي العالم العربي.

وجود زعماء الكرد, هذه الأيام في العاصمة العراقية, و ظهور صحفهم المركزية من بغداد, هو مؤشر عافية سياسية لمستقبل العراق.

رسالة من كاتب أمازيغي

بعث الكاتب الامازيغي-جادي بورس- رسالة عبر البريد الالكتروني الى القاص رؤوف بيگه‌رد يصف فيها حبه العميق للشعب الكردي و للغته و ادبه.. ننشر هنا مقتطفات منها :

الاستاذ المحترم رؤوف بيگه‌رد

تحية طيبة

اكتب لسيادتكم بعد ان قرأت قصتكم الرائعة المنشورة بجريدة الاتحاد تحت عنوان (ما يحدث كل يوم).. معجب جداً باسلوب كتابتكم و توظيفكم الغني للاسطورة و الرمز و للزمان و المكان كابعاد مختلفة.. اعدت قراءة القصة مرات و مرات.. اسلوبها المؤثر يوحي ببراعتكم.. ككاتب مميز و متميز.. لم تسمح الظروف كل هذه الفترة للقراءة لها.. لقد قرأت التاريخ الكوردي.. قرأت للشهيد عبدالرحمن قاسملو.. قرأت مذكرات لكاتب نرويجي تعود لسنة 1974, و لكني لم اقرأ سوى القليل من الادب الكردي و التراث الكردي.. هذا الشعب النبيل و المقدس.. اخوتنا الكورد و احباءنا.. كم هو جميل عالمكم, ساحر و خلاب..

انا يا سيدي و استاذي.. انتمي الى امازيغ شمال افريقيا, لعلكم سمعتم بهؤلاء و بهذا الشعب ايضاً الذي عانى الويلات.. فحذفوا هويتنا و اقتلعوا لغتنا الممتدة في التاريخ.. علمونا اننا نحن عرب و لم ندرك اننا لسنا منهم الا بعد ان تخطينا حدود الوطن.. لعلني استعير من الشاعر الكبير الاستاذ شيركو بيكه‌س قولته المشهورة: الله و الكورد وحدهم.. و لكن سأضيف شعبنا الامازيغي ايضاً.. ان قصف حلبجة الشهيدة و ارتكاب عمليات الانفال

السيئة الصيت ارتكبه عربي كان يبشر بلغة الدم و الدمار.. لدينا يا استاذي قواسم مشتركة و اخوة ابدية.. هناك في شمال افريقيا من يحمل لكم حباً دافئاً و يكن لشعب الكورد كل الوفاء و كل الاحترام و كل الاخوة الابدية..

عندما اقرأ عن تأريخ شعب كوردستان أجدني امام شعب عظيم خالد.. شعب عرف الحضارات و عرف التمدن قبل ان تعرفها جزيرة العرب..

اني احيي نضال الشعب الكوردي و تجربته الديمقراطية الفريدة.. و احييكم استاذي الكريم و اشكركم من القلب على القصة الرائعة و اتمنى ان اقرأ لكم الكثير..

سأحييكم بكلمة كوردية تعلمتها من اللغة الكوردية العظيمة, سأقول لسيادتكم: زۆر سوپاس له دڵەوە.

جواب الرسالة:

*عزيزي چادى: تأثر صديقي الشاعر شيركو بيكەس برسالتك كثيرا و كتب فورا باللغة الكردية ما اترجمه لك نثراً:

(أنا الكردي.. كنت امشي وحيدا في الماضي, عندما سافرت, كان الطريق اطول من جانب ضفاف النيل. و اطول من ليالي الخريف الطويلة, و من القامة السوداء لأفريقيا, لم تكن تقصر الطريق هذا لاقراءة الرواية, و لاكتابة قصص الاغتراب و لا الاصغاء الى المطر المستيقظ, و لا النوم او الاحلام و لا حكايات السحرة.

كان الطريق طويلاً جداً و بدون انتهاء

اما هذه المرة فكان نفس الطريق,

و لكنه قصير

لم اكن هذه المرة وحيداً في الطريق

كنا اثنين

لقد قصرت الطريق, احزاننا الطويلة, و دموعنا الغزيرة و غدرهم الطويل.. كان الطريق اقصر و اقصر.

لم اكن هذه المرة وحيداً, كان معي رجل امازيغي, عندما بدأنا بالحوار)

حبي.. اخوكم

رؤوف بێگەرد

2002/12/3

في العدد القادم:

- دوائر الصراع واستراتيجية الأمن القومي الكردي - محمود ملا عزت
- الدولة الفيدرالية - د. محمد هماوندي
- الشاعرة ماه شرف خان كردستاني (مستورة)- حميد كشكولي

تقارير و وثائق

- حول تأسيس المجلس الوطني لكردستان العراق   اعداد: حسين عارف
- دار سردم للطباعة والنشر   سردم العربي

المجلس الوطني لكردستان العراق
النموذج و التجربة الرائدة

بقلم: حسين عارف

يوم التاسع عشر من شهر ايار 1992, لم يكن يوماً عادياً في حياة شعب كردستان, بل يوم تأريخي لم يكن له نظير عبر كل عهوده المعاصرة. ففيه توجه حوالي المليون ناخب الى صناديق الاقتراع, لينتخبوا بكامل حريتهم و في جو ديموقراطي لم يسبق له مثيل, اول مجلس وطني حقيقي خاص بمنطقتهم (التي سميت فيما بعد قانوناً من قبل المجلس ذاته بإقليم كردستان), ليضم في عضويته نخبة من ابنائه المناضلين و المخلصين الشرفاء, بمنأى من سطوة النظام الدكتاتوري البعثي, الذي كان لايزال جاثماً ككابوس مرعب, على صدور بقية ابناء شعوب العراق في وسط و جنوب البلاد. و في الحقيقة كانت الانتخابات التي جرت, في الأجزاء المحررة من كردستان الواقعة ضمن محافظات اربيل و السليمانية و دهوك, مهرجاناً رائعاً و فريداً من نوعه لممارسة الديموقراطية و التمتع بالحرية في الاقليم, بارفع معانيها و على اقصى مداها, الى جانب كونها عملية اختيار لممثلين حقيقيين لجماهير شعب كردستان, في مجلس وطني حقيقي, لا كارتوني ديكوري تكون مهمته, تزيين الوجه القبيح للنظام الدكتاتوري المستبد. فلقد سبقت يوم المهرجان الأكبر (التاسع عشر من ايار 1992), ايام للدعاية الانتخابية, كان الناظر اليها يحسبها اعراساً باجوائها الاحتفالية المزركشة التي كانت الدبكات الكردية الشهيرة, و على انغام الطبل و المزمار الأشهر ملحها كالعادة في كل الاعراس الكردية الأصيلة. نعم.. جميع الأطراف التي كانت قد قررت المشاركة في الانتخابات (و اشترك جميع من كانوا في الساحة قبل التحرير و ايام النضال المرير من اجل التحرير), كانت لها اعراسها الانتخابية, تمارسها

دونما أي رقيب او حسيب, سوى ما توجبه اصول ترف المناقشة النزيهة, و وجوب المحافظة على الأمن و النظام (خاصة ان عدواً شرساً واقف ها هناك عن قرب بالمرصاد). و بالتالي الاحتكام الى ما تجود بها صناديق الاقتراع من حصة من الأصوات و الرضوخ لها و احترامها.

و بالفعل مرت ايام العرس الدعائية بأكملها, دون حدوث ما يعكر صفو الأمن قطعاً, الذي اعتبر اعجازاً حقاً. ذلك لأن الكثيرين كانوا يتخوفون من احتمال حدوث صدامات مسلحة, بسبب وجود ميليشيات لجميع الأحزاب الموجودة في الساحة الانتخابية, الا ان شيئاً من هذا لم يحدث. كما لم يحدث بحسب علمي و اعتقادي, حتى و لا مشادات او تشنجات يمكن ان تسبب توترات في العلاقة بين الاطراف المتنافسة. لقد كانت فترة الدعاية الانتخابية حقاً, مهرجاناً, عرساً, احتفالية ربيعية, الى جانب كونها عملية لانتخاب سلطة تشريعية, تتنافس فيها عدة احزاب تتشابه في شيء واحد هو تأريخها النضالي ضد الحكم الدكتاتوري البعثي القمعي, لكنها تختلف و تتفاوت في الكثير من التوجهات و التطلعات الفكرية و السياسية.

خاض المعركة الانتخابية للفوز باكبر عدد من المقاعد المئة و الخمسة للبرلمان المرتقب, كل من: الاتحاد الوطني الكردستاني, الحزب الديموقراطي الكردستاني, الحزب الشيوعي – اقليم كردستان, الحزب الأشتراكي الديمقراطي الكردستانى, الحركة الأسلامية الكردستانية, حركة الديمقراطيين, الحركة الديمقراطية الآشورية, حزب كادحى كردستان متحالفاً مع الاتحاد الوطني الكردستانى. جميعها سنحت لها فرصة القيام بالحملة الانتخابية بكامل الحرية فلم تكن هناك سلطة مستبدة و متفردة بالساحة كما كان في السابق. فلقد كانت سلطة بغداد الدكتاتورية قد سحبت قواتها و بنتيجتها اداراتها من المنطقة تحت ضغط انتفاضات متعاقبة لجماهير الشعب ضدها. و حلت محلها في ادارة شؤونها قيادة جبهة الأحزاب الكردستانية التي كانت قد تشكلت قبل انتفاضة آذار (1991). فالجميع قد حصلوا اذن و باشراف قيادة الجبهة, على حظ وافر من الحرية للدعاية الانتخابية. كما ان الجميع قد التزموا بالكف عنها حالما انتهت المهلة, و كانت تلك هي الروعة بعينها. فبحلول الوقت المحدد, أي اربع و عشرين ساعة قبل موعد بدء التصويت, اختفت كلياً جميع مظاهر الدعاية الانتخابية, و حل محلها صمت مهيب جليل, و كان الجميع ينتظرون بخشوع, بدء مخاض ولادة مولود, يعتبره الكل مولودهم المحبب الموعود.. المجلس الوطني لكردستان العراق.

نحن الآن اذن, في صباح يوم التاسع عشر من ايار/1992. يوم ربيعي مشمس بديع. صوب أي مركز انتخابي وليت وجهك, و الأغلب الأعم هو باحة مدرسة, تجد عند بابه صفين طويلين من البشر, احدهما رجال و الآخر نساء, من عمر الثامنة عشرة فما فوق, ينتظرون بصبر ايوب حتى يحين وقت وصولهم الى الصندوق, الذي يصلونه لاول

مرة في حياتهم غير هيابين, و ليلقوا به غير مرتجفي الايدي و بكامل حريتهم, ما املته عليهم ارادتهم الحرة. و كنت تشاهد لقطات يأخذك العجب العجاب لمرآها. فهذا شيخ بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه, لكنه يحث الخطى متكئاً على عصاه. و هذا آخر لم يستطع الوقوف حتى, و انما يحمله ابنه على ظهره. و ذاك مريض طريح الفراش, لكنه يأبى الا الاشتراك و الإدلاء بصوته, و لو محمولاً على نقالة المستشفى او عربة حمل. و آخر معوق يحضر على كرسيه المتنقل. او انه غير محظوظ مثله بتمليك الكرسي, فيحضر زاحفاً على الأرض بوسيلته البدائية! و مشاهد منوعة اخرى, لا يسعك الا ان تتساءل باستغراب: أي دافع سحري هذا الذي يجعل هؤلاء, يتجشمون عناء هذا الحضور الشاق للإدلاء باصوات قد لا تؤثر كثيراً في النتيجة؟!. انه و لا شك سحر ممارسة الحرية.. سحر زوال شبح التسلط و الاستبداد, و نتاجهما الخوف و الإرتعاب.

انتهت عملية التصويت على خير وجه. لم يحدث ما يعكر صفوها في أي مركز انتخابي, على امتداد مناطق كردستان المحررة التي اجريت فيها الإنتخابات. و كان هذا اعجازاً آخر. احزاب عدة تتنافس. و كلها لها ميليشيات مسلحة كما هناك سلطة دكتاتورية في مركز البلاد تغلي حنقاً و تتربص لكن العملية تبدأ و تسير و تنتهي على خير وجه. امر مدهش. و مدهش اكثر ان تعلن النتائج في وقت قياسي, مقارنة بمن كانوا احسن منا حالاً بكثير من وجوه عدة, لكنهم لم يكونوا الأحسن في هذا.

و جاءت النتيجة كما كانت متوقعة بالنسة للحزبين الكبيرين, الاتحاد الوطني الكردستانى و الحزب الديمقراطي الكردستاني, حيث حصدا الغالبية العظمى من الأصوات. و غير متوقعة بالنسبة للأحزاب الأخرى التي كانت امالها كبيرة, لكن أي منها لم ينل النسبة القانونية التي كانت (7٪), ليستطيع تخطي عتبة البرلمان. فانحصرت المقاعد في الحزبين الكبيرين. و حيث انهما كانا متقاربين الى حد التساوي في نيل الأصوات, فقد اتفقا على تقاسم المقاعد المئة المخصصة للكرد مناصفة و ذهبت المقاعد الخمسة الأخرى للآشوريين, الذين كانت لهم صناديق اقتراع خاصة بهم في مناطق تواجدهم, فكانت اربعة منها لمرشحي الحركة الديموقراطية الآشورية و الخامس لشخص مستقل مقرب من الحزب الديمقراطي الكردستانى. اما التركمان الذين كانت قيادة جهة الأحزاب الكردستانية قد خصصت لهم كالآشوريين عدداً من المقاعد, فلم يشتركوا في الانتخابات و غاب مندوبوهم عن المجلس نتيجة لذلك.

عقد المجلس بمقتضى القانون اول اجتماع له في 1992/6/4, و كان هو الآخر اجتماعاً احتفالياً تأريخياً, الهب مشاعر الفخر و الاعتزاز في القلوب. فها هم المثلون الحقيقيون المنتخبون من قبل جماهير شعب كردستان, يعقدون الاجتماع الأول لهم في عاصمة اقليمهم اربيل, ليبدأوا به مسيرتهم كسلطة تشريعية حقيقية لا كارتونية, لتتولى سن القوانين للاقليم, و توكل امور ادارته لسلطة

تنفيذيــة منبثقــة مــن ارادتهــا الــتي هــي ارادة الشعب, و لتكون عليها رقيباً ايضاً في تنفيذها لتلك القوانين, و تلك هي طبعاً القواعد الأساسية للنظام الديموقراطي. نعم.. و كان من اولى اعمال المجلس بعد ان نظم امور نفسه, كانتخاب هيئته الرئاسية التي انتخب السيد جوهر نامق سالم من الحزب الديمقراطي الكردستانى لرئاستها بحسب اتفاق المناصفة.. و كذلك اقرار نظامها الداخلي و انتخاب لجانها الاربعة عشر الدائمية و غير ذلك من المسائل الإدارية و الفنية, منح الثقة للمجلس الوزاري الأول الذي تشكل برئاسة الدكتور فؤاد معصوم من الإتحاد الوطني الكردستانى بحسب اتفاق المناصفة ايضاً مع اشتراك ممثلين للحزب الشيوعي و الحركة الآشورية, ليتخذ المجلس طابع الإئتلاف الحكومي.

بعد ذلك بدأ المجلس يعمل كخلية نحل. فكان عليه ان ينشط في ثلاثة مجالات:

الأول: تنظيم و تثبيت وضعه الداخلي, و سرعان ما انتهى من ذلك فقد كان هناك المبنى السابق الفخم للمجلس التشريعي الكارتوني البعثي, الذي لم يصدر عنه طوال ست عشرة سنة من عمره (1975-1991), سوى قرارين يتيمين يتصفان بصفة التشريع, و باقي لغوه كان تطبيلا و تزميراً للنظام الدكتاتورى البعثي المجرم, كان وجود هذا المبنى قد حل للمجلس اشكالية المقر و الكثير من المشاكل الادارية و الفنية, و استقر وضعه من هذه الناحية سريعاً.

ثانياً: البدء بسن القوانين و الأنظمة و اصدار المراسيم و القرارات الضرورية, لتستطيع السلطة التنفيذية التصرف قانونياً على اساسها. و هذا ما اخذ جل وقت اجتماعات المجلس, (و خاصة لجنته القانونية التي تشرفت بعضويتها منذ البداية). فلقد كانت اجتماعاتها تتواصل صباح مساء, لتتمكن من تهيئة مشاريع القوانين و الأنظمة و القرارات في اوقاتها, لعرضها للمناقشة امام المجلس.

ثالثاً: البدء بعملية مراقبة السلطة التنفيذية في كيفية ادائها لاعمالها, و استدعاء الوزراء للمساءلة و المحاسبة كلما استدعت الحاجة. و كذلك تفصيل اللجان الدائمية للمجلس بهذا الخصوص, او تشكيل لجان مؤقتة كلما اقتضت الضرورة.

و في مجال سن القوانين و اصدار القرارات, كان المجلس يركز على جانبين اثنين بشكل خاص:

الأول: سن قوانين و اصدار قرارات آنية و ملحة للإقليم كقوانين تشكيل مجلس وزراء الإقليم و الوزارات و بعض المؤسسات و الهيئات الخاصة بالإقليم. و كذلك التشريعات التي تستوجبها الأوضاع الخاصة للإقليم. كقانون الأحزاب و قانون الجمعيات, و الأسلحة, و المطبوعات, و كذلك الإعلان الشهير عن اقراره للنظام الفيدرالي لدولة العراق المستقبلية كحل عادل للقضية الكردية...الخ. مع استمرار العمل ببقية القوانين العراقية.

الثاني: ايقاف العمل في الإقليم بالقوانين و القرارات التي سنها و اصدرها النظام البعثي

الدكتاتوري, بهدف اضطهاد شعب كردستان وقمع حركته التحررية.

بالإضافة الى الأعمال التشريعية الروتينية تلك, فإن البرلمان اصبح الوجه المشرق للتجربة الديمقراطية الرائدة, التي بدأت تأخذ مداها تدريجياً في اقليم كردستان. فجميع الأنظار في الداخل و الخارج, كانت اليه و الى ما تتخذه من خطوات عملية, لاثبات كونه نابعاً من ارادة شعب كردستان, و معبراً عنها بالأفعال. فالقاء نظرة منصفة على محاضر جلساته (واحد و ثلاثون مجلداً حتى الآن), و القوانين و القرارات التي اصدرها, و كيفية مراقبته للسلطة التنفيذية, و مساهمته الجادة في الحياة السياسية و حضوره الفعال فيها. و كذلك نظرة التبجيل و الاحترام التي قوبل بها في الخارج, ممثلة في الوفود الزائرة منه و اليه, و ما قيل و كتب عنه من قبل المنصفين, كل ذلك يبين ان المجلس الوطني لكردستان العراق, كان فعلاً و لا يزال الوجه المشرق لتجربة الاقليم الديمقراطية الرائدة.

و ختاماً يسرنا ان نسوق مع هذا المقال الى قارئنا العربي العزيز, بعض النماذج في مجال عمله التشريعي, مع نص بيان اعلان الإتحاد الفيدرالي الصادر عنه في 1992/5/4.

قانون المطبوعات لإقليم كوردستان العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الشعب

المجلس الوطني لكوردستان العراق

رقم القرار 24

تأريخ القرار: 1993/4/25

((قرار))

استناداً الى احكام الفقرة (1) من المادة (56) من القانون رقم (1) لسنة 1992 و بناءً على ما عرضه وزير الثقافة و وافق عليه مجلس الوزراء قرر المجلس الوطني لكوردستان العراق بجلسته المنعقدة بتأريخ 1993/4/18 اصدار القانون الآتي:

القانون رقم (10) لسنة 1993

قانون المطبوعات لإقليم كوردستان العراق

المادة الأولى:

يقصد بالتعابير التالية المعاني المبينة ازاءها لاغراض هذا القانون:

1-الاقليم: اقليم كوردستان العراق.

2-الوزارة: وزارة الثقافة للاقليم.

3-الوزير: وزير الثقافة للاقليم.

4-المطبوع الدوري: كل مطبوع يصدر باستمرار و باعداد متسلسلة و في اوقات معينة كالجرائد و المجلات و النشرات و ما الى ذلك.

5-المطبوع غير الدوري: كل مطبوع يصدر لمرة واحدة او باجزاء معلومة بغض النظر عن اعادة

الطبع كالموسوعات و القواميس و الكتب و الكراريس و الخرائط و الرسوم و ما الى ذلك.

المادة الثانية:

لا رقابة على المطبوعات في الإقليم و كل مواطن فيه حر في اصدار أي مطبوعات وفق احكام هذا القانون.

المادة الثالثة: يشترط في المطبوع الدوري ان يكون له صاحب امتياز و رئيس تحرير يجيدان القراءة و الكتابة بلغة المطبوع متمتعين بالاهلية القانونية الكاملة غير محكومين عن جناية او جنحة غير سياسية مخلة بالشرف.

المادة الرابعة:

صاحب امتياز المطبوع الدوري و رئيس تحريره مسؤولان عنه بالتضامن امام القانون و القضاء.

المادة الخامسة:

1-لكل مواطن عراقي مقيم في الاقليم يرغب في اصدار مطبوع دوري ان يقدم طلباً الى وزير الثقافة يبين فيه اسمه و اسم رئيس التحرير و اسم المطبوع و لغته.

2-على الوزير ان يبت في الطلب خلال مدة (30) يوما من تأريخ تسجيل الطلب لدى الوزارة.

3-اذا لم يبت الوزير في الطلب خلال المدة المقررة في الفقرة (2) يعتبر المطبوع الدوري مجازاً قانونا.

4-في حالة رفض الطلب يحق لن رفض طلبه الطعن في قرار الوزير لدى محكمة تمييز الاقليم خلال عشرة ايام من تأريخ تبليغه بالرفض و يكون قرار المحكمة قطعياً.

المادة السادسة:

1-يعتبر المطبوع الدوري قائم الوجود قانونا منذ صدور اول عدد منه, و اذا ارتأى صاحب الامتياز الغاء وجوده فعليه اعلام الوزارة بذلك تحريريا و يكون ملغياً قانونا من تأريخ تسجيل الاعلام لدى الوزارة.

2-يجوز تغيير صاحب الامتياز او رئيس التحرير او كليهما على ان يعلم الوزارة بذلك.

المادة السابعة:

على صاحب امتياز المطبوع الدوري مسك السجلات القانونية الاصولية مصدقة من قبل كاتب العدل بحسب مقتضى حال المطبوع.

المادة الثامنة:

1-على كل من يروم طبع مطبوع غير دوري توثيقه مسبقا لدى المكتبة الوطنية للاقليم و ايداع نسخة طبق الاصل لديها.

2-على مقدم المطبوع غير الدوري للطبع ايداع عدد من النسخ منه بعد انجاز طبعه لدى المكتبة الوطنية للاقليم.

3-يجب ان يذكر في المطبوع غير الدوري عند طبعه اسم المؤلف او المؤلف و المترجم و مقدمه للطبع و ناشره و تأريخ طبعه و المطبعة التي طبع فيها و رقم و تأريخ ايداعه في المكتبة الوطنية و عدد نسخه.

المادة التاسعة:

يحظر النشر في التحريض على ارتكاب الجرائم و اعمال الارهاب و ترويج سلبها و توفير ممكناتها و القذف و الطعن و التشهير بالاشخاص و انتهاك حرمة الاديان و المذاهب و الاداب و النظام العام.

المادة العاشرة:

يتعرض صاحب الامتياز او رئيس التحرير و كاتب المقال في المطبوع الدوري و مقدم المطبوع غير الدوري للمساءلة القانونية وفق القوانين المرعية في حالة مخالفته لاحكام هذا القانون.

المادة الحادية عشرة:

1-تقام الدعاوي العامة الناشئة عن مخالفة احكام هذا القانون من قبل الادعاء العام و بموافقة وزير العدل, اما الدعاوي الخاصة الناشئة عنها فتقام من قبل المتضرر.

2-لا تسمع الدعاوي الواردة في الفقرة (1) من هذه المادة من قبل المحاكم بعد مرور ثلاثة اشهر من تأريخ النشر في المطبوع الدوري او البدء بالتوزيع في المطبوع غير الدوري.

المادة الثانية عشرة:

1-الحكم القضائي بالادانة على صاحب الامتياز للمطبوع الدوري و رئيس تحريره وفق احكام هذا القانون لا ينسحب على المطبوع ذاته و يبقى وجوده قائما الا اذا ارتأى صاحب الامتياز خلاف ذلك فتطبق بشأنه احكام المادة السادسة من هذا القانون.

2-الحكم القضائي بالادانة على مقدم المطبوع غير الدوري للطبع ينسحب على المطبوع ذاته فيصادر و يمنع تداوله لحين ازالة سبب الادانة عنه.

المادة الثالثة عشرة:

لا قيود على ادخال مطبوع الى الاقليم او الاخراج منه الا ما كان مخالفا لاحكام المادة التاسعة من هذا القانون و يتعرض المخالف للمساءلة القانونية.

المادة الرابعة عشرة:

حرية العمل الاعلامي لمراسلي و مندوبي وسائل الاعلام الاجنبية في الاقليم مكفولة و تحدد شروط و اسس عملهم بتعليمات يصدرها الوزير.

المادة الخامسة عشرة:

على اصحاب المطبوعات الدورية القائمة لغاية نفاذ هذا القانون تنفيذ احكام المادة الخامسة منه خلال مدة ثلاثين يوماً اعتبارا من تأريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة السادسة عشرة:

للوزير اصدار التعليمات اللازمة لتسهيل تنفيذ احكام هذا القانون.

المادة السابعة عشرة:

لا يعمل بأي نص يتعارض و احكام هذا القانون.

المادة الثامنة عشرة: على مجلس الوزراء تنفيذ احكام هذا القانون.

المادة التاسعة عشرة:

ينفذ هذا القانون اعتباراً من تأريخ نشره في الجريدة الرسمية.

جوهر نامق سالم

رئيس المجلس الوطني لكوردستان العراق

قانون الاحزاب لإقليم كوردستان العراق

بسم الله الرحمن الرحيم
باسم الشعب
المجلس الوطني لكوردستان العراق
رقم القرار: 42
تأريخ القرار: 1993/10/18

((قرار))

استنادا الى احكام الفقرة (1) من المادة (56) من القانون الرقم (1) لسنة 1992 و بناء على ما عرضه مجلس وزراء اقليم كوردستان, قرر المجلس الوطني لكوردستان العراق بجلسته المنعقدة بتأريخ 1993/10/10 اصدار القانون الآتي:

القانون رقم (17) لسنة /1993
قانون الاحزاب لاقليم كوردستان العراق

المادة الاولى:

الحزب منظمة سياسية ذات شخصية معنوية تتكون من اتحاد اختياري بين مجموعة من الاشخاص الطبيعيين تجمعهم مبادئ و اهداف مشتركة معلنة في منهاج الحزب تعمل لتحقيقها بالوسائل الديمقراطية.

المادة الثانية:

1-لكل مواطن من مواطني اقليم كوردستان العراق الساكنين فيه ممن تتوفر فيهم الشروط حق المشاركة في تأسيس الاحزاب.

2-لكل مواطن من مواطني اقليم كوردستان العراق او أي شخص ذي اقامة دائمة فيه ممن اكمل الثامنة عشرة من العمر و متمتعاً بالاهلية القانونية حق الانتماء لاي حزب و الانسحاب منه وفق نظامه الداخلي.

المادة الثالثة:

حرية تأسيس الاحزاب مكفولة و لكل حزب ممارسة نشاطه بحرية كاملة و يتولى هذا القانون حماية ذلك.

المادة الرابعة:

يشترط ان تتضمن مبادئ و اهداف الحزب ما يأتي:

1-تعزيز و تطوير الحقوق و المكاسب التي حققها شعب كوردستان العراق.

2-تعزيز المبادئ الديمقراطية و احترام حريات و حقوق الانسان المنصوص عليها في الاعلان العالمي لحقوق الانسان و العهود و المواثيق و البيانات الدولية.

3-تحقيق اهدافه بالوسائل السلمية الديمقراطية و الايمان بتداول السلطة دون اللجوء الى العنف و الارهاب و الاغراء.

4-اتباع الاساليب الديمقراطية في الحياة الحزبية.

5-عدم بث الشقاق و التفرقة العنصرية و الدينية و المذهبية.

المادة الخامسة:

يلتزم الحزب باحترام حقوق و حريات المواطنين و الاحزاب و التنظيمات المهنية و الشعبية.

المادة السادسة:

يشترط لتأسيس الحزب و ممارسة نشاطه ما يأتي:

1-تقديم طلب الى وزارة الداخلية موقعاً من اعضاء مؤسسين لا يقل عددهم عن (50) عضوا و ان لا يقل عمر العضو المؤسس عن (25) سنة و ان لا يكون محكوما عليه بجناية او بجنحة مخلة بالشرف و لم يشارك في الجرائم التي خططت لها السلطة القمعية او ارتكبها في كوردستان و متمتعا بالاهلية القانونية و يجيد القراءة و الكتابة على ان يرفق بطلب التأسيس منهاج الحزب و نظامه الداخلي.

2-يتضمن الطلب المذكور في الفقرة (1) اعلاه اسم و لقب و عمر و مهنة و محل اقامة كل عضو مؤسس و اسم الحزب على ان لا يكون مطابقاً لاسم حزب آخر.

المادة السابعة:

1-على وزير الداخلية التأكد من استيفاء طلب التأسيس للشروط القانونية المنصوص عليها في المادة السادسة من هذا القانون و احالة الطلب الى مجلس الوزراء خلال مدة (30) يوما من تأريخ تسجيله.

2-عند عدم استيفاء طلب التأسيس للشروط القانونية على وزير الداخلية اعادة الطلب الى المؤسسين خلال المدة المقررة في الفقرة (1) اعلاه لإكمال النواقص, و في كل الاحوال لا يجوز اعادة الطلب لأكثر من مرة واحدة.

3-يبت مجلس الوزراء خلال (45) يوما في طلب تأسيس الحزب بالموافقة او الرفض من تأريخ تسجيله لديه على ان يكون قراره مسببا في حالة الرفض.

4-في حالة عدم البت في الطلب رغم مضي المدة المذكورة في الفقرة (3) اعلاه من هذه المادة يعتبر الطلب موافقا عليه بحكم القانون.

5-يبلغ وزير الداخلية الاعضاء المؤسسين بقرار مجلس الوزراء.

6-يحق للمؤسسين الاعتراض على قرار مجلس الوزراء الرافض لطلب التأسيس لدى الهيئة العامة لمحكمة تمييز اقليم كوردستان العراق خلال مدة (30) يوما من تأريخ تبليغهم بقرار الرفض و يكون قرار المحكمة باتا.

المادة الثامنة:

يكتسب الحزب اعتبارا من تأريخ صدوره اجازته الشخصية المعنوية و له ممارسة نشاطه و يمثله في علاقاته القانونية من يحدده النظام الداخلي.

المادة التاسعة:

1-تكون عاصمة الاقليم او مركز احدى محافظات الاقليم مقراً رئيساً للحزب و له فتح فروع على ان يتم اعلام السلطات المختصة بذلك.

2-للحزب فتح فروع خارج الاقليم على ان يتم اعلام وزارة الداخلية بذلك.

3-لا يجوز للحزب فتح مقرات له في الدوائر الرسمية و المؤسسات الحكومية.

المادة العاشرة:

يجوز للحزب الاندماج مع حزب آخر وفق النظام الداخلي لكلا الحزبين على ان يتم اعلام مجلس الوزراء بذلك.

المادة الحادية عشرة:

على الحزب اعلام مجلس الوزراء بأي تغيير يطرأ على نظامه الداخلي او منهاجه خلال مدة ثلاثين يوما من تأريخ حصول التغيير.

المادة الثانية عشرة:

1-لا يجوز للحكام و اعضاء الادعاء العام و المحققين العدليين الانتماء الى الاحزاب و على من كان منتميا لأحد الاحزاب الاستقالة من وظيفته او من الحزب خلال مدة (30) يوما من تأريخ نفاذ هذا القانون.

2-تحظر ممارسة العمل الحزبي داخل تشكيلات وزارة شؤون البيشمرگه و قوى الامن الداخلي.

المادة الثالثة عشرة:

يتمتع الحزب بالحقوق التالية:

1-امتلاك وسائل الاعلام لتحقيق اهدافه وفق القوانين المرعية.

2-اجراء جميع التصرفات القانونية و تملك الاموال المنقولة و غير المنقولة لتحقيق اغراضه.

3-التجمع و التظاهر و الاضراب بالطرق السلمية وفق القانون و بعلم السلطات المختصة.

4-تنظيم المهرجانات و الاحتفالات و عقد الندوات و احياء المناسبات.

5-جمع التبرعات و قبول المنح و الاعانات الداخلية.

6-قبول اموال عينية او نقدية من اية جهة خارج الاقليم بعلم من مجلس الوزراء.

المادة الرابعة عشرة:

توزع المنح التي تخصص في ميزانية الاقليم للأحزاب وفق ضوابط يقررها المجلس الوطني.

المادة الخامسة عشرة:

يلتزم الحزب بالواجبات التالية:

1-نبذ الارهاب بكافة اشكاله.

2-احترام القوانين و الحفاظ على استقلالية القضاء.

3-ان لا تكون له تشكيلات عسكرية او شبه عسكرية و يحظر عليه امتلاك الاسلحة خلافاً للقوانين.

4-عدم ممارسة نشاط يخالف منهجه المعلن.

5-احترام النظام العام و الآداب العامة.

المادةالسادسة عشرة:

للحزب حل نفسه وفق احكام نظامه الداخلي.

المادة السابعة عشرة:

1-يجوز حل الحزب بقرار قضائي و بناءً على دعوة تقام من قبل وزارة الداخلية عن مخالفة الحزب لحكم من احكام هذا القانون.

2-يكون قرار المحكمة خاضعاً للطعن تمييزاً لدى الهيئة العامة لمحكمة تمييز اقليم كوردستان العراق خلال مدة (30) يوما من تأريخ تبليغه بقرار الحل و يكون قرار محكمة التمييز باتاً.

المادة الثامنة عشرة:

عند حل الحزب تصفى امواله المنقولة و غير المنقولة وفقاً لنظامه الداخلي.

المادة التاسعة عشرة:

على الاحزاب القائمة تعديل اوضاعها وفق احكام هذا القانون خلال مدة ثلاثة اشهر من تأريخ نفاذه.

المادة العشرون:

لوزير الداخلية اصدار تعليمات لتسهيل تنفيذ احكام هذا القانون.

المادة الحادية و العشرون:

لا يعمل بأي نص يتعارض و احكام هذا القانون.

المادة الثانية و العشرون:

على مجلس الوزراء تنفيذ احكام هذا القانون.

المادة الثالثة و العشرون:

ينفذ هذا القانون اعتباراً من تأريخ نشره في الجريدة الرسمية.

جوهر نامق سالم

رئيس المجلس الوطني لكوردستان العراق.

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الشعب

المجلس الوطني لكوردستان – العراق

رقم الإصدار: 1

تاريخ الإصدار: 2003/5/12

استناداً لحكم الفقرة (1) من المادة (56) و المادة (53) من القانون رقم (1) لسنة 1992 المعدل, و بناءً على ما عرضه العدد القانوني من اعضاء المجلس الوطني, و ما شرعه المجلس الوطني لكوردستان – العراق بجلسته المرقمة (24) و المنعقدة بتاريخ 2003/5/12 و للصلاحية المخولة لنا بموجب الفقرة (3) من المادة الثانية من القانون الرقم (10) لسنة 1997 قررنا اصدار القانون الآتي:

قانون رقم (1) لسنة 2003

قانون تحديد الوضع القانوني لمسؤولي و اعوان النظام الدكتاتوري البائد

المادة الأولى:

يحدد الوضع القانوني لمسؤولي و اعوان النظام الدكتاتوري البائد المتواجدين في اقليم كوردستان العراق ممن لم يستجيبوا للعفو العام الصادر بعد انتفاضة عام 1991 المجيدة على الوجه الآتي:

يحرم لمدة خمس عشرة سنة من:

1-التصويت و الترشيح في الانتخابات العامة و انتخابات المجالس المحلية و البلدية و الجمعيات و النقابات و عضوية مجالس ادارة المؤسسات و الشركات العامة و المختلطة.

2-تولي الوظائف الإدارية و السياسية.

3-حمل او حيازة السلاح.

4-حمل الأوسمة و النياشين و الأنواط و التمتع بالحقوق و الامتيازات الممنوحة له بموجبها.

5-حق الانتماء الى الأحزاب السياسية و منظمات حقوق الإنسان و القيام بأي نشاط سياسي.

6-تملك وسائل الإعلام (الراديو – التلفزيون – الصحف – المجلات) و وسائل التأثير في الرأي العام او العمل فيها بأية صفة كانت.

7-المشاركة في أي التزام مع الدوائر الحكومية و مؤسساتها و الشركات العامة و المختلطة بصورة مباشرة او غير مباشرة.

8-العمل في الوسط الجامعي أية صفة كانت.

المادة الثانية:

يعتبر من اعوان النظام الدكتاتوري البائد لأغراض تطبيق احكام هذا القانون:

اولاً: في المجال الحكومي من:

1-شغل منصباً في مجلس قيادة الثورة و الدوائر و المكاتب التابعة له.

2-شغل منصب وزير او درجته.

3-شغل درجة خاصة في وظيفة ذات صبغة سياسية او كان منحه الدرجة المذكورة لإعتبارات سياسية او امنية.

4-عمل في الأجهزة الأمنية القمعية المخابرات – الأمن الخاص- الاستخبارات العسكرية – الأمن العامة أو المفارز الخاصة للأجهزة المذكورة و مستشار افواج الدفاع الوطني.

5-عمل استاذاً جامعياً او معيداً او مدرساً و ارتبط بإحدى الأجهزة الأمنية.

ثانياً: في مجال احزاب السلطة من:

1-شغل منصب عضو في القيادة القطرية او عمل في احدى مكاتبها.

2-شغل مركز عضو في قيادة فرع او شعبة او فرقة.

3-كل عضو في الحزب او منتم له ثبت عليه اضطهاده للمواطنين او ترويعهم او الوشاية بهم او ارهابهم و تسبب بتصرفه اعتقال او تعذيب او قتل احدهم.

4-انتمى الى تشكيلات فدائيي صدام.

5-عمل بصفة كادر قيادي في الاحزاب الكارتونية المناصرة لحزب السلطة (حزب البعث العربي الاشتراكي المنحل).

6-تثبت ادارته او انتماؤه لحزب السلطة في اقليم كوردستان او استمرار نشاطه بعد انتفاضة آذار 1991 المجيدة.

7-تثبت عضويته او اشتراكه في فرق الإعدامات.

8-كان عضوا في المجلس الوطني العراقي او المجلسين التشريعي و التنفيذي في كوردستان العراق.

9-عمل في السلك الدبلوماسي العراقي.

المادة الثالثة:

لا يجوز اسقاط الحق العام او الحق الخاص بتشريع او قرار لاحق عن كل مشمول بهذا القانون نتج عن تصرفه ازهاق روح انسان او سجنه او تعذيبه.

المادة الرابعة:

يعاقب المخالف لاحكام هذا القانون بالحبس مدة لاتقل عن ثلاث سنوات.

المادة الخامسة:

لا يعمل باي نص يتعارض و احكام هذا القانون.

المادة السادسة:

على الوزارات و الجهات ذات العلاقة تنفيذ احكام هذا القانون.

المادة السابعة:

ينفذ هذا القانون اعتباراً من تاريخ نشره في جريدة وقائع كوردستان.

د. رؤژ نورى شاويس

رئيس المجلس الوطني لكوردستان - العراق

بيان اعلان
الاتحاد الفيدرالي

عندما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها, تطلعت الامة الكوردية كسائر الامم الرازحة تحت الحكم العثماني, الى اقامة كيان خاص بها تكون ضمنه سيد نفسها. و لكن شاءت المصالح المتعددة الجوانب للقوى المنتصرة في تلك الحرب المالكة لمفاتيح الحل و الربط, لا ان تحرم هذه الامة العريقة من حقها المشروع في الاستقلال فحسب, بل انها قسمت بين خمسة كيانات مجاورة رغم احتجاجات و ثورات هذه الامة المظلومة, و رغم اعتراف المادتين 62 و 64 من القسم الرابع من معاهدة سيفر (Sevre) المعقودة في 10/آب/1920, بحق الامة الكوردية في حكم ذاتي يتحول خلال سنة الى استقلال تام لدولة كوردية تضم جميع اجزاء كوردستان بضمنها كوردستان الجنوبية التي عرفت فيما بعد, و بعد تأسيس الدولة العراقية بكوردستان العراق, ان شاء سكانها الانضمام الى تلك الدولة المستقلة. الا ان تلك الآمال اجهضت في معاهدة لوزان المنعقدة بتأريخ 24/حزيران/1923 ثم الحقت ولاية الموصل بالعراق في 16/كانون الاول/1925 (الجلسة 37), بالرغم من ان اللجنة المشكلة من قبل عصبة الامم كانت قد اقرت في (ص 57) من تقريرها بأن "حقائق الوضع السكاني تقود الى الاعتراف بانشاء دولة كوردية مستقلة لأن الكورد يشكلون خمسة اثمان (8/5) السكان" و اكتفت عصبة الامم باشتراك تمتع الكورد بحقهم في الادارة و العدالة و المؤسسات اللغوية.

هكذا و رغم ثورة الشعب في كوردستان الجنوبية بقيادة الشيخ محمود الخالد و اعترفت الحكومة البريطانية بها حكمداراً "للمرة الاولى في سنة/1919 و للمرة الثانية في سنة/1922 فان هذا الجزء من كوردستان قد الحق قسرا و بالضد من ارادة سكانه بالدولة العراقية حديثة التكوين. و قد حاولت حكومة صاحب الجلالة البريطانية طمأنة الشعب الكوردي عندما قدمت مع الحكومة العراقية – و هي تحت الانتداب البريطاني – وعداً تضمنه تصريحهما الرسمي المشترك الذي يعترف بحق الذين يعيشون داخل حدود العراق في اقامة حكومة كوردية ضمن هذه الحدود, و تأمل الحكومتان ان العناصر الكوردية على اختلافها ستتوصل.. الى اتفاق فيما بينها حول الشكل الذي ترغب ان تقوم تلك الحكومة و حول الحدود التي ترغب ان تمتد اليها و ان يرسلوا موفدين ذوي صلاحيات الى بغداد للتداول في العلاقات الاقتصادية و السياسية مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية و الحكومة العراقية. و لكن هذه الوعود بقيت حبراً على ورق.

و عندما قبل انضمام العراق الى عصبة الامم في 1932/10/3 علق ذلك القبول على شرط تقيد العراق بالتزامات وضعتها عصبة الامم, تلك هي الالتزامات ذات الاهتمام الدولي الواردة في البنود الستة عشر لتصريح الحكومة العراقية الصادر في 30/مايس/1932, و من تلك الشروط وجوب احترام العراق الحقوق الانسانية و الثقافية و الادارية للكورد و الاقليات القاطنين في الولاية: الموصل, اربيل, كركوك و السليمانية. و هذا التصريح مازال ساري المفعول اذ نقلت حقوق و التزامات عصبة الامم الناشئة عن المعاهدات و الانتدابات و التصاريح بعد حل تلك العصبة الى هيئة الامم المتحدة و ذلك بموجب القرار الاخير لمجلس عصبة الامم في 18 نيسان/ 1946, و قضت المادة (16) من ذلك التصريح بوجوب تقيد العراق ببنوده و عدم مخالفتها بموجب اى قانون داخلي و عدم جواز تعديلها الا بموجب اتفاق بين العراق و مجلس عصبة الامم و باكثرية الاصوات, كما تخضع المنازعات حول تفسير بنود التصريح الى حكم محكمة العدل الدولية الدائمة.

و هكذا فان استقلال العراق و وحدة اراضيه مرهونان باحترام العراق لبنود ذلك التصريح. و لكن الحكومات العراقية المتعاقبة خرقت بشكل صارخ تلك الالتزامات و ثبت ذلك الخرق بقرار مجلس الامن الدولي رقم 688 في 1991/4/5 و بقرار لجنة حقوق الانسان التابع للامم المتحدة (المجلس الاقتصادي و الاجتماعي) في الدورة (48) رقم القرار 71/1992 في 5/اذار/1992 ان تأريخ شعبنا الكوردي في العراق حافل بالانتفاضات و الثورات, ففي 11/ايلول/1961 امتشق هذا الشعب بقيادة الزعيم الخالد مصطفى البارزاني سلاحه مرة اخرى بعد ان نكثت حكومة عبد الكريم قاسم بوعودها و اخلت بالمادة الثالثة من الدستور المؤقت الصادر بعد ثورة 14/تموز/1958 و التي اعتبرت العرب و الكورد شركاء في الوطن العراقي. فكانت ثورة قومية جسدت مطاليب شعبنا و تطلعاته المشروعة متوجه ذلك باتفاقية 11/آذار/1970 التاريخية و اقرار الحكم الذاتي للشعب الكردي و تثبيته في الدستور المؤقت و ان لم تلتزم الحكومة العراقية بتنفيذ بنودها بما ينسجم و مطامح شعبنا و روح تلك الاتفاقية و بالرغم من الانتكاسة المؤقتة في عام/1975 على اثر مؤامرة دولية ادت الى توقيع اتفاقية الجزائر, باع فيها صدام حسين جزءاً من ارض العراق لقاء قمع الثورة الكوردية, فإن شعبنا الابي سرعان ما استأنف ثورته و واصل نضاله ليثبت للعالم اجمع انه شعب ابي لا يقهر.

لقد نص ميثاق الامم المتحدة على عدم جواز حرمان من التمتع بالحقوق الاساسية للانسان و بكرامة الفرد و قدره و بما للرجال و النساء و الامم كبيرها و صغيرها من حقوق متساوية – ديباجة الميثاق (الغايات) – كما نصت الفقرة الـ(2) من الفصل الاول على اقامة العلاقات الودية بين الامم على اساس احترام المبدأ الذي يقضي بالمساواة في الحقوق بين الشعوب و بأن يكون لكل منها حق

تقرير مصيرها. و تأكد حق الشعوب في تقرير مصيرها بشكل اوضح في الفقرة الاولى من المادة الاولى من العهدين الدوليين الخاصين "بالحقوق الاقتصادية و الثقافية و الاجتماعية" و "بالحقوق المدنية و السياسية" الصادرين عن الجمعية العامة للامم المتحدة في عام 1966 و اللذين انضم اليهما العراق في 1971/1/25, حيث اكدا "حق جميع الشعوب في تقرير مصيرها و حرية تقرير مركزها السياسي" و حين حددت المادة الثانية من ميثاق الامم المتحدة المبادئ التي تعمل هذه الهيئة وفقها لتحقيق غاياتها جعلت تمتع اعضاء هيئة الامم المتحدة بالحقوق و الامتيازات – و منها طبعاً احترام السيادة و وحدة الاراضي – المترتبة لها بموجب الميثاق, مرهوناً بوفاء الاعضاء بالالتزامات المترتبة عليهم وفق ذلك الميثاق.

ولو استعرضنا سلوك الحكومات العراقية المتعاقبة منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921 و حتى الآن تجاه الشعب الكردي لوجدنا ان ابرز سمة لذلك السلوك هو القمع و الاضطهاد و التشريد و الحرمان من ابسط الحقوق الانسانية و الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية بل حتى الحق في الحياة ناهيك عن الحرمان من الحقوق السياسية و لقد حصل ذلك بوتيرة – تصاعدت بشكل منتظم بحيث شمل الدمار الزرع و الضرع و الطبيعة و الحيوانات اضافة للبشر, و توجت الحكومة العراقية اعمالها الاجرامية بابشع حملة ابادة لم تشهد البشرية عبر تاريخها الطويل لها مثيلاً من ذلك.

1)القاء القبض في ليلة ظلماء على اكثر من ثمانية آلاف بريء من البارزانيين في سنة 1983 لا يعرف لهم مصير حتى الآن.

2)ابعاد اكثر من ثلاثمئة الف من الكرد الفيليين الى خارج العراق خلال سنة1970/1971 و من ثم القاء القبض على اكثر من سبعة آلاف و خمسمئة من شبابهم لم يعثر لهم على اثر حتى الآن.

3)ابادة اكثر من خمسة آلاف امرأة و طفل و شيخ بريء بالاسلحة الكيمياوية و الغازات السامة في مدينة حلبجة الشهيدة يوم 1988/3/16 و اعداد اخرى في باليسان و بهدينان و گرميان و غيرها من مناطق كوردستان.

4) حملة همجية تجاوزت كل الارقام القياسية في الظلم و التعسف و الوحشية فيما سميت بعمليات الانفال السيئة الصيت راح ضحيتها اكثر من مئة و ثمانين الف بريء كانوا ضحايا التعذيب و التجويع و الاغتصاب و الدفن الجماعي للاحياء.

5) تدمير اكثر من 4500 قرية تمثل اكثر من 90٪ من ريف كوردستان هذا و لم ينج من القمع و الابادة ابناء الاقليات العرقية كالتركمان و الآشوريين و غيرهم و هي جرائم حرب او جرائم ضد الانسانية وفقاً لقواعد القانون الدولي. و على اية حال فان حكومات العالم الصامتة لزمن طويل تجاه تلك الجرائم البشعة لم تستطع ان تكبت صيحة شعوبها و تمنع تعاطفها و هي ترى على شاشات التلفزيون مأساة الهجرة الجماعية القياسية في عددها و في اهوالها ايضاً اثر نكوص انتفاضته

المجيدة في ربيع عام/1991 و هكذا قال العالم و للمرة الاولى بعد معاهدة سيفر كلمة عدل ثانية بحق الكورد حينما صدر القرار الرقم 688 لمجلس الامن الذي ادان بصريح العبارة قمع الكورد و ما اعقبته من اقامة منطقة آمنة في جزء من كوردستان العراق و التعهد بحماية الكورد ضد اعتداءات النظام العراقي.

لقد كان شعبنا يعبر عن حسن نيته وصفاء سريرته في قبوله لكل بادرة حل سلمي لمشكلته, رغماً عن الآلام و المآسي و حملات الابادة التي تعرض لها فمفاوضات. /1963 و بيان 29/حزيران/1966 و مفاوضات 1984 و العديد من المبادرات و المحاولات التي بذلت للتوصل الى حل سلمي مع النظام, و لكن حسن نية شعبنا كان تقابل في كل الاحوال بالغدر و الخيانة و التنصل من الاتفاقات الموقعة من جانب الانظمة العراقية المختلفة, و آخر تجربة في هذا الصدد كانت مفاوضات عام/1991 حيث ان النظام العراقي تنصل من وعوده التي رافقت بداية المفاوضات ثم سحبت الادارات الحكومية و فرضت حصاراً اقتصادياً على كوردستان مما اضطر شعبنا الى اجراء انتخابات نيابية حرة بقرار من الجبهة الكوردستانية لسلطة الامر الواقع (defacto) آنذاك, فتمت تلك الانتخابات بصورة رائعة يوم 1992/5/19 انتخب فيها شعبنا في المناطق المحررة من كوردستان ممثليه بحرية تامة في المجلس الوطني الكوردستاني, ثم شكلت اول حكومة لاقليم كوردستان حازت على ثقة المجلس المذكور, لملء الفراغ الاداري في الاقليم في 1992/7/5 لقد نص القانون الرقم (1) لسنة/1992 (قانون المجلس الوطني لكوردستان العراق) في الفقرة الـ(2) من المادة (56) من مهام المجلس ((... البت في المسائل المصيرية لشعب كوردستان العراق و تحديد العلاقة القانونية مع السلطة المركزية و لصيانة الوحدة الوطنية للعراق و تعزيزها و حفاظاً لعلاقات الاخاء التاريخي بين الشعبين الشقيقين العربي و الكوردي و لضمان ديمومتها و ترسيخ صرحها. و انسجاماً مع القرار الذي اجمعت عليه المعارضة العراقية في فينا و كوردستان العراق و اكد فيه المبدأ القانوني الذي يقر للشعب الكردى حقه في تقرير مصيره ضمن المصالح المشتركة للشعبين الشقيقين العربي و الكردي و الحقوق القومية و الثقافية و الادارية للتركمان و الآشوريين و ضمان مساواتهم في الحقوق و الواجبات و اقرار ذلك دستورياً.

فها هو المجلس الوطني لكوردستان العراق يمارس نيابة عن شعب كوردستان العراق مهمته في هذا الصدد, و حقه الثابت وفقاً للعهود و المواثيق الدولية المشار اليها, في تقرير المصير, معلناً انه قرر بالاجماع تقرير مصيره و تحديد علاقته القانونية مع السلطة المركزية, في هذه المرحلة من تأريخه, على اساس الاتحاد الفيدرالي ضمن عراق ديمقراطي برلماني يؤمن بنظام تعدد الاحزاب و يحترم حقوق الانسان المعترف بها في العهود و المواثيق الدولية.

دار سردم للطباعة والنشر

*تأسست دار سردم للطباعة والنشر في اواخر عام 1998 كضرورة مدنية وحضارية وكخطوة لسد الفراغ الهائل الذي تعاني منه المكتبة الكردية. (وكلمة سردم حرفياً تعني "العصر").

*تهتم هذه الدار بجميع المجالات الثقافية، كما تهتم اهتماماً خاصا بحركة الترجمة من اللغات الأجنبية الى اللغة الكردية وذلك بتشجيع الكتاب والمترجمين وطبع نتاجاتهم طباعة راقية وتوفير المراجع والمصادر امام القراء والباحثين والطلاب الكرد.

*تأسست هذه الدار حسب القرار (98) الصادر في 1998/10/25 من قبل رئاسة مجلس وزراء حكومة اقليم كردستان، وبدأت بأعمالها بشكل فعلي مع بداية العام 1999.

*يديرها مجلس إداري يتكون من خمسة اعضاء ويترأسها الشاعر الكردي المعروف (شيركو بيكهس) والسادة اعضاء المجلس هم الأدباء:

1-رؤوف بيگرد- قاص
2-دلشاد عبدالله- شاعر
3-اكرم قرداغي- كاتب
4-آزاد برزنجى- كاتب ومترجم
5-هلكوت عبدالله- كاتب ومترجم

اصدارات دار سردم:

1-سلسلة كتب دار سردم للطباعة والنشر:

أ-سلسلة كتاب سردم:

هذه السلسلة تهتم بطبع الكتب المختارة في المجالات الثقافية المختلفة: الفلسفة، الفكر، التأريخ، العلوم، الآداب، الفنون والحقول الثقافية الأخرى.

ب-كتاب الجيب:

هذه السلسلة التي هي بدورها جزء من مشروع كتب دار سردم تصدر في حجم صغير وبلغة اسهل بهدف مخاطبة اكبر شريحة من القراء. وتعنى بتعريف اعلام الفكر والأدب والعلم، وكذلك الاتجاهات الفكرية والفلسفية والثقافية. السلسلة هذه نصف شهرية ويشرف عليها (آزاد برزنجي).

2-مجلة سردم:

تعنى مجلة سردم بالترجمة والثقافة الأجنبية، تصدر كل شهرين مرة، صاحب امتيازها (شيركو

بيكـەس)، رئـيس تحريرهـا (رؤوف بيگـرد) ومـدير تحريرها (هلكوت عبدالله).

3-مجلة آينده:

مجلة أدبية وفنية شهرية، تعنى بنتاجات الكتاب والأدبـاء الكـرد. صـاحب امتيازهـا (حسـين عـارف) ورئيس تحريرها (دلشاد عبدالله).

4-روڤار:

مطبوع يصدر كل شـهرين مـرة، كـل عـدد منـه خاص بمبدع كردي او مبدع يهتم بالثقافة الكردية، يشرف على إصدره (دلشاد عبدالله).

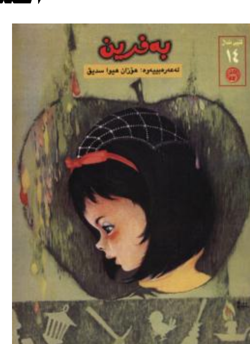
5-زانستى سردم (علوم العصر):

وهي مجلة علمية فصلية تهتم بالعلوم والبحوث العلميــة المختلفــة. صـاحب امتيازهـا (كمـال جـلال غريب) ورئيس تحريرها (اكرم قرداغي).

6-سلسلة كتاب الطفل:

هذه السلسـلة تهـتم بطبـع الكتـب الخاصـة بالأطفـال مـن قصـص ومسـرحيات وكتـب تعليميـة، وذلـك في صفحات ملونة جذابة. السلسلة هذه شهرية؛ يشـرف عليها (هلكوت عبدالله).

اصدارات دار سردم- سلسلة كتاب الطفل



بەفرين



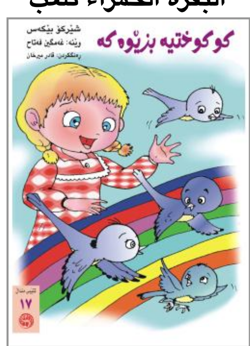
البقرة الحمراء تلعب



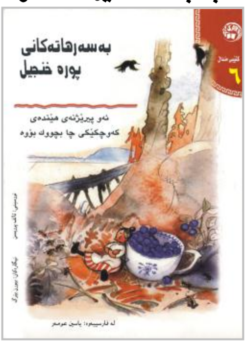
الدجاجة الصغيرة الحمراء



الفتاة الصغيرة



اليمامة المشاكسة



السيدة الملعقة الصغيرة

Vol,1. Autumn 2003

SARDAM AL-ARABI

A quarterly Cultural magazine in Arabic issued by
Sardam Printing & Publishing House

Sardam Print… …blishing House
ww… net

Kurd… imany